أمــــــل

التاريخ . الثقافة . المجتمع

العدد 27 ○ السنة التاسعة ○ 2002

تصدر ثلاث مرات في السنة

ص . ب 14910
البريد المركزي البيضاء
الهاتف - فاكس:
022 -50-61-46
maarouf_dafali@yahoo.fr

ملف الصحافة :8 ص85
ردمد 7967-1113
الايداع القانوني : 48 -92

- السحب: مطبعة النجاح الجديدة 2003
- التوزيع : سابـــريـــس

تم طبع هذا العدد بدعم
من وزارة الثقافة

الأستاذ العميد محمد حجي في ذمة الله

يوم الخميس 30 يناير 2003، انتقل إلى عفو الله، الأستاذ العميد، الدكتور محمد حجي ووري جثمانه الثرى يوم الجمعة، بمقبرة الأسرة (الزاوية الحجية) بسلا. وبهذا المصاب فقدت الجامعة المغربية عامة، وقسم التاريخ خاصة، أحد أعمدتها الكبرى، فقد كان الأستاذ محمد حجي رحمه الله يجمع بين الأستاذية، والبحث والتأطير، إضافة إلى الخصال الحميدة "خصال العلماء" التي يعرفه بها الجميع. أسس "مدرسة البحث" في تاريخ المغرب الحديث وأغنى انطلاقتها بمؤلفاته، وتحقيقاته، وتوجيه كم مهم من الباحثين للاهتمام بالمرحلة. وأسس "الجمعية المغربية للدراسات والتأليف والترجمة والنشر" التي اعتبرها، مثل "تحقيق المخطوطات" ضرورة من ضرورات الجامعة، وركز أهدافها في تشجيع النشر على المستوى الجامعي، والتعريف بالانتاج المغربي بواسطة مجلة "الكتاب المغربي" وفي التعريف بالمغرب ماضيا وحاضرا، وضمن هذا المحور الثالث تبلور المشروع المتميز ذو الأهمية القصوى وهو إصدار "معلمة المغرب" التي وصل ما صدر منها لحد الآن ستة عشر مجلدا، وكان رحمه الله يجهد نفسه لإعداد وإصدار المجلدات الأربعة الباقية...

لقد كان المرحوم من العاطفين والمتعاطفين مع مجلة "أمل" يسأل باستمرار عن مسارها، مقدرا – وهو الخبير بالميدان – ما يحتاجه العمل من جهد وصبر. وتقديرا لمجهوداته وتعريفا بها، أجرينا معه حوارا، نشر سنة 1992 بالعدد الثاني من المجلة.

رحم الله الأستاذ محمد حجي، رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، وألهم ذويه، وأسرته الصغيرة، والكبيرة، الصبر والسلوان.

وإنا لله وإنا إليه راجعون

محتوى العدد

تـــقــــديــــم

يعتبر البحث في التاريخ القديم من التخصصات التي مـــا فتئـت تسـتقطب المزيد من الاهتمام. فمنذ أواخر الثمانينات من القرن العشـــرين بـــدأت الدراســـات المغربية في هذا التخصص تزداد بشكل ملفت للنظر ولكنها عبارة عـــن مقـــالات وأبحاث لنيل شهادات جامعية من الجامعة المغربية أو من جامعات أجنبية.

إن تركيز الإشارة على أواخر الثمانينات لا يعني ســـوى ضبــط البدايــات المباشرة للموضوع كمسألة جديدة في تاريخ المغرب والمغاربة أنفسهم. بمعنى آخــر أن هذا التجديد لن ينسينا المبادرات المغربية السابقة والجريئة كما أنه لن يمنعنـــا من الرجوع للحقب والفترات السابقة قصد التقصــــي لأن فـــي ضبــط التحــولات استشراف المستقبل.

من هنا جاء التفكير في ضرورة تنظيم يوم دراسي حول التاريخ القديم مـــن طرف الجمعية المغربية للبحث التاريخي. وليس غريبا أن تتولى الجمعيـــة الأمــر وتتحمل المسؤولية في التأطير والتنظيم وهي التي راكمت من قبل ملفات هامة حول قضايا تاريخية مختلفة، ومنها الملف حول "ثلاثون سنة من البحث التاريخي" الـــذي نظمته سنة 1989، والذي لم يشر فيه للتاريخ القديم إلا لماما.

توخت الجمعية من خلال هذا اليوم ضبط الحصيلة ورصد الآفـــاق وجـــاء الملف الجديد كتكملة وتعميق للمرحلة القديمة التي لم تكن حينها قد شغلت إلا حـــيزا

ضيقا من الملف السالف الذكر، بل شكل طفرة نوعية من حيث نوعيـــة العـــروض، وعدد المشاركين.

أجل، كانت استجابة الباحثين للدعوة أشبه بالإجماع. لقد التقى يوم 18 مـــاي 2001 ثلة من الأساتذة الكرام ذوي اختصاصات علمية مختلفة وينتمون إلـــى عـــدة جامعات ومعاهد قاسمهم المشترك هو الاهتمام بالتاريخ القديم. ولليوم دلالاته عنـــد الأثري فهو اليوم العالمي للمتاحف.

غطت المداخلات المرحلة الممتدة من العصور القديمة إلى العصر الوندالـــي المتأخر مع الاعتماد في الجرد على المصدرين معا الأدبي والأثري، بل تم التركـــيز على الآثار بشكل أكبر مما شكل حصيلة جادة وجديدة أقل ما يقال عنها أنها بمثابـــة مفتاح لأبحاث مستقبلية حول إحدى الإشكاليات التي طرحت إذ أن كل مقال يســـتحق في الحقيقة أن يكون موضوع ندوة.

بالفعل، إن مواضيع اليوم الدراسي هي مواضيع متشعبة وفسيفسائية فبقـــدر ما نريد أن نتذكر، نريد أن نفهم قضايا ومشاكل التخصص على عدة مستويات وفـــي مجالات مختلفة. من هنا وزعت المداخلات عبر جلستين:

ـ جلسة أولى خصصت لتدارس إشكالية البحث في التاريخ القديم: قضاياه وآفاقه.

ـ جلسة ثانية همت الحفريات والإنتاج في التاريخ القديم.

وباستعراض المداخلات يتضح جدوى هذا اللقاء، فالدعوة لتحديد المفـــاهيم تكررت من خلال أكثر من مداخلة، ورصد نشأة وتطور البحث التاريخي الخـــاص بالقديم ظهر كأمر ملح، والكتاب المدرسي: مجالاتـــه وحـــدوده ينعكـــس بالســـلب والإيجاب على مستوى التلقي في رحاب الجامعـــة، الرغبـــة فـــي التعـــاون بيـــن المتخصصين بغض النظر عن جنسياتهم لها ما يبررها في عصر القرية العالميـــة. وإعادة الاعتبار لمنطقة كفحص طنجة ولشعب كالشعب الموري يعطي للبلد بكاملـــه الحق في الاهتمام بهويته ثم بإسهاماته في الحلقة التاريخية.

ثم إن تدبير موقع كوليلي هو أساس التنمية المندمجة والمتكاملة.

هذا ولم تغفل بعض المداخلات التنبيه لخطر البحـــث الأثـــري كســيف ذو حدين فقد استغلته الحماية من قبل لتمرير خطابات إيديولوجية بات من الضــــروري تجاوزها. ولن يتأتى ذلك إلا عبر الاهتمام بأداة العمل...

لن يجدي الأمر نفعا حصر الجهود في إطار ومجالات ضيقــــة . فالرغبــة أكيدة لتوسيع آفاق البحث. قبل ذلك لنتدارك أمر غياب الكتابة التاريخيـــــة الشــاملة الخاصة بالعصور القديمة ما دام البحث الأثري المتعلق بـــالمغرب القديــم أصبــح متطورا بالقدر الذي سمح بعقد مثل هذا اليوم الذي إن لم نقل فيه كل شيء فلأن كـلى مداخلة تستحق أن تكون موضوع ندوة قائمة الذات.

فهنيئا لنا كمهتمين بتاريخ وآثار المغرب القديـــــم بـــهذا المكســـب الجديــد فالاهتمام بهذه المرحلة هي التفاتة ذكية من شأنها أن تعيد التــــوازن إلـــى الكتابــة التاريخية التي عانت منذ وقت طويل من القصور وإجحاف الماضي الــــذي بـــات فهمه أساسيا لفهم الحاضر واستشراف المستقبل.

منسقا الندوة : البيضاوية بلكامل

و عبد العزيز بل الفايدة

ملف العدد

واقع البحث التاريخي والأثري حول المغرب القديم

أبحاث قدمت في يوم دراسي من تنظيم الجمعية المغربية للبحث التاريخي

البحث التاريخي المغربي الحديث العهود القديمة

أحمد سراج•

إن الحديث عن البحث التاريخي المغربي المرتبط بالعهود القديمة خلال النصف الثاني من القرن الذي نودعه يستلزم بالضرورة استعراض الأشواط التي قطعها هذا الجانب من النشاط العلمي وتحديد السمات الأساسية التي ميزت نشأته وتطوره خلال القرن العشرين. إن مشروعية ذلك تبررها صعوبة تناول الموضوع وذلك في غياب دراسة بيبليوغرافية شاملة [1] عن حصيلة البحوث في العهود المغربية القديمة. وقبل ذلك، نرى أنه من المفيد تحديد بعض المفاهيم التي بإمكانها إزاحة ما قد يشوب الموضوع من غموض:

ماذا نقصد بـ **البحث التاريخي**؟ هل يتعلق الأمر بالبحث الذي يعتمد المصادر المكتوبة فقط أم ذلك الذي يدرج ضمن مواده العناصر المادية التي تسفر عنها البحوث الأثرية؟ إن البحث في تاريخ العهود القديمة لم يخلف لنا مادة أدبية

• – أستاذ باحث بكلية الآداب المحمدية

كافية لفهم تطورها التاريخي. فأشكال التعبير الإنساني كانت تتخذ أشكالاً مختلفاً لدى الإنسان القديم، وهي الأشكال التي يجب أن يعتمدها كل بحث تاريخي. لذلك اعتبر فريق من المؤرخين أن معطيات علم الآثار والدراسات اللصيقة به هي مرتبطة أشد الارتباط بالتاريخ القديم. ولذلك أيضاً اعتبر مؤرخو الفترات القديمة علم الآثار علماً مساعداً للتاريخ رغم بعض الآراء التي ترى فيه علماً مستقلاً بذاته. وبالنسبة لموضوعنا لا يمكن أن نقدم حصيلة البحث في تاريخ العهود القديمة بالمغرب دون إدراج حصيلة البحوث الأثرية التي ارتبطت نشأتها وتطورها بدراسة عهود ما قبل الإسلام.

ماذا نقصد بالبحث التاريخي **المغربي**؟ هل يتعلق الأمر بالبحوث التي أنجزها باحثون مغاربة، أم بالبحوث التي تعلقت بالمغرب سواء كان أصحابها مغاربة أم أجانب؟ الواقع أن البحث في تاريخ العهود القديمة بالمغرب ظل إلى عهد قريب حكراً على مختصين أجانب كما هو الشأن في باقي دول المغرب العربي. وإذا كان النصف الثاني من القرن العشرين قد تميز بطرق الباحثين المغاربة لهذا الميدان فإن عدداً من البحوث والدراسات التي أجريت قد تولاها باحثون أجانب.لذلك فإننا عمدنا إلى عدم أخذ جنسيات الباحثين بعين الاعتبار بقدر ما اعتمدنا على إبراز حصيلة البحوث المنجزة. ما يبرر ذلك هو أنه منذ نهاية السبعينيات، جل الفرق التي اشتغلت في إطار مشاريع بحوث هي فرق مشتركة (مغربية أجنبية)، وأنه قبل هذا التاريخ بقليل خضع البحث الأثري في العهود القديمة لتوجيه صارم من قبل مغاربة كانوا على رأس المصالح المختصة في هيأة الآثار.

ما المقصود بالبحث المغربي **الحديث**؟

ذلك أن كلمة الحديث لا تستقي مدلولها لذاتها وإنما من الشحنة الزمنية التي نضمنها إياها. فكان لابد من اختيار معيار للفترة الزمنية التي نود أن نكرس لها

الحصيلة التي نحن بصددها. وقد توقف اختيارنا على 1956، سنة حصول المغرب على استقلاله، كبداية للحصيلة التي نحن بصددها.

وأخيرا، ما نقصد **بالعقود القديمة؟**

يتعلق الأمر بمصطلح لا يحمل تدقيقا كرونولوجيا محددا، فكل عهد هو قديم بالنسبة لعهد آخر أحدث منه زمنيا. غير أن المصطلح يجد أصوله في التقسيم الذي كرسته المدرسة الاستعمارية لتاريخ شمال إفريقيا انطلاقا من إسقاط التقسيم الذي تم تبنيه لتاريخ الغرب: فترة قديمة Antiquité، وعصر وسيط، وعصر حديث، وفترة معاصرة. وكانت الحدود الكرونولوجية التي فرضت على هذا التقسيم تقارب الحدود الكرونولوجية للتقسيم الأوروبي. وهكذا اختزلت العهود القديمة بالمغرب في الفترة السابقة لدخول الإسلام أي من الفترة الفينيقية إلى الفتح الإسلامي. ورغم ما يحمله هذا التحقيب من خلفيات، فإنه ظل طاغيا على بنية التخصصات والكتابات التاريخية بالمغرب إلى الآن رغم بعض الأصوات التي تعالت مؤخرا مطالبة بإعادة النظر فيه. ودون الدخول في نقاش قد يشغلنا عن المقصود من هذه المداخلة، ننبه فقط إلى أن المضمون الكرونولوجي الذي نحمله لمصطلح العهود القديمة ينطبق على المجال الزمني الممتد من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن السابع بعد الميلاد.

أصول وخلفيات

تعود بداية الاهتمام بالفترة القديمة من تاريخ المغرب إلى القرنين السابع والثامن عشر مع وصول بعض الرحالة والمستكشفين بل وحتى بعض السفارات والأسرى الغربيين إلى البلاد. فوجود بعض الآثار الرومانية البينة في شمال المغرب كان يدعوهم إلى استحضار إمبراطورية روما وتاريخها التليد ومحاولة البحث عن أسرارها في ذلك القطر الذي شكل في مرحلة من مراحل تاريخه إحدى ولايات هذه الإمبراطورية. ولقد ازداد هذا الاهتمام خلال القرن التاسع عشر مع ازدياد أعداد هؤلاء الرحالة طبعا، ولكن بالخصوص مع ازدياد الأطماع

الاستعمارية الأوروبية في الشمال الإفريقي خاصة بعد سنة 1830، سنة احتلال الجزائر من طرف فرنسا، والتي تشكل بداية المد الاستعماري الفعلي في المنطقة.

لذلك كانت أصول البحوث التاريخية حول المغرب القديم مرتبطة أشد الارتباط بالبنى الثقافية التي واكبت الحركة الاستعمارية بل وهيأت لها المجال باعتبارها وسيلة إيديولوجية تسعى إلى استحضار الماضي الروماني الذي وجد فيه المستعمر مرجعيته السياسية والعسكرية والثقافية.

يعتبر شارل تيسو بحق أول من قدم مقاربة لتاريخ المغرب القديم وآثاره خصوصا منه الفترة الرومانية ــ باستخدام المصادر الإغريقية واللاتينية وباللجوء إلى مراجعة المواقع الأثرية. لقد عين هذا الدبلوماسي وزيرا مفوضا بطنجة خلال الفترة الممتدة بين 1871 و1876. وكان ضليعا باللغة الإغريقية واللاتينية، وبتاريخ إمبراطورية روما. ولقد استغل سنوات وجوده بالمغرب للقيام ببحوث دقيقة أسفرت عن كتاب بعنوان: "بحوث حول الجغرافيا المقارنة لموريطانيا الطنجية" الذي نشره المعهد الفرنسي سنة 1878 (2). لقد ظل هذا البحث على الرغم من عمره المتقادم، مرجعا أساسيا يستعمله كل المهتمين بتاريخ المغرب القديم، بل إنه شكل محطة جوهرية في التطور الذي سيعرفه البحث حول تاريخ هذه الفترة مستقبلا.

أ ــ الحماية والاهتمام بالبحث في الفترة الرومانية

ومباشرة بعد تيسو، في وقت كان فيه المغرب يقترب أكثر فأكثر من دائرة الاستعمار الفرنسي، لوحظ اهتمام رائد بالبحث في تاريخ وآثار المغرب القديم من طرف السلطات الفرنسية. لنشر على سبيل المثال إلى أن وزارة التعليم العمومي هي التي كلفت هنري دولامارتينيير بمهام أثرية بالمغرب في بداية القرن نشرت تقاريرها في مجلة الأعمال التاريخية والعلمية(3). لنلاحظ أيضا أن سنة 1904 التي تطابق احتلال الجنرال ليوطي لعين بني مطهر بالمغرب الشرقي والتي تطابق أيضا توقيع اتفاقية فرنسا مع إنجلترا تقضي بتخلي فرنسا عن أطماعها بمصر مقابل تخلي إنجلترا لها عن المغرب، هي أيضا سنة صدور أول عدد من مجلة "وثائق مغربية"

(4) والذي خصص لجغرافية المغرب في العهود القديمة(5). تزامن هذه الوقائع كلها لا يمكن أن يفسر بعامل الصدفة وحده. أضف إلى ذلك أن سنة 1912 التي وُقِّع فيها عقد الحماية هي أيضاً سنة نشر أول دراسة تمهيدية عن تاريخ المغرب في العهود القديمة (6).

وانطلاقاً من هذه الفترة أصبح تاريخ وآثار المغرب القديم ــ وخصوصاً تاريخ وآثار العهد الروماني ــ أحد أهم قطاعات البحث التي توليها الإقامة العامة عناية خاصة. ولاشك أن العديد من التقارير التي كانت تقوم بها المصالح العسكرية حول المواقع الأثرية القديمة(7) تدل على أن النهضة التي عرفها البحث في هذه العهود القديمة ظل مرتبطاً بالبنى الثقافية الهيكلية التي واكبت إقرار نظام الحماية بالمغرب. وقد عرفت السنوات الأولى للحماية إنشاء مصلحة خاصة(8) لمتابعة شؤون البحث في التاريخ والآثار القديمين، كما تم خلق مجلة خاصة تعنى بنشر نتائج البحوث في هذا الميدان(9). ونفس التطور عرفته مناطق الشمال التي كانت تخضع للاحتلال الإسباني. وتبعاً لذلك كله عرفت سنوات الحماية نشاطاً كبيراً في ميدان البحث في تاريخ هذه الفترة، حفرت خلاله العديد من المواقع الأثرية كوليلي وبناسا، وتاموسيدا، وليكسوس، وتمودا ... وأنشئت المتاحف التي تختزن اللقى والتحف الفنية.

ب ــ بعد الاستقلال

كان على المغرب بعد 1956 (سنة الحصول على الاستقلال) أن يقوم بجهاد أكبر من أجل التخلص من شوائب الاستعمار. وكان عليه بالطبع أن يهتم ضمن ما سيهتم به، إعادة هيكلة قطاع البحث فتم إنشاء جامعة محمد الخامس بالرباط أما على مستوى المؤسسات التي كانت تختص بالبحث في تاريخ وآثار المغرب القديم السالف ذكرها والتي خلفها الاستعمار، فيمكن ملاحظة تغييرين هيكليين انطلاقاً من:

ــ استبدال مصلحة الأقدميات المغربية بمصلحة الآثار المغربية (Service d'Archéologie Marocaine).

- خـلق النشرة الأثرية المغربية التـــي عوضـت منشـورات مصلحـة الأقدميات السابقة.

وإذا كان لهذين التغييرين مدلولهما العميق الذي يعكس الرغبة في تجـاوز البعد الإيديولوجي الذي كان لتاريخ الفترة والذي يجسد الرغبة في توسـيع دائـرة البحث الأثري لتشمل الفترة الإسلامية أيضا، فإن العقود الأولـى من الاستقلال عرفت استمرارية في أنماط البحث لا من حيث القضايا المطروحة ولا مـن حيث المناهج المتبعة بالإضافة إلى ان الباحثين ظلوا ينتمون إلـى نفـس الجنسـيات، أي البلدين المستعمرين. ومع ذلك بدأنا نلاحظ قلة قليلة من المغاربـة يتجـهون نحـو الاهتمام بهذا الميدان ويحاولون التخصص في تقنياته ومناهجه. ولقد سـاعد علـى ذلك إدماج مواد التاريخ القديم عموما وتاريخ المغرب القديم على الخصوص ضمـن برامج الجامعة المغربية التربوية في قسم التاريخ.

وفي منتصف الثمانينيات (1985) عرف البحث في العهود القديمة من تاريخ المغرب تحولا جديدا، مع التغيير الذي ستعرفه مصلحة الآثار، إذ سيتم التخلي عـن هذه الهيئة الإدارية التي كانت مهمتها تتلخص في تسيير شؤون البحث فـي المـآثر والمواقع الأثرية وتعويضها بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث الذي ظل تحـت وصاية وزارة الشؤون الثقافية والذي كان من بين أهدافه الرئيسية مغربـة قطـاع البحث الأثري وذلك بتكوين فرق بحث في مختلف التخصصات. فكان أن تم توزيـع التكوين على أقسام:

- ما قبل التاريخ.
- آثار ما قبل الإسلام.
- الآثار الإسلامية.
- التحافة.
- المباني التاريخية.
- الأنطروبولوجيا.

وقد ساهم في عملية التكوين عدد من الأطر الشابة من خريجي الجامعات الأجنبية وأيضاً أطر علمية وتربوية من مختلف الجامعات المغربية. وتمكن المعهد بذلك من تخريج عدد من الأفواج تجاوز عدد أفرادها اليوم 200 حامل لدبلوم المعهد جلهم موزعون على مختلف مصالح وزارة الشؤون الثقافية عبر تراب المملكة، وبعضهم تمكن من استكمال دراساته العليا في الجامعات الأوروربية أو الأمريكية. وكان فريق من هؤلاء الباحثين متخصصاً في دراسة العهود القديمة، وهو ما أدى إلى خلق العديد من برامج البحث الأثري وإعطاء نفس جديد للبحث حول تاريخ الفترات القديمة باعتبار ان تقدم هذا الأخير مرتبط أشد الارتباط بالمستجدات التي يمكن أن توفرها نتائج الحفريات. ومن نتائج ذلك كله أننا أصبحنا نرى اليوم إرهاصات أولى لما يمكن أن نسميه مدرسة مغربية في التاريخ القديم مع ما يعنيه ذلك من إعادة نظر في القضايا المطروحة وفي المناهج المتبعة. ولكي يتم ملء الفراغ الحاصل في التكوين العالي بالجامعة المغربية سعت بعض كليات الآداب إلى خلق وحدات للتكوين والبحث في تاريخ وآثار المغرب القديم تمنح الفرصة للراغبين في التخصص في هذا المجال عبر إعداد شهادة الدراسات المعمقة أو الدكتوراه كما هو الشأن بجامعة محمد الخامس بالرباط.

أهم القضايا المعالجة

التاريخ السياسي والعسكري لموريطانيا قبل وأثناء فترة الاحتلال الروماني:

لقد اهتم البحث التاريخي بالممالك البربرية خاصة منها مملكة يوبا الثاني الذي عرف المغرب في عهده ازدهاراً كبيراً. وقد انصب الاهتمام على دراسة الجوانب السياسية والحضارية في الممالك البربرية مع إعطاء الأولوية للبحث في نوعية العلاقات التي كانت تجمعها بقرطاج وخاصة بروما التي أخذت تفرض هيمنتها على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

كان التاريخ السياسي والعسكري لموريطانيا الطنجية من أهم المحاور التي حظيت وما زالت تحظى باهتمام البحث التاريخي. لقد تركز هذا الأخير بصفة

خاصة على تحديد المجال الترابي الذي خضع للإدارة الرومانيـــة فـــي المغـــرب، وخاصة حول "الليميس" (الحدود) بين تراب الولاية الخاضعـــة لـــلإدارة المباشـــرة لروما وبين القبائل المغربية في الجنوب والشرق، وحول العلاقات والصلات البريـــة مع ولاية موريطانيا القيصرية (القسم الغربي من الجزائر الحالية) وولاية بيتكا فـــي الشمال (القسم الجنوبي من شبه الجزيرة الإيبيريـــة). كمـــا تـــم الاهتمـــام بالنظـــام العسكري الذي خضعت له الولاية مع التركيز على تحديد هوية الوحدات العســـكرية المقيمة بها انطلاقا من دراسة الشواهد العسكرية المنقوشـــة والنقـــائش الجنائزيـــة، والثورات التي قامت بها القبائل وردود الفعل العسكرية.

الجغرافيا التاريخية والعمران الحضري والإقتصاد

جانب آخر حظي بقسط وافر من الجهود التي كرست لتاريخ العهود القديمـــة هو ذلك الذي اهتم بتحليل النصوص التاريخية القديمة، أدبية كـــانت أم تاريخيـــة أم جغرافية، لرسم خريطة واضحة لمعالم المغرب الطبيعية والبشرية والعمرانية خـــلال الحقبة. وموازاة مع ذلك تم الاهتمام أيضا بعمليات الاستكشـــاف الميدانـــي لتحديـــد المواقع التي ورد ذكرها في المصادر ورسم خطوط الطرق البرية ودراســـة نظـــم التحكم في المجال.

وقد حرص البحث على دراسة بقايا المراكز الحضرية والتنقيب في بنياتـــها السفلية بهدف فهم التطورات التي حصلت فيها. وانصبت معظـــم البحـــوث علـــى المواقع الأثرية الكبرى كوليلي وبناصا في وسط المغرب وليكسوس وتمـــودا فـــي شماله. وقد حظيت وليلي بنصيب الأسد ضمن هذه الجهود نظرا لضخامة وأهميـــة بقاياها الأثرية، ونظرا لكونها شكلت مركزا رئيسا في ولاية مويطانيا الطنجية.

ومنذ الستينيات، اتجه البحث الأثري نحو إصدار أطـــالس تضـــم مختلـــف المواقع الأثرية مهما كان نوعها وحجمها حول المراكز الحضريـــة الكـــبرى. وقـــد شكل ذلك بداية للبحث في نظم الاستقرار بالبوادي، ونظم الدفـــاع العســـكري مـــن خلال دراسة الأبراج والقلاع العسكرية.

إن نظرة إلى البيبليوغرافيا المغربية في هذا الصدد تعكس مدى تعدد الأبحاث التي اهتمت بهذه الجوانب وهي بحوث تعتمد بشكل خاص على معطيات المسح الميداني والحفريات الأثرية.

وقد سعى البحث التاريخي والأثري أيضا إلى اكتشاف مظاهر النشاط الإقتصادي بالمغرب القديم من خلال رسم خرائط لثرواته الطبيعية، والبحث في تقنيات النشاط الصناعي خصوصا صناعة تصبير السمك التي اشتهرت في شمال المغرب والتي لا زالت آثار بنيات مصانعها واضحة المعالم في ليكسوس وتاهدارت وكوتا بالقرب من طنجة. كما تم الاهتمام بدراسة التداول النقدي وطرق التجارة...

التفاعلات البشرية والتأثيرات الحضارية

عمد البحث التاريخي الحديث إلى الاهتمام بساكنة المغرب القديم في محاولة لإبراز بعض مظاهر تاريخ هذه الفترة بالاعتماد على معطيات محلية عوض اللجوء إلى المعلومات التي توردها النصوص اللاتينية والإغريقية والتي تنقل صورا هي نتيجة لمواقف ثقافية للحضارة المسيطرة آنئذ. غير أن هذا التوجه في البحث يعاني من قلة المصادر الأهلية بالنظر إلى غياب الكتابة الأدبية لدى مغاربة تلك الفترة وقلة المصادر المادية والمنقوشة القابلة للاستقراء.

لقد اتجه البحث لدراسة معالم الوجود والتأثير الفينيقي والقرطاجي بالسواحل المغربية، وتميزت بهذا الخصوص الدراسات التي أنجزت حول موقع ليكسوس وموغادور (جزيرة الصويرة الحالية) وبعض المواقع والمقابر بضواحي طنجة، ومواقع أخرى بالقرب من تطوان. ورغم التقدم الحاصل في النتائج، فإن تاريخ هذه الفترة ما زال يشوبه الغموض، خصوصا ما يتعلق بالفترة الممتدة من القرن الحادي عشر قبل الميلاد ـــ الذي تؤرخ به النصوص إنشاء مركز ليكسوس ـــ والقرن الثالث قبل الميلاد، الذي يجسد بداية التأريخ ـــ وليس التاريخ ـــ للممالك البربرية بالشمال الإفريقي. ومن أهم المعطيات الحديثة في هذا الشأن اكتشاف موقع

بضواحي مدينة القصر الكبير يؤكد أن التأثيرات الفينيقية والقرطاجية لم تقتصر على السواحل فقط كما ساد الاعتقاد سابقا بل تجاوزتها إلى الداخل(15).

ومن المواضيع التي حظيت ولا زالت باهتمام البحث التاريخي في هذا المجال الدراسات المرتبطة بالفن القديم عموما، سواء تعلق الأمر بالمعمار أو الفسيفساء أو النحت... وقد اتجهت العديد من الجهود نحو دراسة الخزف نظرا لما له من أهمية في تأريخ المواقع، وتحديد نوعية العلاقات التجارية التي جمعت المغرب القديم بغيره من المراكز الحضارية المتوسطية.

العهود القديمة المتأخرة أو الفترة الغامضة:

منذ نهاية القرن الثالث الميلادي الذي عرف تراجع السلطة الرومانية بالمغرب وإلى حدود القرن الثامن الميلادي دخل المغرب فترة يكاد المؤرخون يجهلون عنها كل شيء. إن غياب المصادر وقلة المعطيات الأثرية جعلت من هذه الفترة التي دامت أربعة قرون والتي تواكب فترة الانتقال إلى التاريخ الإسلامي فترة غامضة في تاريخ المغرب. وإذا كان البحث التاريخي لم يول عناية تذكر لدراستها في السابق، فإنها أصبحت الآن تشكل إحدى الأولويات العلمية نظرا لكون البحث في هذه الفترة سيمكن من إبراز بعض المظاهر التاريخية للمجتمع المغربي وتنظيماته في المرحلة التي تلت خروج الرومان من المغرب (القرون 4 — 5 — 6) كما سيكشف النقاب عن ميكانزمات الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأقصى بل وسيساعد على فهم جيد لبنيات المجتمع الإسلامي الذي أرسيت دعائمه مع قيام دولة الأدارسة.

خاتمة

حصيلة كهذه تبين مدى التطور الذي عرفه البحث التاريخي حول العهود القديمة بالمغرب والذي تمكن من أن يصبح تيارا علميا قائما بذاته في الوسط الأكاديمي الوطني. ومع ذلك ما يزال هذا الميدان بحاجة إلى ممارسة أكبر وأعمق بهدف تنمية هذا القطاع وجعله أكثر تجاوبا مع طموح الباحثين.

ويمكن اختزال العقبات والمشاكل التي تعترض سبل البحث في هذا القطاع في النقط التالية :

- استمرار ما يشبه القطيعة بينه وبين قطاعات البحث التاريخي الأخرى بشكل يجعل التواصل بين مؤرخي العهود القديمة ومؤرخي العهود الأخرى شبه منعدم. لقد كرس ذلك انعزالا ملاحظا لمؤرخ الفترة القديمة زاد من شدته عدم محاولة هذا الأخير الربط بين اهتماماته ونتائج بحوثه وبين القضايا التي تهتم بها القطاعات الأخرى. وقد ظهر منذ فترة توجه جديد يحاول الربط بين معارف التاريخ القديم وبين ميكانزمات المرور إلى العصر الوسيط غير أن هذا الاتجاه ظل خجولا إلى حد الآن رغم أهمية النتائج والخلاصات التي توصل إليها.
- من حيث المناهج ظل البحث التاريخي حول العهود القديمة مرتبطا لفترة من الزمن بالتاريخ الحدثي والعسكري، وتأثر أيضا بموجة التاريخ الوطني كباقي القطاعات. لكنه لم يحاول إلى عهد قريب التخلص من الإشكاليات القديمة والانفتاح على مواضيع جديدة.
- من حيث الأسس المعرفية انعدام أو ضعف بعض التخصصات اللازمة للدراسة. ذلك أن التاريخ القديم لا يمكنه أن يعتمد على نوع واحد من المصادر كما سبق ونبهنا إلى ذلك في بداية هذا العرض. وبفعل ظاهرة تجزؤ العلوم وانقسامها أصبحت جملة المعارف التي "تمون" مصادر التاريخ القديم في المغرب أو في غيره من الأقطار بحاجة إلى جملة من التخصصات الدقيقة التي تحتاج إلى تكوين خلص. فنحن بحاجة إلى مزيد من علماء النقائش، ومن علماء النقود، والخبراء في دراسة الفسيفساء، وعلماء الخزف... كما نحتاج إلى المختصين في اللغات القديمة خصوصا منها الليبية والإغريقية واللاتينية.
- ولقد سبق أن وجهت الدعوة في الماضي إلى العمل بجدية على نبذ الاختلالات التي يعاني منها البحث في تاريخ المغرب القديم سواء على المستوى

الزمني أو المجالي، فلو استعرضنا حصيلة ما أنجزه المؤرخون حول الفترة القديمة لوجدنا أن جل البحوث إن لم أقل كلها اهتمت بالخصوص بدراسة المغرب خلال العهد الروماني أو بالمغرب كمجال مندرج في دائرة التأثير الفينيقي أو البوني. إن دواعي هذا "الانزواء المعرفي" تكمن في كون المغرب ــ كما هو حال العديد من مناطق المتوسط الغربي ــ ظلت مصادر تاريخه القديم خارجية (إغريقية أو لاتينية) من جهة، ومن جهة أخرى فإن التطور المتأخر نسبيا لهذا القطاع عندنا جعلنا نفتقر إلى عناصر استدلال في البحوث الميدانية التي تقدم مصادر هامة وأساسية مرتبطة بالحضارات المحلية التي عرفتها المنطقة. وهي عناصر تحتاج بالطبع إلى تراكم معرفي يتطلب فترات زمنية طويلة. هذا من جملة الأسباب التي جعلت البحث في تاريخ المغرب القديم يتركز أساسا على المناطق التي تضم عناصر الاستدلال الرومانية أو الفينيقية أو البونية. غير أن عيب هذا التركيز كونه يكرس تهميش "تواريخ قديمة أخرى" هي تلك التي نلاحظ وجودها المبهم في جل مناطق المغرب باعتبار أن وجود الحضارات الأجنبية اقتصر على شمال غرب المغرب وبعض النقط البحرية. فالجماعات المحلية ظلت غائبة عن اهتمام التأريخ القديم.

* اللغة التي يتعامل بها مؤرخ هذه الفترة تشكل أيضا إحدى نقائص الوضع الحالي للقطاع الذي ظل يعتمد اللغة الفرنسية بالخصوص. هذا لا يعني انعدام جهود مشكورة سعت إلى تعريبه. ومع ذلك ظلت جل البحوث تنجز باللغة الفرنسية بل وحتى التكوين الذي يقترحه المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث هو تكوين مزدوج مواده التقنية تدرس باللغة الفرنسية. إن من أسباب هذا الوضع أن جل الباحثين والأساتذة قد تلقوا تكوينهم في فرنسا من جهة، ومن جهة ثانية انعدام وجود قاموس أثري متجدد يوضع رهن إشارة الباحثين ويشكل أداة عمل مساعدة على تعريب البحث والتكوين في هذا القطاع. ويبدو أن هذا القاموس قد أصبح اليوم مشروعا يشرف على إنجازه معهد التعريب ومديرية التراث الثقافي.

تلك إذن بعض المشاكل التي تعترض سبيل تنمية قطاع البحث في تاريخ المغرب القديم. غير أن هذه المشاكل لا تعدو أن تكون ظرفية لأننا نعتبر أن أهم الأشواط قد تم قطعها. أقصد بذلك أن المتأمل في تطور البحث التاريخي حول العهود القديمة سيلاحظ ولاشك أن العزلة التي عانى منها ترجع أساسا إلى كونه كان يفتقد إلى مرجعية ثقافية تربطه بقضايا واهتمامات مؤرخ المجتمع المغربي كما نتصوره اليوم. فالحديث عن المغرب كجزء من حضارة روما أو حضارة الفينيقيين يبدو للعديد من الباحثين حديثا هامشيا.

اليوم وقد تمت مغربة هذا القطاع، وبعد أن أخذت بعض الدوائر الجامعية (مجموعات ومراكز البحث) تخطو خطوات نحو إرساء مناهج بحث جديد، وطرح إشكاليات جديدة، واقتراح مشاريع بحوث تعتمد على دراسة المظاهر الحضارية في تطورها الزمني عوض الاقتصار على الظواهر الحديثة، أو المحدودة زمنيا، يبدو ان البحث في تاريخ العهود المغربية القديمة قد شرع في تجاوز العقبات التي ذكرتها سابقا، خاصة وأن مشروع الإصلاح الجامعي المرتقب يعد بوضع الأدوات والآليات اللازمة لذلك.

الهوامش:

وهي ملاحظة تنطبق أيضا على البحث الأثري المرتبط بنفس الفترة، يمكن مع ذلك الإشارة إلى أطروحة نوقشت بجامعة السربون في بداية العقد الذي نودعه والتي اهتم صاحبها ببداية الاستكشافات الأثرية في شمال إفريقيا: A. Arlmand-Portelli, *L'exploration archéologique de* l'Afrique *du Nord, des premiers voyageurs au XVIIIè s. à l'indépendance des nations*, thèse dactyl., Paris IV, 1991. كما يمكن مراجعة: مقدون محمد: البحث التاريخي الأثري حول المغرب القديم ما بين السنتين 1956 و1990، بحوث، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، العدد 6، 1996، ص. 183 ـ 197 وأيضا:

SIRAJ A., De la pré archéologie à l'archéologie du Maroc (communication à paraître dans les actes de *l'Africa Romana* n° 13) .

(2) – Tissot Ch., Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie Tingitane, dans Mémoires de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 1ère, XI, Paris, 1877, p. 139-322 + 6 pl h. t.

(3) - Bulletin du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques.

(4) - Archves Marocaines.

(5) – Besnier M., « Géographie ancienne du Maroc (Maurétanie Tingiytane) », dans Arch. Mar., 1904, p. 301-365 + I carte h. t.

(6) – La Martinière de, « Esquisse de l'histoire du Maroc avant l'arrivée des Arabes », dans *B.C.T.H.*, 1912, p. 142-184.

(7) – Brouquier Rédée V., « Les brigades topographiques au Maroc (paline du Gharb et région de Volubilis) », dans Africa Romana, XIII Djerba (sous presse).

(8) - Service des Antiquités du Maroc.

(9) - Publication du service des antiquités du Maroc: PSAM.

(10) - أنظر حول ذلك: Akerraz A., et A. El-Khayyari, « Nouvelles découvertes dans le bassin du Loukkos », Africa Romana, XIII, Djerba 10-13 décembre 1998.

الدراسات الأثرية المغربية: استمرارية أم قطيعة مع الطرح الاستعماري؟

العربي النشيوي*

مقاربة الدراسات الأثرية بالمغرب تقتضي بالدرجة الأولى الوقـــوف عنــد العناصر الأساسية المحددة والمكونة لعلم الآثار نفسه: في نشأته وتطـــوره، وفـــي خلفياته وأهدافه، وفي مواضيعه وإشكالياته، وفي أسســـــه ومناهجـــه. وكمـــا قـــال الفيلسوف وعالم الآثار "كولانغود" : "يجب أن لا تعالج أية إشكالية تاريخية إلا بعـــد دراسة تاريخ التفكير التاريخي الذي دار حولها"، (كولانغـــود، 1992: 14؛ اتريغـــر، 1992: 14).

بعجالة شديدة، علم الآثار فرع من فروع المعرفة الحديثة المتجـــددة التـــي أفرزها تطور المجتمعات الغربية المصنعة، له ارتباط وثيق بالنهضة العلميـــة ومـــا صاحبها من تحولات كبرى جعلت من التاريخ والـــتراث المـــادي (الآثـــار) نقطـــة انطلاقها ومشعلا أنارت به طريقها نحو التقدم والتمكين وعملا أيقظت به شـــــعوبها وألهمتها روحيا وفكريا لتكون في مستوى استيعاب رسالة التغيير والنهوض، وكأن بها أرادت أن تحيي إرثا وتقليدا حضاريا على غاية من الرقي والازدهار لتجاوز

* – أستاذ باحث كلية الآداب وجدة

الواقع الذي كان يسيطر فيه الفكر الكنائسي المتحجر.

فالتوجه نحو الماضي ونبش خباياه المادية كان يعني استنطاق ذلك المخزون الإنساني الغني، الإبداعي والفني العريق، لأخذ العبر والنماذج، ولصقل الإحساس وخلق الحافز ورفع الهمم، وذلك للسير قدما نحو عصر البناء والإنتاج والتوسع الحضاري الواعي. ولقد لعب علم الآثار دورا هاما في إنتاج وتطور الإديولوجيات العصرية التي صاحبت الثورات العميقة التي عرفتها بعض الدول الغربية في القرنين الأخيرين. شكل الإرث الحضاري الإغريقي والروماني محورا أساسيا وعنصر جذب وتنافس بين القوى الاستعمارية المتصاعدة: ما من قوة غزو إلا وقدمت نفسها كوريث شرعي لهاتين االحضارتين، كخطة منهجية لإضفاء الشرعية على عملياتها الاستعمارية، (النشيوي، 1998أ). وبشكل عام،"أقيمت الثقافة الأوروبية الجديدة على أساس خرافة مفادها الإدعاء بالاستمرارية في تاريخ القارة الأوروبية وإيداع جذور قديمة وهمية للتضاد بين هذا التاريخ المزعوم وبين تاريخ المنطقة التي تقع على الشواطئ الجنوبية للمتوسط"، (سمير أمين، 1988: 124-125). ولهذا أفرزت الدراسات الغربية منهجين متضادين ومتكاملين في آن واحد: رسمت لنفسها خطا عموديا متواصلا فسرت به تاريخها وتطورها الحضاري، في حين رسمت للعالم العربي خريطة تاريخية وحضارية مشوهة ومعقدة أكثر من تعقد خريطتها السياسية الحالية، (العربي النشيوي، 1998ب).

ولقد التقت كذلك كل الحركات الثقافية والإيديولوجية والسياسية في جعل الحضارة الإغريقية والرومانية تراثا وطنيا غربيا واستعملته كدعامة أساسية أسندت إليها طروحاتها. ويبقى مصطلح الرومنة أهم ما أبدعته الدراسات والفكر الاستعماري في شموليته الثقافية: يقدم كمرادف للتقدم والتحضر، وكمرادف للفرنسة وغير ذلك من المرادفات التي يريد من ورائها مستعملوها اثبات انتشار وتغلغل مبادئ وقيم الحضارة الغربية قديما وحديثا وسط المجتمعات الخاضعة.

يكشف التحليل الموضوعي التركيبي للمعطيات التاريخية والأثرية عن العمق الإيديولوجي الذي يركزه هذا المصطلح (الرومنة). فهو عبارة عن مرآة للإطار الإيديولوجي للتفكير الاستعماري الذي حدد ولا زال الجهاز النظري الوظيفي للإيديولوجية العنصرية الأوروبية، الثقافية والتاريخية. ويعبر الإطار النظري الوظيفي هذا عن نفسه بإلصاق مصطلح حضارة فقط بالإرث التاريخي الإغريقي والروماني وبالإنتاج المادي والفكري الحالي الذي يقدمه كامتداد للأول، في حين يسقط هذا الوصف عن الأساليب الحضارية الأخرى، (النشيوي، 1998أ). وتتدرج النظرية الوظيفية هاتة من حيث سياقها العام والخاص ضمن المكونات الأساسية لترسنة نظرية أشمل شكلت العمود الفقري في مقاربة الغرب لتاريخ وحضارة العالم العربي والإسلامي، اصطلح عليها بالنظرية الاستشراقية.

ولقد نعت الإغريق والرومان وبعدهما الدول الغربية الشعوب التي استعمروها وخاصة تلك التي قاومت الغزو والاحتلال بالهمجية والوحشية (بربر)، (النشيوي، 1998أ). ونجد أن الحركات الفكرية الغربية، الليبرالية والماركسية على حد سواء، دافعت عن الاستعمار في الأوساط السياسية والثقافية والإيديولوجية واعتبرته عاملا لا محيد عنه لتقدم الشعوب الغير الأوروبية. لقد رأى كل من انجلز وماركس -رواد الفكر التحرري الغربي- في الاحتلال الإنجليزي للهند والاحتلال الفرنسي للجزائر عنصرا أساسيا لدفع عجلة تقدم هذين البلدين نحو الرأسمالية، وبالتالي الاشتراكية والتحرر، (العربي النشيوي، 1998أ).

لقد تحكم هذا الجهاز المفاهمي وهذه المقاييس والأوصاف في الدراسات الأركيولوجية التي أنجزت في المغرب وفي كل التفسيرات التي أعطيت لتاريخ المغرب العربي القديم. وبشكل عام، شكلت هذه العناصر أساس الفلسفة الثقافة الاستعمارية التي أنجزت في غرب العالم العربي ومشرقه. فرنسا التي كانت تسعى لبناء إمبراطوريتها الاستعمارية في كل البحر الأبيض المتوسط وجدت في

الإمبراطورية الرومانية وإرثها الحضاري النموذج الأمثل لإسناد مشروعها عقائديا وسياسيا.

والجدير بالذكر أن غاليا -جزء كبيرا من فرنسا الحالية- عانت من الغزو الروماني كباقي المناطق الأخرى من البحر الأبيض المتوسط، وأن ما تعرف الآن بفرنسا تضم في أحشائها سبع قوميات: الفرنسيون (القوة المسيطرة)، والباسكيون، والكطلانيون، والأوكسيطانيون، والكرسيون، والبريطانيون، والألزاسيون. لكنها حرصت على تقديم نفسها كقوة موحدة ومنسجمة تاريخيا وثقافيا ودينيا وسياسيا، واعتبرت نفسها الوريثة الشرعية لروما في كل المناطق التي كانت خاضعة لسيطرتها، خاصة المناطق الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط. ولقد استطاعت بالفعل أن تخضع أغلبية هذه المناطق لقبضتها الاستعمارية محققة بذلك جزء من مشروعها التوسعي الاستعماري. وانطلاقا من هذا الزعم ولتحقيق نفس الغاية أنجزت الدراسات الاستعمارية التي أعطت أهمية خاصة للإرث الحضاري الروماني، فجاء علم الآثار وصناعة التاريخ القديم للمغرب العربي مطبوعين بهذا المنظور، (النشيوي، 1999أ).

أغلب الدارسين الفرنسيين الذين قاربوا التاريخ القديم وآثار المنطقة خلال ما يسمى بالعصر الكلاسيكي قارنوا وضع البلاد خلال الاحتلال الروماني والاحتلال الفرنسي. لقد احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830، وفي سنة 1844 كتب الناشرون "فرمين ديدوت" حول هذا لبلد الذي تعرض للغزو ما يلي: " لا أحد منا، وهذا رأينا، يحق له من الآن فصاعدا أن يظل متفرجا عند قراء ة الأعمال التي تذكر بالماضي الزاهر لهذه الجزائر حيث بدأنا من جديد، وببسالة عالية، أعمال الرومان لخدمة صالح الحضارة والإنسانية"، (عن فيبريي، 1989: 23).

معركة الاستعمار والاحتلال العسكري للمغرب العربي ما كانت لتتحقق وتأخذ الأبعاد التي اتخذتها لولا وقوف النخبة المثقفة إلى جانب الأداة العسكرية تدعمها وتبرر وجودها وأعمالها، ويأتي التاريخ القديم والآثار في مقدمة المواضيع

التي نالت اهتماما وعناية بالغة لخدمة هذا المبتغى. ويعبر لنا "لويس لاكروا" عن ذلك على الشكل التالي: "معرفة تاريخ وجغرافية الجزائر، كما كانت في القديم، عرفت تقدما كبيرا بفضل الغزو الذي تعرضت له. تجند العلماء على الفور في الطريق الذي شقه الجيش" (عن فيبريي، 1989: 32).

ركزت الدراسات الفرنسية على التاريخ والمخلفات المادية الرومانيتين بالمغرب العربي، لإبراز دور روما بالمنطقة، وللقيام بالدعاية لعظمة الحضارة الرومانية وسط أتباع ومناصري المخطط الاستعماري لتحميس عصبيتهم وتنمية شعورهم بالتفوق العرقي والحضاري. "والجدير بالذكر كذلك أن النزعة العرقية والروح العدائية التي كانت تخيم على المحيط الثقافي والاجتماعي لأولئك الذين قاربوا القضايا المختلفة المرتبطة بالمنطقة كان لهما تأثير كبير على طبيعة "الدراسات" التي أنجزوها والنظرة التي لامسوا بها الحضارة والإنسان وعالجوا بها المشاكل التي كانت تهمهم بالمغرب العربي. هذا الأسلوب قديم قدم الظاهرة الاستعمارية نفسها" (النشيوي،1999أ).

كانت النزعة العدائية العنصرية ضد سكان المغرب منتشرة وسط بعض الجغرافيين والمؤرخين القدماء، الإغريق والرومان، حيث نجد مثلا "بومبونيو ميلا"، يصف سكان المغرب بالتأخر والانحطاط، إذ نجده يقول: "إن البلد (يقصد المغرب) شبه مجهول ولم يعرف من التقدم إلا الشيء البسيط، وسكانه يعيشون في مدن بسيطة، والأنهار التي تنبع منه صغيرة، وأرضه أحسن من سكانه، وتكاسل هذا العرق يمنعه من الخروج من ظلماته" (بومبونيو ميلا،"I,5") . لم تكن دعاية بونبونيو ميلا هاته المكتوبة بالضبط بعد غزو كلود لموريطانيا ("الجزائر" و"الغرب") ما بين سنة 40 و43 ميلادية، مثالا معزولا أو فريدا بين مؤرخي وجغرافيي عصره، وبين أولئك الذين قاربوا قضايا المغرب العربي منذ ذلك العصر إلى يومنا هذا، حيث يصعب تلخيص الدراسات التي كررت طرحه ضد المغاربة.

– في سنة 1763 بدأ "بيبيان دو سان مرتين" مؤلفه "شـــمال إفريقيـــة عنـــد الإغريق والرومان" بالجملة التالية: "هناك عاملين حكما على القـــارة الإفريقيـــة أن تعيش ضعفا أزليا أمام آسيا وأوروبا، وهما جغرافيتها وطبيعة سكانها" (عن فيـبريي، 1989: 24)

– وفي سنة 1790، كتب الإنجليزي "لومبيير" ما يلـــي: "لقـــد ذهبـــت إلـــى المغرب يوم 12 فبراير من سنة 1790، وبعد ثلاثة أيـــام وصلـــت إلـــى مقصـــورة بولعوان التي توجد على بعد 80 الف ميل في بلد جاهل ومتوحش" (عـــن ســـانين، 1911: 184)

– وفي سنة 1911، كتب الفرنسي "سانين" فـــي مقدمـــة ترجمتـــه لكتـــاب "لومبيير" المذكور أعلاه ما يلي: "كان من بيـــن منكـــودي الحـــظ ربـــان السـفينة الإنجليزية وتسعة ملاحين انجليز. كان سوء حظهم أن فشلوا في الشاطئ الإفريقـــي، في المنطقة المسكونة من طرف العرب المتوحشين" (سانين، 1911: 13)

– وفي سنة 1914، سنتين بعد التوقيع على معاهدة الحماية، نجد أن الرحالـــة الفرنسي "ادمون دوتي" قد تبنى نفس الموقف وروج له في كتابه "مقدمة في قبـــائل المغرب". نقتصر هنا على ذكر الفقرة التي كتبها حول مدينة وليلـــي العتيقـــة التـــي يقول فيها: "نشاهد من بعيد، عند مدخل المنطقة الهضبية، البقايـــا الأثريـــة لوليلـــي الرومانية حيث أن 15 قرنا من الوحشية والتعصب لم تســـتطع أن تمحـــو أثرهـــا"، (ادمون دوتي، 1914: 419)، (النشيوي، 1999أ).

يمكن لنا أن نستخلص من هذا النوع من الكتابة أن البيئة الثقافية التي كـــان يتغذى منها ويغذيها هؤلاء، كانت بيئة عدائية وعنصرية، غايتها استمالة الرأي العام وتأجيجه للمشاركة في إنجاز المشاريع الاستعمارية التي كانت محاكة ضد المنطقـــة بأكملها، هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإنها تمثل جزء من الخطـــة الإعلاميـــة التي كانت تهدف إلى النيل من مقومات سكان المنطقة وشـــل قدراتـــهم الروحيـــة

والمعنوية لتسهيل عملية استلابهم وقيادتهم والسيطرة عليهم وعلى ثرواتهم المادية والتاريخية والتراثية (النشيوي، 1998ب).

مقاربة تحليلية للحفريات والدراسات الأثرية الفرنسية بالمغرب.

أقام الديبلوماسي الفرنسي شارل تيسو، الذي اشتغل كوزير مفوض بالمغرب ما بين سنة 1871 و1876، بأول مسح طوبغرافي أثري وجغراف وتاريخي للمغرب: أنجز سنة 1874 أول مسح طوبغرافي لقصر فرعون وحدده بوليلي. وفي سنة 1877، أربع سنوات قبل وضع المغرب تحت المراقبة الدولية، نشر كتابه "Recherches sur la geographie comparee de la Mauretanie Tingitane"

كما قام الديبلوماسي الفرنسي كذلك "دلمرتنيير"، بالحفريات الأثرية في كل من ليكسوس ووليلي بعد حصوله على ترخيص من الحسن الأول. تركز اهتمامه على إنهاء أعمال سلفه تيسوت، ونشر مجموعة من المقالات قبل وخلال مرحلة الاستعمار الفرنسي. انتهت مرحلة الديبلوماسيين بتوقيع معاهدة الحماية سنة 1912، لتبدأ المرحلة الاستعمارية. بدأت الحفريات بوليلي في 23 مارس 1915، بالشارع الرئيسي للمدينة: أدار الحفريات الأولى، التي بدأت بأمر من الجنرال ليوطي، المقدم "بوين" الذي كان قائدا لفرقة المشاة الرابعة للمناوشين الأهالي التي كان مركزها بمكناس. لكن مع نهاية هذه السنة انتقلت مسؤولية الحفريات إلى "شاتلان" الذي كان يتقلد رتبة ملازم أول في الفرقة المذكورة. ويمكن القول أن شاتلان هو الذي أنجز المشروع الفرنسي لعلم الآثار بالمغرب. ركز شاتلان أعماله على الحضارة الرومانية ودور روما في تحضر وتقدم المغرب: "إذا استثنينا ما قبل التاريخ وفجر التاريخ نجد أن هناك ثلاث مراحل تاريخية واضحة الاختلاف: المدينة البدائية أو مدينة سفيروس، يعني مدينة القرن الأول؛ والمدينة التي بنيت بشكل منظم في شمال الميدان –الجهة التي بني بها قوس النصر في مرحلة متأخرة–؛ وأخيرا المدينة المحاذية للسور"، (شاتلان، 1967: 155). يرى شاتلان، كما يتضح من هذا النص، أن وليلي دخلت المرحلة التاريخية بفضل التأثير والاحتلال الروماني."شكلت

هذه الفكرة محور المشروع الاستعماري الفرنسي الذي تم إنجازه خلال التمهيد للاحتلال ومرحلة الاستعمار. اعتبر جيل توتان في سنة 1895، أن "الحياة المدنية والتنظيم البلدي... استوردوا من الخارج"؛ نفس المنحى ذهبه لويس لاكروا خلال تطرقه للنوميديين وجيرانهم الموريين، وغوتيي في موقفه من "البرابرة" ، (النشيوي، 1999د).

خلف توفنو سلفه شاتلان في تحمل مسؤولية مصلحة العاديات بالمغرب ودافع هو الآخر عن نفس الفلسفة، وأضاف إليها بحفرياته ومقالاته الوصفية الشيء الكثير. اعتبر هو الآخر كذلك أن وليلي لم تدخل التاريخ إلا بفضل الاحتلال الروماني: "بعد 48 سنة من حكمه (يقصد هنا الملك يوبا) خلفه ابنه ابتوليمي، إلا أن الإمبراطور كاليغولا اغتاله وضم مملكته إلى الإمبراطورية. إذن فقط في هذه الأثناء دخلت وليلي التاريخ باسمه (يقصد الإمبراطور المذكور"،(توفنو، 1949: 15). ويتابع توفنو قائلا: " منذ الأيام الأولى من ضمها تظهر لنا وليلي في التاريخ، وذلك للتعبير عن تحالفها مع روما" (توفنو، 1949: 16). ولقد جعل الترومن (الوقوف إلى جانب الرومان وتبني حضارتهم) مرادفا للحضارة والتقدم، ومقاومته مرادفة للهمجية: "لقد سبق لنا أن قلنا ذلك، كانت (وليلي) مركزا للتبادل بين البادية والمدينة وبين السهول المترومنة والجبال المتوحشة"، (توفنو، 1949: 60).

كان هذا باختصار التوجه العام للدراسات والحفريات الأثرية التي أجرتها الأداة الاستعمارية الفرنسية، إلا أن هذا الخط سيعرف "تغيرا" إن لم نقل تجديدا مع أواخر المرحلة الاستعمارية وبداية الاستقلال وذلك نظرا لفشل المشروع الاستعماري الفرنسي الذي تراجع أمام الحركة التحررية بمنطقة المغرب العربي التي أضعفت الأسس الثقافية والإيديولوجية للمدرسة الاستعمارية الفرنسية، وأفقدت خطابها التقليدي أسسه العميقة، وأصبح عاجزا على الاستمرار في تأدية وظيفته بتحميس الشعب الفرنسي الذي لم يعد يرى بوضوح مصداقية حكاية التفوق الفرنسي

وعظمة الحضارة والدولة الفرنسية التي أصبحت قدراتها تنهار أمام إرادة الشعوب التواقة إلى التحرر من قيود الاستعمار، (النشيوي: 1999ج).

فما كان أمام المدرسة التقليدية والأداة العسكرية الفرنسية التي كانت تتحكم في الفلسفة والهندسة الثقافية بالبلاد إلا أن تبحث عن مخرج مناسب لأزمتها. وجدت في الخط الذي كان قد دشنه طارديل، مسؤول مصلحة العاديات بالحماية الإسبانية، بحفرياته في تامودا وليكسوس وإقراره بوجود مستويات حضارية مهمة سابقة عن الوجود الروماني أطلق عليها الحضارية البونيقية المورية (طرديل: 1960)، متنفسا استغلته وحورته لطرح نظرية جديدة لا تختلف في عمقها كثيرا عن النظرية التقليدية. دشنت هذه المرحلة بالأمر الذي أعطاه الجنرال بوين -خلف الجنرال ليوطي في الإقامة العامة الفرنسية بالرباط- في 10 نونبر 1950 إلى سينتاس، الذي كان يتحمل مسؤولية مصلحة عاديات تونس، لكي يشرع في البحث عن البقايا الأثرية الفينيقية بالساحل الأطلسي المغربي. فتسارعت الأعمال على الفور حول هذا الموضوع الجديد:

- انتقل سينتاس إلى المغرب مرتين، سنة 1950 وسنة 1951، وقام بالبحث عن المواقع الأثرية البونيقية (سينتاس، 1954: 9)؛

- استدعي لوكي سنة 1950 من طرف هنري طراس مسؤول معهد الدراسات العليا المغربية، ومن طرف سينتاس كذلك لكي يقوم بالبحث هو الآخر عن المواقع الأثرية البونيقية. ويعطينا لوكي، في مقاله "البحث عن الآثار البونيقية بالساحل الأطلسي المغربي" ، معلومات هامة تفيدنا حول التعبئة الشاملة للمسؤولين الكبار لإنجاز هذا المشروع الثقافي الجديد ومعطيات كثيرة حول تواجد الفينيقيين بالمغرب، (لوكي، 1956: 118؛ النشيوي : 2000 b). كان من نتائج تلك التحريات الأولى العثور على مجموعة من المواقع الأثرية على الساحل الأطلسي المغربي وفي المناطق الداخلية للبلاد كذلك، (لوكي، 1956: 131)؛

- ونشر فيبريي في هذه السنة نفسها أربع نقائش كتابية بونيقية لوليلي (فيبريي، 1955-1956: 29-35). تجدر الإشارة إلى أن هذه النقائش كان قد تم العثور عليها سنة 1923 أثناء القيام بعملية سبر شمال الجثوة(توميلوس)، لكنها أطمست لأنها تحمل دلائل معارضة للطرح الذي كان يروج له علماء الآثار خلال المرحلة الاستعمارية، (النشيوي، 1997: 119). أثبتت أن وليلي كانت موجودة منذ القرن الثالث قبل الميلاد على الأقل، (كامبس، 1960: 423).

تم تغيير كذلك في قيادة مصلحة عاديات المغرب حيث أسندت المهمة إلى ضابط الطيران أوزنا الذي عوض توفنو وتحمل مسؤولية ادارة وإنجاز مشروع الحفريات الأثرية الجديدة بالمغرب ما بين سنة 1954 و1963. وكون فرقته العلمية وبدأت تشتغل على مستويات ما قبل الاحتلال الروماني: "أوزنا" و"لوكي، بوليلي وبناصا، (أوزونا، a1957 : 41-64؛ b1957: 199-229؛ لوكي، 1964: 31-42)، "بونسيك" بطنجة وليكسوس، (بونسيك وطرديل، 1960؛ بونسيك، 1964: 253-290)، وجودا بوليلي ومغدور، (جودا، 1965-1966: 199-221؛ 1966)، وبوب بسلا، (بوب، 1967: 263-367)، وريبيفا وموريل بتاموسيدا، (ريبيفا، 1968-1972: 51-65؛ موريل، 1975: 78-111). أرخت كل الأعمال التي أنجزها هؤلاء لبداية وجود الظاهرة الحضرية بالمغرب مع النصف الثاني للقرن الثاني قبل الميلاد، أي بعد سقوط قرطاج.

لا يخلوا هذا التأريخ للظاهرة الحضارية بالمغرب من حيثيات إيديولوجية استعمارية كذلك، (النشيوي، 1996-1997 : 783-793). لقد أراد هذا الطرح أن يبعد دور الحضارة البونيقية باعتبارها حضارة شرقية، وحصر تأثيرها في الأسماء والمعبودات واللغة، وقدم المغرب في عزلة عن كل التأثيرات الشرقية، ونفى أية علاقة مباشرة مع الشرق. لكنه اعتبر بالمقابل أن هذا التطور جاء كنتيجة ميكانيكية للتأثير الهليني والروماني الذي لعبت فيه غالبا الدور الأساسي، في حين قدم اسبانيا كمنطقة عبور فقط معتمدا في ذلك على وجود الفخار الكامباني ب،

وفخار أريزو وفخار غروفيزونك، والفخار الرمادي لأمبورياس (أوزنـــــا، a 1957: 50-51). لقد حدد أوزنا في إحدى مقالاته أهداف الحفريات التي كان يجريـــها هـــو وفريقه على الشكل التالي: "كانت الغاية الأساسية للدراسات الجديدة، التي بدأت مـــع طرديل سنة 1948 في شمال المغرب، والتي بدأتها أنا وأعواني جنوب نهر لكـــوس، إظهار أن الاندماج في العالم الروماني كان دون شك قد هيئ وســـهل منـــذ القـــرن الثاني قبل الميلاد بفضل تقدم حضارة أصيلة يسميها طرديل بالحضاريـــة البونيقيـــة المورية، والتي أفضل أن أسميها بالمورية حتى لا أعطي للتأثير البونيقي دورا مهما لأنه كان قد انتهى خلال القرنين الثاني والأول لما قبل الميلاد اللذين ظهرت فيـــهما عناصر جديدة حلت بالتدريج محل الحضارة البونيقية"، (أوزنا، 1965: 261). بـــدأت أغلب الدراسات تقول بأن المغرب دخل مرحلة الترومن قبل الاحتـــلال الرومـــاني، واتخذت كأهم حجة لدعم طرحها وقوف القاضي "ماركوس فـــاليريوس ســـيفيروس" إلى جانب روما في حربها ضد أيدمون على اثر اغتيالها لإمبطوليمـــي واحتلالـــها للمغـــرب (توفنـــو، 1968-1972: 217-219؛ غاســـكو، 1978: 109-124؛ غاســـكو واكريستول: 1980: 329-345).

نال هذا الموضوع الجديد، موضـــــوع رومنـــة المغـــرب قبـــل الاحتـــلال الروماني، أهمية كبرى من طرف الدراسات التي أنجزت خلال سنوات الســـبعينيات والثمانينيات: ويمكن القول بأن غاسكوا هو المؤسس لهذه النظرية والمدافع عنـــــها، حيث اعتبر أن فلريوس المذكور أعلاه كان يتمتع هو والأشـــــخاص الذيـــن كـــانوا مسجلين في قبيلة "اكلاوديا"، وقبيلة "غليريا"، وقبيلة "اكويرينا" بالمواطنة الرومانيـــة قبل تحويل وليلي إلى بلدية، (غاسكو، 1978: 115). ولقد اتبع غاسكو منهجا مقلوبـــا في تعليل طرحه الذي لا يعتمد إلا على تخمينات ضعيفة قريبة مـــن الخيـــال منـــه للدلالة العلمية الملموسة: يـــقوم بتقـــديم فـــرضيات مبـــنية علـــى حجـــج واهيـــة، ويحـــولها بالتالي إلـــى حقيقة مؤكدة يبني عليها استنتاجاته تلك، (النشـيوي، 1996أ: 274-279).

وبشكل عام، تتقاطع الحفريات والدراسات الأثرية الفرنسية التي أجريت بالمغرب خلال مرحلة الاستعمار وتلك التي أجريت خلال مرحلة الاستقلال في نقطة جوهرية وهي إظهار دور وفضل الحضارة الرومانية على تقدم ونمو المغرب: عن طريق التأثير المباشر خلال الاحتلال الروماني وعن طريق التأثير الغير المباشر بعد القضاء على قرطاج. هذا الطرح نجده يتكرر كذلك عند الدارسين الفرنسيين الذين اشتغلوا على المغرب خلال العقدين الأخيرين ولا زالوا يشتغلون إلى يومنا هذا، مثل "إليان لونوار" و"موريس لونوار" و"ريبيفا".

الدراسات الأثرية المغربية:

البيئة الثقافية، والعلمية والسياسية، والإيديولوجية التي أطرت ولا زالت تؤطر الفضول الفكري بشكل عام والدراسات التاريخية بشكل خاص تختلف جذريا بالمغرب عن البيئة الفرنسية الواردة أعلاه.

بدأت الدراسات الأثرية المغربية كمبادرة فردية، في شكل أطروحات جامعية أنجزت أغلبها بفرنسا: كل تلك الدراسات، لم تنعم بوجود محيط ثقافي وسياسي يملك مشروعا ورؤية واضحة لكيفية التعاطي مع ارثها الأثري والتاريخي، ولم تتمتع كذلك بوجود تقليد وطني راكم تجربة لا بأس بها في البحث في هذا المجال يمكن الاعتماد عليه في تحديد الإشكالية واختيار الموضوع...، بل بدأت من فراغ تام، ولهذا لم تأت كاهتمام يريد البحث في قضايا وإشكالات وهموم واعية بالقضايا الحقيقية لتاريخنا وآثارنا وتراثنا، وأتت ربما كصدفة وكحس بأهمية الخوض في أسرار هذا العالم الجديد الذي ظل حكرا على الأجانب. ولم يجد الباحثون الشباب المغاربة الذين أرادوا الاشتغال بمجال علم الآثار أمامهم إلا أبواب الجامعات الفرنسية والأساتذة والمتخصصين الفرنسيين، والمنظومة المرجعية الفرنسية، فجاءت أعمالهم متأثرة بشكل كبير بهذا الثقل على جميع المستويات، على مستوى الموضوع والتحليل والخلاصات.

لكن مع تأسيس المعهد الوطني لعلم الآثار والتراث سيحدث انقلاب كمي ونوعي مهم تمثل بالدرجة الأولى في تكوين أطر مغربية. إلا أن المعوقات الأساسية لا زالت قائمة، نظرا لعدم توفر إمكانيات مادية مهمة تخول للباحثين المغاربة القيام بأعمال الميدانية وبالنشر. أغلب الحفريات والتحريات الأثرية المهمة تنجز مع البعثات الأجنبية التي توفر الإمكانيات المادية، وأغلب الدراسات والمقالات التي ينجزها المغاربة، على قلتها، تنشر في أعمال المؤتمرات والندوات التي تنظمها المؤسسات الأجنبية: غالبا ما يجد علماء الآثار المغاربة عراقيل مادية وإدارية تمنعهم من المشاركة فيها. بخلاصة شديدة، يمكن القول أننا نعيش بداية ظهور وتبلور ما يمكن أن تسمية بمدرسة أثرية مغربية لكن هذا يبق رهين بتوفر شروط ذاتية تتمثل في الحوار الجاد والتعاون العلمي الهادف...، وشروط موضوعية مشجعة ومساعدة وذلك بخلق شعب لعلم الآثار بالمؤسسات الجامعية، وتوفر وعي وإرادة كافية عند كل المؤسسات المغربية المختلفة وعند المسؤولين السياسيين والثقافيين والاقتصاديين لدعم علم الآثار وإعطائه الأهمية التي يستحقها وجعله عنصرا أساسيا في التربية والتنمية الثقافية والسياحية والاقتصادية، (النشيوي، 2000أ).

اشتغلت أغلب الدراسات على مخلفات الحضارة الرومانية، ودرست العلاقة بين فرنسا والمغرب، وأكدت على تطور هذا البلد الأخير وكل المغرب العربي على عهد الاحتلال الروماني. لقد كرر فدادي مثلا في خلاصة أطروحته نظرية جلبير شارل بيكر وتلامذته الفرنسيين التي تقول بتطور وازدهار المغرب العربي خلال العهد الروماني: "إذن، خلال هذه المرحلة وصلت افريقية الشمالية أوج ازدهارها: حصل تطور اقتصادي مهم نتيجة الثورة التي عرفتها عمليات استغلال الأرض وتقدم تقنيات الإنتاج، التي بدأت على عهد الفلافيين. هذا التقدم حمل معه النمو السكاني ونمو المدن المزدهرة بالمعالم"، (فدادي، 1992: 311). وتابع خطابه في الصفحة الموالية وانهى أطروحته بجملة أخذها عن "بيكار": "

عرفت موريطانيا الطنجية، خاصة في القرنين الثاني والثالث، ازدهارا اقتصاديا واجتماعيا. وليلي التي كانت من إحدى المدن الكبرى لموريطانيا الطنجية لم تكن على هامش هذا التطور"، (فدادي، 1992: 312؛ أخذها عن بيكار، 1956: 9). نفس الطرح يدافع عنه كل من روبيفا وإليان لونوار في قراءتهم لنتائج التحريات الأثرية التي أجروها على نواحي وليلي وحوض سبو،(روبيفا، 1986 a: 633-666؛ b1966: 219-238؛ إليان لونوار، 1986: 239-245؛ 1990: 219-229).

علماء الآثار المغاربة لم يستوعبوا فحوى هذا التحليل وخلفياته ولهذا نجدهم يكررون مع الفرنسيين نفس الطرح الذي إن كان صحيحا من الناحية الظاهرية، وصحيحا إذا ما اقتصر على العينات المدروسة نفسها، فلا مجال للشك يبق خاطئا عندما يعمم ليشمل ويسقط على كل البلاد. وجود الحي الشمالي الشرقي، أرقى أحياء مدينة وليلي، ووجود بعض الفيلات والضيعات وبعض معاصر الزيتون بنواحي وليلي وبحوض سبو ... لا يجب أن يخفي عسكرة الوضع العام وحالة الحرب الدائمة تقريبا نتيجة مقاومة السكان المحليين الذين لم يأت الإستعمار الروماني بمقوماته واستغلالياته وأحيائه الرقية ليخدم مصالحهم أكثر من خدمة مصالحه وحل مشاكله، (توفنو، 1939: 20-28؛ 1945: 166-183؛ كاركوبينو، 1943: 270-272). كانت روما تهدف من وراء احتلال المغرب العربي توزيع الأراضي على الجنود القدماء، وعلى الإيطاليين الذين كانوا قد فقدوا أراضيهم التي تم توزيعها على الجنود بإيطاليا، والسيطرة على الأراضي الخصبة، إضافة إلى أنها اتخذت المنطقة كذلك كمواقع أمامية لضمان أمن الإمبراطورية ضد الدول المتوحشة، (غاسكو، 1982: 140-141). تحولت مستعمرات المغرب العربي القديم منذ عهد "نيرون" إلى مخازن الحبوب للبليبيين الرومان، حيث كانت هذه المنطقة توفر ثلثي المتطلبات ومصر الثلث الآخر. كما كانت عبارة عن محصول حولي لروما، "تمثل في المرحلة المبكرة في الحبوب أساسا، وفي المرحلة المتأخرة، ابتداء من النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، كان يتمثل بالأساس في الخبز إضافة

إلى الزيت، وابتداء من "أورليان" أصبح يشمل الخمر والفواكه المجففة"، (كاغناط، 1977: 205)، (النشيوي، 1999).

عن موضوع التطور التاريخي والمديني بالمغرب نقول بأن البلاد كانت تتوفر على المقومات الحضارية في نفس المرحلة التي بدأت فيها تتطور المراكز التجارية بالمنطقة الغربية من البحر الأبيض المتوسط وتتحول إلى مدن. كل الدلائل الأثرية تشير إلى أن الحياة المدينية بدأت بالمغرب مع بداية القرن الثامن قبل الميلاد، أي في نفس المرحلة التاريخية التي بدأت فيها بالضفة الشمالية الغربية من البحر الأبيض المتوسط. لم ينتظر المغرب إلى أن يأتيه الرومان بالتحضر، كما حاول أن يبرهن علماء الآثار الفرنسيين، بل جاء كتقليد إنساني نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل لا تختلف كثيرا عن العوامل التي سببت فيه بالمناطق الأخرى للحوض المتوسطي الغربي: ظهرت به الفلاحة منذ مرحلة ما قبل التاريخ، وتوطدت علاقته التجارية مع البحر الأبيض المتوسط الشرقي والغربي على الأقل مع قدوم الفينيقين، أما الصناعة فقد تطورت في القرن السابع قبل الميلاد، (النشيوي، 1996أ). وفيما يخص النظام السياسي مثلا فقد بدأ على الأقل في القرن الرابع قبل الميلاد، ولم ينته إلا باغتيال العاهل الموري "ابطوليمي". أغلب الدلائل الأثرية تؤرخ للمدن المغربية العتيقة بما قبل القرن الرابع قبل الميلاد، وتفيد إلى أن أغلب المدن التي كانت موجودة بالمغرب قبل الاحتلال الروماني تعرضت للتدمير على يد جيوش الإحتلال، و بعضها تحول إلى تكنات عسكرية مثل تامودا وتاموسيدا. ويمكن القول بأن الاستعمار الروماني قد قام بزعزعة الاستقرار السياسي وبعسكرة البلاد وبشل حركة النمو الداخلي الطبيعية.

خلاصة :

إن القيام بدراسة تحليلية وتركيبية لتاريخ علم الآثار بالمغرب، موضوعا ومنهجا وتحليلا، مسألة مهمة وأساسية في التعاطي مع هذا الإرث الثقيل، القديم والمتجدد، الذي لا زال يشكل المنظومة المرجعية الأساسية لمقاربة تاريخ المغرب

الحضاري والمادي. ويحق القول أن محاولة إعطاء صبغة مغايرة لتاريخ وحضارة المغرب، بعيدة عن النظرة الاستعمارية، تبدأ بالقيام بدراسة نقدية تركيبية لأكثر من قرن من الدراسات الأثرية التي شوهت بشكل كبير الصورة الحقيقية لتاريخ المغرب، (النشيوي، 1996أ). نعتقد، "مثل عدد كبير من الذين يدرسون تاريخ علم الآثار، أن النظرة التاريخية توفر موقعا على غاية من الأهمية، يمكن من خلاله معالجة العلاقات المتغيرة بين التحليل الأثري وبيئته الاجتماعية"، (اتريغر،1992: 15).

نرى أن التراكم المعرفي التدريجي الذي اكتسبه ولا زال يكتسبه علماء الآثار المغاربة، والحوار العلمي الجاد الذي لا شك أنه سيفرض نفسه أكثر في السنوات المقبلة قمينان بأن يلفتا الانتباه حول مجموعة من الطروحات التي كانت تعتبر إلى حدود الأمس القريب حقائق ثابتة لا يشوبها الشك. ولربما، وهذا اعتقادنا، سيدفع ببعض الدارسين إلى تجديد الرؤية وتبني منهج جديد لمقاربة الإشكاليات من زوايا مغايرة، متعددة ومتكاملة، لأن النظرة المتبعة إلى حدود الآن تبقى في أقصاها نظرة أحادية الجانب، ومتناقضة مع السياق الحضاري العام والخاص الذي عرفته ومرت به البلاد.

المراجع:

العربي النشيوي، 1998أ: "قرن من علم الآثار الاستعماري بالمغرب"، السياسة الجديدة، العددان 181-182.

العربي النشيوي، 1998ب: "التاريخ وعلم الآثار كانا دائما هدف العرب الحضارية الغربية ضد الأمة العربية"، جريدة العلم، العدد 17523.

العربي النشيوي، 1999أ: "البقايا الأثرية الرومانية وإيديولوجية الاستعمار الفرنسي"، جريدة السياسة الجديدة، العدد 257.

العربي النشيوي، 1999ب: "التطور الحضاري والاستعمار وعلم الآثار بالمغرب العربي"، جريدة العلم.

العربي النشيوي، 1999ج: "حركة التحرير المغربية وأجوبة مدرسة علم الآثار العربي النشيوي، 1999د: "الجنرال ليوطي وبداية الأوراش الكبرى للتنقيبات الأثرية بالمغرب"، جريدة العلم.

الفرنسي بالمغرب"، جريدة العلم.

سمير أمين، 1988: نحو نظرية للثقافة غير أوروبية التمركز، "الوحدة، العـــدد 51، ص. 124-125)

Boube, J., 1967: "Documents d'architecture mauretanienne au Maroc", B.A.M., t. VII, pp. 263-367.

- Cagnat, P., 1977: "L'annone d'Afrique", Les cahiers de Tunisie, t. xxx, pp. 205-235.

- Camps, G., 1960: "A propos d'une inscription: les suffetes de Volubilis aux IIIe et IIe siecles av. J.-C. Notes et documents", BAM, t. IV, pp. 423-426.

- Carcopino, J., 1943: "Le Maroc Antique", Paris.

- Christol, M., et Gascou, J., 1980: "Volubilis, cite fedeer", M.E.F.R.A., t. 92. 1, pp. 329-345.

- Christol, M., 1985: "Les hommages publics de Volubilis: epigraphie et vie municipale". L'Africa Romana. Atti del convegno di studio Sassari, 13-15 dicembre 1985 a cura di Attilio Mastino, pp. 83-96.

- Christol, M., 1987: "Rome et les tributs indigenes en Mauretanie Tingitane", A.A., t. 23, pp. 306-337.

- Cintas, P., 1954: "Contribution a l'etude de l'expansion carthaginoise au Maroc", Publication de l'Institut des Hautes-Etudes marocaines, t. LVI, Paris.

- Doutte, E., 1914: "Missions au Maroc en tribu", Paris.

- En-Nachioui, 1995: " Las primiras excavaciones en Volubilis (Marruecos): Arqueologia, historia o simple colonizacion", Pyrenae, Numero 26, pp. 161-170.

- En-Nachioui, E., 1996: "Aportaciones al estudio de la romanizacion de la Mauritana Tingitana; un siglo de la arqueologia colonial", Tesis Doctoral, Departamento de Prehistoria, Historia Antigua y Arqueologia, Facultad de Geografia y Historia, Universidad de Barcelona, 12 fevrier 1996.

- En-Nachioui, E., 1996-1997: "Mauritania Tingitana: romanizacion, urbanizacion y estado de la cuestion", Homenatge al Dr. P. Palol i Salellas, a Girona, desembre de 1995 (Annals de l'Institut d'Estudis Gironins. Vol. XXXVII, pp. 783-793).

- En-Nachioui, E., 1997: "Historia del concepte d'urbanitzacio aplicat al Marroc", Cota Zero, Numero 13, pp. 117-124.

- En-Nachioui, E., 2000a: "Un bilan de recherche ethno-archeologique dans la zone de Chefchaouen, et perspectives pour la valorisation du patrimoine marocain", Colloque du Developpement durable au Maghreb, l'ouverture sur la Mediterranee et la valorisation du Patrimoine ecologique, humain et culturel, 27-29 avril 2000, Rabat, (en presse).

- En-Nachioui, E., 2001: "Approche a l'archeologie phenicienne et punique au Maroc", V Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici. Palermo.Marsala 2-8 ottobre 2000, (en presse).

- Euzennat, M., 1957: "Le temple C de Volubilis et les origines de la cite", BAM, t. II, pp.41-64.

- Euzennat, M., 1965: "Heritage punique et l'influence greco-romaines au Maroc a la veille de la conquete romaine", Huitieme Congres International, d'Archeologie.

Le Rayonnement des civilisations Greque et Romaine sur les cultures perifiriques, Paris, pp. 261-278.
- Faddadi, B., 1991: "Chapiteaux de Volubilis: etude de decor architectural", Aix-en-Provence.
- Fevrier, L.-G., 1955-56: "Inscription punique du Maroc", BCTH, pp. 29-35.

- Fevrier, P. A., 1989: "Approches du Maghreb romain, pouvoirs, differences et conflits", I. Aix -en-Provence.
- Gascou, J., 1978: "La succession des Bona Vacantia et les tribus romaines de Volubilis", A. A., t. 12, pp. 109-124.
- Gascou, J., 1982: "La politique municipale de Rome en Afrique du Nord. I. De la mort d'Auguste au debut du III siecle", Aufstieg und Niedergang de Romischen welt de Gruyter II-102, pp. 136-229.
- Lenoir, E., 1986: "Les fossiles directeurs et l'histoirre des sites", Academie des Inscriptions des Belles-Lettres, pp. 239-245.
Lenoire, E., 1990; "Volubilis et son territoireau 1er siecle de notre ere: l'occupation des campagnes", Actes du Colloque sur l'Afrique dans l'occident romain, (Rome 1987), M.E.F.R., pp. 219-229.ýý
- Luquet, A., 1956: "Prospection punique de la cote atlantique du Maroc", Hesperis, pp. 117-137
- Piquet, V., 1921: "Les civilisations de l'Afrique du Nord: Berberes-Arabes-Turcs", Paris.

- Rebuffat, R., 1986a: "Recherches sur le bassin du Sebou", Academie de Inscriptions et Belles-Lettres, pp. 633-661).
Rebuffat, R., 1986b: "Plaine et montagne en Tingitane Meridionale", Academie des Inscriptions des belles-Lettres", pp. 219-238.
- Roget, R., 1924: "Le Maroc chez les auteurs anciens", Paris.
- Sanine, A., 1911, "Le maroc il y a cent ans. (Souvenir du chirurgien W. Lempiere)", Paris.
- Taradell, M., 1960: "Historia de Marruecos: Marruecos punico", Tetuan.
- Thouvenot, R., 1939: "Les incurtions des Maures en Betique sous le regne de Marc-Aurele", R.E.A., pp. 20-28.
- Thouvenot, R., 1945: "Rome et les Barbares africains. A propos d'une inscription de Volubilis", P.S.A.M., VII, pp. 166-183.
- Thouvenot, R., 1949: "Volubilis", Paris.
- Tissot, Ch., 1877: "Recherches sur la geographie comparee de la Mauritanie Tingitane", Paris.
- Trigger, B. G., 1992: "Historia del pensamiento arqueologico", Barcelona.

أمل مجلتكم

اقرأوها

ساندوها

اشتركوا فيها

العصور القديمة في المنظومة التربوية

عمر علمي امراني*

من بين الأدوار التي تناط بالجامعة عامة نذكر الاهتمام بملامسة مناطق الإبداع في ذوات مريديها، والعمل على تعهدها وصقلها مع الحرص على إضفاء رصانة البحث على المادة موضوع الدراسة.

ويترجم هذا الدور علمياً بضرورة تجاوز المعطى إلى البحث في الجذور وبالترفع عن الأجزاء إلى الكل وبوضع المادة على محك مقياس مدى درجة الانتفاع بها وتوظيفها في إطار يخدم الجامعة ومحيطها، وبهذا سنتجنب تقديم تعليم يلي تعليماً آخر أو الاهتمام بملء الذاكرة عوض الاعتناء بتثقيف العقل.

وقد توقفت ورقة العمل التي تتعلق بهذا اليوم الدراسي "البحث في التاريخ القديم" في إبراز أهم القضايا التي ترتبط بهذا الموضوع ولا سيما أنه لأول مرة ينصب المجهود في محاولة لضبط المشاكل والمعيقات وتسجيل الملاحظات التي تهدف إلى العمل على تجاوزها.

* – أستاذ باحث بكلية الاداب – مكناس.

في هذا الإطار يتم التعامل مع موضوع "العصور القديمة في المنظومة التربوية" انطلاقاً طبعاً، مما نسجله باستمرار من ملاحظات لها علاقة بالموضوع على مستوى التعليم الجامعي، من قبيل اتهام المادة بالصعوبة والتعقيد إضافة إلى مشكل المصطلح عامة وكذا تصور الزمن في علاقته بمسألة المنظور التاريخي عند المقارنة بين العصور القديمة والعصور الأخرى وما يثيره ذلك من تساؤلات.

وإذا كنا ندرك بعض المشاكل المرتبطة بالموضوع في الجامعة عن قرب، فإنه يجب كذلك تتبع الموضوع في مرحلة ما قبل الجامعة، وهذا ما يدفعنا إلى طرح بعض الأسئلة مثل:

– ما هو موقع العصور القديمة في المقررات التعليمية لما قبل الجامعة؟ في محاولة لرصد ثم تجاوز المشاكل التي يمكن أن تعترض تدريس العصور القديمة بصفة عامة.

– وكيف يمكن تقريب مفهوم هذه العصور من التلميذ شكلاً ومضموناً ومنهجاً بطريقة علمية؟

فما المقصود بالعصور القديمة؟

إذا سلمنا بعملية التحقيب المتداول والتي يقسم الخط الزمني تبعاً لها، إلى عدة محطات؛ فإننا نجد العصور القديمة من بينها تشغل الحيز الزمني الأكبر ويقدر بآلاف السنين. إضافة إلى ما تتخللها من محطات حضارية تعتبر جد مهمة في سلم التطور الحضاري الإنساني. ويمكن حصر هذه العصور بين أقدم آثار خلفه الإنسان وظهور الكتابة في الألف الرابعة قبل الميلاد في أرض ما بين النهرين ومصر[1]. وعليه يمكن التمييز فيها بين مرحلتين كبيرتين هما: مرحلة ما قبل الكتابة أو مرحلة ما قبل التاريخ ثم مرحلة أخرى ابتداء من ظهور الكتابة إلى بداية العصور الوسطى أو التاريخ القديم.

إن التعامل مع هذه العصور يعني الاهتمام بالإنسان في بيئته لأن الحضارة، بصفة عامة، نتاج تفاعل الإنسان مع بيئته بظواهرها الجغرافية المختلفة حسب

الزمان والمكان[2]. وبهذا فالإنسان تاريخي بجوهره وهي خاصية تجعل منه يتعامل مع الماضي فيتذكره ويمكن أن يسجله بل أكثر من ذلك فهو مؤهل لكي يؤثر في الواقع ويتأثر به[3]. وهو أيضا تاريخي لأنه يعمل في الزمان بمعنى الزمن الإنساني "أي عمر الجنس البشري فوق كوكب الأرض"[4].

والتعامل مع هذه العصور أو غيرها يتطلب أيضا وعيا صافيا ومجابهة صادقة وعميقة لكي يصبح المهتم قادرا على الإنتاج. وهذا يفرض أن لا يكون التأريخ مجرد رواية للأحداث وتكرار للأخبار بل يتعداه إلى استجلاء معانيها وإلى تبيان آثارها في الحياة الحاضرة والمستقبلية بهدف تبين المصير وأعداده والتحكم فيه[5].

فما هي الخطوة الأولى؟

تتمثل هذه في التشبث بالنظرة العلمية الثاقبة التي لا تقبل غير العقل وسيلة وما يرتبط به من حقيقة كهدف. وهذا يقتضي التعامل مع الماضي بطريقة تبعد الفكرة المسبقة أو الفلسفة المفروضة أو الحكم الجاهز، وتعتمد على استحضار الماضي من أصوله اعتمادا على شواهده المادية والمكتوبة[6]. فتخضعها للفحص والتدقيق والنقد حسب قواعد العلم وأحكام العقل ثم العمل على ربط الحقائق النسبية المتوصل إليها فيما بينها لرسم صورة الماضي بمعنى الماضي الضروري لفهم الواقع والمفيد في صياغة المستقبل[7]. وكل هذا لتفادي كل حيرة أو اضطراب يمكن أن ينتج عن السؤال الخطير الذي يواجهنا باستمرار وهو أي ماض نريد إحياءه؟

العصور القديمة في مرحلة ما قبل الجامعة

سنركز على هذه المرحلة لأنها أساسية وأرضية ضرورية للتعامل مع الموضوع فيما بعد. فما هي المعطيات والأهداف المرسومة ثم الملاحظات أو المقترحات المرتبطة بالموضوع؟.

يلتقي التلميذ المغربي بأول إشارة عن التاريخ القديم عامة في السنة الأولى ثانوي، ويشتمل البرنامج في هذا المستوى عموما على مدخل وثلاث محاور، وما يرتبط بالعصور القديمة لا يتعدى المدخل والمحور الأول.

ويهدف المدخل إلى « إعطاء نظرة عامة عن التطورات الحضارية الكبرى التي عرفها الإنسان الأول خلال عصور ما قبل التاريخ » (8).

أما المحور، الذي يدور حول الملامح التاريخية والحضارية للعالم في العصر القديم، « فيتم التركيز فيه على نماذج اختيرت من الحضارات القديمة وخاصة منها حضارات منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، التي تعد من أعرق الحضارات العالمية » (9). وترجم ذلك على شكل دروس كالآتي (10):

- المظاهر الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للحضارات القديمة.
- الحضارة القرطاجنية في شمال إفريقيا.
- شمال إفريقيا بين الممالك الأمازيغية والحكم الروماني.

إن الأهداف المرسومة والمسطرة في دليل البرامج والتوجيهات التربوية الخاصة بتدريس الاجتماعيات بالتعليم الثانوي (11) والمرتبطة بالعصور القديمة على الخصوص، تجعل المهتم يدرك أنها أهداف جد طموحة وجد هامة، إلا أن السؤال المطروح هو هل يمكن بلوغها حقا؟ والسؤال هنا، طبعا، يرتبط بمدى توفر الشروط الضرورية لذلك ولو على المستوى المعرفي الذي تركز عليه الأهداف النوعية لمادة التاريخ في هذا المستوى(12).

لكن بعض الملاحظات تجعلنا نشك في ذلك، وتتلخص، في كون الحيز المخصص للعصور القديمة والمادة المقترحة لن تتمكن من بلوغ تلك الأهداف، لأنها قليلة جدا بالنظر لتلك الأهداف من جهة وكثيرة جدا إذا ما قورنت بالحيز الزمني المخصص لها في إطار مقرر السنة الأولى ثانوي من جهة أخرى؛ الأمر الذي سيحدث نوعا من القلق إن على مستوى المرسل أو المستقبل، وهو اضطراب مرتبط بمحاولة إعطاء الكثير في وقت وجيز سيما إذا وضع جدول تاريخ الامتحان

كهدف رئيسي في العملية. ناهيك عما يمكن أن ينتج عن ذلك من خلل، أو تقصير عند إهمال بعض العناصر المساعدة لإنجاح العملية التربوية.

إن رسم أهداف معرفية تتطلب شروطا لبلوغها، فالمعرفة تقتضي، حسب بلوم، التذكير بالأحداث الخاصة والطرق والمناهج وكذلك البنيات النظرية. وعلى الذاكرة، من الناحية البيداغوجية، صيانة تلك المعلومات. إذن فهي مرتبطة أكثر بالمرسل الذي يخبر، على خلاف الأهداف التكوينية كعناصر الفهم والتطبيق والتحليل والتركيب والتقييم التي ترتبط بالمستقبل كمساهم فعال في اكتساب الخبرة.
إن عنصر المعرفة يتطلب شروطا أساسية مثل:

– معرفة المعطيات الخاصة، التي يتوخى منها التذكير بوحدات إخبارية وخصوصية كقاعدة ينطلق منها لتنمية أعمال أكثر تركيبا وتعقيدا: مثل معرفة المصطلحات أو معرفة الأحداث الخاصة كما جاءت في تصنيفات بلوم المشهورة.

وإذا كانت المعطيات المرتبطة بعنصر المعرفة في هذا الاتجاه يعهد بها إلى ذاكرة التلميذ فإنه يمكن استعمالها فيما بعد في إطار تكوين فكري حقيقي. إلا أنه لتسهيل العمل على الذاكرة، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الحيثيات الآتية:

– ضرورة ترتيب المادة ترتيبا منطقيا مع الإيجاز وتشجيع المستقبل إلى جانب التكرار واستغلال بعض العناصر التي تساعد المستقبل على التذكر. فهل تتوفر مثل هذه الأرضية للتلميذ لكي يستطيع ولوج أبواب عناصر التكوين في الثانوي أو في الجامعة؟ المهم أن نعمل دائما، في مستوى أعلى، على تفادي بعض الأهداف التي تم تجاوزها في مستوى سابق.

وإذا رجعنا لمستوى السنة الأولى ثانوي يمكن أن نعتمد ما جاء في المدخل كمثال ونتناوله بعد أن نعيد ترتيب أهم عناصره كالآتي:

– **ما قبل التاريخ: – الإنسان الأول – التطورات الحضارية الكبرى.** وقد سبقت الإشارة إلى أن العصور القديمة عامة قسمان يفصل بينهما ظهور الكتابة. والتحديد في هذه العصور يتم أساسا اعتمادا على بعض الظواهر الحضارية، مثل الكتابة

هنا، لما تحدثه مثل هذه الظواهر من تحولات واضحة تجعل الباحث يدرك التغيير الذي حدث ويميز بين مرحلة سابقة وأخرى لاحقة أعقبتها سلبا أو إيجابا. وهكذا فمرحلة ما قبل الكتابة أو ما قبل التاريخ تبتدئ مع أقدم ما عثر عليه من مخلفات الإنسان وليس بظهوره كما يتداوله البعض. وعليه فإن المهتم بهذه العصور سوف يركز على الشواهد المادية الصرفة، بينما المهتم بمرحلة ما بعد ظهور الكتابة على شواهد مادية وأخرى مكتوبة. ومن هنا جاء التمييز بين عصور ما قبل التاريخ وعصور التاريخ. الأمر يوضح أن هذين المصطلحين يحملان معنى منهجيا أكثر منه تقسيما زمنيا صرفا وإن كان هذا لا يتناقض مع ذلك أيضا لأن ما حدث يرتبط بالإنسان في الزمان والمكان.

انطلاقا من كل ذلك فإن دارس ما قبل التاريخ سوف يتعامل مع البيئة الطبيعية التي عاش فيها الإنسان منذ مراحله الأولى كما يهتم بمخلفاته لفهم ماضيه. وأنماط عيشه وما عرفه من تطورات خلاله. وكل هذا يفرض على هذا الباحث التعامل مع علوم أخرى لتساعده على القيام بذلك مثل علم الجيولوجيا والمناخ القديم والحفريات القديمة والأنثروبولوجيا والإتنولوجيا والأركيولوجيا، والنبات القديم والحيوان القديم والبيدولوجيا ثم العمل على التنسيق والتوفيق بين نتائجها المختلفة.

ـ **الإنسان الأول**[13] وهو الذي يتميز بصفة عامة بكونه منتصب القامة أي يقف على قدمين ويحسن استخدام يديه وله عقل يفكر به ولسان يتفاهم به مع غيره من البشر. وقد مر الإنسان بمراحل تطور مهمة تشهد على ذلك التطورات التي عرفتها جمجمته وأدواته وصناعاته المختلفة حسب العصور وكذلك حسب بيئاته المختلفة.

أما الحديث عن التطورات الحضارية الكبرى[14]، فيقتضي ضبط محطات التطور التي عرفها الإنسان القديم، حسب ما قدمه لنا الباحثون الأركيولوجيون والباحثون الآخرون كل في مجال تخصصه. وبعد تصنيف مختلف اللقى التي عثر عليها بمختلف المواقع القديمة، اتضح أن الإنسان مر بمرحلتين أو عصرين رئيسين هما:

● مرحلة استخدام الحجر وتضم مرحلتين:

ـ العصر الحجري القديم (الباليوليتيك) بأقسامه الثلاثة : الأسفل ـ الأوسط ـ الأعلى.

ـ العصر الحجري الحديث.

● مرحلة استخدام المعدن، ويقسم بدوره إلى:

ـ عصر نحاسي ـ عصر برونزي ـ عصر حديدي.

مع الإشارة إلى وجود فترتين مشكوك في أمرهما ربما لأنهما انتقاليتان ليس لهما بداية واضحة:

الأولى تعرف بفجر الحجري (أبوليتيك) قبل المرحلة والثانية هي العصر الحجري المتوسط (الميزوليتيك) بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث. كل تلك العصور الحضارية لها خصائصها ومظاهرها في شتى المجالات كنتيجة موضوعية لتفاعل الإنسان مع بيئته »(15). مع إشارة مفادها أنه يجب أن لا نعتبر أي عصر حضاري عصرا مطلقا مرت به الإنسانية في كل مكان في وقت واحد، ذلك أن البداية والنهاية تختلف من إقليم لآخر.

أما فيما يتعلق بمجال التاريخ فإننا نجد المحور المتعلق به «يختص بالعصر القديم، حيث يتم التركيز فيه على نماذج اختيرت من الحضارات القديمة، وخاصة منها حضارات منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط التي تعد من أعرق الحضارات العالمية ... »(16).

قبل كل شيء تجب الإشارة إلى أن الأزمنة التاريخية مرحلة قصيرة جدا بالمقارنة مع أزمنة ما قبل التاريخ بنسبة حوالي 1 على 100 أو أقل.

أما فيما يخص تلك المقدمة فإن ما يثير الانتباه فيها يتمثل في كونها تجمع بين تيارين متناقضين في دراسة الحضارة. فهي تختار نماذج من الحضارات القديمة فتركز عليها من جهة وتهتم أكثر بحضارات منطقة حوض البحر المتوسط من جهة أخرى، والتيار الأول نجده يساير الرأي الذي ينادي بوجوب «دراسة

تاريخ الأمم التي بلغت الحضارة فيها أعلى ذروة يمكن أن تصل إليها في أي مكان من العالم»[17] وبالتالي فهو يدعو للاهتمام فقط بدراسة حضارات القمم وإهمال ما دونها، إلا أنه لو سرنا في هذا الاتجاه فإننا سوف نجحف بحق الحضارات "الأقل شأنا" والمعاصرة لها[18]. ناهيك عما تحمله من معان لاستعراض القوة والتعصب واحتقار الآخرين. أما التيار الثاني فيدعو إلى دراسة التاريخ والحضارة على أسس التقسيمات الطبيعية وهو اتجاه مقبول على اعتبار أن الأساس الجغرافي يمثل علم المكان وهو ركن مهم من أركان الظاهرة التاريخية ولأن البيئة تعتبر مسرح العملية التاريخية [19]. وبهذا يمكن أن نتجاوز حتى المشاكل الأخرى التي يطرحها اعتماد الأساس العرقي أو اللغوي أو السياسي أو غيرها في موضوع دراسة الحضارات. صحيح يمكن أن يواجهنا في بعض الأحيان مشكل انتشار الحضارة على أكثر من إقليم إلا أنه يمكن تجاوزه بالتركيز على المنطقة الأم. وهكذا يبقى اعتماد أساس الإقليم الجغرافي الاتجاه الأقل خطورة بل والأسلم، وكمثال على هذا نجد منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط تشكل وحدة جغرافية وحضارية واضحة المعالم وهي التي تشمل حضارة مصر وساحل آسيا الصغرى وبلاد الإغريق وبلاد الرومان وإفريقيا الشمالية إضافة إلى الجزر ككريت وقبرص وجزر بحر إيجه.

التاريخ القديم كمصطلح.

ظل الدارسون في أوروبا زمنا طويلا يعتبرون تاريخ الإغريق والرومان يطابق التاريخ القديم، وكان هذا الاعتقاد، طبعا، مرتبطا بمسألة الانتماء الجغرافي والأساس الثقافي والموقف العاطفي[20]. إلا أنه قد تم التراجع عن هذا الاعتقاد بعد الاطلاع على الحضارات الشرقية والتأكد بأن الحضارتين اليونانية والرومانية تشمل بدورها عناصر كثيرة ومتنوعة من الحضارات الشرقية[21]. وهكذا نستخلص أن مصطلح التاريخ القديم بمعناه الواسع حديث العهد. وإن استعملت مصطلحات أخرى في نفس معناه مثل:

- العصر الجاهلي في شبه الجزيرة العربية.

ـ أو عصر ما قبل الإسلام في ش. ج. العربية وإفريقيا الشمالية.
ـ أو تاريخ الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق وسوريا وفلسطين وتركيا وإيران.
ـ أو تاريخ الإغريق والرومان في حوض البحر المتوسط.

إلا أن فحص كل مصطلح على حدة يبين لنا ما يمكن أن نقع فيه من خلط وسوء فهم إذا لم نضع تلك المصطلحات في إطارها الصحيح، ناهيك عما يمكن أن يحمله هذا المصطلح أو ذاك من التباس ومن أفكار مسبقة أو مواقف معادية لجماعات بشرية معينة أو لحضارتها؛ ذلك أن الاهتمام بالتاريخ القديم في بعض الأحيان اتجه اتجاها لا يخلو من أهداف يمكن أن تصبح جد خطيرة إذا لم يتم التحكم في مناهجه وطرق تدريسه والبحث فيه، ومن بين الأمثلة على ذلك نجد أن الاستعمار الغربي قد شجع على إحياء هذا التاريخ بالمعنى القطري بهدف بعث العصبيات القديمة وجعل كل قطر يفاخر البلد الآخر بمجده العريق، وهذا كاف لبث روح الإقليمية والشعوبية الضيقتين وخلق جيل من المتعصبين ثقافيا وسياسيا.

وكذلك الأمر بالنسبة لمصطلح "عصر ما قبل الإسلام" فإذا دققنا النظر في هذا المصطلح فسوف نجده يتعامل مع هذه العصور وكأنها لم تعرف رسالات سماوية قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بل نجده كذلك لم يعط لكلمة إسلام بعدها ومدلولها التاريخي الاعتقادي. ويكفي أن نقرأ قوله تعالى: ﴿وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون﴾ [22].

وقال سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ [23].

وعلى لسان موسى عليه السلام: ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ [24].

بصفة عامة، يبرز السياق في ثنايا هذا العرض التاريخي:

أن الإسلام ــ بمعنى إسلام الوجه لله وحده ــ كان هو الرسالة الأولى، وكان هو الرسالة الأخيرة... هكذا اعتقد نوح عليه السلام وهكذا اعتقد إبراهيم ومن بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى ... ثم آلت أخيرا إلى ورثة إبراهيم من المسلمين مع رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

ونستخلص من كل هذا أن مصطلح "ما قبل الإسلام" مصطلح في غير محله لأنه يجعل تاريخ المنطقة العربية تاريخا وثنيا جاهليا لا أثر فيه للإسلام ولا لرسالات سماوية قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ومن الأفيد استبداله بمصطلح "قبل البعثة المحمدية" أو ما قبل الفتح الإسلامي في منطقة شمال إفريقيا.

وعن هذه المنطقة الأخيرة فإنه يبدو أن الموضوعين المشار إليهما في محور التاريخ القديم في مستوى السنة الأولى ثانوي لا يفيان بالغرض والمطلوب لإعطاء أرضية صحيحة وسليمة لدراسة تاريخ المنطقة في هذه المرحلة، ذلك أنه لابد من دراسة المسرح الجغرافي للمنطقة منذ أقدم العصور ثم دراسة التطورات الحضارية التي عرفتها المنطقة أثناء عصور ما قبل التاريخ. إضافة إلى التغيرات التي طرأت على المجتمعات الرعوية الزراعية في شمال إفريقيا من عصر المعادن، وكذلك الأدوار التي لعبتها العناصر المهاجرة إلى المنطقة وما ترتب على ذلك إلى تأسيس المدن الفينيقية. بعد ذلك يمكن تتبع آثار الحضارة اليونانية الرومانية في المنطقة وانعكاسات الضغوطات الأجنبية على المنطقة في شتى المجالات ورفض سكان المنطقة الانحلال في حضارة الغزاة الذين احتلوا البلاد بالقوة وهو تعبير صحي عن إرادة الإنسان في التحرر من السيطرة الأجنبية والتمسك بالخصائص الذاتية والحضارية.

صحيح لا يمكن القيام بكل هذا إلا إذا أعيد الاعتبار لدراسة هذه العصـــور القديمة بدراستها دراسة علمية سليمة تأخذ بعين الاعتبار أبعادها المختلفة في الزمان والمكان مع تجاوز تلك النظرة السطحية التي تختزل آلاف السنين في بضع فقرات.

وبصفة عامة فإن العصور القديمة جزء لا يتجزأ مـــن المـــاضي وأســـاس للعصور التي أعقبتها، الأمر الذي سيجعل من دراستها ومحاولـــة فهمـــها بطريقـــة علمية، خدمة لهذه وإسهاما في تطور البحث فيها وفي فهمها وحل بعض مشـــاكلها، ومن الواجب إعطاؤها ما تستحقه من عناية في منظومتنا التربوية.

الهوامش:

(1) ــ سرتون، تاريخ العلم، دار المعارف بمصر، ط 3، 1976، ج 1، ص. 76 و152.

(2) ــ د. رشيد الناضوري، تاريخ المغرب الكبير، ج 1، العصور القديمة، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص. 49.

(3) ــ قسطنطين زريق، نحن والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط 3، 1974، ص. 22.

(4) ــ د. مصطفى أبو ضيف أحمد، منهج البحث التاريخي بين الماضي والحاضر، مطبعة النجاح الجديدة، ط 1، 1987، ص. 8.

(5) ــ قسطنطين زريق، المرجع السابق، ص. 23.

(6) ــ عبد الرحمان بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالات المطبوعات، الكويت، ط 3، 1977، صص. 183 ــ 184.

(7) ــ د. حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، دار المعارف بمصر، ط 4، 1976، ص 81 وما بعدها.

(8) ــ برنامج وزارة التربية الوطنية المعتمد منذ 94، ط. 1999 ــ 2000، ص. 3.

(9) ــ نفس المرجع السابق، ص. 3.

(10) ــ نفس المرجع السابق، ص. صص. 16 ــ 46.

(11) ــ البرنامج والتوجيهات التربوية الخاصة بتدريس الاجتماعيات بالتعليم الثانوي، 1994، صص. 9 ــ11.

(12) ــ نفس المرجع السابق، صص. 9 ــ 10.

(13) ــ Jan Jen Linek, *encyclopédie illustrée de l'Homme préhistorique*, Gründ, Paris, 1975, Ch. I. II. III. IV.

د. محمد رياض، الإنسان، دراسة في النوع والحضارة، دار النهضة العربية، ط 2، بيروت، 1974، صص. 88 ــ 119.

(14) ــ نفس المراجع السابقة ونفس الصفحات.

(15) ــ د. محمد رياض، المرجع السابق، ص. 112 وما بعدها.

عبد الفتاح محمد وهيبة، **مصر والعالم القديم، جغرافية تاريخية**، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص. 83 وما بعدها.

(16) ــ برنامج وزارة التربية الوطنية للتاريخ، السنة الأولى الثانوية، **المرجع السابق**، ص. 3.

(17) ــ سيد أحمد الناصري، **قضية التاريخ القديم**، المكتبة الثقافية، ع 272، 1971، ص. 52.

(18) ــ **المرجع السابق**، ص. 53.

(19) ــ مصطفى أبو ضيف، **المرجع السابق**، ص. 10.

(20) ــ سيد أحمد الناصري، **المرجع السابق**، صص. 110 ــ 112.

(21) ــ جورد سارتون، **تاريخ العلم**، **المرجع السابق**، ص. 242 و صص. 246 ــ 271.

جعفر آل ياسين، **فلاسفة يونانيون**، مكتبة الفكر الجامعي، بيروت، ط 2، 1975، ص. 17.

(22) ــ سورة البقرة، الآيتين: 131 ــ 132.

(23) ــ سورة يونس، الآية: 72.

(24) ــ سورة يونس، الآية: 84.

دراسة التاريخ العربي القديم
وأثره على الحضارة الإنسانية

علي العشاق*

مقدمـــة

تكمن أهمية التاريخ القديم في كونه الدعامة النظرية لكل ممارسة سياسية واجتماعية واقتصادية معاصرة. وفي محاولة معرفة الماضي الإنساني لاستخلاص العبر أولاً، والوقوف على ما حققته البشرية في سيرورتها التاريخية من تقدم في شتى المجالات التي تتماشى وطبيعة الإنسان(1).

أما الحضارة فهي مختلف أنشطة وسلوك الإنسان التي لا تعتبر أفعالاً انعكاسية فطرية أو غرائزية. وهي تشمل مظاهر متعددة منها اللغة والدين والأخلاق والنظم والعادات والتقاليد القانونية والاقتصادية والاجتماعية والفنون على اختلافها والصناعة وكل ما يجب على الإنسان أن يتعلمه من إخوانه أفراد مجتمعه(2).

انطلاقاً مما تقدم نستنتج أن التاريخ والحضارة مرتبطان أحدهما بالآخر أشد

* أستاذ باحث بكلية الآداب – مكناس.

ارتباط، ولا يستطيع الإنسان أن يتحدث عن الحضارة حديثا معقولا إلا إذا عـرف ماهية التاريخ معرفة معقولة(3). لذا كانت دراسة الماضي أساسية لنـهوض الـدول خاصة وأن التاريخ القديم بوجه عام يشمل القسم الأعظم من تاريخ الإنسـان حيـث استغرق حوالي 96 % من تاريخ البشرية.

وقد بدأ هذا التاريخ في أقدم ظهوره قبل مئات الآلاف من السنين، أما نهايته فتختلف من منطقة إلى أخرى، وباعتبار الأحداث الهامة التي وقعت في كل منطقـة من العالم وغيرت مجرى التاريخ العام.

زمنية التاريخ القديم

ففي الشرق الأدنى ينتهي التاريخ القديم عند الفتح العربي الإسـلامي فـي القرن السابع الميلادي، وانتشار العرب المسلمين في مختلف أرجاء المنطقة ويبـدأ التاريخ الحديث مع بداية التاريخ العربي الإسلامي. أما في أوربا فقـد عـد تـاريخ سقوط روما عام 476 م نهاية للتاريخ القديم فيها. وفي المناطق الأخرى من العـالم تختلف نهاية التاريخ القديم حسب التطورات التاريخية الهامة في كل منطقة.

ومن التقسيمات الأخرى التي استخدمت للتمييز بين العصور المختلفة التـي مرت على الإنسان، تقسيم العصور إلى عصـور مـا قبـل التـاريخ والعصـور التاريخية. وقد عد تاريخ ابتداع الكتابة كوسيلة للتدوين حدا فاصلا بين عصور مـا قبل التاريخ والعصور التاريخية. وحيث أن تاريخ الكتابة لم يكن في فـترة زمنيـة واحدة في مختلف أرجاء العالم، لذا فإن بداية العصـور التاريخيـة تختلـف هـي الأخرى من منطقة إلى أخرى تبعا لتاريخ ابتداع الكتابة في المنطقة المعنيـة. ففـي العراق كان اختراع الكتابة أواسط الألف الرابع قبل الميلاد (3500 ـــ 2833 قم)(4). وفي مصر كان أواخر الألف الرابع قبل الميلاد(5). بينما في اليونان كان في حـدود القرن التاسع قبل الميلاد. وفي الأجزاء الشمالية من أوربا ظلت الكتابة غير معروفة حتى القرن الأول قبل الميلاد.

مصادر التاريخ العربي القديم

إلى غاية القرن التاسع عشر، لم يكن معروفاً عن هذا التاريخ سوى ما ورد في كتاب التوراة والمصادر الكلاسيكية لمؤلفين يونانيين ورومانيين، وما ذكره الرحالة والسياح الأوربيين الذين أتوا للشرق الأدنى في زيارات متعاقبة منذ القرن الثاني الميلادي فصاعدا، أو ما كان رائجاً من أساطير وخرافات تحكي أحداث المنطقة ويتعلق أغلبها بالجانب العقائدي لسكان بلاد الشرق الأدنى القديم.

ولم تبدأ التحريات الأثرية ببلاد الشرق الأدنى إلا عام 1842 وكانت هذه البداية مرحلة تنقيبات الهواة التي تميزت بالنبش والحفر المشوش البعيد عن الأساليب العلمية المتبعة في علم الآثار. وكان المنقبون في هذه المرحلة قناصل لبلدانهم ووكلاء تجاريين. أما التنقيبات العلمية فلم تبدأ إلا سنة 1889 بالتنقيبات الألمانية بمدينة بابل العراقية(6).

وإذا كانت هذه هي مصادر التاريخ العربي القديم، فإن الحقائق التاريخية لم تصلنا كاملة ولا مطابقة كما وقعت. فقد نقلت إلينا من خلال كتابات وأعمال متعددة قام بها مؤرخون وغير مؤرخين، جلها كانت أوربية وبقيت إلى عهد قريب (القرنين الأخيرين)، حيث كان لمجموعة المؤسسات الفكرية والجامعية الغربية دور الريادة ولا يزال في الكشوفات الأثرية في المنطقة العربية منذ أكثر من قرن وبالضبط مع عهد الاستعمار ــ مع حملة نابليون بونابرت على مصر واكتشاف حجر رشيد وفك رموزه على يد شامبليون العالم الفرنسي ــ مما أتاح لها فرصة كيّ عنق الموروث التاريخي، في جانبيه المادي والروحي والفكري لصالح أطماع استعمارية وصهيونية بالأخص ــ لأن عدداً من الرحالة والأثريين كانوا ممن نذر نفسه لخدمة أهداف الكتاب المقدس(7) ــ وكذلك لتبرير تطلعات الغرب في السيطرة وفي المراهنة على أقليات إثنية تستخدم كحصان طروادة الأسطوري. ويزكي ذلك، انتشار معاهد للآثار الشرقية في عدة أماكن من العالم، هدفها الأول هو البحث عن المواقع التي وردت أسماؤها في التوراة. ومن أبرزها:

1) American Palestine Exploration Society تأسست 1870.

2) American School of Oriental Research تأسست 1900.

3) Ecole Pratique d'Etudes Bibliques تأسست 1892.

4) Deutsche Evaugelische Institut für Altertum Wissenscheft des Heigen Landes تأسست 1902.

5) The British School of Archaeology-Jérusalem تأسست 1919.

المستشرقون والتاريخ العربي القديم

وقد اعتمد علماء الآثار المشتغلون في هذه المعاهد على التوراة كمصدر تاريخي وحيد للعهد القديم، وقد اشتهر منهم ليبرايت وغلوك ورايت. إلا أن جهودهم الأثرية المبذولة بالخصوص في بلاد الشام (سورية ولبنان وفلسطين والأردن)(8)، لم تقدم أي دليل تاريخي يؤكد الأحداث التوراتية، ورغم ذلك ما زالت هذه المعاهد ماضية في رسالتها، حيث تمول كثيرا من البعثات الأثرية في الأراضي العربية، ولكن أعضاء هذه البعثات كثيرا ما أذهلتهم الحقيقة ـــ أن حجم المكتشفات الكبير يجعل علم الآثار مستقلا عن الأحداث التوراتية المحدودة. وبهذا تبتعد عن أن تكون أساسا لمعرفة التاريخ. وحتى العلماء اكتشفوا في القرن الماضي أنه لا سبيل لتأكيد أحداث صغيرة وقد تكون خيالية والتي تحكمها العواطف الدينية(9). ومع ذلك نلاحظ أن الكتابات الأوربية حول حضارة الشرق الأدنى القديم (بلاد ما بين النهرين ومصر وسوريا وشبه الجزيرة العربية) جعلت من تاريخ المنطقة تاريخا دوغماتيا وتاريخا مقسما ـــ أو ممزقا ـــ إلى عدة عصور مرتبة ترتيبا تاريخيا عشوائيا، ولا يوجد رابط حقيقي من صميم التاريخ العربي يربط هذه العصور ببعضها البعض لكي تكون لنا في النهاية تاريخا متكاملا للمنطقة العربية.

فقد حاول الأوربيون إثبات عدم وجود وحدة قومية حقيقية تجمع شعوب المنطقة العربية قديما تأصيلا لفكرتهم الأساسية في تفتيت المنطقة العربية وتجزئتها عن طريق اعتبار الشعوب السامية، كشعوب مستقلة عن العبريين والكنعانيين

والفينقيين والأراميين والعرب والأكاديين، وتواريخ خاصة باليمن مستقلا عن شبه الجزيرة العربية. والهدف من كل هذا كما سبق ذكره هو تأكيد النزعة الإقليمية عند شعوب الشرق الأدنى العربي وتفتيت علاقاتها ببعضها البعض، فإذا كانت المعرفة التاريخية هي من إنتاج المؤرخ (لكن هذا لا يعني أنها خيال صرف أو أنها ملكا خاص له بل إن المادة التاريخية مستقلة عن ذهن المؤرخ) وأن له دور في بناء المعرفة التاريخية "الفرق بين الموضوعي والذاتي مرحلي ومتطور باستمرار في البحث التاريخي كما هو في غيره من البحوث العلمية"(10). فإن المستعمر الأوربي جعل من التاريخ العربي القديم تاريخا مصنوعا يبرز فصله باستعمار البلاد العربية. وأمام تشويهه وتقسيمه بقينا نحن معشر المؤرخين العرب تستأسرنا تقاليد جليلة قد عفا عليها الزمن، وتقوى عليها مهابة العلم الأوربي، فمكثنا عاجزين عن استعمال مكتشفات علم الآثار الحديث وتركناها وقفا على الباحث الغربي والصهاينة، فجاء عدد كثير منا واعتمدوا هذا التاريخ المصنوع عفوا وغفلة أو قصدا واستنامة، فأصبح هذا التاريخ يمثل جانبا من ماضينا الضعيف المخزي، إلا أنه لا يدل على وعينا الحاضر ولا يوافق أملنا في الوثوب إلى مستقبل أليق بنا، فكانت الحضارة العربية أسيرة هذا التاريخ الذي رسم لها صورة غير صورتها الحقيقية وأثر على تطورها وتقدمها ومن بعد على الحضارة الإنسانية جميعها.

فحتى لما تحررت معظم البلدان العربية من الاستعمار التقليدي، وذلك ابتداءا من النصف الثاني من القرن الماضي، بدأ المؤرخون العرب يكتبون عن تاريخ الحضارة العربية، إلا أن تلك الكتابات ظلت محصورة في مواضيع عن الحروب، والأبطال، والملوك، بل طبعته النزعة القبلية الضيقة، مما جعله تاريخا يفتقد الوحدة القومية والتواصل العربي، يربط أجزاء تاريخ المشرق العربي بعضها ببعض من أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر. كما نجد كتابات انبهرت وعاشت في السحر الماضي والحنين إليه والاكتفاء به على أنه وحده المثل الأعلى، وعدم

الرغبة في تحطيمه وكذلك النظر إلى الحاضر والمستقبل بأفكار الماضي وسننه وأشكاله ودوافعه دون الانتباه إلى تغيير الظروف وتبدل الأحوال.

شروط إعادة كتابة تاريخ عربي موحد

وإذا كانت هذه العلة الأساسية ـ غياب الرؤية القومية في التاريخ العربي القديم ـ قد أصابت التاريخ العربي، فإن أسبابها تعزى بالأساس إلى :

1 ـ دور الاستشراق في التأثير على أسلوب ومنهج الكتابة التاريخية لدى المؤرخين العرب خلال القرنين الأخيرين، حيث عمل الاستشراق على تقوية النزعات الإقليمية من خلال القيام بكتابة تواريخ مستقلة للشعوب العربية، وتشجيع المؤرخين العرب على تناول تاريخهم تناولا محليا إقليميا. وقد عمل المؤرخون من المستشرقين وأتباعهم على تدعيم النزعات الإقليمية من خلال تفسير التاريخ العربي تفسيرا يقوي انفصال الشعوب العربية عن بعضها البعض ويفتت أصول وحدتها في القديم ويدحض دواعي هذه الوحدة في الحاضر، ومن المعروف أن الاستشراق كحركة فكرية ارتبط بالاستعمار كحركة سياسية عسكرية واقتصادية ـ فقد حاول الغربيون من خلال العلم والفكر تسهيل الاستعمار في العالم العربي الإسلامي(11) ـ عن طرق تطوير الاتجاهات القطرية في تفسير التاريخ العربي القديم.

2 ـ التخلف العلمي ودوره في إهمال دراسة التاريخ العربي القديم. فرغم التقدم الذي عرفه علم التاريخ وعلم الآثار في القرنين الماضيين، ظل التخلف العلمي يطغى على العرب والمسلمين وشكل لهم عائقا أمام الاهتمام وتتبع آثار التاريخ القديم، كما أن عدم توفر المادة العلمية الكافية لإثبات أحداث التاريخ العربي القديم والبرهنة عن أصالة هذا التاريخ، وإعادة كتابته في شكل متكامل يوضح الصلات العضوية الرابطة لشعوب المنطقة العربية قديما وحديثا، ترك التقدم في هذا المجال مقتصرا على الغربيين.

فأمام هذه الوضعية لابد أن تتظافر الجهود العلمية العربية في سبيل الكشف عن آثار شبه الجزيرة العربية وبقية المناطق المجهولة من المنطقة العربية القديمة

بما فيها شمال إفريقيا، وإعادة كتابة تاريخ عربي يتلاءم وطموحات شعوبه، وذلك بالوقوف على الماضي بروح الحاضر والمستقبل حتى يصبح التاريخ حافزا يدفعنا إلى الأمام وينمي قابليتنا ويقوي مقدرتنا على صنع التاريخ الجديد(12) ، إن عادت إليه الأجيال اللاحقة فقرأته ووجدت فيه أسباب العزاء والسلوى، أكثر مما تجد فيه من أسباب التعاسة والبؤس(13). ولن يتم ذلك إلا إذا أخذ بعين الاعتبار ما يلي:

1 ـ توجيه الأبحاث التاريخية والعلمية المختلفة لخدمة هذا الهدف، وتنشئة جيل جديد من الباحثين المتخصصين في علمي الآثار والتاريخ والمدربين على التكنولوجيا الجديدة.

2 ـ التأكيد على الوحدة الحضارية للمنطقة العربية منذ القدم (فترة ما قبل الإسلام: 3000 ق م) والعمل على إثبات صلات القربى بين شعوبها، واستمرارية هذا في التاريخ إلى وقتنا الحاضر.

3 ـ البحث عن خصوصية تاريخية خارجة عن القياسات الأوربية (خصوصية قومية قديمة قدم هذه الحضارة)، تسترشد خطاها من مقومات أخرى يلعب الدين واللغة والعادات ووحدة الأصل دورا كبيرا فيها(14).

4 ـ دراسة الأصول المكتوبة انطلاقا من اللسان والكتابة العربيين، بحيث يمكن أن نبين بوضوح مغزاها التاريخي كروابط حيوية بين شعوب المشرق وحضارته.

5 ـ وضع إطار تاريخي موحد قادر على استيعاب التاريخ العربي بكامله. وتقسيم العصور التاريخية تقسيما جديدا ينطبق على تاريخ الإسلام خاصة.

6 ـ تنقية التاريخ العربي من الإسرائليات وكر البصر في تاريخ العبرانيين لأنه تاريخ مصنوع.

7 ـ الابتعاد عن الكم والانتقال إلى الكيف وذلك باختيار الأحداث التي تركت أثوا حضاريا باقيا(15).

والتأكيد على هذه النقط من شأنه تسهيل مهمة المؤرخ العربي تجاه تحقيق مصلحة الأمة العربية في التاريخ فتبرز استقلالية الأمة العربية من جهة، وفصلها على التاريخ الإنساني العام من جهة أخرى.

وفي نفس الوقت ينمحي أثر الاستشراق على أسلوب ومنهج الكتابة التاريخية لدى المؤرخين العرب، ويعوض إهمال المؤرخ العربي لدراسة تاريخه القديم، بالوقوف عليه وجعله حافزا يدفعه إلى الأمام وينمي قابليته على صنع تاريخ عربي جديد.

الهوامش:

(1) — وول ديورانت، **قصة الحضارة**، ج 1، ترجمة محمد بدران، بإشراف جامعة الدول العربية، 1955.

(2) — حسين مؤنس، **الحضارة**، سلسلة عالم المعرفة، العدد الأول.

(3) — عمر فروخ، **تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه**، طبعة أولى، دار الباحث، بيروت — لبنان، 1980.

(4) — محمد وحيد خياط، **فجر الحضارة في سومر**، السلسلة التاريخية، ص. 24.

(5) — عامر سليمان وأحمد مالك الفتيان، **محاضرات في التاريخ القديم** "موجز في تاريخ العراق ومصر وسوريا وبلاد اليونان والرومان القديم"، بغداد 1978، المكتبة الوطنية.

(6) — أحمد سوسة، **حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين**، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1980.

(7) — محمود طالب، **آثار الأردن وفلسطين**، 1977، ص. 8.

(8) — **نفس المصدر**، ص. 20.

(9) — عفيف البهنسي، انعكاسات على اكتشاف وثائق إبلا التي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، **مجلة الفكر العربي**، عدد 52، 1988، ص. 94.

(10) — عبد الله العروي، **مفهوم التايخ، المفاهيم والأصول**، ج 2، بيروت، 1992، ص. 317.

(11) — محمد خليفة أحمد، الوحدة الثقافية للمنطقة العربية في التاريخ القديم، **مجلة الوحدة**، عدد 42، سنة 1988، ص. 19 — 110.

(12) — قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، طبعة 3، دار العلم للملايين، بيروت، 1974.

(13) — حافظ الجمالي، ملاحظات حول التاريخ، **المعرفة السورية**، العدد 170، نسان 1976.

(14) — وول ديورانت، **قصة الحضارة**، ج 1، القاهرة، 1955.

(15) — عمر فروخ، **تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه**، ص. 14.

فسيفســاء المغـــرب القـــديم
بين ضراوة الاحكام المسبقــة ،
هاجس التخصص، وتعددية المشارب

البيضاوية بلكامل•

آثــرت المشاركة بموضوع « فسيفساء المغرب القديــم بيــن ضــراوة الاحكام المسبقة ، هاجس التخصص،وتعددية المشارب " رغم وعيي بأن الأعمـــال المغربية لم يمض عليها بعد عقدين من الزمن ، وقناعتي بأنها تندرج جميعها فـــي إطار أبحاث جامعية [1] ، وبعضها فقط عبارة عن مداخلات في إطار ملتقيات علميــة ولكن لم يكتب لمعظمها النشر لأسباب تخرج عن إرادة المســاهمين بــها . ، لــم يتحقق حولها الانتشار والمعرفة اللذين يسهمان في اطلاع المهتمين أو عمــوم القراء بمستجداتها [2] .

وفي اعتقادنا الخطوات الاولى هي التي تحتاج لتقويم من أجل استشــراف المستقبل . فالنقد البناء وحده الكفيل بإعادة الهيكلة ،أي تصحيح مسار البحــث ، أو تنبيهه ، بمعنى آخر التشجيع على المضي قدما في النبش لخلق التراكمات اللازمة .

• – أستاذة باحثة كلية الآداب الرباط

بديهي ، أن هذه الابحاث المغربية لم تنطلق من فراغ ، بل انبنت على إرث عمـــره يزيد عن قرن ونيف لأن أقدم إشارة لفسيفساء المغرب القديـــم تعـــود لســـنة 1880 يتعلق الأمر بفسيفساء أورفي (ORPHEE) من طنجة [3] . وبعد هذا التاريخ وإلـــى حدود الثمانينات من القرن XX كانت الكتابات أساسا أوربية ، اتسم بعضها بصبغـــة العمومية [4] ، وتضمن بعضها الآخر تحاملا واضحا على هذا الميدان [5].

ومن قبيل المفارقات ومن المغربات أن تعتبر الفسيفساء فنـــا رومانيـــا[6] وتحشر فسيفساء موريطانيا الطنجية ضمن الفن المحلي [7] . ويكـــــون مؤشـــرا أو دليلا على بربرية (Barbarisme) أصحابها [8] .أما أول مقال حول الفسيفســـــاء بقلـــم مغربي فيعود لسنة 1983 [9] .

ومقالنا هذا هو ثاني مقاربة لموضوع الفسيفساء باللغة العربية بعد كتابات البـــاحث التونسي منجي النيفر [10]. وإذا كان مشكل لغة الكتابة هو أول تحدي يواجه البـاحث العربي [11] ، في نظري، تشكل اللغات وعاءا والوعاء لا ينظر لزخرفه فقـــط بـــل لنفعه أيضا، لأنه إذا كان ما يحتويه غثا أو هشا سيقضم وإذا كان مثينـــا فســـيفرض نفسه بغض النظر عن لغة الكتابة .

على كل ،إذا اختار الكاتب الكتابة بالعربية فلا شك بأنه ستنتظره معيقات لا تقل حدة عما سبق ذكره يتعلق الأمر بزخم المصطلحات التقنية التي قد لا يتوفـــر حولها على أرضية تشكل مرتكزا له . ولذا فما عليه إلا نحث لغته لوضع تحليله في قالب أنسب . ترى هل الابحاث المغربية التي نحت هذا المنحى حققت نجاحا علـــى مستوى المصطلحات ؟...

وإذا سلمنا بأن المنشغل بحقل الفسيفساء سيستقي مادته مـــن لغتيـــن أو ثلاثة . وإذا انضافت لذلك لغات ميتة (إغريقية ، لاتينية) فليس من اليسر الإحاطـــة بها جميعا ،وبذلك لا مناص له من الاستعانة بمترجمين هم بدورهم لا يسلمون مـــن عنت المصطلح لأنهم لم يهيأوا لمثل هذه الحقول المعرفية ، وبذلك بـــات التكويـــن حتميا . وأصبح تدارس إشكالية المصطلح أمرا استعجاليا [12].

وإذا لم نعد لذلك ، طبيعي أن يعزف المبتدئون عن ميدان كهذا مركب ومتشعب، وهو سيفرض عليهم إضافة لما ذكرنا إلماما بتقنيات أخرى لا تقل صعوبة عما سلف ، ونعني بذلك لزوم اعتماد الرفوعات والقياسات والرسوم والتصاوير . فهي أعمال يدوية يتخذ بعضها طابع الرتابة [13] . مما يجعل الممتهن العرضي يكل ويمل منها .

وهذه الأمور ضرورية لضبط تركيب الفسيفساء وموادها لمعرفة أصولها . وهذه الترسانة من المعارف والمدارك التقنية لن تهم إلا شكل الفسيفساء (Le contenant) فحسب .

أما بالنسبة لمضمون الفسيفساء (contenu) فإنه يضع الباحث وسط رهان آخر يتمثل في ضرورة أن يغترف من مجالات معرفية أرحب لا تقتصر على المقاربات بمجال الفسيفساء وحدها ،بل يلزمه أن يعود لينهل من الآثار بكل أنواعها ثابتة ومنقولة من معمار ورسم وفخار وتوابيت ونقود وما إلى ذلك . وهو مدعوكذلك لأن يرجع للأدبيات بشتى فروعها ودروبها مادامت الجدلية قائمة بين بعض الأدبيات و الآثار [14]. ألم توحي معركة إيسوس (ISSOS) للرسام فيلوكسينوس الإريتري بفكرة لوحته ، وللفسيفسائي أن يخلدها بمكعباته ؟ . [15]
هل كل الأعمال الأدبية والأثرية متوفرة ببلده ؟

قطعا لا ، فما على المهتم إلا أن يشد الراحلة للتطواف . وهل تتوفر الإمكانيات والدعم المادي اللازمين لانتقال الباحثين بين ربوع المتاحف والمواقع الاثرية للعوالم القديمة ؟ فالتقديرات المطلوبة – حتى باعتماد اسلوب التقشف – ليست بالهينة . [16]

المعاينة بمجال الفسيفساء ليست مجرد فسحة فكرية .بل هي لازمة لان الآثار تحتاج أن تمس باليد ، وترى بالعين المجردة ، وأيضا بالأجهزة المواتية [17].

وإذا سلمنا بأن الباحث تزود بالمادة الخام المناسبة ، سيواجه عوائق من أنواع أخرى . سيزداد طينه بلة إذا كان محتوى فسيفسائه لا يقتصر على المشاهد الميثولوجية المعروفة ، بل استلهم القدماء مادتهم من الواقع بأفراحه ، وأتراحه [18].
وبما أن المشاهد النوعية ، أو المشاهد التاريخية ليست جميعها بمثل وضوح لوحة انتصار الإسكندر المقدوني على داريوس الفارسي – اللوحة الآنفة الذكر – ستطرح أمام الباحثين قضايا أخرى من نحو : هل هو أمام مشاهد واقعية حقيقية (Des réalités)، أم هي تمثلات للواقع (Des réalismes)؟ [19]

فمثلا ، أين نضع فسيفساء مارس وريا – سلفيا من موقع ليكسوس ؟ هل نعتبرها المؤشر الدال على الرومنة الكاملة لساكنة هذا الموقع ، أم هل هي تهم فقط صاحب السكنى ، أي مالك المنزل المعروف باسم منزل مارس وريا – سلفيا ؟ [20]

بعد كل الذي ذكرناه ، هل يلزم حصر مادة الفسيفساء في خانة العلوم التي تستدعي التخصص الصرف ؟ . كلا ، فالبحث في أي موضوع من موضوعات الفسيفساء يعد بحق عملا فسيفسائيا [21]. فالفسيفساء فن تقني ، هي معين لا ينضب من المعلومات . فتعدد زخارفها ، وتشعب أصول مشاهدها، وتنوع موضوعاتها تحيلها إلى" لابيرنت فكري" [22] .

أضف إلى ذلك أن الانتقال – ليس عبر الادبيات فحسب – من موقع إلى موقع ، ومن متحف إلى آخر لازمين ، بما أن المعاينة – وكما أسلفنا توضيحه – شرط وجوب . وبذلك ، فإذا اتسمت أعمال المهتمين بهذا الحقل المعرفي بالموسوعية ، فالموسوعية هي بدورها ليست مجرد فسحة ، بل واجب مؤكد تفرضه طبيعة المادة [23] .

التجربة المغربية في أولها [24]، والمنشغلون بها على رؤوس الأصابع [25]. ترى ، ما هو المنحى الذي اتخذته أعمالهم ؟

اختار الدارسون المغاربة الكتابة بشكل متواز ، أومسترسل في اتجاهين، همـــا : -
اتجاه أول : يتلخص في الخوض في إشكالية المفاهيم ، وعلى رأســــها مصطلـــح "فسيفساء " نفسه ، ثم إنجاز الحصيلة بتقويم الكتابات السابقة لاستشراف المستقبل[26]
- **اتجاه ثان** : تميز بدراسة نماذج محددة . والامثلة على ذلك كثيرة ، مـــن ذلـــك دراسة فسيفساء الفصول وفسيفساء أورفي ، والنريدات ، والحيوانـــات الضاريـــة . أودراسة فسيفساء موقع معين وكمثال فسيفساء موقع وليلــــي ، أو أشـــكال خاصـــة كالفسيفساء الهندسية [27].

قد نفهم لماذا اهتم الدارسون المغاربة بالنمطين الأولين مـــن الكتابـــة ، فبطبيعة الحال ، الاهتمام بالتعاريف، والقيام بالحصيلة أمران أساسيان .فـــلا يمكـــن القفز على المراحل السابقة ، بل يلزم معرفتها ورصد ثغراتها لإقامة بنيان سليم ،أي يلزم فهم الميدان ومعرفة ما كتب حوله [28] مادامت العلوم الإنسانية سلســـــلة مـــن التجارب . ولكن لماذا يتم التوقف عند نماذج محددة ؟

كان الاهتمام ببعض النماذج في البداية عرضيا ، وصدفويا [29]. وتبيـــن بعد ذلك بأن دراسة نماذج دقيقة هي الحل الأمثل للتعرف من جهة، علـــى مجـــال الفسيفساء الذي لم يكن يعرف عنه المغاربة أدنى شيء إلى حدود الثمانينات . ومـن جهة أخرى تتيح هذه النماذج عقد مقارنات ومقاربـــات مـــع فسيفســـاء لـــها نفـــس الموضوع ولو أنها منتمية لفضاء أرحب هو ربـــــوع العـــالم القديـــم . وتســـتدعي الفسيفساء القيام بمقاربات مع آثار أخرى ، كما سبق وأسلفنا قوله [30].

كل هذه الترتيبات هي بمثابة تربصات . فهي مـــن جهـــة أدواة لضبـــط مصادر الفسيفساء المغربية ، ومن جهة ثانية فهذه المقاربات تساعد على الإحاطـــة بإشكالية لا تقل حدة ، ولا أهمية عن ما ذكرناه ، يتعلق الأمر بالتأريخ .
فهل أمكن بعد سلسلة التراكمات هاته حل هذا الإشكال ؟

بطبيعة الحال ، لا تفضي المقاربات إلا إلى حصر النماذج المدروسة ضمـن فرشة كرونولوجية واسعة [31]. وبذلك بات الاقتناع كاملا بضرورة إجـــراء أســـبار

ودراسة عينات من المادة، وضبط علاقة الفسيفساء بالمبنى الذي توجد ضمنه في محاولة لتطويق الإشكال ، أي التزود بمؤشرات أقوى ، وأمثن بالنسبة لقضية التأريخ .

وأسارع فأقول : مهما فعلنا ، فلن يكون قطعيا [32].ولكن هذه الإجرائية ستفضي بنا لتضييق الهوة . ففي هذا المضمار بالذات يصعب تقديم تواريخ مضبوطة بما أننا أمام مادة قد تواكب المبنى عند اكتمال إنشائه ، أو تلحق به بعد تعميره . ثم إنها قد تشهد ترميمات عديدة عبر مراحل مختلفة من تاريخ المبنى ، كما يحصل تماما اليوم على كل ، سنحصل على تواريخ ليست مديدة.

إلى جانب إسهام المقاربات في قضية التأريخ ، تتيح البث في إشكال أصالة النموذج المدروس، أو رتابته . كما تساعد على فهم الخلفية الذهنية للقدماء مالكين ومنفذين (commanditaires et éditeurs (propriétaires et mosaistes) [33].

الدراسة المغربية لم تنبع من فراغ . فكان ضروري للمهتمين تجميع شتات ما كتب حول الموضوع خلال ماينيف عن قرن ، والانتباه إلى ضراوة الأحكام المسبقة الناجمة عن سطحية في الدراسة [34]، أوعن أغراض مبيتة [35].

كان الدارسون أمام تحديين إثنين : إما الإعتراف بأن الفسيفساء فن زخرفي ليس إلا ، أي أنها شكل من أشكال التبليطات التي سادت خلال الفترة الرومانية بهدف أن تكسب أرضية المنازل الصلابة بنوعية المواد المستعملة ، والجمالية بزخارفها سواء كانت أشكالا هندسية ، أم مشاهد مصورة .

وإذا كانت الفسيفساء مجرد أداة نفعية ، وعديمة الأصالة فما الجدوى من الاهتمام بها ودراستها ؟

وللأسف ، هذا المنحى هو المهيمن ، هو رأي توفنو ومن سار على دربه [36].وبذلك اقتصر اهتمام هذه الطائفة على الفسيفساء المصورة على حساب الأشكال الأخرى .

أما المنحى الثاني فلا ينفي أصحابه عن هذا الفن أصالتـه رغـم كونه ينتمي لأصول متباينة إفريقية ، ومشرقية ، وأوروبية ويستمد مادتـه مـن مصادر مختلفة أدبية ، وأثرية تستدعي التزود بالمناهج المناسبة فـي محاولـة لتطويق لغة الفسيفساء .

وإذا كان لويس شاتلان من رواد هذا الاتجاه عندما عمد منذ سـنة 1935 إلى وضع جرد للفسيفساء المغربية المكتشفة بيـن سـنتي 1916 – 1935 بمختلـف المواقع الكبرى والصغرى [37] ، فهو أيضا أول من آمن بفكرة اعتمدهـا الجـنرال اليوطي واعتبرها " فكرة نيرة " وتتمثل في الإحتفاظ بالآثار في أماكن الكشف عنـها، على اعتبار أن موقعها الأصلي هو أفضل متحف [38].

ولكن جرد شاتلان تجوز بكثير لكون التنقيبات اللاحقة أتت بالمزيد مـن النماذج [39]. فكان من الطبيعي أن يعود البـاحثون خـلال 1960 فيدعـون إلـى ضرورة وضع مدونة للفسيفساء المغربية . وكان بعضهم جازما بأنـها سـتتم فـي أقرب وأسرع وقت بحكم عدد الفسيفساء المغربية المحـدود [40]. ولكـن فسيفسـاء المغرب سهل ممتنع.

والجدير بالذكر أن أصحاب هذا المنحى التالي ، لم تكـن بيـن أيديـهم فهارس(Des répertoires) موحدة حول المصطلحات الفسيفسائية ، وبالأساس حـول التراكيب والعناصر الزحرفية الهندسية ، وبذلك ليس من اليسير معرفة أوصافـهم ، خصوصا عندما يتعلق الأمر بنماذج تعرضت للتلف بعد استخراجها ، وجردها [41].

لن تبدأ المدونة (Corpus) بشكل فعلي إلا انطلاقا من التسـعينات مـن القرن المنصرم في إطار بعثة مشتركة مغربية – فرنسية ترأسـتها عـن الجـانب المغربي الزميلة زهراء قنينبة ، وعن الجانب الفرنسي الباحث الفرنسي جون بيـير دارمون الذي كان رئيسا للجمعية العالمية للفسيفساء الإغريقية – الرومانية [42].

وبما أنه أتيحت لنا إمكانية المشاركة في هذا العمل في مراحله الأولـى فقد وقفنا عن كثب على الصعوبات التي تخللت إنجاز بعض أطـواره فـي غيـاب

يوميات الحفر بالنسبة لفسيفساء نقل معظمها خارج المجال الذي اكتشفت به وأعني بذلك فسيفساء موقع ليكسوس [43]. وأترك للمسؤولين عن هذه البعثة الحديث عن النتائج المرتقبة آنيا ، أو عندما سيرى هذا العمل النور في مستقبل نود أن يكون أقرب .

هل المدونة ستحل الاشكالات المذكورة ؟ ما هو دورها ؟.

المدونة هي أداة عمل هامة ، هي وسيلة تواصل ، وهي أس كل الأعمال المستقبلية لأنها ستحفظ للاجيال القادمة إرثا هو عرضة للتلف المستمر .فإذا تحققت المدونة ، وقدر لها الانتشار الواسع آنذاك يحق للمهتمين المغاربة الاعتزاز بأنهم دخلوا المسار الصحيح .فهي أحد أبرز"باروميترات" التقدم المعرفي . فهي ستحفز على الدرس ، وستمكن كل من تعذرت عليه المعاينة المباشرة ضبط خصوصيات الفيسفساء المغربية [44] .

وإذا تعمم الوعي بهذا الإرث لذا الأجيال القادمة [45]، وإذا يسرنا له لغة التواصل – ولم لا العربية – بحكم أن ثلثي الفسيفساء توجد ضمن بلدان العالم العربي .آنذاك سنضمن إلى جانب هذا ، وذاك منفذا آخر في مضمار الحرف وأيضا في مجال السياحة [46]. وإذا أهملنا هذا الحقل المعرفي لن نحيد عن الأحكام المسبقة من قبيل أن كل ماهو رديئ مصدره حرفيي الضفة الجنوبية ، وما هو جيد هو من صنع الفنان الإغريقي – الروماني [47].

خلاصة :

فسيفساء المغرب القديم آيلة للإندثار لأن ما جمعه شاتلان ليس هو كل ما وصل إلينا ، بل ما رأيناه بأم أعيننا خلال بداية انشغالنا بالموضوع ضاع منه الكثير . والباقي عرضة للتلف لقساوة العوامل الطبيعية من جهة، ولا مبالاة العنصر البشري من جهة ثانية . ما فقدناه من هذا الإرث الحضاري سيضيع للأبد . ولكن ، ما درس بالسبل المثلى سيحفظ لأجيال ، وقرون أخرى . وأعني بالسبل المثلى اعتماد المناهج المخصصة لهذه النوعية من الدراسة ، مع ضرورة نبذ الأحكام المسبقة الناجمة عن مقاربة سطحية للموضوع ، أو أحكام مبيتة .

قد يشفع لتوفنو –ومن جاءوا بعده خلال بداية القرن الماضي – إصدارهم لأحكام جزافية عدم توفرهم على مدونات . وبالتالي ، عدم تعمقهم في الموضوعات المدروسة . وهم أسهموا – وهذا دور لن ننساه لهم – في حفظ ما يمكن حفظه من النماذج .

يلزم الاقتناع – وبعد مرور أكثر من قرن عن الكشف عن أول فسيفساء بالمغرب – بأننا أمام مصدر متعدد المشارب . فمن العبث الإيمان بالتخصص الضيق في هذا الحقل ، فهو أكثر الحقول المعرفية حاجة للموسوعية .

وإذا كانت الموسوعية غير ممكنة أمام استفحال موضة التخصص في مضمار العلوم الإنسانية . فحقل الفسيفساء هو أبرز مجال يحتاج إلى ترسانة من العلوم ، وطقم من المتخصصين (La Multidisciplinarité) ، وبذلك فهو أصلح وسيلة أمام المبتدئين في حقل التاريخ القديم للتوسع في فضاءات معرفية أرحب .

وإذا كانت الأبحاث المغربية تتأرجح بين الإقدام ، والإحجام ترى ماذا هيأنا للمستقبل [48]، خصوصا و الحفريات المغربية في تصاعد مستمر ، والأمل كبير في أن تكشف عن نماذج جديدة .

صحيح ، أن ما كتب حول الفسيفساء المغربية بأقلام مغربية محدود عددا واعتمد أصحابه أسلوب التحري والموضوعية . وأفضت نتائج دراسة نماذج محدودة بالإعتراف بأصالتها – بالرغم من اعتراف القدماء لجل مشاهدهم من الميثولوجيا الإغريقية – الرومانية – وبذلك ، فهذه النتائج محفزة على المواكبة بالرغم من المعيقات الذاتية ، والموضوعية .

أما بالنسبة للغة الكتابة ، فليست مشكلا يكفي أن يصل الخطاب للمجتمع المدني – وباللغة التي يفهمها هو – ويضحى هو على بينة بتراثه في كافة تجلياته . فتتحقق المصلحة ، فهي المرجوة من وراء كل الأبحاث . والغاية تبرر الوسائل.

هوامش

(1) هي أبحاث لنيل الاجازة في الآداب أو د. د .ع .م أو دكتوراه السلك الثالث أو دكتوراه الدولة وتتوفر معظم هذه الأبحاث برفوف مكتبات الرباط ، بكلية الاداب وبالمعهد الوطني لعلم الآثار والتراث ، وهي بالعربية والفرنسية .

(2) شاركنا بمداخلات منذ 1989 في موائد مستديرة وملتقيات علمية مع وزارة الثقافة والمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث وبرحاب كلية الآداب ، جامعة محمد الخامس بالرباط ، والقاضي عياض بمراكش ، وأيضا بمدينة الكاف بتونس. وأسهمت زميلتنا زهراء قنينة بدورها في ملتقيات علمية ، وننتظر أن يتحقق النشر. (أنظر جردا ببعضها هامش 26)

(3) يمكن رصد البيبليوغرافية المتعلقة بفسيفساء أورفي بطنجة ومعرفة أقدم ما كتب حولها من خلال :

M. PONSICH, "Tanger, Une mosaïque d'Orphée » B.A.M.I V, 1966, pp. 479-481

(4) معظم الكتابات هي عبارة عن تعاريف . وأشير في هذا الصدد لأعمال شاتيلان وتوفنو خلال النصف الأول من القرن XX .

(5) لنقرأ مثلا ما كتبه توفنو ثم لوكي .

R. THOUVENOT, « L'Art provincial en Maurétanie Tingitane », ME.F.R LIII, 1936, pp. 35-36, LUQUET, Volubilis, éd.Marocaine et Internationales, pp. 49-51

(6) G. CH. PICARD, « Un art Romain , La mosaïque », B.C.T.H, 1966, pp. 506 ss.

(7) R.THOUVENOT, « L'Art provincial en Maurétanie Tingitane », M.E.F.R LIII, 1936, pp. 25-36

(8) نفس المراجع المذكورة هامش (5) .

(9) البضاوية بلكامل " الفسيفساء (تعريف ، تاريخ ، وتقنية)" ، مجلة تاريخ المغرب ، 1983 ، ص. 63–67.

(10) إذا كانت أولى كتابات الزميل منجي النيفر بالعربية فهي بمثابة تعاريف ، في حين أن كتاباته بالفرنسية اتخذت طابعا التحليل والمقاربات أي طابع التخصص . لقد أعرب لي الاستاذ النيفر في لقائنا بتونس سنة 1992 عن قناعته بالكتابة بالعربية والفرنسية ، وأساسا بالفرنسية ليكتب لعمله الانتشار الأوسع ، وهو محق في ذلك . ويكفي الرجوع لمدونات الفسيفساء التونسية (Corpus des mosaïques) فلا يكاد يخلو عدد من إسهاماته . كما أن مشاركاته في مؤتمرات دولية عديدة تنم عن ألمعيته .

(11) تُعد المشاركة في المؤتمرات الدولية حول الفسيفساء بكل اللغات إلا العربية لأن الباحث المغربي على سبيل المثال إذا كتب بالعربية فلن يجد إلا محاورين معدودي العدد (بعض باحثي تونس). ومن المفارقات أن 2/3 الفسيفساء توجد بالعالم العربي !

(12) جربنا من جهتنا الاعتماد على مترجمين ، ولكن لم نجد بالترجمات إلا طابع العام .

(13) انظر في هذا الصدد المدونات ، إذ ستجد بها فيما يخص وصف الفسيفساء نفس المسطرة التي ستكرر بحسب عدد الفسيفساء مما يكسب البحث طابع الآلية ، أي أن القوالب الجاهزة الخاصة بوصف كل نموذج ، وتكرار ذلك بالنسبة للباقي تدعو للنفور .

(14) حول استلهام الأدب من الآثار ، والعكس ، انظر في هذا الصدد :

.METZGER , La céramique grecque , Coll. Que - sais- je ,Ed. P.U.F , Paris , 1973.

شاركنا من جهتنا في ملتقى تطوان حول التاريخ القديم الذي نظمته كلية الآداب عبد الملك السعدي ، شعبة التاريخ في 07 دجنبر 1997 بموضوع " الإنتقال من الصورة إلى النص ، الممكن والمستحيل " (لم ينشر العمل)

(15) للأسف لانتوفر على كل المدونات التي تم إنجازها لاستخراج الموضوعات التاريخية . واللوحة الفسيفسائية حول معركة إيسوس

وجدناها بمرجع عام حول الحضارات .

(16) تكلفة صيانة كل فسيفساء ليست بالأمر اليسير ، ولذا هناك العديد من النماذج التي ضاعت ، وأخرى وضعت بالمستودعات على أمل أن يتم إنقاذها .

(17) حتى إذا سلمنا بأننا أمام مثال ملون (polychrome) ، هل سنعرف نوعية حجارته وجماليتها من خلال المدونة فحسب .

(18) يسهل معرفة المشاهد الميثولوجية لأن الرموز (Attributs) تساعد على التمييز بين كل إله على حدة ، وتميز بينهم وبين الابطال .

وبذلك أضحت الأرباب وتحملاتها والدورات البطولية معروفة عند المهتمين بهذا المجال .

(19) حول هذا الموضوع ، انظر على سبيل المثال المقال التالي :

CH.PICARD , « Mosaique et société dans l' Afrique Romaine , les mosaiques d'El Alia " , L'Afrique dans l' Occident Romain , I er siécle IV .ap » , Rome , 1996 , pp. 3 - 14 .

(20) أثر لقاء إله الحرب الروماني مارس (MARS) بالكاهنة ريا- سلفيا ولادة التوأمين روميس وروميليس مؤسسي روما حسب كتاب الأساطير ومنهم الشاعر اللاتيني أوفيد(OVIDE) . فهل تحول ليكسوس إلى مستعمرة رومانية عجل في رومنتها ، واتصالها للعالم الغربي عوض الشرقي ؟

(21) نكرر ماذكرناه ببحث الأطروحة التي عنوانها : " مظاهر اقتصادية من خلال فسيفساء الشمال الإفريقي " ، أنظر ص. XXI .

(22) أحسن ماقيل في الفسيفساء ما كتبه القديس أغسطين . أنظر نصه من خلال المقال التالي :

LASSUS, « la technique de la mosaique selon Saint Augustin » , Libyca VII , I er sem. , 1959 , pp. 143 - 146

(23) على سبيل المثال لايمكن تقويم مشهد قنص الوحيش ، وضبط آلياته وأهدافه بدون الرجوع للمصادر المكتوبة ، ولباقي الآثار .

(24) ماذكرناه سلفا (هامش I) بأن معظمها أبحاث جامعية .

(25) صحيح أن عدد المغاربة الذين أسهموا بأبحاث حول الفسيفساء في تصاعد مستمر ن تجاوز اليوم العشرات .ولكن المشتغلون لا يتعدى عددهم اليوم خمسة ، وثلاثة منهم في بداية المشروع (هم بصدد تهيئ أبحاث لنيل الدكتوراه الوطنية برحاب كلية الآداب بالرباط) .

(26) البضاوية بلكامل ، " الفسيفساء (تعريف ، تاريخ ، وتقنية)" ، مجلة تاريخ المغرب ، 1983 ، ص. 63 – 69 .

" ، " أوليات حول فسيفساء ليكسوس " ، المائدة المستديرة حول ليكسوس ، العرائش ، 1989 (لم ينشر)

" ، " دراسات متعلقة بفسيفساء موريطانيا الطنجية " ، محاضرة ألقيت أمام طلبة السلك الثالث ، المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث ، الرباط ، 1992 . (لم ننشره) .

" ، "من أشكال تبليط الارضيات بموريطانيا الطنجية : الفسيفساء " ندوة حول العمارة في تاريخ المغرب ، جامعة القاضي عياض ، مراكش ، 1994 (لم ينشر) .

" ، " فسيفساء شمال إفريقيا : اشكال وإشكاليات " ، محاضرة ألقيت أمام جمعية الطلبة الباحثين في التاريخ ، كلية الآداب ، الرباط ، 1996 (لم ننشره) .

زهراء قنينة ، " فسيفساء أورتي " ، ندوة حول العمارة في تاريخ المغرب ، جامعة القاضي عياض ، مراكش ، 1994 (لم ينشر) .

" ، " فسيفساء موريطانيا الطنجية : الحصيلة " ، ندوة دولية بعنوان 100 سنة من البحث الأثري بالمغرب ، الرباط ، (قيد النشر) .

لمياء البشيري وحفيظة دبداي ، فسيفساء موريطانيا الطنجية : اشكال وإشكاليات، بحث لنيل د.د.ع.م ، تحت إشراف بلكامل البضاوية ، كلية الآداب ، الرباط ، 2000 .

معظم هذه الأعمال لم يكتب لها النشر لأسباب تخرج عن إرادة المساهمين بهذه المقالات .

(27) جميع الأعمال المشار لعناوينها في الفقرة المتعلقة بالمنحى الثاني هي لنيل شهادات جامعية ، ومعظمها موجود بمكتبة كلية الآداب بالرباط ، وبمعهد التاريخ بنفس الكلية ، وبمكتبة المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث . والبحث المتعلق بوليلي اطلعنا على نسخة منه بمختبر الأركيولوجيا (شارع إيلم) ، باريس .

(28) رغم تقدم الأبحاث العالمية حول الفسيفساء مع ذلك لا زالت تطالعنا أعمال تعريفية بهذا الحقل موجهة للطلبة وعموم القراء . ونفسر ذلك بتقدم الأبحاث التي يترتب عنها تغير في المفاهيم والمواقف .

(29) لا ننسى بأن اهتمامنا بالفسيفساء جاء صدفويا في إطار الخطة التي سعت لها من جهة شعبة التاريخ بكلية الآداب بالرباط ، ومن جهة ثانية المسؤولين أنذاك عن المتحف الأثري بالرباط الأستاذة بسليمان جودية حصار ، والأستاذ عبد العزيز التوري .لقد حرصوا كل الحرص على هذا البناء المتكامل بانفتاح طالب (ة) التاريخ على الحقل الأثري . فأي إسهام في هذا الصدد هو بمثابة رسالة شكر لهم جميعا .

(30) أنظر ما ذكرناه في الورقات التقديمية ضمن هذه المداخلة . فلا يقف الإهتمام بالفسيفساء عند الشكل بل يتعداها للمحتوى .

(31) المقاربات الفنية (Les rapprechements stylistiques) تؤدي إلى حصر النموذج ضمن مرحلة زمنية مديدة قد تكون قرنا وأكثر .

(32) لو وجدت نقيشة عليها تاريخ وضع(La pose) الفسيفساء لما اعتبر التأريخ إشكالا .والأمثلة التي تتوفر على إثبات لمالكيها أو صانعيها قليلة جدا ، أنظر : البضاوية بلكامل ، مظاهر اقتصادية ...، ص. 290 – 292 .

(33) أنظر ماذكرته موروند ضمن عملها التالي :

MORAND , Idéologie , culture et spiritualité chez les propriétaires ruraux de l' Hispagne Rommaine , Ed. De Boccard , P Paris , 1994 .

وللأسف ، مداخلتنا بمدينة الكاف التونسية لسنة 1992 بعنوان " الحفاظ على الهوية من خلال نموذج أثري : فسيفساء أعمال هرقل بوليلي نموذجا " لم يكتب لها النشر .

(34) تغيرت مناهج الدراسة من مرحلة لأخرى .فإذا كان الأوائل اهتموا أساسا بالأشكال المشخصة ، ,اكتفوا بالوصف العام للفسيفساء فإن الباحثين المعاصرين استندوا في دراستهم على ترسانة من العلوم تباينت مناهجها .

(35) أنظر على سبيل المثال ماذكره توفنوضمن مقاله التالي :

. THOUVENOT , « L'art provincial en Maurétanie Tingitane « , M.E.F.R LIII , 1936 , p. 35

(36) صحيح أن توفنو تراجع عن بعض آرائه ، ولكنه اعترف بأصالة (originalité)نماذج دون أخرى .

(37) أنظر مقاليه التاليين :

CHATELAIN , « Mosaiques de Volubilis » , P.S.A.M I , 1935 , pp. 1 - 10 .

L , « Inventaire des Mosaiques du Maroc » , P.S.A.M I , 1935 , pp. 67 - 89 .

(38) .CHATELAIN , Le Maroc des Romains , étude sur les centres antiques de la Maurétanie Tingitane , Eds . De Boccard , 1968 , p. 151.

(39) يمكن تتبع باقي الإكتشافات من خلال مقالات توفنو وطراديل . وقد استحضرناه ضمن بحثنا لنيل د.د.ع المعنون : فسيفساء الفصول بموريطانيا الطنجية ، جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب ، الرباط ، 2يوليوز ، 1986 ، (أنظر البيبليوغرافيا المتعلقة بالفسيفساء)

(40) CHEVALLIER , « Pour un corpus des mosaiques du Maroc « , M.E.F.R 72 , 1960 , pp. 237 - 241 , sp. p.241 .

(41) وضعت الفهارس في النصف الثاني من القرن العشرين .وقبل ذلك كان كل باحث يصف الأشكال وفق مايراه هو . وبذلك كثرت المصطلحات الدالة على نفس العنصر الزخرفي . وهكذا فبعض النماذج التي تحطمت لأسباب طبيعية ، أوبشرية ولا تتوفر على صور لها من الصعب في بعض الحالات تبين عناصرها الزخرفية .

(42) انصب اهتمام البعثة على موقع ليكسوس بحكم أن نماذجه غير موصوفة بشكل مضبوط ، وجلها لا تعرف أماكنها الأصلية لكونها نقلت إلى متحف

تطوان ولا ترافقها بطاقات تعريفية ، كما أنه لا تتوفر حولها يوميات الحفر. وللإشارة فالبحثة بدأت تحريالها انطلاقا من سنة 1992 .

(43) محاولة معرفة الغرف التي تنتمي لها كل فسيفساء على حدة ليست بالأمر السهل ، فكان من اللازم القيام بسلسلة قياسات بمتحف تطوان وموقع ليكسوس ، وأيضا تجميع كل الوثائق التي تفيد في هذا الجانب ،ومن ذلك الصور الجوية .

(44) حول المدونات ، أنظر :

البضاوية بلكامل ، مظاهر اقتصادية ...، ص. XV - XVIII .

(45) تتحدث عن استفحال الامية الأبجدية وغيرها . وندعو لحفظ الآثار ونكتب حوله بلغات التخصص .فمتى سيفهمنا المجتمع المدني ؟.

(46) يكفي مقارنة عدد السواح المترددين على موقع وليلي من الذاهبين لموقع ليكسوس (ولو أنه لا أوجه للمقارنة) . لمعرفة مدى أهمية حفظ الآثار في أماكن العثور عليها بالرغم من المشاكل التي تتعرض لها ، والتي تستدعي العناية المستمرة .

(47) لا أخفي بأنني بدوري اعتمدت مؤشر " رصد الأخطاء " بحثي لنيل د.د.ع المعنون " فسيفساء الفصول بموريطانيا الطنجية .ولكنني اقتنعت بأنه مؤشر واه عندما بحثت للمصادر الإسلامية التي تحدثت منها تفوق الحرفيين على معلميهم الصناع" البيزنطيون" .ونحن اليوم بصدد تجميع شذرات حول الفسيفساء القديمة من خلال مختلف المصادر الإسلامية .

(48) صحيح أن الإهتمام بفسيفساء موريطانيا الطنجية هو في تصاعد مستمر . يتأكد ذلك في إدراج مادة الفسيفساء ضمن المواد المدرسة بالمعهد الوطني لعلوم الآثار بالرباط منذ 1988، وبكلية الآداب الرباط ضمن المواد المدرسة لطلبة وحدة شمال إفريقيا القديم : تاريخ وأركيولوجيا ، خلال السنة الجامعية 1999 - 2000. ورغبة الهيآت العلمية الدولية في التزود بنماذج من الفسيفساء المغربية التي تدرجها في إطار الفسيفساء الرائعة التي من المرتقب أن يضمها المعرض الإسباني كما ذكر لي ذلك مشكورا السيد محافظ المتاحف بالمغرب الزميل حسن ليمان .

مساهمة الأعلاميات
في معرفة تاريخ المغرب القديم

مصطفى الغيثي*

مقدمـــة

يجب قبل أن نتطرق إلى هذا الموضوع، أن نشير بإيجاز إلى إشـــكالية ترجمـــة المصطلحات الأجنبية إلى اللغة العربية في ميدان التاريخ وبالأخص التاريخ القديم.

نعلم جيدا الصعوبات التي تواجه المختص في هذا الميدان لنقـــل المعـــارف اللاتينية إلى اللغة العربية، خاصة عندما يتعلق الأمر بمفردات وكلمات لها مدلـــول قانوني، إداري، أو مصطلح تاريخي، كما هو الشـــأن عندمـــا نـــدرس الحضـــارة الرومانية أو الإغريقية. إلا أن إشكالية الترجمة ليست عائقا أمام البحث، بل حـــافزا على إغناء اللغة العربية، شريطة أن تكون الصيغة المترجمة مقبولة الشكل يراعـــى فيها الجانب العلمي والجانب الجمالي على حد سواء.

إن كلمة الأعلاميات هي ترجمة لكلمة "الأونوماســـتيك"(Onomasticon) اللاتينيـــة والمقتبسة بدورها من اللغة الإغريقية. وتفاديا لإعطاء ترجمة تركيبية مثل"دراسة

• أستاذ باحث بكلية الآداب مكناس.

الأسماء" أو "الدراسة الأونوماستيكية"، اقترحنا أن نترجمها بالأعلاميات التي هي في الحقيقة قريبة من مصطلح الأنثروبونيمية (Anthroponymie) أكثر من مصطلح Onomasticon.

التعريف بالأعلاميات في أربع نقط كبرى:

1- يتطلب من الباحث في هذا الميدان، وخصوصا في حقل التاريخ الروماني أن تتوفر لديه نسبة كبيرة من الأسماء يمكن حصر عددها على الأقل في خمسمائة اسم(1). كلما ازداد العدد، يكون البحث أكثر شمولية (أي يتخذ اتجاهات متعددة في مناهج التاريخ)، كما تكون النتائج المتوخاة من هذا البحث ناجحة نسبيا.

2- إن الأعلاميات في التاريخ الروماني مرتبطة إلى حد كبير بالإبيغرافيا، بدليل أنه لا يمكن التطرق إلى الأعلاميات دون التركيز أولا على الدراسة بالإبيغرافية(2). فهي التي تمدنا بالمعطيات التاريخية للمنطقة في جميع نواحيها الإدارية، العسكرية، الاقتصادية، و الاجتماعية. بهذه الطريقة الأولية يمكن لنا مقارنة الخصائص الإبيغرافية لكل مدينة وتأثيرها على المدينة الأخرى في هذا المجال.

3- مراعاة الجانب الباليوغرافي(3) في هذا الصدد، أي دراسة كيفية طريقة الكتابة التي تمت بها النقائش اللاتينية.

4- تأريخ النقائش اللاتينية(4): يعتبر هذا العامل أحد ركائز الأعلاميات. فهو عمل مضن وشاق في بعض الأحيان إذا كانت نسبة النقائش مرتفعة، خاصة إذا علمنا أن جل النقائش اللاتينية بالمغرب (باستثناء النقائش الرسمية) لا تحمل في ثناياها تاريخا زمنيا. و للتأكيد مرة أخرى على هدا العامل الأساسي، فإنه لا يمكن مطلقا أن تكون هناك دراسة أعلامية بدون تأريخ، وإلا سيكون البحث في هذا الصدد بحثا لسنيا ويخرج عن نطاق التاريخ.

هذه هي النقط الأربع الكبرى التي يمكن الاعتماد عليها في الدراسات الأعلامية.

أما بخصوص مكنزمات الدراسة الأعلامية في موريطانيا الطنجية، فنورد البعض منها، وهي كالتالي:

1- جرد و إحصاء(5) جميع الأسماء الواردة في النقائش اللاتينية والمجموعة في "جامع النقائش اللاتينية"،(Corpus des inscriptions antiques du Maroc -2-) بما فيها الاسم الشخصي Praenomen، الاسم العائلي Nomen أو Gentilicium ثم اللقب Cognomen. والمعلوم أن هذه الأسماء الثلاثة هي التي تميز المواطن الروماني عن غيره و تسمى Tria nomina. وفي أواخر القرن الثالث الميلادي ظهر اسم جديد هو النبز Signum الذي سيحل تدريجيا مكان الأسماء الثلاثة؛ خاصة بعد تعميم المواطنة الرومانية(6) على جميع السكان الأحرار فقط سنة 212م.

2- إحصاء جميع أشكال البنايات(7) Monuments التي تحمل كتابة إبيغرافية وحصر الأسماء الواردة فيها و ترتيبها.

3- مقارنة الأسماء الموجودة بالمغرب مع باقي الأسماء المسجلة في الجامع الكبير للنقائش اللاتينية Corpus Inscriptionum Latinarum ، مع الإحالة إلى السنة الإبيغرافية L'Année Epigraphique عندما يستعصي الأمر أو نرى تناقضا في قراءة النقيشة.

4- تم التركيز في آخر المطاف على مقارنة الأسماء بموريطانيا الطنجية والقيصرية وكذلك إسبانيا بدون أن نغفل إيطاليا.

مجمل القول، هذه بعض التطبيقات المتبعة في دراسة الأعلام(8) بموريطانيا الطنجية في مختلف المدن كوليلي، طنجة، بناصا،و سلا، إضافة إلى بعض النقائش المتناثرة في بعض المراكز الأثرية.

النتائج :

يمكن تصنيفها إلى نوعين:

أ- النوع الأول :

1- بالنسبة للبنايات Les monuments وجدنا اختلافا بين المدن الأثرية المغربية، فعلى سبيل المثال، فإن بناية"الصندوق"(9) " Caisson" لا توجد إلا بمدينة وليلي وتنعدم في المدن الأخرى، وهي ملاحظة جديرة بالاهتمام. إن نوع

هذه البناية الجنائزية الذي يتخذ أشكالا متعددة، لم يتم استعماله إلا في أواخر القرن الثاني الميلادي وبداية القرن الثالث الميلادي. هناك الآن عدة دراسات تحاول البحث في أصل البناية: هل هي أفريقية أم إيطالية الأصل؟

2- أما النقائش على الرخام(10) في وليلي، فإنها لاتهم سوى النقائش الرسمية(11). بالمقابل نجد الرخام مستعملا في بناصا، سلا، وطنجة. هذا شئ طبيعي، حيث لم يعثر لحد الآن على محجر للرخام بمنطقة وليلي، و أغلب الظن أنه كان مستوردا.

3- كذلك في ما يخص بناية" قاعدة التمثال" "Base de statue"، فإنها شهدت استعمالا مكثفا في مدينة وليلي مع منتصف القرن الأول الميلادي وبداية القرن الثاني الميلادي، و ستتمحي بالتدريج ويتقلص عددها أواخر القرن الثاني الميلادي. أما الفئة التي كانت تستعمل هذا النوع من البناية فهي بطبيعة الحال تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية نظرا لتكلفة هذه البناية من الناحية المادية.

4-أما البناية على شكل مذبح "Autel" فإنها لم تظهر على ما يبدو إلا في منتصف القرن الثاني الميلادي.

ب.- النوع الثاني :

بخصوص النتائج التي تهم الأعلاميات بالمغرب فهي عديدة، سواء تعلق الأمر بانتقال الأسماء وتنوعها من فئة إلى أخرى، أو بروز أسماء و اختفاء أخرى حسب المقتضيات السوسيولوجية في تلك الفترة. نورد بعض النتائج التي تهم الجانب التاريخي:

1- غياب أسماء المعتقين الذين يحملون اسم C. Iulius Iuba في مدينة وليلي بالمقارنة مع مدينة قيصرية Caesarea (12) التي اكتشف بها عدد هائل من المعتقين الذين كانوا يعملون في بلاط العاهل يوبا الثاني. والسبب في هذا الغياب هو نتيجة حتمية، بحكم أن مدينة وليلي لم تكن عاصمة ليوبا الثاني. وهنا يجب التفريق بين الإقامة والعاصمة.

2-نسجل كذلك عدم وجود الأسماء الإمبراطورية Noms impériaux بكثرة، خاصة في ما يتعلق بالإمبراطور كلاوديوس Claudius الذي أصبح المغرب الأقصى في عهده ولاية رومانية.

3-بالنسبة لمجموعة"اليوليين" Iulii بالمغرب التي يرى البعض(13) أنها اقتبست هذا الاسم من الإمبراطور أوغسطس، فهي في الحقيقة لم تظهر بشكل مكثف إلا في القرن الثالث الميلادي. إن الاسم Iulius ستحتضنه بعض العناصر المسيحية(14) أواخر القرن السادس الميلادي وبداية القرن السابع الميلادي.

بالنسبة للتركيبة الاجتماعية لسكان المغرب، سنقتصر على بعض الملاحظات الهامة:

1-الحضور القوي لأرستقراطية سكان وليلي في النصف الثاني من القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلادي، واتخاذها أسماء لاتينية محضة. في هذه الفترة نسجل كذلك غياب الأسماء الإغريقية باستثناء اسمين: الأول ينتمي لأحد المعتقين M.Valerius Antiochus، و الثاني ينتمي إلى الفئة الأرستقراطية الحاكمة Q.Caecilius Plato. والغريب في الأمر أن هذا اللقب الإغريقي Plato نادر جدا في الإمبراطورية الرومانية ونجده ممثلا عند شخص آخر بوليلي.

2-في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي، نلاحظ تراجع الفئة الأرستقراطية وبروز الطبقة الوسطى التي تضم المعتقين وأصحاب الجمعيات الحرفية و المكلفين(15) بالسهر على عبادة الإمبراطور. كذلك نسجل في هذه الفترة ظهور الأسماء الإغريقية. ومما يثير الانتباه في هذه الفترة بالضبط، ظهور مجموعات إثنية نخص بالذكر منهم السوريين و العرب الذين كانوا يعملون في الجيش الروماني.

3-ندرة الأسماء الليبية أو البربرية بين السكان ولا نجدها إلا عند رؤساء القبائل و أبنائهم. ونضيف إليها بعض الأسماء الأخرى مثل : Caia ou Gaia, Didei, Pullut, Bebulus, ASABAR ?, Babus.

4-كذلك يلاحظ قلة الأسماء البونية و لا تتعدى في مجملها خمسة أسـماء:Bargbal, Matun, Bidbal, Bostar ، ونضيف إليها اسما آخر هو Idibal.

وفي الختام، لابد من الإشارة إلى أن أعلاميات موريطانيا الطنجيـة كـانت متأثرة بأعلاميات إسبانيا، خصوصا في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي.

الهوامش:

(1) - H.G.Pflaum," Considérations sur la méthode des "sondages" épigraphiques locaux en onomastique latine (d'après les inscriptions africaines)", in l'onomastique latine, 13-15 octobre 1975, Colloques internationaux du CNRS, Paris, ed. CNRS, 1977,pp.320-324.

(2) - R.Cagnat, Cours d'épigraphie latine, 4ème édition, Paris, 1914. H.Thylander, Etude sur l'épigraphie latine, lund, 1952.

(3) L.Robert, "Epigraphie et paléographie", CRAI, 1955, pp.195-223. L.Mallon, " *L'Ordinatio* des inscriptions", CRAI, 1955,pp. 126-136. J.Marcillet-Jaubert, " Philologie des inscriptions", Revue des Etudes Anciennes, 62, 1960, pp.362-382. Marc Mayer,"Epigrafía y Paleogrfía. Una integratión lenta y dificíl", XI Congresso Internazionale di Epigrafia Greca e Latina, Roma, 18-24 settembre 1997, Roma, 1999, pp.495-518.

(4) - JM.Lassère, Recherches sur la chronologie des épitaphes païennes de l'Africa, ,Antiquités Africaines, 7, 1973, pp.7-151. R.C.Knapp, Latin inscriptions from central Spain, Classical Studies, Vol.,34, University of California Publications, 1992, 476p,خاصة الفصل المتعلق بالتأريخ ,"The problem of dating", pp.339-384.

(5) - M.Brillo, وآخرون ,"Une expérience de recherche historique à partir de l'analyse d'un corpus d'inscriptions funéraires latines", Antiquités.Africaines., 9, 1975, pp.127-144. J.Aguilella Almer وآخرون ,"Détermination de la représentativité des inscriptions latines grâce à la statistique inférentielle", Antiquités Africaines, 9, 1975, pp.115-126.

(6) - G.Alföldy," Note sur la relation entre le droit de cité et la nomenclature dans l'empire romain", Latomus, 25, 1966, 37-57. G.Sanders, "L'onomastique et l'épigraphie. Population autochtone et population étrangère dans le monde romain tardif", in Acta Centri Historiae, tena antiqua balcanica, 1987, pp.315-333. E.Badian, Foreign Clientelae (264-70 B.C.), Oxford, 1972. 342p.

(7) - J.N.Bonneville,"Le support monumental des inscriptions: terminologie et analyse", in Epigraphie Hispanique. Problèmes de méthode et d'édition, Paris, 1984, pp.117-152.

(8) - M.El Rhaïti, Recherches sur l'onomastique de la Maurétanie tingitane, Thèse de doctorat (N.R.), sous la direction d'Ed.Frézouls et de J.M.David, Strasbourg, (décembre 1996), soutenue le 17 mars 1997.

(9) - D.Julia," Les monuments funéraires en forme de demi-cylindre dans la province romaine de Tarragonaise", Mélanges de la Casa de Velásquez, I, 1965, p.29-74.

J.Gascou, " inscriptions de Tébessa", M.E.F.R.,81, 1969, pp.537-599. P.A.Février, "Remarques sur les inscriptions funéraires datées de Maurétanie Césarienne orientale ", M.E.F.R., 76, 1964, 1, pp.105-172.

(10) - F.Braemer, "Les marbres à l'époque romaine", Revue Archéologique, 1971, fas.1,pp.167-174. M.H.Balance, "The origin of Africano", Papers of British School at Rome, vol., 34, (New series), Vol.,21, 1966, pp.79-81.

(11) - IAM2: 394-402-404-413-420.

(12) - Ph.Leveau, Caesarea de Maurétanie. Une ville romaine et ses campagnes, .Coll.de l'Ecole Française de Rome, 70, 1984, 556p.

(13) - Y.Le Bohec," Onomastique et société à Volubilis", Africa Romana., t.6, Atti del VI Convegno di Studio Sassari, 16-18, 1988, (1989),pp.359-357.

(14) - قراءة إبيغرافية جديدة للنقائش المسيحية بموريطانيا الطنجية. انظر: محمد المبكر، المسيحية و الترومن في شمال أفريقيا من عهد ديوكليتيانوس إلى الغزو الوندالي (284م-429م)، أطروحة لنيل دكتوراه الدولـــة في التاريـــخ القديم، الجزء الأول، كلية الآداب و العلوم الإنسانية –فـاس- 1999، صص.181-189.

(15) - R.Duthoy," Recherches sur la répartition géographique et chronologique des termes sevir augustalis, augustalis et sevir dans l'empire romain", Epigraphische studien, 11, 1974, 143-214.

البحث في التراث القديم: بين تقاليد الماضي وآفاق المستقبل

المصطفى مولاي رشيد*

من خلال عنوان مساهمتي في اليوم الدراسي الخاص بالبحث في التـــاريخ القديم، تعمدت استعمال لفظ تراث ولا كلمة تاريخ. لماذا؟ لأنه، في اعتقادي، تشـكل فترة ما قبل التاريخ رصيداً أساسياً ومفيداً من التراث العتيق. وهي الحقبة الطويلـــة المدى والتي توحي إلى عناصر هوية وطنية معينة. ويجب من باب الإنصـــاف، أن نستحضر نشاط تلك الجمعية التي انكبت خلال سنوات طويلة على فـــترة مـــا قبـل التاريخ المغربية، وكان جورج سوفيل G. Souville (1) من أعضائـــها المرموقيـــن. حبذا، لو توبعت تلك الممارسة العلمية من جانب باحثين مغاربة.

أما ما يهم التاريخ القديم، ففي الحقيقة، أخذ العصر الروماني مـــن علمـــاء الآثار، الاعتناء الواسع فضاء وحده. ولكن، لم تقتصر مبادرات هـــؤلاء الأثريـــن بصفة عامة، خلال عهد الحماية وبداية عهد الاستقلال، على الرومان فحسب، بل تَمَّ

• – أستاذ باحث كلية الآداب الرباط

تسليط الأضواء من جانب بعضهم، أيضاً على الفينيقيين والقرطاجيين والأمازيغ والرحلات البحرية والعلاقات الخارجية مع باقي بلدان إفريقيا الشمالية وبعض المجالات من إفريقية الجنوبية. وأعتقد أن المساهمات وافرة في هذا المضمار. غير أنه، قد عشنا منذ السبعينات أزمة التاريخ القديم بصدد تلك العملية التحويلية أو بتعبير آخر بشأن تلك المبادرات الهادفة إلى مغربة التاريخ القديم لا سيما ما يخص أُطُرَ استيعابه وتبليغه. سبق لي أن أشرت إلى هذا الإشكال خلال الحفل التكريمي الخاص بالأستاذ إبراهيم بوطالب(2). فقلت آنذاك إن الجواب واضح، لأنه، وبكل موضوعية، لم يكن من تقاليدنا المعرفية العتيقة أو المُحْدَثَة، الالتفات إلى التراث القديم(3) وذلك لأسباب عدة: عقيدية واجتماعية ومنهجية.

يظل في نظرنا، من المفيد المحافظة والسعي نحو إغناء تراث ذي قيمة جمالية وبشرية. ففي هذا الإطار، يفتخر العلم القديم بحق، لكونه اكتشف بالتدريج قواعد التفكير والبحث والاتصال والنقد، قواعد لولاها، لم يتسم العمل الفكري العتيق بأية قيمة تُذْكَر. وهانحن أمام ماضي، كان قبل كل شيء، حياة واقعية وتمريناً نافعاً لسيرة الفكر نحو العلوم الإنسانية. وبالتالي، كيفما كانت الإشكالات التي تظهر بمناسبة الدراسة قصد استيعاب الفكر القديم، فهي على أية حال، أكثر قصوراً من الصعوبات التي تهبها طبيعة المستندات المتوفرة لدينا. فالمبادرة في هذا المضمار، ليست مستعملة ومُنجزة في حينها. فمن اللازم على الأقل، ترجمة نص أو تأويل نقائش أو دراسة لمدة طويلة، مجموعات نقدية واستنطاق صخور قديمة؛ وقد لا يتسم هذا الاستيعاب على الإطلاق أو من النادر جداً، فما هو موثوق به وفي أتم الوضوح والدقة. وهكذا، يصير التراث القديم، الميدان العلمي الأقل ضبطاً وصحة مما قد يكون عليه. غير أنه عكس ذلك، قد يبدو أكثر جاذبية بِحُكم وازع الشك نفسه في معلوماته، حيث تبرزها مفارقة هذه المادة التي تتطلب بطبيعة هشاشتها، أقصى ما يمكن من العمل الجاد والتقنيات والمناهج الدقيقة والصائبة.

مع أنه نلاحظ وبدون منازع تقدم المعرفة الخاصة بالتاريخ القديم. فمنذ قرون تقريباً، أظهر تأويل النصوص المنجزة جيداً رؤية جديدة، كما نمت العلوم التكميلية بصفة موازية، وفوق كل هذا وذاك، أغنى استعمال المناهج الدقيقة معلوماتنا بشكل جِدّي، الأمر الذي جعل التاريخ القديم يتحول أكثر فأكثر كأغلبية الأنشطة الإنسانية إلى مادة علمية.

فما هي ميادين(4) هذا التاريخ؟ فمن المفيد في نظري ذكرُها ولو بإيجاز.

* **الهياكل السياسية:** إنها تقترب من الأنظمة المعاصرة من أجهزة أرستقراطية، طغيانية وديموقراطية فمن آلاف السنين ومنذ وُجدت مجتمعات، ظل من الأكيد حُكمها وتسييرها. لنبادر في هذا الإطار في محاولة التفكير في النظم المبدعة التي عاشت ميلاد وتطور العلوم المختلفة وفي الحقب ـ عكس ذلك ـ التي تميزت بالركود والانحطاط. ومن اللازم ممارسة في هذا الباب عملية الاستنتاجات الأساسية.

* **المصادر الأدبية:** يوفر لنا العدد الكثير من المؤلفين القدماء، دون أن يمارسوا أشغال المؤرخين، معلومات هي بمثابة مستندات نفيسة بواسطة الرؤية العاجلة للأحداث.

* **المصادر الغير الأدبية:**

ـ العلماء القدماء.

ـ المؤلفون التقنيون **Vitruva**.

ـ الجغرافيون وأصحاب الرحلات.

ـ العلماء البزنطيون.

ـ الوثائق الرسمية القديسة.

* **تاريخ الإغريق والرومان.**

* **العلوم المعروفة بالتكميلية:**

- علم الآثار: ليس بالإمكان أن يُطلقَ عليه اسم "علم تكميلي" فهو ليس مستقل فحسب، بل صار مكتسحاً بالنسبة للعلوم الأخرى.
- علم النقائش: نثراً وشعراً وحتى ما يتعلق بقصائد الهجاء .
- علم النقود.
- علوم الإنسان من أنثروبولوجيا وإينتوغرافيا واليوغرافيا.

*** ميادين أخرى جديرة بالبحث:**

- فلسفة وتاريخ الأفكار.
- العلوم الحقة: من رياضيات وعلم الفلك، فيزياء، كيمياء، جيولوجيا، علوم الأرصاد الجوية.
- الزراعة، تربية المواشي، المعادن، هندسة المياه.
- علم النباتات والحيوانات.
- علم البيئة.
- الطب والصيدلة وطب الحيوانات.
- الحرف.
- الفن العسكري.
- الصيد، الرياضة والألعاب المختلفة.

*** التأريخ:**

- التاريخ القديم العام.
- تاريخ العالم القديم في علاقاته مع روما وبلاد الإغريق.
- التاريخ الهلنستي أو الهلياني.
- تاريخ مصر الإغريقية ـ الرومانية.
- القورينائية والطرابلسية.
- شمال إفريقيا.
- شبه الجزيرة الإيبيرية.

* **تاريخ الأدب:**

- التاريخ العقيدي والأسطوري.
- تاريخ النصوص.
- الليسانيات وفقه اللغة.

فعلى ضوء هذه المقترحات التي تحمل أيضاً في طياتها إشكالات البحث في التاريخ القديم، قد برزت في اعتقادي آفاق جديدة، تخص المبادرة العلمية في هذا الإطار. وهنا، من الأليق أن نترك جانبا ــ ولو مؤقتاً ــ النطاق الوطني خصوصاً وشمال إفريقيا على العموم، للاهتمام بما حدث قديماً في مجالات مختلفة من العالم المعمور طبقاً لآليات واختصاصات فروع التاريخ القديم عبر الجامعات المغربية. وسيؤدي لا محالة هذا الانفتاح على الخارج إلى تطور ملموس بالنسبة للبحث في التراث العتيق. ولنتذكر في هذا المضمار ما آلت إليه الدولة الإسلامية في كل من المشرق والأندلس من حضارة وازدهار بعد احتكاكها بالتراث المعرفي القديم.

الهوامش:

[1] ــ أنظر أعمال ج. سوفيل الخاصة بفترة ما قبل التاريخ المغربية، لا سيما ما يتعلق بالمغرب الأطلسي. ألقى هذا العالم بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، محاضرات خاصة بهذه الحقبة، لطلبة شهادة التاريخ القديم من الإجازة إلى حدود سنة 1965.

[2] ــ يومه السبت 21 أبريل 2001 زوالاً بدار لمريني بالرباط المدينة.

[3] ــ وفْقَ ما جاء في نص ورقة العمل: «إن تاريخ المغرب في الفترة القديمة (فترة ما قبل الإسلام) تاريخ مسكوت عنه في الكتابات التقليدية المغربية».

[4] ــ أنظر فيما يتعلق بالمنشورات الخاصة

محاولة في رصد حصيلة الأبحاث الأثرية
حول المغرب القديم قبل العهد الروماني

محمد مجذوب*

نقترح في هذا الموضوع دراسة مختصرة حول المراحل التاريخية المتعارف عليها بالنسبة لتاريخ المغرب القديم قبل خضوع البلاد للرومان. وسنتتبع كل مرحلة على حدة باستعراض مقتضب للإشارات الواردة في المصادر التاريخية، ثم سنقدم نتائج الأبحاث الأثرية حول كل مرحلة على حدة.

المرحلة السابقة عن العهد الفنيقي

إنها مرحلة يتجاهلها الدارسون، بينما نعتبرها منطلقا أصليا لحضارة المغرب القديم بعد عهود ما قبل التاريخ(1) . فلقد تواترت بعض الإشارات عند الكتاب الإغريق حول هذا العهد الغابر منذ الشاعر هوميروس. ومنهم من أكد أنه استقى معلوماته عن هذه المرحلة من مصر الفرعونية. تفيد هذه الإشارات من جهة أن المغرب عرف قبل مجيء الفنيقيين نموا حضاريا، في الفلاحة والعمران والعلوم والديانة والسياسة، ومن جهة أخرى فإن هذا التقدم الحضاري كان له إشعاع وتأثير بليغ في العالم الإغريقي، الأمر الذي أثار حفيظة المينويين، فصاروا

* أستاذ باحث بكلية الآداب – المحمدية.

أندادا ومنافسين للإله الليبي بوسدنيوس Poseidonius والد أقدم أبطال وملوك المغرب وهما أنتايوس Anthaeus وأطلس Atlas. وغني عن البيان أن القصة الأسطورية حول مصارعة هرقل لأنتايوس تنطوي على هذه المنافسة مع العالم الإغريقي. ونقدر أن مرحلتنا هذه معاصرة على الأقل للمملكة الفرعونية الوسطى وللمقدمات الحضارية في العالم الإغريقي، المعروفة بالحضارة المينوية بجزيرة كريت والحضارة الموكينية في أطراف شبه جزيرة البيلوبونيز. إن هذا الافتراض يسمح لنا حاليا بحصر تاريخ المرحلة التي تهمنا، ما بين الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد حتى حدود القرن الثاني عشر، حيث ظهر الفنيقيون على مسرح الأحداث في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

إن الكتاب القدماء أشاروا إلى بعض من آثار هذه المرحلة، على أنها كانت موجودة في وقتهم. يروي بومبونيوس ميلا في هذا الصدد ما يلي: "كان أنتايوس ملكا على موريطانية، وما يؤكد ذلك وجود ربوة تحتوي على ضريح هذا العملاق. ويبدو شكلها على هيئة إنسان نائم على ظهره". وفي حديث الكاتب عن طنجة قال: "إنها مدينة قديمة جدا أنشأها أنتايوس. والدليل على ذلك توفر المدينة على درع ضخم مصنوع من جلد فيل، وهو لا يناسب أي إنسان حاليا، بينما يؤكد السكان أن العملاق كان يستعمله"(2). وقد أثارت هذه المخلفات المادية التي كانت معروفة في القديم فضول القائد الروماني سرطريوس، فنقب في ضريح البطل أنتايوس بناحية طنجة حوالي سنة 82 ق.م(3).

والجدير بالذكر أن الإغريق والرومان اعتادوا على تصوير مصارعة هرقل وأنتايوس في مشاهد مختلفة(4) ، كما أشار إلى ذلك بعض الكتاب القدماء(5). وقد حظي المغرب بنصيبه من هذه الآثار التي تعود للعهد الروماني. فبمدينة وليلي يظهر هذا المشهد في فسيفساء منزل أعمال هرقل. وفي مدينة لكسوس تم العثور على تمثال برنزي يعالج هذه الفكرة(6).

ومن قبيل الذكرى الخالدة لعهد أطلس المزدهر ما أثار اهتمام ديدور الصقلي في تناوله لموضوع ليبيا. وهذا قوله: "إن الأطلسين Atlantes رعايا أطلس هم أكثر الليبيين حضارة في هذه النواحي. فهم يمتلكون أرضا مزدهرة ومدنا كثيرة". ومن بين هذه المدن ذكر نفس الكاتب مدينة كرني Kerné، التي حطمتها النساء الأمزونات Amazones في حملتهن المظفرة على بلاد الأطلسيين. وبعد الصلح الذي تم بين الطرفين، والولاء الذي أبداه الأطلسيون لهذه النساء، فإن ملكة الأمزونات، التي تدعى مورينة Murina أعادت بناء المدينة وأطلقت عليها اسمها(7). فإلى أي حد يكون اسم مورينة قريبا في اشتقاقه من اسم الموريين Mauri، وهم سكان المغرب القديم، الذين أُطلق اسمهم على بلادهم Mauretania (8).

وهنا نشير إلى أن ذكرى موقع كرني ظلت خالدة في الجغرافية التاريخية للمغرب القديم. على أنها جزيرة طاف بها حنون في رحلته(9). وتحدث سكولكس عن التجارة التي كانت تقوم بها مع الفنيقيين (10) وظن أحد الكتاب أنها كانت تزخر بالذهب(11). ثم نقل بلنيوس الشيخ عن بوليبوس، ما يفيد أن الجزيرة المذكورة كانت تقع في أقصى جنوب موريطانية، وهي متقابلة مع جبال الأطلس، تفصلها ثمانية ستادات stades عن الساحل(12) بينما لاحظ سترابون أن الجزيرة لم يعد لها أي أثر(13) . لكن بطليموس حاول إيجاد موقع لها خارج نطاق موريطانية(14).

غير أننا لا نتوفر حاليا على أية مخلفات مادية حول الوسط الأثري لهذه المرحلة الغابرة من تاريخ المغرب القديم، في لكسوس خاصة، لأنها مرشحة أكثر من غيرها من المدن لاحتواء هذه المخلفات. والمسألة تتطلب مزيدا من التحري والتنقيب عن آثار هذه المرحلة الغابرة، التي تركت بصماتها في واقع المغرب الجغرافي والثقافي والحضري، ضمن ما تختزنه ذاكرة الناس. والأمر يتعلق بذكرى الملك أنتايوس المتمثل في خلود اسم مدينته طنجة. وباقتران اسم أطلس بالأطلسين الذين سكنوا المغرب قديما. ومازالت ذكرى هذا الاسم خالدة في جبال المغرب ومحيطه. كما ترتبط ذكرى البطل أطلس بخلود مدينة لكسوس، التي مازال نهر اللكوس ينطوي

على اسمها العتيق. وهي المدينة التي اشتهرت بحدائق الهسبريات Les Hespérides المنسوبة لبنات هذا الملك. كما اعتبرت المدينة عاصمة الملك أنتايوس وله فيها قصر. كل ذلك يفيد أن حضارة المغرب القديم تستمد جذورها من هذه المرحلة التي ازدهرت فيها البلاد قبل الفنيقيين.

المرحلة الفنيقية

ينفرد نص رحلة سكولكس بنعت مدينتين موريتين بكونهما فنيقيتين. والأمر يتعلق بلكسوس المعروفة حاليا، وتمياترية Thumiateria الواقعة على نهر كرابيس Krabis وهو واد سبو. وآثار هذه المدينة مازالت مجهولة. ولقد ميز سكولكس بين لكسوس كمدينة فنيقية ومدينة أخرى وصفها بالليبية دون ذكر اسمها، محددا موقعها على الضفة اليسرى لنهر لكسوس. كما نجد صاحب الرحلة ملما بالمبادلات التجارية التي كان يقوم بها الفنيقيون في جزيرة كرني Kerné على المحيط الأطلسي(15).

بالنسبة لمدينة لكسوس نتساءل عن تجاهل سترابون لماضيها الفنيقي نظرا لاهتمامه بالوجود الفنيقي في البلاد. بل اكتفى بالإشارة إلى المراكز الفنيقية، محددا مجالها جنوب لكسوس، ومستغربا من مبالغة مصادره في تقدير عددها. وهذا قوله: "في جنوب لكسوس ورأس كوطيس يوجد خليج يدعى بالأمبوري Amporikos لأنه يحتوي على مراكز للتجارة الفنيقية Amporias". وفي سياق آخر أورد نفس الكاتب خبرا اعتبره من قبيل المعلومات المغلوطة مفاده: "أن الخلجان الواقعة جنوب الخليج الأمبوري تحتضن حوالي ثلاثمائة مدينة كان يمتلكها أهل صور لكن ليس لها اليوم أي أثر، لأن الفاروسيين والنكّريتيين حطموها عن آخرها، ويقال إن مواطن هذين القومين تبعد عن لكسوس بحوالي ثلاثين يوما من المشي"(16).

إن نفس التساؤل يطرح حول عدم اكتراث بلنيوس الأكبر بالماضي الفنيقي لمدينة لكسوس، بينما نجده مهتما بواقعها قبل العهد الفنيقي، بالإشارة التالية: "إن القدماء جعلوا من لكسوس موضوعا لقصص عجيبة، فجعلوا فيها حدائق الهسبريات وقصر أنتايوس وفيها تصارع مع هرقل ... لكن أشجارها من التفاح الذهبي المشهورة في

الأساطير ليس لها أي أثر باستثناء الزيتون البري"(17). ثم أضاف نفس الكاتب في سياق آخر ما يلي: "تقع مدينة لكسوس على بحيرة تبعد عن المحيط بحوالي مائتي قدم. إنها قرب معبد لهرقل وهو أقدم من معبد نفس الإله في كّاديس Gadis حسب ما يقال"(18). والجدير بالذكر أن الدارسين اعتمدوا هذا النص الأخير للتسليم بالهوية الفنيقية لمدينة لكسوس، على أن تاريخ إنشائها متزامن مع تاريخ إنشاء الفنيقيين لمدينة كّاديرة Gadeira أو كّاديس في إسبانيا منذ أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد(19). وهنا نتساءل عن التسمية الفنيقية لبعض المدن وهي روسادير Rhysaddir المتوسطية والأطلسية ومعهما روسبيس أو روتبيس Rousibis (20)، فهل تعكس ذكرى المراكز الفنيقية في المغرب القديم، التي علم سترابون بشأنها في النص السالف ذكره.

أيا ما كان الأمر، فالمواد الأثرية الفنيقية متوفرة في عدة مواقع مغربية. والأمر يتعلق بنوع خاص من الأمفورات وبخزف مطلي بلون أحمر céramique à engobe rouge ومعها في نفس الوسط الأثري قطع من خزف آتيكي. بدأ التعرف على هذه السلع الفنيقية في جزيرة مكّدور وتم التأريخ لها ما بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد(21). وتميزت مكّدور عن غيرها من المواقع، باحتوائها لكتابة فنيقية منقوشة على قطع من الأواني الخزفية، وعلى قطع أمفورات، يتراوح تاريخها ما بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. ومن بين ما كتب على هذه القطع أسماء أشخاص مركبة مع معبودات فنيقية مثل بعل وإشمون وتانيت، فضلا عن اسم شخص يدعى مكّون، وهو علم اشتهر فيما بعد بقرطاجة(22). وقد دلت هذه المكتشفات على مصداقية سكولكس في إشارته إلى كون الفنيقيين كانوا يبيعون خزفا آتيكيا للسكان في جزيرة كرني Kerné. وبرغم أننا لم نتيقن بعد من مطابقة الجزيرة البائدة مع الجزيرة الحالية، فلا شك أن مكّدور كانت تشهد رواجا مماثلا لما كان يجري في كرني.

أعد طراديل استراتكّرافية مدينة لكسوس في استبار الخروب وحدد الوسط الأثـــري للمواد الفنيقية في المستوى الأسفل، لكنه تأثر برأي سنتاس في اعتبار أقـــدم آثـــار لكسوس لا تتعدى القرن السادس قبل الميلاد(23). بينما دلت دراسات متأخرة على أن أقدم مواد لكسوس تعود للقرن الثامن قبل الميلاد(24). اكتشف طراديل أيضا بعـــض المواد الفنيقية في موقع سيدي عبد السلام دلبحر بناحية تطوان(25). بينمـــا تجـــاهل نفس المنقب هذه المواد في أمسة بنفس الناحية(26) ، تم التعرف عليها مؤخـــرا فـــي دراسة مواد الموقع(27). ثم اكتشف بونسيك قطعا من الخزف الفنيقي في موقع جرف الحمراء بناحية طنجة(28). ولاعتبارات استراتكّرافية، يتضح من الطريقة التي قـــدم بها المنقبان نتائج استباراتهما في المنطقتين معا، أن هناك خلـــلا منـــهجيا يقتضـــي إعادة دراسة هذه المواقع(29). وأهم إشكال يطرح بالنسبة للموقعيـــن الفنيقييـــن فـــي ناحية تطوان هو عدم توصلهما بالخزف الأتيكي، الذي تم اكتشافه في بعض المواقع الأطلسية مثل بوتي بوا Petit Bois بناحية طنجـــة ولكســـوس والأقـــواس وبناســـة ومكّدور. وقد دام رواج هذا الخزف في المواقع المورية ما بيـــن القرنيـــن الســـابع والرابع قبل الميلاد(30). ومن جهة أخرى يطرح المشكل الستراتكرافي حـــول قطـــع أمغورات فنيقية تم اكتشافها في تاهدارت(31) وبناسة(32).

غير أن الأبحاث الأثرية لم تكشف بعد على مـــا يؤكـــد تغلغـــل الديانـــة الفنيقيـــة بموريطانية كما هو عليه الحال في إسبانيا(33). برغم ترجيح الدارســـين أن هرقـــل الذي أشارت النصوص إلى تقديسه في لكسوس هو الإله الفنيقي ملقارط(34). بينمـــا لاحظ المتخصصون في دراسة النقود أن الإله المذكـــور لا يظـــهر علـــى العملـــة المورية مثل ما هو عليه الحال بالنسبة لعملة كّاديس(35). وهنا أخطأ بونســـيك فـــي اعتبار الشخص المرسوم على عملة طنجة هو ملقارط(36). ومن جهة أخرى يـــرى بعض الدارسين أن المعبد الماثل على عملة لكسوس يوحي بذكـــرى معبـــد هرقـــل المذكور في النصوص(37). أما اعتبار المعبد H بلكسوس فنيقـــي الأصـــل ويرجـــع تاريخه إلى القرن السابع قبل الميلاد(38) ، فقد دلت دراسات متأخرة علـــى مغالطـــة

ارتكبها بونسيك في هذا التأريخ(39). وهي مغالطة تضاهي اعتبـاره أن مقـابر ناحية طنجة فنيقية، مؤرخا لها ما بين القرنين الثامن والخـامس قبـل الميـلاد حسب هو اه(40).

المرحلة القرطاجية

نعرف الوجود البوني القرطاجي في موريطانية بواسطة نص وحيد هو رحلة حنـون التي وقعت في القرن الخامس قبل لميلاد(41) ، حيث ورد ذكر ست مستوطنات قيـل إن حنون أنشأها، بين مضيق أعمدة هرقل ونهر لكسوس(42). والراجـح أن حنـون شاء أن يخلد المدينة الفنيقية تمياترية لما أطلق اسمها على أولى مسـتوطناته وهـي تمياتريون Tumiatérion. أما اسم المستوطنة الثانيـة كـاركون تيخـوس Karikon Teichos ومعناها السور "الكاري"(43) ، فيوحي بذكرى الآثار الإغريقيـة بالناحيـة، والتي ترجع في الغالب إلى فترة المنافسة بين الإغريقيين والفنيقيين فـي اسـتيطان الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. غير أن الوجود الإغريقي في موريطانيـة لا نجد له صدى واضحا في النصوص. بينما تحدث إفور عن هذه المدينة في القـرن الثالث قبل الميلاد قائلا:"كاركون تيخوس مدينة ليبيـة تقـع علـى يسـار أعمـدة هرقل"(44). والراجح أن ذكر الكاتب المذكور لهذه المدينة يوحـي بأنـه علـم مـن مصادره بالأثر الكاري في موريطانية، وهذا شأن تاريخي يهم الكاتب لكونه ينتمـي إلى مدينة كوميس Cumes الواقعة في هذه المنطقة الآسيوية من العالم الإغريقي.

ثم هناك نص هيردوت حول تجارة الذهب بين القرطاجيين وسكان المغرب. وهـذا قوله: "يتحدث القرطاجيون عن بلد في ليبيا وراء أعمدة هرقل. فعندما يصلون إليـه يعرضون بضائعهم على الشاطئ ويعودون إلى سفنهم حيث يشعلون نارا. وحينمـا يراها السكان يأتون بالذهب ويضعونه بجانب السلع القرطاجية وينسحبون بعيدا عـن المكان. بعدئذ ينزل القرطاجيون لفحص كمية الذهب، فإذا كـانت كافيـة أخذوهـا وانصرفوا تاركين أمتعتهم. وإذا كانت غير كافية تركوها وعادوا إلـى مراكبـهم. وحينئذ يأتي السكان فيضيفوا شيئا من الذهب. وقد تتكرر العملية إلـى أن يحصـل

التراضي في صمت. ويؤكد القرطاجيون أن الطرفين يلتزمان الإخلاص في معاملاتهما، فهم لا يمسون الذهب إلا إذا وجدوه كافيا لقيمة سلعهم، والسكان بدورهم لا يأخذون شيئا من البضائع قبل أخذ القرطاجيين للذهب"(45).

وآخر ما ندلي به في الشأن القرطاجي بموريطانية، إشارة إلى مقارنة الكتاب الإغريقين واللاتينيين بين لكسوس وقرطاجة، في نص قال فيه بلنيوس الأكبر ما يلي: "لا داعي للاستغراب كثيرا من تخيلات الإغريقيين حول موضوع حدائق الهسبريات ونهر لكسوس، إذا علمنا أن كتابنا ألفوا مؤخرا حول المدينة روايات خارقة للعادة. وإذا صدقنا كلامهم فإن لكسوس كانت أكثر قوة وأعظم من قرطاجة الكبرى"(46). وهذه إشارة هامة في تقديرنا، نرجح أنها تعكس المنافسة بين القرطاجيين والموريين، الذين حرصوا على مصلحتهم في السيطرة على الملاحة التجارية بالمحيط، بمنع غيرهم من ارتياد بحارهم. وهذا ما يعكسه نص هيرودوت حول تجارة الذهب بشروط تنم عن قيود فرضها الموريون على زبنائهم في تبادل هذه المادة. وهو ما نلمسه من الفراغ الذي شهدته جزيرة مكّدور بعد اتصال الفنيقيين بها بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد(47) . ثم إن واقعة عقاب الموريين للتاجر والمستكشف أودكس الكوزيكي Eudoxe de Cyzique ، توضح بما لا يدع مجالا للشك أن الموريين تحكموا في الملاحة بالمحيط الأطلسي، وكانوا يزجرون كل من لم يحترم مجال نفوذهم أو لم يراعي مصالحهم(48). قال سترابون في هذا الصدد: "لما وصل (أودكس) سالما إلى موروسية Maurusia باع مراكبه. ثم قصد بكّوس Bogos (بكوس الأول) وهو ماشيا، وعرض عليه أن يتولى الإشراف عن الرحلة البحرية التي يعتزم القيام بها. لكن أصدقاء بكّوس تشبثوا بالرفض، محذرين ملكهم من مغبة جعل البلاد عرضة للغزو إذا صار الطريق معروفا عند الغزاة الأجانب". وفي النص إشارة إلى أن الموريين قرروا نفي الرجل إلى جزيرة مهجورة"(49). إن هذه المؤشرات تعكس فرضيتنا حول الوساطة المورية بين العالم المتوسطي وبلاد الإثيوبيين الغربيين، التي اشتهرت بشتى الثروات ومن بينها

الذهب. ولعدة اعتبارات لا يسمح المجال بالإسهاب فيها هنا، نرجح أن الموريين باحتكاكهم مع الفنيقيين وغيرهم من الشعوب، قد لمعوا في ميدان الملاحة التجارية قبل خضوع البلاد للرومان(50).

وبالنسبة للعلاقات السياسية بين الموريين وقرطاجة، فأقدم خبر حول هذه النقطة يفيد أن ملكا موريا أغفل المصدر ذكر اسمه، قد ساعد ثائرا قرطاجيا يدعى حنون، في تاريخ قُدِّر بحوالي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد(51). وهذا يدعو إلى الاعتقاد بأن العلاقة كانت سيئة بين البلدين. ونجد امتدادا لعداوة مضمرة بين البلدين في مساعدة الموريين للملك الماسيسولي سيفكس Syphax سنة 213 ق.م. لما هاجمه الملك الماسولي كّايا Gaïa بدعم من قرطاجة(52). ثم ساعد الملك الموري باكّا Baga الأمير الماسولي مسنيسا بن كّايا Massinissa سنة 206 ق.م. لكي يعود إلى بلاده لاسترجاع ملكه الذي سلبه سيفكس بتأييد قرطاجة أيضا(53). والواضح أن هذه المساعدات المورية للجيران النوميدين، تنعكس سلبيا على الأهداف التوسعية لقرطاجة، ولا ريب في أن هذه المواقف تدل على عدم انسجام الموريين مع تطلعات القرطاجيين في فرض هيمنتهم على الملوك الأفارقة.

ثم هناك إشارات في النصوص يستفاد منها أن الموريين التزموا مواقف الحياد في الصراع القرطاجي الروماني، والرجال الموريون الذين شاركوا في الحربين البونيتين الثانية والثالثة هم في الغالب مرتزقة(54) ، لا تتحمل السلطة المورية مسؤولية انخراطهم في الجيش القرطاجي(55).

لم تسفر التحريات الأثرية لحد الآن على مخلفات أكيدة تزكي هذا الوجود القرطاجي في موريطانية(56). وهنا نسجل أن آثار المراكز القرطاجية التي أنشأها حنون قد اختفت منذ التاريخ القديم، كما يشهد على ذلك بلنيوس الأكبر، في سياق حديثه عن مدينة لكسوس قائلا: "إن معظم الكتاب الإغريق وكتابنا أيضا يتحدثون عن أساطير من بينها أن حنون أنشأ عدة مدن في هذه الناحية. لكن ليس هناك أي أثر لها، ولا أحد يتذكرها"(57). فهل يبرر هذا النص إشارة المنقبين في مكّدور وناحية

طنجة إلى عدم عثورهما على آثار قرطاجية في حفرياتهما(58) ؟ أم أن هذه النتائج السلبية ترجع إلى قصور في البحث؟ أيا ما كان الأمر، فإن الدارسين عجزوا عن التمييز بين المرحلة القرطاجية والمرحلة البونية واصطلحوا لذلك بعض المفاهيم مثل قولهم بالفترة البونية المورية(59).

وبالإضافة إلى ذلك نجد عند الدارسين تصورات لا تستند إلى دليل مقنع حول الوجود أو النفوذ القرطاجي بموريطانية، الذي يعد في نظر جودان استمرار للوجود الفنيقي بالمغرب(60). ومن قبيل هذه الأوهام، التكهن بأن مدينة روسدير قد شيدها القرطاجيون(61). وأن روتبيس Rutubis أو روسبيس Rousibis قد أنشأها البونيون قبل رحلة حنون(62). أو اعتبار تيط موقعا بونيا مطابقا للمدينة المذكورة، مع التأكيد على أن الأحواض المحفورة في الصخر بأحواز تيط تؤلف مقبرة بونية لسكان المدينة العتيقة. ناهيك عن التكهن باندثار المراكز البونية على الساحل الأطلسي نظرا لكونها مبنية بمواد هشة ونظرا لعوامل التعرية البحرية والانجرافات الواسعة التي تسببها(63). ومن قبيل هذه التصورات قول جودان التالي: "يبدو أن موقع مكّدور صار مهجورا منذ القرن الخامس قبل الميلاد، في نفس الوقت الذي تركز فيه تغلغل البونيين في شمال المغرب، وذلك في لكسوس وبناسة"(64). إنه رأي يتناقض مع زعم الكاتب نفسه بأن "مكّدور هي بلا شك إحدى المراكز التي أنشأها حنون في القرن *الخامس قبل الميلاد*"(65). ويتناقض خاصة مع تأكيده بأن الجزيرة لم تستيقظ من سباتها إلا في عهد يوبا الثاني(66). وهذا حكم له مصداقيته بالنسبة للمتفحص للمواد الأثرية التي اكتشفها المنقب نفسه في الجزيرة، مع إشكالية خاصة يطرحها وجود شفتين لأمفورتين من النوع Mana D نشك في اكتشافها بالجزيرة(67).

ثم نجد نفس التخيلات عند بونسيك في قوله التالي: "استجابت قرطاجة لقوانين الجغرافية بإهمالها للساحل المتوسطي نظرا لضعف انفتاحه على الملاحة. بينما استقرت على الساحل الأطلسي حيث عملت على تطوير المراكز الفنيقية وإنشاء مراكز جديدة"(68). إنه رأي لا يستند على أي دليل مادي، ومناقض لإشارة بوليبوس

إلى كون مجال نفوذ قرطاجة لا يتعدى أعمدة هرقل(69). وهذا الخبر يفيد أن القرطاجيين أكثر ارتباطا بالواجهة المتوسطية، مع استثناء المجال الأطلسي الموري من الهيمنة التي تعمد الكتاب القدماء والمحدثون إضفاءها على قرطاجة. ومن قبيل المجازفة كذلك القول التالي: "تأسست طنجة خلال رحلة حنون، واستطاع البونيون أن يجعلوا فيها ميناء تجاريا وتصبح في عهدهم مدينة دولة"(70). وعن موقع الأقواس ود نفس الكاتب أن يزعم ما يلي: " يعد موقع الأقواس محطة رئيسية في رحلة حنون، ونظرا لقربها من طنجة، تحولت مبكرا إلى مركز صناعي"(71). ناهيك عن الظن بأن بناسة وليلي مستوطنتين بونيتين(72). وأخيرا نشير إلى المجازفة في تسمية بعض المخلفات الأثرية بالبونية، ونختار من ذلك مثال إطلاق صفة البونية على مدفن مغوغة الصغيرة(73). كما أُطلق هذا النعت على أمفورات مورية محضة صنعت في أفران الأقواس وهي النوع Mana A4 أو Kouass 2-3 (74) وشمل هذا المفهوم بعض القطع الذهبية، مثل قطعة تم العثور عليها في بناسة ضمن وسط أثري يعود للفترة الرومانية، ومع ذلك قُدر تاريخ هذه التحفة بالقرن السادس قبل الميلاد(75). وأخيرا وُصفت مبخرة تم اكتشافها بوليلي بكونها بونية(76) . وقيل إن آثار بناية تم اكتشافها مؤخرا في هذه المدينة هي لمعبد بوني(77).

إن هذه المفاهيم تصطدم مع نتائج البحث الأثري، الذي لا يمكننا لحد الآن من ضبط مرحلة بونية واضحة المعالم في المغرب. وهنا نلاحظ مثلا من نتائج التنقيبات في مكّدور، أن الجزيرة لا تحتوي آثارا بونية. بل على العكس من ذلك عرفت الجزيرة فراغا منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وذلك في فترة المد القرطاجي. غير أن هذا الفراغ المتمثل استراتكّرافيا في الطبقة الثالثة، فإنه لا يعد فراغا تاما، لأن هذه الطبقة تحتوي أمفورات الأقواس العتيقة من النوع المشار إليه أعلاه(78). ويعد ذلك في تقديرنا مؤشرا على وجود فعلي للموريين في مجالاتهم الساحلية.

والواقع أن هناك تلميحات في مصدرين إلى كون موريطانية كانت مستهدفة في مشروع التوسع القرطاجي(79) ، الذي نعلم بتحققه في إسبانيا بعد الحرب البونية

الأولى. وهذا ما يعكسه مصدر يفيد أن إسبانيا هي وحدهـا التي شملها توسع قرطاجة(80). كما دلت نتائج الأبحاث الأثرية في إسبانيا على خضوعها للهيمنة القرطاجية منذ القرن السادس قبل الميلاد، حيث ركزت قرطاجة نفوذها على جزيرة إبيزا(81). وتعزز ذلك بإنشائها لمدينة ملاكّا(82).

وفي هذه الفترة نلمس بموريطانية نموا عمرانيا واقتصاديا، نسوق مثالا واضحا يهم النشاط التجاري للموريين خارج المجال البوني. يتعلق الأمر بصناعة أمفورات ضخمة في أفران الأقواس مخصصة لنقل الكّاروم Garum، وهي النوع Mana A4 أو Kouass 2-3. وقد تم اكتشاف هذه الأمفورات في بعض المدن اليونانية ضمن وسط أثري يعود للقرن الخامس قبل الميلاد(83). ولقد عمت هذه الأمفورات كل المواقع المورية التي كانت معمورة في فترة رواجها ما بين القرنين الخامس والثاني قبل الميلاد، أي قبل استعمال أمفورات مورية جديدة نعرف أنها صُنعت في أفران بناسة والأقواس هي النوع Dr. 18.

أما بالنسبة للعلاقات التجارية بين موريطانية وقرطاجة، فندلي هنا بملاحظة طراديل حول كون قرطاجة لم تتوصل بأمفورات الأقواس العتيقة من النوع Mana A4 أو Kouass 2-3 الذي عَثر عليه في موقع أمسة، وفسر المنقب هذه الظاهرة بضعف الروابط بين البلدين(84). وفي مقابل ذلك نسجل ندرة النقود القرطاجية في المغرب(85). بينما توزعت هذه النقود في عدة آفاق نذكر منها الجزائر وإسبانيا وفرنسا(86). كما أن الأمفورات البونية المشهورة في مجال النفوذ القرطاجي فهي نادرة في المغرب(87). وقد تم التعرف مؤخرا على نماذج قليلة من هذه الأمفورات البونية في مواد موقعي أمسة وسيدي عبد السلام دلبحر(88). وهنا نشير إلى أهمية التحريات الجديدة في موقع عزيب السلاوي، برغم نتائجها المحدودة، فإن الفترة المورية ممثلة بأمفورات الأقواس العتيقة من النوع السالف ذكره(89).

وهذا يوحي بأن موريطانية أقل اندماجا في تجارة العالم البوني على مستوى الاستيراد على الأقل(90). ويوازي ذلك ما تنطوي عليه النقائش البونية من ضعف

ارتباط موريطانية بالمعتقدات القرطاجية، عكس ما هو عليه الحال في بقية المناطق التي تندرج في المجال البوني(91).

غير أن في البلاد مخلفات تنم عن تغلغل التأثيرات الثقافية البونية، التي استمرت حتى بعد سقوط قرطاجة سنة 146 ق.م. يتجلى ذلك في الكتابة باللغة على العملة المورية قبل سيادة التأثيرات الثقافية الرومانية(92). واستعمال نفس الكتابة على النقائش(93). ومن بين هذه النقائش نموذج له علاقة بنظام الحكم والإدارة تم اكتشافه في وليلي، يعكس فعلا تغلغل التأثيرات البونية. فالنقيشة تعرفنا على أسوة توارث أفرادها بوليلي منصب الشوفيط المشهور في قرطاجة(94). وقد خلدت نقيشة لاتينية هذا الشأن الإداري بالإشارة إلى أن ماركوس فالريوس سفروس Marcus Valerius Severus شغل المنصب المذكور في نفس المدينة قبيل خضوع البلاد للرومان(95). كما نلمس تأثيرات في الميدان الحرفي، تتجلى في صناعة الأمفورات المورية من النوع Dr. 18 التي كانت متداولة في قرطاجة قبل سقوطها سنة 146 ق.م(96). وقد ظن أحد الدارسين أن صناعة هذه الأمفورات نقلها قرطاجيون التجأوا إلى موريطانية بعد تحطيم مدينتهم(97). كما يتجلى هذا التأثير في استعمال مبخرات بمدينة تمودة تشبه نماذج بونية صنعت على هيأة آدمية، من خلال رسم رأس امرأة في أعلاها، يقال إنها تمثل رأس الإلهة دمتير Demeter (98). والجدير بالذكر أن مدينة تمودة أنشئت على ما يبدو في فترة أفول الدولة القرطاجية(99).

المرحلة المورية

تمثل المرحلة المعروفة من سيادة الملوك الموريين على موريطانية ما بين أواخر القرن الثالث قبل الميلاد وحوالي سنة 40 م. والمجال لا يسمح بتناول الموضوع من كل جوانبه، ولذلك وجب التركيز على بعض القضايا الأساسية(100).

اهتمت النصوص بتحديد الخريطة السياسية للمملكة المورية، وهي تنحصر بين المحيط ونهر ملوشة Mulucha وبين المضيق وجبال الأطلس، التي تفصل الموريين عن جيرانهم الإثيوبيين الغربيين. ومن جهة أخرى أفادت المصادر بأن مجال

الموريين الواسع صار بعد منتصف القرن الأخير قبل الميلاد مقسما إلى مملكتين يفصل بينهما نهر ملوشة(101). غير أن هذه النصوص لم تسعفنا في معرفة تسلسل حكم الملوك الموريين كما هو الشأن بالنسبة لملوك نوميدية. بالإضافة إلى إهمال الأوضاع الداخلية وإغفال ذكر عاصمة موريطانية(102).

المواد الأثرية لم تقدم توضيحات ذات أهمية حول ملوك موريطانية، إذ لم يتم العثور بعد على نقائش ترتبط بهم، كما هو الشأن بالنسبة لملوك نوميدية(103).

ثم نجد تلميحات في العملة إلى واقع الموريين السياسي والاقتصادي والديني والثقافي. والعملة المورية في حد ذاتها تنقسم إلى صنفين أحدهما يحمل أسماء الملوك وثانيهما يحمل أسماء بعض المدن الساحلية. وبالنسبة للعملة الملكية فهي تعرفنا عن أربعة ملوك قبل يوبا الثاني هم بكوس الأول ومستانسسوس وبكوس الثاني وبكّود(104). في حين لا نعرف عملة للملك باكّا الذي حكم في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد وهو معاصر للملكين النوميديين سيفكس ومسنيسا اللذان كانت لهما عملة معروفة، وكانت نقود هذا الأخير متداولة في موريطانية(105). وعدم وجود عملة باكّا يدعو إلى الاعتقاد أنه حكم مدة قصيرة، وهذا احتمال مستبعد لاعتبارات تتعلق دائما بموضوع العملة، التي لا تعلمنا بملك غيره قد حكم قبل بكوس الأول(106).

وبواسطة العملة تعرفنا على نسب بكوس الثاني(107) ، حيث ورد اسمه باللاتينية كما يلي: Rex Bocchus Sosi F(ilius)، ومعناه "الملك بكوس بن سوس". ويرجع الفضل إلى جيمس ففريي في تفسير هذا المعنى الذي انطلى على مزار(108). والراجح أن سوس اختصار لاسم مستانسسوس. وبنفس الطريقة كُتب اسم هذا الملك باللاتينية Rex Sos على قذائف من الرصاص كانت تستعمل في المقاليع تم اكتشافها بوليلي(109).

أما الملك بكّود فقد أفادتنا عملته باسمه الحقيقي وهو بوكوت Bocut (110) ونرجع أن لهذا الاسم قرابة مع قوم البكواطيين Baquates، ولعلهم يمثلون العصبية التي ينتمي

إليها هذا الملك(111). والبكواطيون من عناصر السكان الذين ذكرهم بطليموس(112). ونعرفهم بواسطة نقائش لاتينية تم اكتشافها في وليلي، وهي تفيد أن لهم علاقات دبلوماسية مع السلطة الرومانية في موريطانية الطنجية(113). ثم إن عملة الملكين بكوس الثاني وبكّود المكتوبة باللاتينية تعكس تغلغل التأثيرات الرومانية التي ساهمت في تراجع التأثيرات الثقافية البونية، كما دل على ذلك استبار حديث في وليلي، حيث تم العثور على نقيشة بونية مكسرة في وسط أثري يرجع لأواخر الفترة المورية(114).

ومن جهة أخرى فإن العملة تطرح إشكالا خاصا يتعلق باسم شمش المكتوب بالبونية على ظهر عملة بكوس الأول(115) ، وهي نقود نرجح أن الملك أصدرها قبل حرب يوغرطة(116). كما كُتب هذا الاسم وحده على عملة خاصة(117). وقد ظن الدارسون أن شمش اسم ثان لمدينة لكسوس. وبرروا ذلك بنعت أطلال لكسوس في الفترة الإسلامية باسم تشمس(118). لكن المتخصصين في العملة بدأوا يرتابون في المطابقة بين الاسمين(119). وانطلاقا من هذا الاعتبار رجح ربوفا أنه إذا تعلق الأمر بموقع ما فهو يطابق أكثر موقع كِيلدة أو وليلي(120). والجدير بالملاحظة أن النصوص القديمة التي تناولت الجغرافية التاريخية للمغرب لم تتطرق لاسم شمش.

أما أهم القضايا التي نستقيها من النصوص فهي الأدوار التي لعبها الموريون في حروب الرومان. خاصة في القرن الأخير قبل الميلاد. سبق أن أشرنا إلى عدم تورط الملوك الموريين في الصراع القرطاجي الروماني في معالجة الفترة القرطاجية. أما العلاقات السياسية بين موريطانية ورومة فبدأت خلال حرب يوغرطة. وهنا نشير إلى التطابق بين النصوص ونتائج الأبحاث الأثرية في كون العلاقات التجارية والسياسية بدأت بين موريطانية ورومة في القرن الأخير قبل الميلاد، وذلك من خلال ندرة المواد الرومانية التي عمت بلدان البحر الأبيض المتوسط ما بين القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد(121). وبعد هذه الحرب صار الملك بكوس الأول صديقا وحليفا للرومان. وزكت رومة استيلاءه على القسم

الغربي من نوميدية. غير أن هذا الانفتاح الرسمي على رومة أذكى تناقضات داخلية بين الموريين. فشنوا ثورة ضد بكوس الأول رافضين سياسته الجديدة. لكن الملك أحبط هذه الانتفاضة وتشبث بموقفه(122).

وبعد بكوس تورط الملوك الموريون في الحروب الأهلية الرومانية بين ماريوس وسولا، الأمر الذي سمح لبومبيوس بفرض هيمنته على الملكين الموريين بكوس الثاني وبكّود، وعلى آخر ملوك نوميدية وهو يوبا الأول. ولما اندلع الصراع بين بومبيوس وقيصر تمكن هذا الأخير من استمالة الملكين الموريين لينفصلا عن حليفهما بومبيوس. وقد أبلى كل ملك على حدة في تدعيم قيصر. فبكوس الثاني غزا مملكة يوبا الأول سنة 46 ق.م. وبعد تحقيق قيصر للانتصار كافأ الملك المور ي بتوسيع مجال نفوذه في نوميدية، ليصير نهر أمبساكًا Ampsaga حدا شرقيا لمملكته. أما الملك بكّود فقد ساهم في انتصار قيصر بإسبانيا خاصة في معركة موندا Munda سنة 45 ق.م(123).

أما بالنسبة للصراع بين أنطونيوس وأكتافيوس فقد اختلف الملكان الموريان في مواقفهما لأسباب لا ندريها. وكان ذلك وبالا على الملك بكّود نظرا لسوء حظه في التحالف مع أنطونيوس، الذي مني بالهزيمة في هذا الصراع. لقد تدخلت قوات أكتافيوس في موريطانية ضد بكّود وأطاحت بعرشه سنة 38 ق.م. وبعدئذ سمح أكتافيوس لبكوس الثاني بضم موريطانية إلى مجال نفوذه. وإثر وفاته سنة 33 ق.م. صار أكتافيوس يتحكم في مصير البلاد، وحاول ضمها إلى مجال نفوذ الامبراطورية الرومانية، لكن الموريين شنوا ثورة ضد سياسته، غير أن مقاومتهم باءت بالفشل أمام التدخل العسكري العنيف لقوات أوكتافيوس في موريطانية، وإثر ذلك أنشأ اثنتى عشرة مستوطنة رومانية في المجال الذي كان خاضعا لبكوس الثاني، منها أربعة في موريطانية، هي طنجة وزليل وبابة وبناسة. وفي سنة 25 ق.م اضطر أكتافيوس إلى تنصيب يوبا الثاني ملكا على الموريين، ثم خلفه ابنه بطليموس سنة 23 م. إلى أن اغتاله الإمبراطور الروماني كليكّولا Caligula سنة

40م. وبعد ذلك ضم الرومان مجال نفوذ الموريين وأحدثوا فيه ولايتين رومانيتين هما موريطانية الطنجية في بلاد الموريين الأصلية وموريطانية القيصرية في القسم الغربي من نوميدية الذي كان خاضعا لسلطة الموريين، كما أشرنا إلى ذلك أعلاه. ومن جهة أخرى كشفت الأبحاث الأثرية على مخلفات ترتبط بمقاومة الموريين ضد رومنة بلادهم قبل خضوعها للرومان. والأمر يتعلق بتحطيم عدة مواقع في القسم الشمالي من المغرب بين تمودة ولكسوس. والراجح أن التحطيم الأول الذي تعرضت له هذه المواقع يرجع إلى تدخل أكتافيوس العنيف لقمع ثورة الموريين بعد وفاة بكوس الثاني(124).

تعكس النصوص ما تحقق في موريطانية من تقدم عمراني، من خلال إحصاء أكثر من أربعين موقعا موزعة بين الساحل والداخل، لكن المواقع المعروفة حاليا قليلة، وما زالت تتطلب مزيدا من التنقيب والدراسة للكشف عن تطورها التاريخي والإلمام بمخزونها من المواد الأثرية(125).

وهنا نكتفي بإثارة بعض الإشكاليات التي ترتبط بالمواد الأثرية التي لا زال وسطها الأثري غير مضبوط في جل ما سبق من التنقيبات. وأهم مثال هو الأمفورات المورية من النوع Dr 18 التي ظهرت في العالم البوني منذ القرن الثاني قبل الميلاد. أما الدراسات ذات الطابع الستراتكّرافي المتعلقة بالمغرب فتوحي برواج هذه الأمفورات بموريطانية في القرن الأخير قبل الميلاد(126). وتضاف إلى ذلك مسألة ضبط الوسط الأثري للسلع الرومانية في المغرب. فجل المنقبين والدارسين دأبوا على اعتبار الخزف الكمباني قد توزع في البلاد منذ القرن الثالث قبل الميلاد، أما في الواقع فجل المواد الرومانية من خزف وأمفورات ونقود وصلت إلى موريطانية في القرن الأخير قبل الميلاد(127). لقد دلت على ذلك دراسات موريل حول الخزف الكمباني(128). والدراسات المتعلقة بالنقود الرومانية في المغرب(129). واتضح الأمر بالدراسات الستراتكّرافية في تموسيدة وزليل وسلا(130). واتضح نفس

الشيء في استبارات حديثة بوليلي، حيث تأكد أن الانفتاح على الرومان يرجع للقرن الأخير قبل الميلاد(131).

وفي هذا الصدد نشير إلى أن المصادر أغفلت الحديث عن الأنشطة الاقتصادية. لكن الأبحاث الأثرية كشفت عن مخلفات تهم بعض المرافق الاقتصادية، أهمها مصانع إنتاج الكّاروم منذ الفترة المورية، لكن التأريخ لبداية هذه الصناعة غير مضبوط حاليا(132). وبارتباط مع هذه الصناعة هناك اليوم أدلة قاطعة حول انتماء الأمفورات Dr 7-11 لموريطانية(133) ، وهي التي عوضت النوع Dr 18 في تسويق الكّاروم الموري(134). كما لا نجد في النصوص إشارة إلى إنتاج الحبوب في موريطانية، غير أن العملة المورية تشهد بذلك، من خلال سنابل القمح الماثلة على شتى أصناف العملة(135). أما عناقيد العنب المرسومة على العملة وحدها أو مع السنابل(136) ، فهي تشهد على وفرة الدوالي في موريطانية والتي وصفها سترابون بقوله: "يوجد في موروسية صنف ضخم من الدوالي يعجز شخصان معا عن ضم جذوعها، وهي تنتج عناقيد عنب يقدر طولها بذراع"(137). وقد ترسخت ذكرى هذه الثروة الفلاحية في جغرافية شمال موريطانية، من خلال رأس كوطيس Kotes، أو أمبلوسيا Ampelousia، ومعناه في لغة الموريين رأس الكروم، وهو نفس المعنى الذي تؤديه كلمة أمبلوسيا في الإغريقية، كما أكد ذلك بومبيوس ميلا(138).

في الختام نشير إلى أن مجال البحث الأثري في المغرب ما زال واعدا بنتائج هامة في مواصلة التنقيب بالمواقع المعروفة، لضبط الوسط الأثري للمراحل التاريخية التي حاولنا تقديم معالمها، وذلك في ضوء تطور الحياة الحضرية. كما أن مواصلة التحريات الأثرية هي مشجعة وتكتسي أهميتها الخاصة، قصد ضبط خريطة أثرية شاملة للبلاد. ومن مجالات البحث الأثري التي مازال الاهتمام بها محتشما في المغرب، التنقيب في أعماق البحار واكتشاف المقابر القديمة التي لا زال جلها مجهولا.

الهوامش:

(1) — هناك محاولة لمعالجة بعض الجوانب من هذا الموضوع في المقالات التالية:

مجدوب 1995 – ص. 150 – 152 (1) ، 1998 ، ص. 29 – 31 ثم مقالة تحت الطبع.

(2) - Pomponius Méla 1,25,26 3,10, 106.
(3) - Strabon 17,3,8 , Plutarque – Sertorius 9,6.
(4) - Carcopino, 1948, p. 68.
(5) - Jwenal, Satires 2, 89 Paussanias 1,10,9,10.
(6) - Tarradell, 1959 , p. 74.
(7) - Diodore de Sicile 3,54, 1, 4-5.
(8) - Pline L'Ancien 5, 17.
(9) - Periple d'Hannon
(10) - Periple de Scyla 112.
(11) - Polaiphatos, apud Desanges 1978 , p. 64.
(12) - Pline l'Ancien, 6,199 ; 10,22.
(13) - Strabon, 1,3,2.
(14) - Ptolémée, 4,6,14
(15)- Périple de Scylax, 112.
(16) - Strabon, 17, 2-3 et 8.
(17) - Pline l'Ancien, 5,3
(18) - Idem, 19,63.
(19) - Carcopino, 1948, p. 24 ; Tarradell, 1960, p. 26-7 et 131 ; Jodin, 1978, p. 65 ; Fantar, 1992, p. 121.
(20) - Pline l'Ancien, 5,9 et 18 ; Ptolémée, 4,1,3.
(21) - Villard, 1960, p. 14-15 ; Jodin, 1966 (1), p. 77-88, 122-32.
(22) - Xella, 1992, p. 142 ; Amadasi Guzzo, 1992, p. 170.
(23) - Cintas, 1954, p. 62; Tarradell, 1960, p. 147-53.
(24) - Lopez, 1990, p. 37-9 ; 1996, p. 268 ; Niemeyer, 1992, p. 49-50 ; Habibi, 1992, p. 238 ; Aranegui, sous presse.
(25) - Tarradell, 1960, p. 89-94.
(26) - Idem, Ibid, p. 81-5.
(27) - Majdoub, sous presse 3.284.مجدوب، (2) 1998، ص
(28) - Ponsich, 1964, p. 243-4.
(29) - Majdoub, sous presse 3.
(30) - Tarradell, 1960, p. 149, 155 ; Villard, 1960, p. 14-5 ; Ponsich, 1964, p. 239 ; 1966, p. 465-8 ; 1968, p. 8-9 ; 1970, p. 185-6 ; 1981, p. 73 ; Rouillard, 1992, p. 207-8.
(31) - Jodin, 1966 (1), p. 43 et 130.
(32) - Idem, Ibid, p. 191 ; Girard, 1984, p. 59.
(33) - Bonnet, 1992, p. 126 ; Xella, 1992, p.40. 139-40.
(34) - Carcopino, 1948, p. 24 ; Tarradell, 1960, p. 27 ; Fantar, 1992, p. 116 ; Bonnet, 1992, p. 124, 129.

(35) - Bonnet, 1992, p. 125 ; Alexandropoulos, 1992 (1), p. 253.
(36) - Ponsich, 1982 (1), p. 802.
(37) - Bonnet, 1992, p.129.
(38) - Ponsich, 1981, p. 105.
(39) - Gras, 1992, p. 27 ; Niemeyer, 1992, p. 49-50 ; Bonnet, 1992, p. 126 ; Habibi, 1994, p. 238.
(40) - Ponsich, 1967 (1), p. 23-4.
(41) - Jodin, 1966 (1), p. 191.
(42)- Périple d'Hannon, 2 et 5.
(43) - نسبة إلى منطقة كاريا في آسيا الصغرى التي شملها الاستيطان الإغريقي.
(44) - Ephore apud Roget, 1924, p. 21.
(45) - Hérodote, 4, 196.
(46) - Pline l'Ancien, 5,4.
(47) - Jodin, 1957, p. 39 ; 1966 (1), p. 187 ; 1967, p. 13.
(48) - بحدوب، 1993، ص. 37-38.
(49) - Strabon, 2,3,4.
(50) - بحدوب، 1993، ص. 39-40 ؛ (2) 1998، ص. 140-149.
(51) - Gsell, T 2, p. 255 ; T 5, p. 91.
(52) - Tite Live, 24,49,5-6.
(53) - Idem, 29,30,1-4.
(54) - Polybe, 3,1,33 ; 15,11,1 ; 38,2,7 ; Tite Live, 23,26,11 ; 29,14 ; 30,14 ; 24,15,2 ; 30,33,5 ; 10;13; Appien, Lib., 40 ;111.
(55) - بحدوب، (1) 1990، ص. 62 ؛ (2) 1990 ، ص. 88.
(56) - Luquet, 1956, p. 117-32 ; 1973-5, p. 237-93 ; Rebuffat, 1974, p. 25-49 ; Jodin, 1960, p. 27 ; بحدوب، 2000، ص. 66-80
(57) - Pline l'Ancien, 5,8.
(58) - Jodin, 1966 (1), p. 72 ; Ponsich, 1970, p. 176.
(59) - Ponsich, 1982 (1), p. 802 ; 1988, p. 46.
(60) - Jodin, 1987, p. 293.
(61) - Gsell, 2, p. 166.
(62) - Carcopino, 1948, p. 94.
(63) - Roget, 1938, p. 69 ; Cintas, 1954, p. 25 ; Luquet, 1956, p. 124 ; 1973-5, p. 242 ; Desanges, 1980, p. 112.
(64) - Jodin, 1957, p. 39.
(65) - Idem, 1966 (1), p. 191.
(66) - Idem, 1957, p. 39 ; 1966 (1), p. 193 ; 1967, p. 15.
(67) — بحدوب، (2) 1998 ، ص. 308-309.
(68) - Ponsich, 1975, p. 668.
(69) - Polybe, 3,39,2.
(70) - Ponsich, 1970, p. 221 ; 1982 (1), p. 792 ; 1982 (2), p. 434.
(71) - Idem, 1967 (2), p. 385-7 ; 1970, p. 81.
(72) - Luquet, 1960, p. 138 ; Jodin, 1966 (2), p. 90 ; 1987, p. 229, 291 ; Ponsich, 1982 (2), p. 441.
(73) - Jodin, 1960, p. 36-8.

(74) - Ponsich, 1964, p. 240 ; 1967 (2), p. 376-80 ; 1968, p. 9-11 ; 1970, p. 185-7 ; Jodin, 1966 (1), p. 187 ; 1978, p. 76 .
(75) - Jodin, 1966 (2), p. 58-64.
(76) - Idem, 1966 (3), p. 501-5.
(77) - Behel, 1997, p. 24-41.
(78) - Jodin, 1957, p. 16 ; 1966 (1), p. 187-8 ; 1967, p. 173.
(79) - Justin, 19,2 ; Paule Orose, 4,9,9.
(80)- Sénèques, Dialogues, 7,2.
(81) - Gomez Bellarsd, 1991, p. 112 ; 1992, p. 308-9 ; Gras, 1989, p. 227.
(82) - Gran-Aymerich, 1991, p. 908-9 ; 1992, p. 63-4 ; Aubet Semmler, 1992, p. 78.
(83) - مجدوب، 1991، ص. 29 ؛ Rouillard, 1992, p. 211.
(84) - Tarradell, 1960, p. 93.
(85) - Marion, 1960 (1), p. 452 ; Jodin, 1987, p. 24 et 287 ; Alaxandropoulos, 1992 (2), p. 140 ; Boube, 1992, p. 255.
(86) - Fischer, 1978, p. 74-108 ; Marchetti, 1978, p. 369-71 ; Salama, 1879, p. 125-37; Villaronga, 1983, p. 57-66.
(87) - Majdoub, sous presse 1.
(88) - مجدوب، (2) 1998، ص. 284 و286 ؛ Majdoub, sous presse 3.
(89) - Akerraz, 2000, p. 1656-7.
(90) - Majdoub, sous presse 1.
(91) - Fantar, 1992, p. 116-7 ; Xella, 1992, p. 138 ; Amadasi Guzzo, 1992, p.172.
(92) - مجدوب، 1992، ص. 57-53.
(93) - Fevrier, 1966, p. 82- 132.
(94) - Camps, 1960, p. 423-6.
(95) - Euzennat, 1982, p. 284-7.
(96) - Cintas, 1950, PL. 26, n° 312-3 ; Humfrey 1976, p. 109-10 ; Carrié, 1979, p. 136-8 ; Dietz, 1979, p. 74-9 ; Lancel, 1979 (1), p. 70,76-81 ; 1979 (2), p. 217, 222 ; 1982 (1), p. 19-31 2 ; 1982 (2), p. 127-8, 139 ; Chelbi, 1980, p. 38 ; Morel, 1982, p. 192-4 ; Lund, 1988, p. 105-11.
(97) - Van Der Werff, 1978, p. 178.
(98) - Tarradell, 1960, Lam. XIII.
(99) - Idem, Ibid, p. 116.
(100) - مجدوب، (2) 1990، ص. 64-40 ؛ 1995، ص. 154.
(101) - نفسه، (2) 1990، ص. 21-18 ؛ 1999، ص. 7-9 و15-17.
(102) - نفسه، (2) 1990، ص، 59-52.
(103) - Fevrier, 1953, p. 649-52.
(104) - مجدوب، (2) 1990، ص. 70-64 ؛ 1992، ص. 59-51.
(105) - Marion, 1960 (1) , p. 452 ; Jodin, 1968, p. 218.
(106) - مجدوب (2) 1990، ص. 73-70.
(107) - Mazard, 1955, n° 116-20.
(108) - Fevrier, 1961, p. 9-15.
(109) - Marion, 1960 (2), p. 488-90 ; Makdoun, 2000, p. 1712.
(110) - Mazard, 1955, n° 103-6.
(111) - مجدوب، (2) 1990، ص. 166-165 و175

(112) - Ptolémée, 4,1,5.
(113) - Euzennat, 1982, p. 214-28.
(114) - Majdoub, 1994, p. 287.
(115) - Mazard, 1955, n° 113-7.
(116) - مجدوب، 1992، ص. 55-132857 ; 1998, p. Majdoub, 1996, p. 294.
(117) - Mazard, 1955, n° 643-8.
(118) - Marion, 1972, p. 72.
(119) - Alexandropoulos, 1992 (1), p. 252-3.
(120) - Rebuffat, 2000, p. 897-8.
(121) - مجدوب (1) 1990، ص. 61-67 ؛ (2) 1990، ص. 85-91 ؛ 1993، ص. 35-36. ؛ 1996, p. ; Majdoub, 1992, p. 235-6 288-94.
(122) - نفسه، (1) 1990، ص. 75-77 ؛ (2) 1990، ص. 112-115 ؛ Majdoub, 1992, p. 236-7 .
(123) - Majdoub, 1998, p. 1321-8.
(124) - Idem, Ibid, p. 1729-1 ; sous presse 3.
(125) - مجدوب، 1995، ص. 155-156 ؛ (2) 1998، ص. 246-280.
(126) - نفسه (2) 1998، ص. 103-108.
(127) - Majdoub, 1998, p. 297.
(128) - Morel, 1965, p. 108 ; 1968, p. 69-70 ; 1992, p. 224-5.
(129) - Marion, 1960 (1), p. 450-5 ; 1967, p. 102 ; Boube, 1992, p. 225.
(130) - Morel, 1965, p. 108-9 ; Akerraz, 1982, p. 193-7, 201-8 ; Boube, ; 1985-6, p. 194-95 ; 1987-8, p. 184-6 et 162.
(131) - Majdoub, 1994, p. 286 ; 1998, p. 297 ; sous presse 2.
(132) - مجدوب، 1991، ص. 27-30 ؛ Majdoub, 1998, p. 300-1.
(133) - Liou, 1987, p. 68-9 ; 1993, p. 140-3.
(134) - مجدوب، (2) 1998، ص. 114-118.
(135) - Mazard, 1955, n° 107-17 ; 579-651.
(136) - Idem, Ibid, n° 99-100; 107-17 ; 582-8; 630-651.
(137) - Strabon, 17,3,2.
(138) - Strabon, 17,3,4 ; Ptolémée, 4,1,2-3. Pomponius Mela, 1,5,25 ; Pline l'A ncien, 5,18.

أدوات البحث في تاريخ المغرب القديم واقع وآفاق (العمل البيبليوغرافي نموذجاً)

حميد عرايشي *

شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين مقاربـــات متنوعـــة ومحـــاولات عديدة لتقييم "صورة المغرب والمغاربة" في الإنتاج الكولونيالي، سواء تعلق الأمـــر بالتاريخ أو الأدب أو السينما، ساعية بذلك إلى إبراز عيوبها والخلفيات التي تتحكـــم في إنتاجها ومنتجيها.

وبخصوص حقل التاريخ، فقد كان للصرخة التي أطلقها الأســـتاذ عبـــد الله العروي (1)، منذ ثلاثة عقود مضت، صدى داخل وخارج الوطن، تمثلـــت، بالنســـبة للمغرب في إدراج مادة تاريخ شمال إفريقيا القديم ضمن مقررات التعليم بجامعاتنـــا، وإنشاء معهد للآثار، كان من نتائجهما إرتفاع نسبة عدد الطلبة والباحثين المغاربـــة ومساهماتهم في هذا المجال، وخاصة في العقود الأخيرة.

وقد تلت هذه الصرخة، صيحات أخرى (2) تمثلت في بلورة السؤال التالي:

---

* أستاذ باحث كلية الآداب وجدة

كيف يُمكن إعادة كتابة تاريخ المغرب وتدريسه في جامعاتنا بعيداً عن التصور الكولونيالي والتعصب الوطني.

مما لا جدال فيه أن المتتبع للكتابات التي اتخذت من تاريخ شمال إفريقيا القديم عامة، أو المغرب خاصة، موضوعاً لها، يلاحظ أن نسبة المساهمات المغربية والمغاربية عامة في إرتفاع متزايد ومستمر. ومن حقنا أن نتساءل اليوم عما إذا كانت الصورة التي نقدمها عن أنفسنا هي أقرب إلى الموضوعية من تلك التي قدمها ولا زال يُقدمها عنا غيرنا؟ سؤال يجرنا بالضرورة إلى طرح أسئلة أخرى: هل يمكن الحديث فيما يخص التاريخ القديم عن بداية تراكم كمي وكيفي في مسار البحث التاريخي المغربي بقدر كاف لإصدار حكم على واقعه وآفاقه؟ هل مجمل الإصدارات لها نفس القيمة العلمية؟.

إن الذي ينظر إلى تلك الكتابات بعين فاحصة، إذا ما تركنا جانباً أعمال الترجمة والتقارير الأثرية، يمكنه أن يميز عموماً بين أربعة أصناف من الدراسات المغربية أو المغاربية الصادرة منذ ثلاثة عقود:

– **الصنف الأول**، إهتم بنقد وتقديم حصيلة للكتابات الكولونيالية وحاول الرد عليها أحياناً، والتنبيه إلى أهميتها، رغم النوايا التي تحكمت في إنتاجها، والإصرار على ضرورة قراءتها ونقدها نقداً علمياً. إلا أن حصره لمجموع الإنتاج في ما اصطلح على تسميته بالإنتاج الكولونيالي دون غيره، جعله لا يعكس دائماً الوجه الحقيقي لإصدارات المرحلة التي تتميز بالتعدد والتنوع والاختلاف.

– **الصنف الثاني**، والذي يغلب عليه طابع السرد، اعتنى ببسط الآراء والأطروحات أو عكسها أحياناً، أكثر مما اهتم بمجادلة أصحابها.

– **الصنف الثالث**، اكتفى بالإجترار والنقل والتكرار مع ما يحمله هذا النهج من سلبيات.

ـ **الصنف الرابع**: وهو جد قليل إن لم نقل نادراً، ويتميز عن غيره في طريقة طرحه للإشكاليات، وتوظيفه للمصادر والتشكيك في صحتها وما ينتج عن ذلك من تأويلات.

ومهما يكن من مستوى هذه الإصدارات والمساهمات التي تشكل الأغلبية، فهذا لا يعني تجريدها من أي اعتبار، بل على العكس من ذلك، إذ أن قراءتها تكشف لنا عن بعض أوجه المشاكل التي كانت وما تزال تحول دون انطلاق البحث التاريخي ببلادنا، خاصة عصوره القديمة، سواء تعلق الأمر بالتوازن المعرفي، أو بالمناهج المُتبعة في التحليل واستغلال المصادر والمراجع، أو على مستوى تصوير الأحداث ومقاربتها بشكل عام.

ولعل من ضمن تلك الأسباب التي ما زالت تعوق هذه الانطلاقة، غياب الأدوات الضرورية للبحث. من هنا كان وما زال اهتمامنا بهذا الموضوع، والذي اخترنا، في هذه المداخلة، العمل البيبليوغرافي نموذجاً له، لاعتباره الخطوة الأولى في حقل البحث. وقبل تقديم فكرة حول الفهرس البيبليوغرافي الذي هو في طور الإنجاز، نرى من الضروري تسليط بعض الأضواء حول أهم مراحل البحث في تاريخ المغرب القديم.

تعود الاهتمامات الأولى بتاريخ بُلدان شمال إفريقيا القديم إلى القرن الثامن عشر، غير أن بداية العقد الرابع من القرن التاسع عشر تشكل مُنعطفاً في هذا الباب؛ ذلك أنه إلى غاية هذه الفترة ظل التاريخ القديم، على المستوى المعلوماتي، مرتبطاً أساساً بالنصوص الأدبية من جهة، ومن جهة أخرى عرف هذا الاهتمام ــ الذي اقترن بالواقع السياسي الجديد للمنطقة ــ تزايداً كبيراً. وقد أدى هذا الوضع إلى ظهور أطروحات ظلت تتناقلها بعض الأقلام، بلا ملل، خلال القرن التاسع عشر وطيلة القرن العشرين. لقد ارتبطت الطريقة التي تمت بها قراءة ودراسة وتصوير أو مُعالجة تاريخ شمال إفريقيا القديم عامة، والمغرب خاصة، منذ البداية وما تزال بمجموعة من الفرضيات حول التطور التاريخي الحضاري بالمنطقة.

الفرضية الأولى هي عُقم المجال وقصور (أو عجز) السكان الأهالي على تحقيق وحدة سياسية والمساهمة في الحضارة الإنسانية. وقد ظهرت هذه الأطروحة، التي نجد لها جذوراً في الفكر الإغريقي ـ اللاتيني، خلال القرن الثامن عشر وظلت قائمة طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين.

الفرضية الثانية، وهي مُرتبطة بالأولى وناتجة عنها، وتتلخص في اعتبار كل من الفينيقيين والقرطاجنيين والعبريين أو بعض ملوك وأمراء الأمازيغ والرومان خاصة، المحرك الأساسي والعناصر التي عملت على "إخراج الأهالي من الظلمات إلى النور".

الفرضية الثالثة، وهي نتيجة منطقية للفرضيتين السابقتين، هو اعتبار الأمازيغ عناصر "مُشاغبة" لا تتوانى في انتهاز الفرص "للصيد في الماء العكر" أو "التملص من أداء الضرائب"، أو "التقلب في المواقف" لمساندة هذا الطرف أو ذاك أو التخلي عنه ومحاربته. وقد أدت هذه الفرضية أيضاً إلى تكوين أو طرح فرضية أخرى وهي أن "فشل" الاحتلال الروماني بموريطانيا الطنجية خاصة، قد يجد مصدره وأسبابه في طبيعة المجتمع الأمازيغي، مما أدى بالمؤرخين والباحثين وكل المهتمين إلى البحث عن أسباب هذا الوضع في طبيعة المجال وطبائع السكان، للتوصل إلى وجود قوة مضادة "للتمدن" ومعادية "للحضارة".

وقد شكل موقف الأهالي من التدخلات الأجنبية عامة، والاحتلال الروماني خاصة، موضوعاً أساسياً في الإسطغرافيا المعاصرة، وازدادت حدته مع بداية السبعينات من القرن الماضي، كما تُبرهن على ذلك عناوين العديد من المقالات والأطروحات المنشورة خلال هذه الفترة. لكن هذا التوجه، رغم ما أعرب عنه أصحابه من نوايا، لم يحل دون استمرار التصورات السائدة سابقاً، كما أنه لم يرق إلى المُستوى المطلوب، بحيث لم يتجاوز، وفي أحسن الحالات، قلب أو عكس الأدوار المنسوبة لبعض الأطراف خلال المراحل السابقة حيناً، والحفاظ على

البعض الآخر أحياناً أخرى. وقد شهدت السنوات الأخيرة تنديداً نسبياً بهذا النوع من المقاربات والتصورات الجاهزة والمجانية.

الواقع أن الأبحاث حول تاريخ شمال إفريقيا القديم بشكل عام، والمغرب بوجه خاص، عرفت تقدماً ملموساً ـ بفضل الأبحاث الأثرية ـ وخاصة في العقود الأخيرة، إلا أن هنالك جوانب كثيرة ما تزال غامضة، ومجموعة من الأسئلة بدون أجوبة، بالإضافة إلى أن بعض المواضيع قد أثارت، أكثر من غيرها، اهتمام وفضول الباحثين لدرجة أننا أصبحنا نلاحظ نوعاً من التكرار والاجترار في الفرضيات والنشرات.

وحول أهم المراحل والأشواط التي قطعها البحث في تاريخ المغرب القديم، فإن التقاطعات البيبليوغرافية مع أهم الأحداث السياسية تُمكننا من التمييز ما بين ثلاث مراحل كبرى:

• **المرحلة الأولى**، من 1830 إلى 1911، والتي يمكن أن نعتبرها مرحلة "جمع وتدوين المعلومات" على مستوى البحث، ومرحلة "التهيؤ للاستعمار والاستغلال" من حيث الأهداف، وهي تتميز من حيث الكم بقلة الدراسات التي تهم المغرب بمفرده، والمكانة التي تكاد أن تكون منعدمة حوله في الدراسات العامة، واعتماد المؤلفين على أسئلة آنية باستنطاق الماضي لتهيئ الحاضر والمستقبل، وذلك قصد إعادة بناء "إفريقيا الرومانية" أو "اللاتينية" بالنسبة للبعض، أو "إفريقيا المسيحية" بالنسبة للبعض الآخر.

• **المرحلة الثانية**، من 1912 إلى 1955/ 56، والتي يُمكن أن نعتبرها "مرحلة الإنتاج" من حيث الكم والنوع، ومرحلة استكمال "إعادة بناء إفريقيا الرومانية أو المسيحية" وتبرير الهيمنة الاستعمارية من حيث الأهداف، وهي تُشكل مرحلة الحماية بالمغرب، وتتميز بالاهتمام النسبي الذي حظي به المغرب القديم، هذا الاهتمام الذي يتجلى من خلال الدراسات المخصصة له بمفرده، والمكانة المتواضعة التي أصبح يحظى بها في الدراسات التي تهم مجموع شمال إفريقيا،

واعتماد الباحثين، إلى جانب النصوص الأدبية، مع نقدها أحياناً، المصادر الأثرية والنقائش والدراسات الأنتروبولوجية والإتنولوجية والأنوماستيكية واللسنية. إلا أن هذه المرحلة التي تزامنت مع الاحتلال الفرنسي ـ الإسباني، والاستكشافات والاستطلاعات العسكرية والمقاومة المغربية بشتى أشكالها، جعلت الدراسات والبحث التاريخي يخضعان لمنطق الإيديولوجيا الاستعمارية، والتي تظهر بوضوح في تصوير المجال والسكان الأهالي تصويراً يطغى عليه الطابع السلبي، مُقابل العمل على "أمثلة" العناصر الدخيلة، روما على وجه الخصوص.

• **المرحلة الثالثة**، من 1956 إلى اليوم، والتي يُمكن أن نعتبرها مرحلة "انتعاش البحث على مُستوى الإنتاج"، ومرحلة "مُراجعة" من حيث الأهداف، وهي تُشكل عهد الاستقلال السياسي بالمغرب، هذا الحدث الذي ما فتئ أن عم مجموع بُلدان شمال إفريقيا، صاحبه حدث آخر على المستوى العلمي والمعرفي، تمثل في تطور البحث الأثري وتنوع مجالاته، وتطور مناهج التحليل وتنوع مراكز الإسهامات، وظهور "مدرسة" تسعى إلى "تحرير التاريخ المغاربي"، والدعوة إلى "إعادة كتابة التاريخ الوطني"، وفق تصور "جديد"، وتجديد بعض الأطروحات، وإعادة النظر في البعض الآخر أو تدعيمه، وطرح قضايا جديدة ظلت مُغيبة أو مُهمشة أو تحتل مكانة جد ثانوية في الدراسات المنشورة خلال المراحل السابقة. إلا أنه على الرغم من الاختلاف الذي نُسجله خلال هذه المرحلة بالمقارنة مع سابقاتها، فثمة مجموعة من العناصر ظلت تُشكل نقط التشابه والاستمرارية لا من حيث المناهج المتبعة في التحليل، ولا من حيث أشكال المُقاربات والمفاهيم والموضوعات والتحقيبات المتداولة، ولا من حيث التصوير والتمثلات ـ تحول بذلك دون الحديث عن تغيير جذري وقطيعة تامة وشاملة للأساس.

أما فيما يخص أدوات البحث، وهو موضوع هذه المداخلة، فعلى الرغم مما عرفته من اهتمام وشهدته من انتعاش ملموس، فإنها تظل غير كافية، سواء تعلق الأمر بالمصادر الأدبية أو نتائج العلوم التكميلية أو الأعمال البيليوغرافية، الشيء

الذي يساهم في عرقلة البحث. ومما يزيد الأمر تعقيداً هو كون تاريخ المغرب القديم لم يُكتب حتى يومنا هذا كعصر قائم بذاته، فضلاً عما تشكو منه مكتباتنا وخزاناتنا من فقر وسوء في التنظيم والتسيير.

في هذا الإطار، تأتي هذه المحاولة المتواضعة. إن الأعمال البيبليوغرافية المتداولة اليوم، إذا ما تركنا جانباً أعمالاً عامة، أو نشرات لا تُغطي إلا فترات محدودة، يُمكن حصرها في ستة (أنظر الرسم الشكل رقم 1)، وقاسمها المشترك هي أنها دورية، ولا تتضمن المنشورات العربية، ولا تتعدى في أغلب الأحيان أكثر من كشاف واحد، وأغلبها تعود بداياته إلى الستينات، فضلاً عما يطرحه استعمالها من مشاكل تقنية مرتبطة بطريقة تقديم الوصفة، وغياب معطيات دقيقة فيما يخص الوصف المادي للمنشورات، وخاصة المقالات بحيث غالباً ما لا تتم الإشارة إلى أرقام اللوحات والرسومات والأشكال التي توجد خارج النص.

تفادياً لكل هذا، ومحاولة منا للمساهمة في تيسير البحث في تاريخ المغرب القديم، كانت فكرة تهيئ عمل بيبليوغرافي يُغطي ما يُقارب ثلاثة قرون، متبعين في ذلك المعايير الدولية في تقنيات التوثيق والفهرسة الآلية.

يتضمن الفهرس أزيد من 1200 وصفة بيبليوغرافية لدراسات منشورة ما بين سنة 1701 وسنة 2001 (مقالات، كتب موجهة للعموم، كتب مدرسية، دراسات عامة، دراسات وأبحاث تركيبية أو نقدية، ومونوغرافيات إقليمية أو محلية... الخ).

وفيما يخص تقنيات الوصف (أنظر الشكل رقم 2)، فالبطاقات تخضع لنموذج عام، بحيث حاولنا إقحام أكبر عدد مُمكن من المعلومات التي تخص البيانات (بيان المؤلف أو المؤلفين، بين العنوان، بيان الطبعة، بيان النشر، بيان الوصف المادي ثم بيان السلسلة) طبقاً للمعايير المتبعة في تقنيات الفهرسة، سواء تعلق الأمر بالمونوغرافيات أو المقالات المنشورة في الدوريات والنشرات المتسلسلة أو الجماعية.

تليها خانة الملخصات، والتي يمكن اعتبارها مكملة للعنوان أكثر من ملخص لمضمون المنشور المفهرس.

ثم فكرنا أيضاً في خانة أخرى إضافية، تحمل اسم "ملاحظة" وقد خصصناها للإحالة على الدراسات التي تدعم أو تفند أطروحات النشرة المفهرسة.

بالنسبة للترتيب والترقيم، فضلنا الترتيب الكرونولوجي بدل أي ترتيب آخر لكون الفهرس مرافق لكشافات تُسهل عملية البحث سواء تعلق الأمر بالبحث عن المؤلفين أو الموضوعات أو الأماكن.

أما عن الترقيم، فكل بطاقة تحمل رقماً وهو رقم الوصفة وترتيبها داخل الفهرس، وهو نفسه الذي استعنا به في الكشافات.

بالنسبة للكشافات (حول تقنية الجرد، أنظر الشكل رقم 3(، حاولنا أن تكون جد دقيقة وقد ارتأينا أن نحصرها في ثلاثة: كشاف المؤلفين بما في ذلك المؤلفين الثانويين (معلقين، مترجمين، محققين ...). وكشاف المواضيع أو الموضوعات ثم كشاف الأماكن. بالنسبة لهذا الأخير حرصنا على الإحالة، بالنسبة للأماكن التي تحمل أكثر من إسم واحد، على الأسماء الأخرى حتى يتسنى للباحث أن يعثر على المعلومة بسرعة).

وفي الأخير الملحقات، وتتضمن فهرس الهيئات المسؤولة عن النشر لكل من الدوريات والنشرات الجماعية (ندوات، مناظرات، مؤتمرات وأعمال مهداة أو موائد مستديرة...) والتي ورد فيها على الأقل مقال واحد يهم تاريخ المغرب القديم، مع الحرص على إعطاء وضعية كل دورية على حدة، سواء تعلق الأمر بتاريخ ومراحل الإصدار، أو التغيرات التي قد تلحق العنوان ... إلخ).

الهوامش:

(1) - أنظر: A. LAROUI, L'histoire de Maghreb, un essai de synthèse, Paris, Petite collection Maspero, 1970, 2 vol.

(2) - أنظر أعمال: M. BENABOU, *La résistance africaine à la romanisation*, Paris, F. Maspero, 1976, p. 10, 12-13 ; G. AYACHE, Histoire et décolonisation, l'exemple du Maroc, *Hespéris-Tamuda*, XVII, 1976- 1977, p. 47-48 & p. 58-59 ; M. ARKOUN, Pensée idéologique et histoire du Maghreb, In « Modes de présence de la pensée arabe en occident musulman »/ *Actes du deuxième congrès international d'étude des cultures de la Méditerranée occidentale* » *I = Rapports*.- Alger : SNED, 1976, p. 119-155, Id., Penser l'histoire du Maghreb, in *L'Etat du Maghreb*, Paris, La découverte, 1991, p. 48-50 ; E. GOZALBES, Fuentes para la historia de Marruecos 1- fase preromana, CBET, XVI, 1977, p. 128-130 ; A. MAHJOUBI, Pour une histoire ancienne décolonisée du l'Afrique du Nord, in « La construction du Maghreb »/ *Actes du colloques organisé à Tunis 19-24 octobre 1981*.- Université, 1983, p. 57-61.

محمد البشير الشنيتي، **سياسة الرومنة في بلاد المغرب، من سقوط الدولة القرطاجنية إلى سقوط موريطانيا (146 ق. م — 40 م)**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، ص. 9 — 10؛ إبراهيم بوطالب، البحث الكونيالي حول المجتمع المغاربي في الفترة الاستعمارية، حصيلة وتقويم، في "البحث في تاريخ المغرب: حصلة وتقويم"، **أعمال الندوتين المنعقدتين بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط (أكتوبر ودجنبر 1986)**، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1989، ص. 107، 129 — 134، 138 — 139 و141.

تاريخ البحث الأركيولوجي والتاريخي المتعلق بالمغرب القديم

عمار أكراز – عبد العزيز الخياري*

إن الباحث المتأمل في قضايا الأركيولوجيا وتطور البحث الأثري المرتبـــط بالمغرب القديم ، يمكنه أن يميز بين أربع مراحل أساسية لكل واحدة منـــها ســـماتها ومميزاتها الخاصة :

-المرحلة 1: من القرن 18 إلى 1915/1912.
-المرحلة 2 : من 1915 إلى 1948/ 1954.
-المرحلة 3 : من 1954/1948الى 1975.
-المرحلة 4 : من 1975 إلى الآن.

المرحلة الأولى : مرحلة الاستطلاعات والاستكشافات

إن المرحلة الأولى في الاهتمام بآثار المغرب القديم تمتـــد مـــن القرنيـــن الثامن عشر والتاسع عشر إلى حدود 1915، وهي المرحلة التي يمكـــن أن نصفـــها بمرحلة الاستطلاعات والاستكشافات الأولى، حيث عرف المغرب خلالها توافد

* أستاذان باحثان بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث الرباط

مجموعة من الأوروبيين في إطار بعثات دبلوماسية أو في إطار رحلات فردية الغرض منها التجارة أو مجرد تقصي الأخبار والمعلومات حول بلاد المغرب. كل ذلك تم ضمن سياق تاريخي عام اتسم كما هو معروف بالتوسعات الإمبريالية الأوروبية. وقد اهتمت كتابات هذه المرحلة بجوانب متعددة كالجغرافيا الطبيعية والبشرية والعادات والتقاليد واللهجات إلى غير ذلك(1). واتسع الاهتمام ولو بشكل عرضي في البداية ليشمل الآثار القديمة كخرائب مدينة وليلي التي حظيت بأول وصف في بداية القرن الثامن عشر من طرف جون وندوس(2) John Windus . وفي القرن التاسع عشر سيظهر عدد من المهتمين بآثار المغرب القديم كالألماني بارت H. Barth الذي نشر نتائج ملاحظاته وأعماله حول ليكسوس سنة 1849(3) ، والإسباني T. De Cuevas الذي وصف خرائب وأطلال نفس الموقع(4) ، وكذا هنري دو لامرتنيير H. De La Martinière الذي أنجز أولى الحفريات في عدة مواقع كليكسوس ووليلي وزيليل ونشر نتائج أبحاثه في مقالات متفرقة، ثم في كتاب نشر سنة 1912(5) . إلا أن أهم المستكشفين الأوائل يظل هو القنصل الفرنسي شارل تيسو Ch. Tissot الذي أنجز استكشافات منظمة كان هدفها رسم ملامح الجغرافيا التاريخية بالارتكاز على معطيات النصوص الإغريقية واللاتينية وعلى المعطيات الطوبونيمية وبعض العناصر الأركيولوجية كالنقائش اللاتينية، وقد دون نتائج ملاحظاته ضمن دراسة بعنوان "أبحاث حول الجغرافيا المقارنة لموريطانيا الطنجية" التي نشرت سنة 1878(6).

ما يلاحظ على هذه المرحلة هو أن الأبحاث التي أنجزت خلالها لم تعد أن تكون « *مجرد مبادرات فردية خارجة عن كل تنظيم عملي وعلمي كما في البعثات الأركيولوجية* »(7). إلا أن هذا لا ينفي القيمة العلمية والمعرفية لهذه الأبحاث الأولى التي ساهمت في التعريف بتاريخ المغرب القديم من خلال آثاره الشاهدة. وفي هذا الإطار، يكتسي كتاب شارل تيسو أهمية كبيرة تتجلى في تعريفه بعدد من المواقع

والمدن المذكورة في النصوص كلكسوس، طنجة، بناصا، سلا، ألخ(8). وقد فتح هذا العمل آفاق البحث الميداني المرتكز على الملاحظات والتحريات الميدانية المباشرة، وقد شكل مرجعاً أساسياً بالنسبة للأبحاث اللاحقة.

المرحلة الثانية : مرحلة الحفريات الواسعة

تمتد هذه المرحلة من 1912 /1915 إلى 1954، وقد تميزت بإنجاز حفريات واسعة ومنظمة، وقد انطلقت أولى هذه الحفريات سنة 1915 تحت إشراف لويس شاتلان Louis Chatelain وبتزكية وأمر من المقيم العام ليوطي وبحضور شخصيات سياسية مرموقة آنذاك.

في المنطقة الخاضعة للحماية الفرنسية، همت الحفريات الواسعة عدة مواقع كوليلي وبناصا وتموسيدا، أما في المنطقة الخاضعة للحماية الإسبانية، فقد انطلقت الحفريات في بداية العشرينات من طرف César Louis de Montalban ثم بعد ذلك من طرف Pelayo Quintero Atauri. وقد كشفت الأبحاث عن عدة مواقع كتمودا وليكسوس وزيليل وسيدي عبد السلام دلبحر وكيتان.

وبخصوص هذه المرحلة يمكن أن ندلي بعدة ملاحظات:

– لقد انطلقت هذه الحفريات في بداياتها الأولى وخصوصاً في المنطقة الخاضعة للحماية الفرنسية من خلفيات أيديولوجية وسياسية كما يدل على ذلك حضور السلطات الاستعمارية في تدشين انطلاق الأشغال بوليلي(9).

– على مستوى مجالات البحث، اهتمت هذه الحفريات وخصوصا في المنطقة الخاضعة للحماية الفرنسية، بالكشف عن البنايات والمستويات الرومانية، إذ ركز البحث على إبراز عناصر الحضارة الرومانية وذلك من جهة لأسباب إيديولوجية ، ومن جهة أخرى لأسباب موضوعية مرتبطة بالتكوين الكلاسيكي للباحثين الأوائل وبطبيعة المنهج المستعمل في التنقيب القائم على الكشف الأفقي للبنايات وكذلك لقرب هذه الأخيرة من السطح وسهولة الوصول اليها(10).

ـ يلاحظ كذلك على مستوى تقنيات ومناهج التنقيب، أن هذه الحفريات ركزت أساسا على الكشف الواسع عن البنايات دون إعطاء أي اهتمام للسياق الأركيولوجي والإستراتيكرافيا، فمفهوم الإستغرافيا لم يكن معروفا آنذاك، ونفس المناهج والتقنيات كانت سائدة في شمال إفريقيا وفي دول أخرى من حوض البحر الأبيض المتوسط وحتى في فرنسا نفسها.

ـ كان تأريخ البنايات والمكتشفات يرتكز أساسا على التحف والأعمال الفنية كالتماثيل والعناصر المعمارية (تيجان الأعمدة) والفسيفساء والنقائش إلخ مما نتج عنه الكثير من الأخطاء الكرونولوجية.

رغم كل هذه الملاحظات، فإنه لا ينبغي أن نضفي طابع السلبية على هذه المرحلة، فقد ساهمت الأبحاث خلال هذه الفترة في الكشف عن مجموعة من المواقع كوليلي وبناصا وليكسوس وتمودة وفي إبراز أهميتها التاريخية والأثرية.

موازاة مع االحفريات الأثرية، سعت سلطات الحماية والفرنسية على الخصوص إلى تنظيم قطاع الآثار وذلك باتخاذ عدة إجراءات كصدور أول ظهير متعلق بحماية العاديات والمباني التاريخية سنة 1914 وأحداث قسم العاديات التابع لمصلحة العاديات والفنون الجميلة والمباني التاريخية سنة 1918 وابتداء من 1930 سيتم خلق مصلحة للعاديات مستقلة بذاتها تشرف على الأبحاث الأثرية ونشر نتائجها في منشورات خاصة(11).

تم كذلك إحداث مؤسسات ثقافية كالمتحف الأثري بالرباط الذي كان يسمى بمتحف لويس شاتلان سنة 1933 والمتحف الأثري بتطوان الذي أسس سنة 1939 وضم الأول اللقى الأثرية الواردة من وليلي ـ بناصا والثاني اللقى المستخرجة من تمودة وليكسوس.

المرحلة الثالثة : مرحلة الحفريات الاستراتيغرافية والخريطة الأثرية

عرفت المرحلة الثالثة الممتدة من 1948/ 1954 إلى حدود 1975 وخصوصا في بداياتها تحولا نوعيا يمكن أن نرصده من خلال النقط الآتية:

– أولا إدخال المنهج الاستراتيغرافي في التنقيب الذي يرتكز أساسا على التميـيز بين الطبقات الاستراتيغرافية وقد استعملت على الخصوص تقنية الاستبارات بشـكل واسع انطلاقا من سنة 1954 في مجموعة من المواقـع كوليلـي وبناصـا وريغـة وموكادور(12). أما في شمال المغرب فقد تم إدخال المنهج الاستراتغرافي سـنة 1948 من طرف M.. Tarradell الذي قام على الخصوص باستبارات مهمـة فـي تمـودة، وسيدي عبد السلام دلبحر، ولكسوس، ويعد "استبار الخروبة" الـذي أنجـز بموقـع لكسوس أبرز مثال على ذلك(13).

– موازاة مع هذا التحول على مستوى تقنيـات الحفـر، ظـهر أيضـا الاهتمـام بالخزف كعنصر أساسي في تأريخ الطبقات والبنيات الأثريـة. وسـيتجلى هـذا الاهتمام في ظهور عدة دراسات مرتبطة بالخزف. كما أنجزت عـدة دراسـات موضوعاتية مرتبطة بالمعمار، والنقود والنقائش والأدوات البرونزيـة، والحلـي والفسيفساء، إلخ....

– يمكن أن نلاحظ كذلك أن استعمال المنهج الاستراتيغرافي فـي التنقيـب وكـذا الاهتمام بالخزف ترتب عنهما اكتشاف المستويات السابقة على الوجود الرومـاني ونعني بها المستويات المورية والفينيقية خصوصا في وليلـي، باناصـا، موكـادور ليكسوس وتمودة.

لم يقتصر الباحثون خلال هذه المرحلة، على التنقيـب، بـل اهتمـوا كذلـك بالخريطة الأثرية للمغرب القديم، بحيث أنجزت عدة تحريات في منـاطق مختلفـة وذلك لتحديد وجرد المواقع الأثرية، وظهرت كتتويج لهذا التوجه، عدة أطالس أثرية خاصة بكل من تطوان وطنجة وليكسوس ووليلي ووجدة(14).

وللتعريف بنتائج الأبحاث الأثرية، تم خلق النشرة الأثرية المغربيـة التـي كـانت تصدر مرة كل سنة ابتداء من 1956.

وعلى العموم يمكن اعتبار هذه المرحلة، مرحلة مهمة تميزت بتطور نوعـي تمثل على عدة مستويات (مستوى المنهج ومجالات البحث، ألخ). كما عرفت تراكمـا

معرفيا مهما، وساهمت فيه عدة عوامل منها تزايد عدد الباحثين بالمغرب وتعدد اختصاصاتهم، وتوفر الوسائل المادية واللوجستيكية.

المرحلة الرابعة : من 1975 - إلى الآن .

بعد حصول المغرب على الاستقلال، لم يحدث أي تغير، بحيث ظل الباحثون الأجانب يسيطرون سيطرة تامة على ميدان البحث الأثري بالمغرب خلال ما يناهز عشرين سنة، وذلك لغياب أطر وباحثين مغاربة.

ولن تتغير هذه الوضعية إلا ابتداء من سنة 1975، حيث سعت السلطات المشرفة على حقل التراث إلى إعادة هيكلة البحث الأثري وإعادة النظر في السياسة المتبعة(15) وذلك عن طريق فتح أوراش أثرية بالتعاون مع دول أخرى (فرنسا) وسن سياسة التكوين داخل هذه الأوراش (كورش الدشر الجديد)، وبهذا تم تكوين الأطر الأولى في ميدان البحث الأثري بالمغرب.

لكن البحث الأثري لن يعرف انطلاقته الحقيقية إلا مع إحداث المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث سنة 1985 الذي سيضطلع بمهمة الإشراف على جميع الأبحاث ذات الطابع الأثري بالمغرب وكذلك بمهمة تكوين أطر متخصصة في ميدان الأركيولوجيا.

ويمكن أن نجمل مميزات البحث الأثري خلال هذه الفترة في النقط التالية:

- العناية بدراسة جميع أنواع اللقى الأثرية التي كشفت عنها الحفريات السابقة مع التركيز أساسا على الخزف والأنفورات لما تكتسيه من أهمية على مستوى التأريخ ودراسة الجوانب الاقتصادية والثقافية.
- مراجعة المعطيات الاستراتغرافية وكرونولوجية الاستيطان بمجموعة من المواقع المهمة كتمودة وليكسوس وباناصا ووليلي على ضوء قراءة نقدية للأعمال السابقة ودراسة صارمة للسجل الأثري.

- توجيه الاهتمام إلى إشكاليات ومجالات بحث أهملتها الأبحاث السابقة أو تطرقت إليها بشكل محدود كالمستويات المورية والفينيقية أو المستويات المتأخرة في بعض المواقع.

- مواصلة القيام بتحريات أثرية واسعة ومنهجية وذلك لإتمام الخريطة الأثرية (التحريات في منطقة المحمدية، تحريات في منطقة القصر الكبير، تحريات على الساحل المتوسطي)، وهذا أدى إلى اكتشاف عدة مواقع جديدة.

الكتابة التاريخية

هذا بصفة عامة ما يمكن قوله حول التحولات والتطورات التي عرفها البحث الأركيولوجي عبر مراحله المختلفة، أما فيما يخص الكتابة التاريخية المرتبطة بالمغرب القديم، وهي مسألة لصيقة بالبحث الأثري. فيمكن أن نلاحظ أن أول محاولة في هذا الإطار تعزى لـ H. de la Martinière الذي نشر بحثا سنة 1912 تحت عنوان نبذة أو مجمل تاريخ المغرب قبل مجيء العرب(16). ورغم ما انطوى عليه هذا العمل من أخطاء، فهو يبقى أول محاولة في كتابة تاريخ المغرب. ستتلي هذا العمل محاولة أخرى من طرف جروم كاركوبينو الذي سينشر كتابا بعنوان "المغرب القديم"(17) سنة 1943 ثم سيعاد طبعه سنة 1947. ورغم أن هذا العمل احتوى على فرضيات وأطروحات لم تستند في كثير من الأحيان إلى معطيات ملموسة، فإن أهميته تكمن في كونه أثار الانتباه إلى مجموعة من الإشكاليات التي لم تكن آنذاك حاضرة بقوة لدى الباحثين الفرنسيين كالوجود الفينيقي والقرطاجي أو الإشكال المرتبط بنهاية الوجود الروماني بالمغرب. بعد ذلك، وفي سنة 1949 سينشر Henri Terrasse كتابه حول تاريخ المغرب في مجلدين، إلا أن المؤلف لن يخصص إلا صفحات قليلة (32 صفحة) للمغرب القديم لا تعكس أي تطور ملموس في معرفتنا بتاريخ المغرب القديم(18).

أما فيما يخص الباحثين الإسبان، فإن أول وآخر محاولة قد تمت على يد ميكيل طاراديل الذي نشر كتابه المعروف "Marruecos punico" سنة 1960، وهذا

الكتاب يكتسي في رأينا أهمية كبرى وشكل خطوة أساسية في معرفتنا بتاريخ المغرب القديم نظرا لاعتماده على قراءة متأنية وصارمة للقى والمعطيات الأثرية المتوفرة آنذاك، وكذا لتميزه بكثير من الموضوعية العلمية.

أما في مرحلة الاستقلال، فإن المحاولة الوحيدة هي تلك التي أنجزها عبد الله العروي في كتابه(19) الذي صدر سنة 1976 حيث حاول المؤلف نقد الأطروحات الاستعمارية والكشف عن الخلفيات الإيديولوجية التي وجهت البحث التاريخي والأثري خلال فترة الاستعمار وبداية الاستقلال. وكان عبد الله العروي أول من دعا إلى خلق مدرسة وطنية لتكوين باحثين في ميدان الآثار.

بعد هذا العمل النقدي الجريء، لم تظهر أية محاولة جادة أخرى. ففي الوقت الذي تتراكم فيه الدراسات والمعطيات الأثرية حول تاريخ المغرب القديم، نسجل غيابا تاما للكتابة التاريخية.

الهوامش:

(1) - Africa Romana, 13, 2000, vol. 1, p. 939-957.

(2) - J. Windus, *A Journey to Mesquinez, Residence of the Present Emperor of Fez and Morroco, on the Occasion of Commodore Stewart s Embassy thither for the Redemption of the British Captives in the Year 1721*, London, 1725.
انظر كذلك : Lenoir, *Les pionniers*, p. 940-943 .

(3) - H. Barth, *Wanderungen durch die Küstenländer des Mittelmeeres, ausgeführt in den Jahren 1845-1846, I. Das Nordarikanische Gestadeland*, Berlin, 1849.

(4) - T. De cuevas, *Estudio general sobre geografia, usos agricols, historia politica y mercantil, administration, estadistica, comercio y navigacion del Bajalato de Larache y descripcion critica de las ruinas de Lixus romano*, dans *Boletin de la Sociedad geografica de Madrid*, 15, 1884, p. 90-97, 167-168, 338-369, 417-433, et ibidem, 16, 1884, p. 31-58, 232-263, 365-372, 425-438.

(5) — فيما يخص مقالات ه. دو لامرتنيير، أنظر :
V. Brouquier-Reddé et E. Lenoir, *Bibliographie du Maroc antique*, dans l Africa Romana, 13, vol. 2, 2000, p. 1032-1033.

(6) - Ch. Tissot, Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie Tingitane, dans Mémoires de l Académie des Inscriptions et belles-lettres, 1ère série, IX, Paris, 1878.

(7) — عبد العزيز توري، *الآثار*، *معلمة المغرب*، 1، 1989، ص 62.

(8) - R. Rebuffat, *Histoire de l identification des sites urbains antiques du Maroc*, dans *l Africa Romana*, 13, vol. 1, 2000, p. 865-914.

(9) — يقول لويس شاتلان معلقا على هذه الحفريات

(*Note sur les fouilles de Volubilis, dans Comptes rendus de lAcadémie des Inscriptions et belles-lettres*, 1916, p. 359)

Les fouilles à Volubilis, en mai 1915, par ordre de M. le Commissaire Résident général, restent l un des exemples les plus caractéristiques de la profonde habileté politique du général Lyautey il importait au plus haut point de montrer aux indigènes que la France est un pays fort et qu elle est capable, en dépit du devoir sacré de la défense de son sol, de poursuivre tout un programme de réalisations pacifiques «

(10) — بخصوص اهتمام البــاحثين الأوائــل بالمســتويات الرومانيــة دون غيرهــا، أنظــر:

M. Tarradell, *Historia de Marruecos. Marruecos punico*, Tétouan, 1960, p. 16-17.

(11) - كانت نتائج الأبحاث تنشر في سلسلة

Publications du Service des Antiquités du Maoc

(12) - M. Euzennat, Le temple C de Volubilis et les origines de la cité, dans BAM, 2, 1957, p. 41-64. S. Girard, Banasa préromaine, un état de la question, dans Antiquités africaines, 20, 1984, p. 2-93. Id., L établissemnt préislamique de Rirha (plaine du Rharb, Maroc), dans BCTH, 19B, 1985, p. 87-107.A. Jodin, Note préliminaire sur l établissement préromain de Mogador (campagnes 1956-1957) , dans BAM, 2, 1957, p. 9-40.

(13) — أنظر Tarradell, *Marruecos punico*.

(14) - M. Tarradell, Contribution à l atlas archéologique du Maroc. Région de Tétouan, dans BAM, 6,1966, p. 425-443.M. Ponsich, M. Ponsich, Contribution à l atlas archéologique du Maroc. Région de Tanger, dans BAM, 5, 1964, p. 253-290. Id., Contribution à l atlas archéologique du Maroc. Région de Lixus, dans BAM, 6, 1966, p. 377-423. A. Luquet, Contribution à l atlas archéologique du Maroc. Région de Rharb, dans BAM, 6, 1966, p. 365-375. Id., Contribution à l atlas archéologique du Maroc. Région de Volubilis, dans BAM, 5, 1964, p.291-300. J. Marion, Ruines anciennes de la région d Oujda, dans BAM, 2, 1957, p. 117-173.

(15) — توري، الآثار، ص 63-64.

(16) - H. De La Martinière, Esquisse de l'histoire du Maroc avant l'arrivée des Arabes, dans B. C. T. H, 1912, p. 142-.184

(17) - J. Carcopino, Le Maroc antique, Paris, 1943.

(18) - H. Terrasse, Histoire du Maroc, des origines à l établissement du Protectorat français, Casablanca, 1949-1950.

(19) – A. Laroui, Histoire du Maroc. Un essai de synthèse, I, Paris, 1976.

إشكالية صيانة وترميم اللقى الأثرية: الفسيفساء نموذجاً

زهـراء قنينبـــة*

كل مادة أثرية تستدعي أدوات وأساليب خاصة بها، وبما أن اللقى الأثريـــة ليست جميعها من نفس الحجم والطبيعة فالأكبر حجماً هو الذي يثير مشـــاكل أكـــثر بالنسبة للباحثين ومن ذلك الفسيفساء(1).

نعترف بأن عدد الفسيفساء المغربية قليل بالمقارنـــة مـــع دول متوســـطية أخرى، ولكن هذا الأمر يجب أن لا يمنعنا من دراسة إرث هو في تدهور مســتمر لا سيما وأنه من أكثر المصادر التراثية هشاشة نظراً لطبيعته المتمثلة فـــي المكعبـــات التي تقتلع بسهولة. وبما أن هذه المادة معرضة للتلف الذي قد يكون كلياً أو جزئيـــاً، وهذا الأخير يستدعي اعتماد آليات الترميم مما يجعل مهمة الدارس صعبة لأن عـــدم الانتباه لهذه العملية قد يؤدي إلى مغالطات في الاستنتاجات والأحكام، فإننا ســـنقف عندها مستعرضين أنواعاً من المشاكل التي تواجه الباحث في هذا المضمار.

---

* أستاذة باحثة بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث – الرباط.

إذا كان توزيع الفسيفساء في المغرب غير متكافئ لكـــون بعـــض المواقـــع الأثرية أوفر حظاً من أخرى نخص بالذكر كلاً من وليلي وليكسوس وبناصا التـــي وجدت بها أكبر نسبة من الفسيفساء المعروفة بالمغرب حتى الآن، فمعظم المواقـــع تشترك في كون فسيفسائها آيلة للاندثار رغم أن مصيرها يختلف من موقع لآخر.

ففسيفساء وليلي(2) لا زالت بأماكنها الأصلية باســـتثناء فسيفســـاء "موكـــب فينوس" (Cortège de Vénus) المعروضة بمتحف القصبة بطنجـــة، أمـــا فسيفســـاء ليكسوس فقد نقلت إلى المتحف الأثري بتطوان ما عدا فسيفساء "أوقيانوس" (Océan) التي لا زالت بالموقع. في حين تمت إزالة فسيفساء بناصا من موضعـــها الأصلـــي وحفظت بمخزن وليلي ويستثنى من ذلك جزء مـــن فسيفســـاء "تريتـــون" (Triton) وفسيفساء "فينوس ذات المحارة" (Vénus à la Coquille) اللتان حظيتا بالترميم وهمـــا معروضتان حالياً بمدخل موقع وليلي.

وإذا ما نظر الزائر لفسيفساء وليلي التي بقيت ظاهرة للعيـــان فـــي مكانـــها الأصلي ـــ وهذا شيء إيجابي لأنه يمكن الزائر من تكوين فكرة عن زخرفة المـــنزل الروماني ـــ فقد يعتقد بأنها لا زالت في حالة صيانة جيدة لكن الأمر مختلف تمامـــاً حيث أن القيام بزيارات متعددة أو النظر بإمعان يمكن العين الأقل تجربة في المجال من معاينة بعض التدهورات التي تعرضت لها.

وقبل الحديث عن حالتها الراهنة ينبغي الوقوف علـــى عمليـــات الصيانـــة والترميم التي تعرضت لها منذ الكشف عنها وهذا ضروري للتعـــرف علـــى مـــدى احترام عملية الترميم لشكل الفسيفساء الأصلي(3).

للأسف، لا نتوفر على صور للفسيفساء إبان الكشف عنها باستثناء صـــورة فسيفساء موكب فينوس التي نشرت سنة 1960 ولكنها غير واضحة(4). تتضاف لذلك صعوبات أخرى تتمثل في قلة المعلومات حول عمليات الترميم والمرمميـــن وفـــي حالة توفرها فإنها تكون مقتضبة أو متباينة. ونعرض لذلك كما يلي:

المثال الأول: نجد مكتوباً بفسيفساء الحوريات (Les Néréides) بمنزل الفتى الجميـل (La maison à l'Ephèbe) تاريخ 1930 بحاشية الجدار الذي يفصـل مدخـل الغرفـة الثانوي الشمالي عن المدخل الرئيسي. وهذه إشارة واضحة لترميم هاته الفسيفسـاء خلال السنة المذكورة.

المثال الثاني : تتوفر محافظة وليلي على وثيقة غير مؤرخـة وغـير ممضـاة يترجم عنوانها كما يلي: «كشف خاص بالترميم أو الصيانة الجزئيـة أو التامـة لمختلف فسيفساء وليلي ». وقد اهتمت هذه الوثيقة بالفسيفساء المشـخصة علـى وجه الخصوص.

المثال الثالث: يشير الباحث ريمون توفنو(5) (R. THOUVENOT) في إحدى مقالاتـه إلى أن مؤسسة كودان (Gaudin) رممت العديد مـن فسيفسـاء وليلـي، وبمـا أن المؤسسة المذكورة قد اختفت فإن الحظوظ ضئيلة للعثور علـى الوثـائق المتعلقـة بنوعية التدخلات التي قامت بها.

المثال الرابع والأخير: نعلم بأن الباحث ميشيل بونسيك (M. Ponsich) قد أشـرف على عمليات قلع وإعادة وضع عدد من الفسيفساء (6).

وهكذا يتبين بأن خضوع فسيفساء وليلي لعدة عمليات صيانة وترميم أمـر لا جدال فيه لكن المعلومات الدقيقة غير متوفرة (7).

وقبل الخوض في الوضع الحالي للفسيفساء من الأفضل أن نطرح التسـاؤل حول أسلوب التدخلات التي تعرضت لها.

تبين لنا اعتماداً على معاينتنا للفسيفساء الوليلية أنـها تعرضـت لتدخـلات عديدة وأن الترميم الذي خضعت له اتبع أسلوبين متمايزين تمثل الأول في فسيفسـاء أورفي (Orphée) والثاني في فسيفساء ديونيزوس وأريانة (Dionysos et Ariane).

بالنسبة للصنف الأول، يظهر من خلال المعاينة الفوريـة بأنـه باسـتثناء الثغرات التي نلاحظها على مستوى اللوحة الثانوية الشـمالية والزاويـة الجنوبيـة الشرقية للغرفة (شكل 1) فإن باقي الفسيفساء في حالة صيانة جيدة وأصيلـة، لكـن

الواقع غير ذلك، فمن جهة الحقل الأبيض مكون من مكعبات معظمها حديــث ممــا ينفي عنه أصالته. ومن جهة أخرى، رغم استعمال المكعبات الأصليــة للتجســيدات فإن مسألة أصالة بعض الصور مشكوك فيها(8) وهذا يفسر الطـــابع غــير العــادي لبعض الحيوانات (شكل 2).

وهكذا يتضح بأنه إذا كان التركيب العام لفسيفساء أورفي لا يطـــرح أدنـــى شك، فالآمر ليس كذلك بالنسبة لبعض الحيوانات التي أعيد تشكيلها بمكعبات قديمــة، وهذا الأسلوب غير مقبول في الوقت الراهن لأن طريقة إعــادة وضــع المكعبــات يمكن أن لا تنطبق مع طريقة وضعها قديماً.

بالنسبة للزخارف الهندسية يمكن إعادتها شريطة استعمال مكعبــات حديثــة تسمح بقراءة العنصر الزخرفي مع تمكين المشاهد من التمييز بين القديم والجديـــد. أما بالنسبة للمشاهد المشخصة فلا ينصح على الإطلاق بتكملتها خصوصاً إذا كنــا لا نتوفر على وثائق دقيقة حولها. وفي هذه الحالة، يستحسن الاقتصـــار علــى دعــم الأجزاء التي تستدعي ذلك.

بالنسبة للصنف الثاني الممثل في نموذج ديونيزوبس وأريانة، فقد فضـــل المرمم اختيار أسلوب يعتمد على تكملة الإطار الخـــارجي لشـــخصيات اللوحـــة عوض إعادة تجسيدها (شكل 3)، وإذا كان هذا الأسلوب محبذاً فإنه لا يتوافق مـــع كون بعض الأجزاء من جسم ديونيزوبس شكلت بمكعبات حديثـــة. إذن يظـــهر بأن كلا الأسلوبين غير مقنعين ويدلان معاً على كون الهواية لعبت دوراً كبيراً في هذا المجال.

بناء على ما سبق ذكره، ما هو الوضع الحالي للفسيفساء الوليلية؟

شهدت هذه الفسيفساء، كما أسلفنا قوله ــ عدة عمليـــات صيانـــة وترميـــم، ولكن للأسف لم يمنع هذا من تدهورها لاحقاً. وبالفعل نجد ضمـــن التقريـــر الـــذي أعدته إحدى المتخصصات سنة 1986 (9) رصداً لمختلف أنواع التدهور الذي عرفتــه الفسيفساء الوليلية أبرزها يتمثل في الشروخ التي تعرض لها أكثر من إحدى عشـــر

نموذجاً، ولكن انفصال المكعبات ودعامة الفسيفساء هما الأمران الأكثر تردداً، وقــد لوحظ بالنسبة لأكثر من ستة عشر نموذجاً.

ولم تتحسن هذه الوضعية بعد هذا التاريخ، يكفي أن نقوم بزيـــارة لوليلـي لنلاحظ بأن حالة الفسيفساء في تدهور مستمر ويمكن اعتبار بعضـــها فـي عـداد المفقود، مثال على ذلك فسيفساء الدلافين في منزل فينوس وبعض النماذج الهندسـية بمنزل الفـــارس (La maison au Cavalier) وبمـــنزل الأعمـدة (La maison aux Colonnes) وكذلك بحمامات غاليان (Thermes de Gallien).

ترى ما هي أسباب تدهور الفسيفساء الوليلية؟

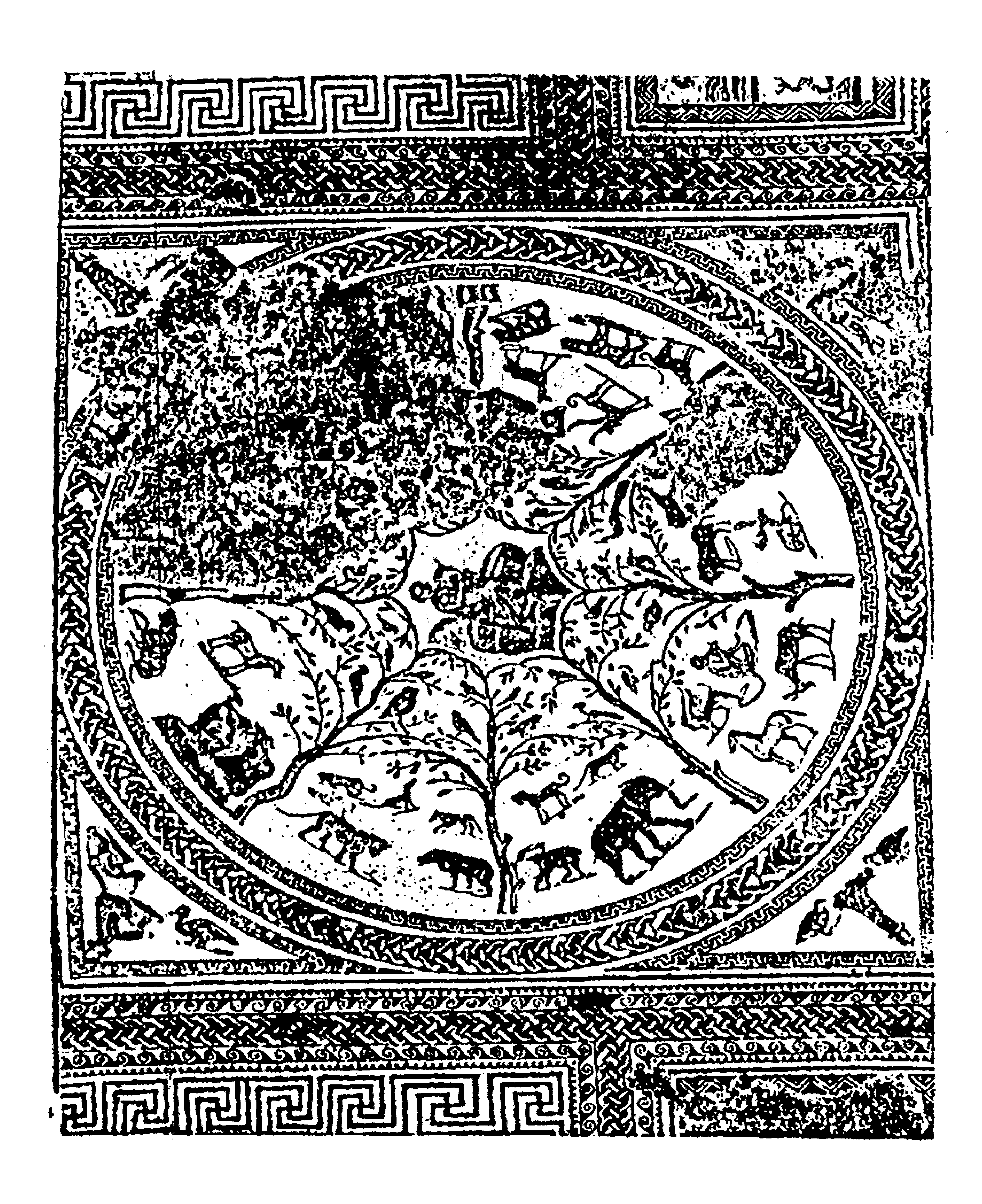
يمكن ربط هذا التدهور بعوامل عديدة تتغير من نموذج لآخـــر، وبعضـــها تسبب في نفس المشاكل بمواقع أخرى ونحصر هذه العوامل فيما يلي:

ــ تغير درجة الحرارة. ــ تسرب مياه الأمطار.ــ اكتساح النبـــات.ــ صلابـة الإسمنت الحالي غير المتجانس مع المواد القديمة.

وعرفت بعض الفسيفساء الوليلية ــ زيادة على ما سبق ذكـــره ــ مشـــاكل أخرى تتمثل في الدوس المتكرر الذي تتعرض له من طرف الـــزوار ممـــا عجـل بتدهور بعضها، نذكر من ذلك فسيفساء سباق العربات (La course des chars) بمنزل موكب فينوس التي تتقلص إمكانية معرفة مشاهدها يوماً بعد يوم.

ولا يعد اجتثات النباتات الممارس بانتظام بوليلي إلا حلاً جزئياً لأن العنايـــة اللائقة بالفسيفساء تتطلب أكثر من ذلك، ومن ثمة ضرورة تدخل شــــخص مؤهـل ليتحمل مسؤولية إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الفسيفساء، فاللجوء إلـــى المتخصصيــن لا يتم إلا بالنسبة للحالات الدقيقة.

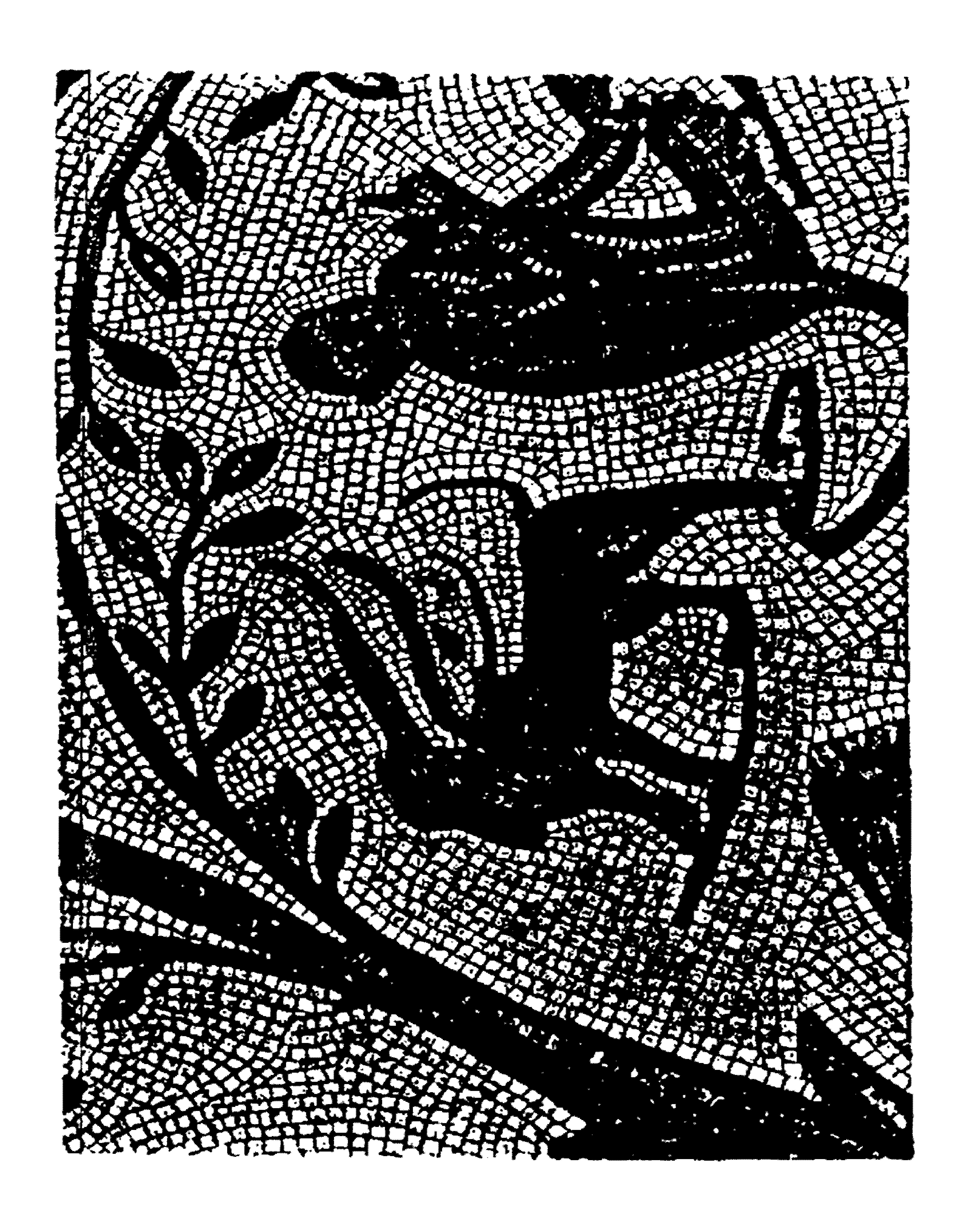
نؤمن بأنه آن الأوان لنفكر بجدية في تكوين فريق عمـــل يتضمـــن تقنييــن مغاربة يتكلفون بصيانة الفسيفساء المكتشفة وتهييئهم لما يمكن أن يســـتخرج لاحقـاً وبذلك يلزم أن يستفيد هؤلاء التقنيون من تجارب البلدان المتقدمة في هـــذا المجـال ولم لا تجارب بلدان تعتمد إمكانيات محدودة نسبياً مثل تونس فهي مثال يحتذى(10).



شكل 1 : فسيفساء أورفي بوليلي



شكل 2 – (1) : جزء من فسيفساء أورفي بوليلي



شكل 2 – (2) : جزء من فسيفساء أورفي بوليلي



شكل 3 – فسيفساء ديونيزوس وأريانة بوليلي

الهوامش:

(1) ـــ للمزيد من المعلومات حول موضوع الصيانة انظر:

J. P. Adam et autres.., *La conservation en Archéologie*, Paris, 1990.

(2) ـــ تجدر الإشارة إلى أن موقع وليلي يضم تقريبا نصف الفسيفساء المغربية المعروفة لحد الآن.

(3) ـــ وأيضا لضبط التشويش لأن القيام بأية أسبار رهينة بعدم إتلاف قاعدة الفسيفساء.

(4) ـــ انظر:

M. Ponsich, « Technique de la dépose, repose et restauration des mosaïques romaines », dans *MEFR* 72, 1960, pp. 243-256.

(5) – انظر:

R. Thouvenof, « La maison à la mosaïque de Vénus, dans *PSAM* 12 , 1958, (PP. 49-86), p. 77 note 4.

(6) ـــ انظر 2، ص. 249، الهامش 1.

(7) ـــ لا يسعنا إلا أن نتحسر على قلة المعلومات الخاصة بترميم فسيفساء وليلي في حين أن الدارس لبعض الفسيفساء الإيطالية أو الفرنسية التي اكتشفت منذ أزيد من مائة سنة يمكنه الحصول على وثـــائق هامـــة تخـــص شـــكل الفسيفساء الأصلي وحالة الصيانة إبان الكشف عليها.

(8) ـــ علمنا عن طريق الرواية الشفوية بأن بعض الأثريين الأجانب عوضوا المرممين، بل إنهم كونوا بعض العمال الذيـــن كلفوهم بملء ثغرات الفسيفساء بمكعبات قديمة. وقد شملت هذه العملية حتى الأجزاء المجسدة.

(9) ـــ يتعلق الأمر بالسيدة إيفلين شاطريو (E. Chantriaux) مديرة ورشة ترميم الفسيفساء بسان رومان أون غـــال (Saint-Romain-en Gal) بفرنسا وهي التي أشرفت على ترميم نموذجي بناصا: تريتـــون وفينـــوس ذات المحارة المعروضين بمدخل وليلي.

(10) ـــ وفي انتظار تكوين التقنيين المتخصصين في هذا المجال المعرفي ينبغي الإسراع بإنقاذ النمـــاذج الأكـــثر تضـــررا، ولاشك أن التوعية لها دورها في تحفيز المجتمع المدني للاهتمام بهذا الإرث الحضاري المهدد.

معطيات عن مشروع حفريات البعثة المغربية الإنجليزية بوليلي

حسن ليمان*

خلال السنة الماضية وتفعيلاً للتعاون المغربي الإنجليزي، تم إمضاء اتفاقية تعاون في المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث (INSAP) وجامعة كوليج لندن (UCL) وذلك في إطار مشروع استمرار البحث الأثري بموقع وليلي.

يهتم هذا البحث بالتنقيب في الجزء الجنوبي الغربي من الموقع، وذلك رغبة في الحصول على المزيد من المعلومات أو المعطيات الأثرية حول إشكالية التعمير والاستقرار بالموقع خلال الفترة الإسلامية والفترة الرومانية المتأخرة.

إذا كنا نتوفر على معلومات كثيرة ووافرة عن الفترة الرومانية وإلى حد ما عن الفترة الموريطانية فإن الفترتين التي تم اختيارهما كموضوع أولي للبحث في إطار هذا المشروع، هما فترتين تنقصنا عنهما الكثير من المعلومات والمعطيات. وبالتأكيد، فإن الفترة الإسلامية تعتبر المحور الأساسي لهذا البحث، وخاصة ما يتعلق بتحديد مجال المدينة في اتجاه الجنوب والجهة الغربية من الموقع وخاصة بما يسمى بالمدينة المقلصة أو المصغرة والتي أحيطت بسور خلال القرن السادس بعد

* أستاذ باحث بمديرية الآثاروالأبحاث الرباط

الميلاد، نتيجة للتغيرات التي طرأت على رقعة الاستقرار بهذا الموقع.

هذا البحث باختياره كذلك للمحور السابق الذكر، يمكن أن نعتبره استمراراً للبحث والحفريات التي تم إنجازها من طرف الأستاذ عمار أكراز في الجهة الشمالية الغربية لقوس النصر وبالضبط شمال منزل البيكار.

هل في الحي الغربي توجد نفس المعطيات الأثرية الإسلامية، بنفس عملية التطبق أو الإستراتيغرافية، أم أن هناك اختلاف بين ما وجد في الشمال وما يمكن أن يوجد في الجنوب.

كما أن مشروع هذا البحث الجديد، سيحاول أن يحدد إذن مجال المدينة الإسلامية وخصوصيات العمارة في الجهة الغربية، مهتمين بكل جزئيات الفترة الإسلامية أو الفترات الإسلامية، وهنا أريد أن أشير إلى المراحل اللاحقة للفترة الادريسية والتي لا يمكننا إلا أن نعتبرها مهمة وخاصة، وأن هناك إشارات واردة في النصوص لاستمرار الاستقرار بوليلي أي ما بعد فترة القرن 10 م.

خلال هذا الموسم الجامعي قام فريق البحث المختلط بتجربتين مهمتين وهما:

1) تجربة الجرد المغناطيسي (شتنبر 2000).

2) الحفريات (مارس – أبريل 2001).

نتائج المسح المغناطيسي

تسهيلاً لعملية الحفريات، ومحاولة لتحديد الأماكن التي من شأنها أن تبوح بأسرار عمرانية وتاريخية مهمة قام الفريق المغربي الإنجليزي بعملية مسح مغناطيسي خلال شهر شتنبر. شملت هذه العملية 4 أجزاء من الموقع وهي:

- المنطقة A et D في الجهة الغربية.
- المنطقة B خارج الأسوار الرومانية بجوار الحمامات الإسلامية.
- منطقة جرد في الجهة الشرقية C. في المكان المقترح لمشروع متحف الموقع.

1.1 ـ نتائج عملية المسح المغناطيسي.

2. **المنطقة A**: توجد هذه المنطقة في الجهة الغربية، المتميزة بانحدارها في اتجاه واد خومان. تتخلل هذه المنطقة مجموعة من الأسوار الكبيرة الحجم، والتي لا تختلف عن الأسوار التي وجدت في الجهة الشمالية بمنزل البيكار. تشكل هذه الأسوار شبكة متناسقة الوضوح، والتي لا يستبعد أنها تنتمي إلى مجموعة منازل، مكونة من باحات واسعة تتوسطها، أما غرفها أو ما يمكن أن نسميه بغرف مؤقتاً، فهي تتميز بطولها وضيقها. المسح المغناطيسي، سمح بإبراز توزيع منتظم لمناطق تتميز بضغط مغناطيسي قوي في كثير من الأحيان تظهر على شكل دوائر، يمكن تأويلها أو قراءتها مؤقتاً بأنها مواقد للنار Foyers أو مطامير أو حفر ملئت بأزبال المنازل.

تبقى الحفريات هي الوسيلة المثلى لفحص وتأكيد هذه الافتراضات.

B : بجوار الحمامات الإسلامية من الجهة الجنوبية الشرقية، تم اختيار منطقة ثانية للمسح المغناطيسي. تتميز هذه المنطقة المعروفة بجنان كراب" بوجود كثير من أشجار الزيتون والتي لم تعق عملية المسح المغناطيسي. هذه العملية أبانت عن وجود مجموعة من الأسوار لها نفس إتجاه التي أظهرتها الحفريات القديمة التي أقيمت في هذه الجهة المحادية للحمامات الإسلامية.

كما أظهر المسح المغناطيسي كذلك وجود سور طويل، أو ممر ذو إتجاه شمالي جنوبي في الجهة المحادية للواد، في إتجاه الباب الجنوبي الغربي للسور الروماني. أما بقع تكتل المغناطيسي فربما ترمز إلى وجود أفران إنتشرت شظاياها أو بقاياها في كل هذه المنطقة.

C : وقع الاختيار على المنطقة الثالثة والتي توجد في الجهة الشرقية وبالضبط جنوب معبد "B" أو ما يعرف بمعبد "بعل" وذلك للتحقق من عدم وجود أية آثار قديمة أو بنايات في المكان الذي تم اختياره لاحتضان مشروع متحف الموقع. إلا أن قطع الحديد أو الشوائب الحديدية المبعثرة في هذه البقعة حال دون الحصول

على نتائج سليمة. الشيء الذي جعل عملية المسح تتحول إلى المنحدر غير بعيد عن النقطة التي تم اختيارها للمتحف. هذه المنطقة تتميز كما يظهر في الصورة، بوجود شبكة مهمة من الأسوار. إقامة استبار أو استبارين كفيل بتجديد أهمية هذه البنايات.

D — أما المنطقة الأخيرة التي شملتها عملية المسح، فتوجد في الجهة الغربية للموقع، غرب المنزل المعروف بالإنسولا 11، داخل المدينة الرومانية المتأخرة، وعلى بعد عشرات الأمتار من سور القرن السادس.

أبان المسح المغناطيسي، عن حدود باحة تتوسط منزلاً كبيراً، وعن شكل دائري يتميز بضغط مغناطيسي كبير، قد يكون عبارة عن مطمورة أو فرن.

إن نتائج المسح المغناطيسي في النقط الأربع بينت على أنها تختزن كلها بنايات كبيرة، ومعالم أثرية، يبقى البحث الأثري أو التنقيب هو الوسيلة الوحيدة للتحقق منها ومن نوعها ومن تأريخها.

موازاة مع هذا البحث الميداني الممهد لعملية الحفريات، قام الفريق بإتمام الرفع الهندسي لمختلف أجزاء الأسوار التي توجد في المنطقة الغربية وكذا الحي المعروف بالحي المنخفض. كما تم التفكير والاهتمام بملف ملم بالموقع وهو برنامج تدبير الموقع وأعمال تهيئته.

حفريات أبريل 2001 (23 مارس إلى 23 أبريل)

خلال البحث الذي قام به الفريق المغربي الإنجليزي طيلة شهر أبريل المنصرم، انصب الاهتمام على 3 محاور للبحث عن الحفريات في المنطقة D و B.

- الاهتمام ببرنامج تدبير الموقع وصيانته.
- بالينتولوجية الموقع أو الأركيوبوطانيك.

1 — الحفريات

الحفريات الأولية في المنطقة: D.

إن اختيار هذه المنطقة راجع إلى أنها لم تعرف حفريات منتظمة اللهم بعض الخنادق التي تركها الباحثون السابقون، والتي تتسم بتتبعها للأسوار، والتي تركوها على حالها، دون نشر نتائج أبحاثهم ولا ملأ لخنادقهم.

هذه المنطقة توجد داخل المدينة المتأخرة كما سبق الإشارة إلى ذلك. شملت الحفريات الموسعة رقعة تقدر ب 840 م^2 يتميز هذا الجزء من الموقع بوجود أسوار تنتمي إلى حقب مختلفة من الاستقرار، وخاصة تلك التي تهمنا أي الفترة الإسلامية والرومانية المتأخرة، اعتماداً على نظام التطبقية، واستعمال مجال واحد خلال تعاقب فترات الاستقرار.

أظهرت الحفريات في هذا الجزء من الموقع وجود 3 بنايات متباينة.

البناية الأولى في الجهة الشمالية، مكونة من أربع غرف طولية (اتجاه شمالي جنوبي) ضيقة، تنتمي لوحدة سكنية مستقلة، متصلة فيما بينها بواسطة أبواب فتحت في اتجاه شرقي غربي. أظهرت الحفريات التي أجريت في إحدى هذه الغرف عن أرضية من التراب المدكوك، المصنوع من الجير والحصى وتراب أصفر، كما بينت عن وجود ملاط يغطي الأجزاء السفلى من الجدران.

البناية الثالثة (وأقول الثالثة)، فهي توجد في المنطقة الوسطى أو في مركز الحفريات، وهي كذلك تتكون من ثلاث غرف منفصلة، غير أن الحفريات لم تبين عن خصوصياتها، فالبحث سيستمر في السنة المقبلة.

البناية الثانية، وهي الأكثر وضوحاً، وذلك راجع لصغرها، حيث قسمت إلى ثلاث أجواء. تم العثور في الغرفة أو الجزء الغربي على أرضية مرصفة بالحجارة، بينما الغرف الأخرى أرضيتها مصنوعة من التراب المدكوك الممزوج بالتراب والجير والحصى. جدرانها أو ما تبقى منها أظهرت عن بقايا طلاء كان يغطيها. كما أنه عثر على بعض بقايا سقف هذه الغرف والذي كان يتكون من القصب والطين، وبعض الحجارة، حيث وجدت آثاره فوق الفرشة التي تغطي الأرضية مباشرة.

أما من ناحية البناء العام، فإنه يتميز بإعادة استعمال حجارة كبيرة كما هو مألوف في البنايات المتأخرة، مرصفة أو مبنية بواسطة التراب.

أما اللقى الأثرية فهي كثيرة ومختلفة، تتميز بوفرة الخزف أو الفخار الإسلامي العادي والمبرنق الأخضر والرمادي والأحمر.

وأقدم هذه اللقى تنتمي إلى الفترة الإسلامية ويمكن تأريخها بالقرن 11 م، وخاصة نموذج من قنديل إسلامي ممدود ذو شكل أسطواني، عثر على نماذج منه ببعض المواقع المؤرخة بنفس الفترة في إسبانيا. يُضاف إلى هذه القطعة نقد مرابطي ضرب عليه.

لا إله إلا الله

الأمير يوسف بن تاشفين.

هذه المعطيات رغم قلتها فإنها غنية تسمح بتأريخ هذا المستوى من الاستقرار بالفترة المرابطية. هذا التأريخ يفتح مجالاً جديداً لتساؤلات متعددة، عن وضعية المدينة الموقع في هذه الفترة، وعن أهميتها وعن تعميرها وتنظيمها، وعن استغلال وتعمير مجالها.

المنطقة ب. B.

تم الاكتفاء في المنطقة المحايدة للحمامات الإسلامية، بفتح استبارين، الأول اتسم بمحاولة إبراز خصوصية ذلك السور أو الممر ذو الاتجاه الشمالي الجنوبي الذي أظهرته التحريات المغناطيسية. بخصوص هذا العنصر، أظهرت الحفريات عكس ما تمت قراءته، فليس هناك لا سور ولا ممر، كل ما هناك أو ما أظهرته الحفريات، هو عبارة عن قناة طويلة لها نفس الاتجاه، تقطع الاستبار كذلك من الشمال إلى الجنوب، ملئت بكثير من الأتربة وحجارة الواد.

هل هي حد لأحد الحقول، أم أنها كانت فعلاً قناة تستعمل للسقي؟

أما الاستبار الثاني، والذي وضع غير بعيد عن الحمامات الإسلامية، كان الهدف منه إظهار زاوية إحدى البنايات التي لربما تنتمي إلى المجمع الحرفي

إن اختيار هذه المنطقة راجع إلى أنها لم تعرف حفريـــات منتظمـــة اللـــهم بعض الخنادق التي تركها الباحثون السابقون، والتي تتسم بتتبعها للأســوار، والتــي تركوها على حالها، دون نشر نتائج أبحاثهم ولا ملأ لخنادقهم.

هذه المنطقة توجد داخل المدينة المتأخرة كما سبق الإشارة إلى ذلك. شـملت الحفريات الموسعة رقعة تقدر ب 840 م^2 يتميز هذا الجزء من الموقع بوجود أسـوار تنتمي إلى حقب مختلفة من الاستقرار، وخاصة تلك التي تهمنا أي الفترة الإســلامية والرومانية المتأخرة، اعتماداً على نظام التطبقية، واستعمال مجـــال واحـد خـــلال تعاقب فترات الاستقرار.

أظهرت الحفريات في هذا الجزء من الموقع وجود 3 بنايات متباينة.

البناية الأولى في الجهة الشمالية، مكونة من أربع غرف طوليـــة (اتجـاه شـمالي جنوبي) ضيقة، تنتمي لوحدة سكنية مستقلة، متصلة فيما بينها بواسطة أبواب فتحـت في اتجاه شرقي غربي. أظهرت الحفريات التي أجريت في إحدى هذه الغرف عـــن أرضية من التراب المدكوك، المصنوع من الجير والحصى وتراب أصفـــر، كمـــا بينت عن وجود ملاط يغطي الأجزاء السفلى من الجدران.

البناية الثالثة (وأقول الثالثة)، فهي توجد في المنطقـــة الوسـطى أو فـــي مركـــز الحفريات، وهي كذلك تتكون من ثلاث غرف منفصلة، غير أن الحفريات لم تبيـــن عن خصوصياتها، فالبحث سيستمر في السنة المقبلة.

البناية الثانية، وهي الأكثر وضوحاً، وذلك راجع لصغرها، حيث قسمت إلى ثـلاث أجواء. تم العثور في الغرفة أو الجزء الغربي على أرضية مرصفة بالحجارة، بينمـا الغرف الأخرى أرضيتها مصنوعة من التراب المدكوك الممزوج بالتراب والجـــير والحصى. جدرانها أو ما تبقى منها أظهرت عن بقايا طلاء كان يغطيها. كمـــا أنــه عثر على بعض بقايا سقف هذه الغرف والذي كان يتكون مـــن القصـب والطيـــن، وبعض الحجارة، حيث وجدت آثاره فوق الفرشة التي تغطي الأرضية مباشرة.

Archèo botanique — 3

لقد جاء الاهتمام بهذا الجانب الجديد من البحث الأثري رغبة من الفريق في محاولة تزويدنا بمعلومات مهمة عن الغطاء النباتي وعلاقته بالحياة اليومية وبالجانب المعيشي والاقتصادي.

يعتمد هذا البحث على أخذ بعض العينات من الجذور والأزهار والنباتات الحالية لمقارنتها، مع العينات التي ستأخذ من مختلف الفرشات الأثرية سواء بالإستبارات أو بالحفريات الموسعة، والهدف من ذلك هو محاولة ضبط معالم الغطاء النباتي للموقع أو على الأقل جزء منه.

أما العينات التي ستأخذ من الإستبارات والحفريات فيمكن كذلك أن تساهم في عملية التأريخ، وذلك بواسطة تحليلها بواسطة الكاربون 14.

إن هذا البرنامج الجديد هو ما يمكن أن نسميه أو يصطلح على تسميته ببرنامج البحث المكتملة والتي تحاول أن تتناول مختلف أبعاد البحث ليس فقط البعد الأثري التاريخي الذي نتوخى الوصول منه إلى الإنسان فاعل التاريخ، بل إن البعد الإيكولوجي أصبح هو كذلك من الأبعاد التي ينتظر الوصول إليه رغبة كذلك في التعرف على نظامه الغذائي ومنتوجاته واستعمالاتها، ناهيكم عن البعد الحمايتي والحفاظي للموقع نفسه، بواسطة تخطيط برنامج تدبير مكتمل، وما يمكن أن ينتج عنه من برمجة سياسية واقتصادية واجتماعية مبنية على التراث مع ضرورة ربطه بمحيطه.

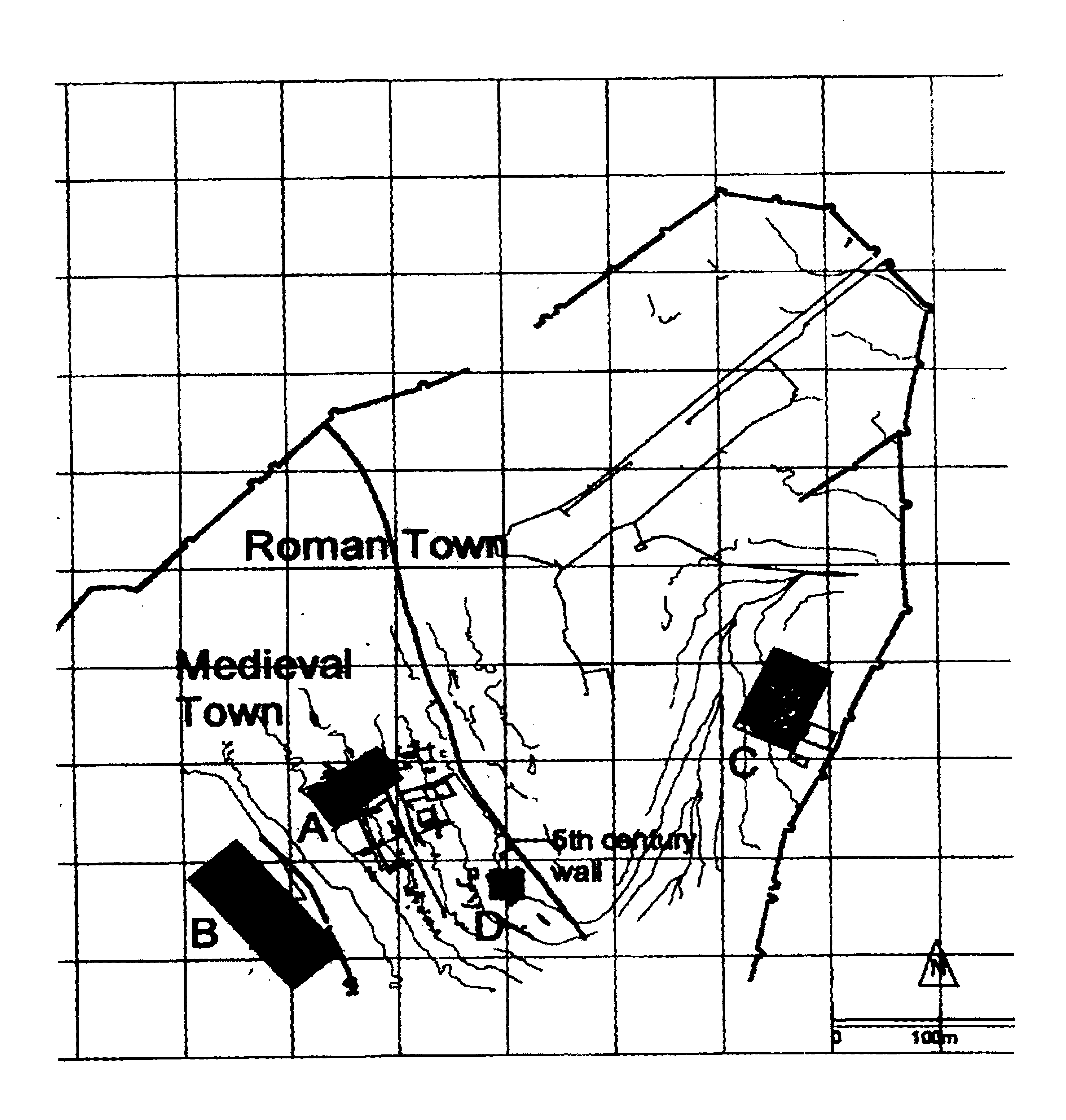

Roman Town
Medieval Town
A
B
C
D
5th century wall
N
0
100m



fig. 5 Plan du site et magnétométrie dans la zone A.

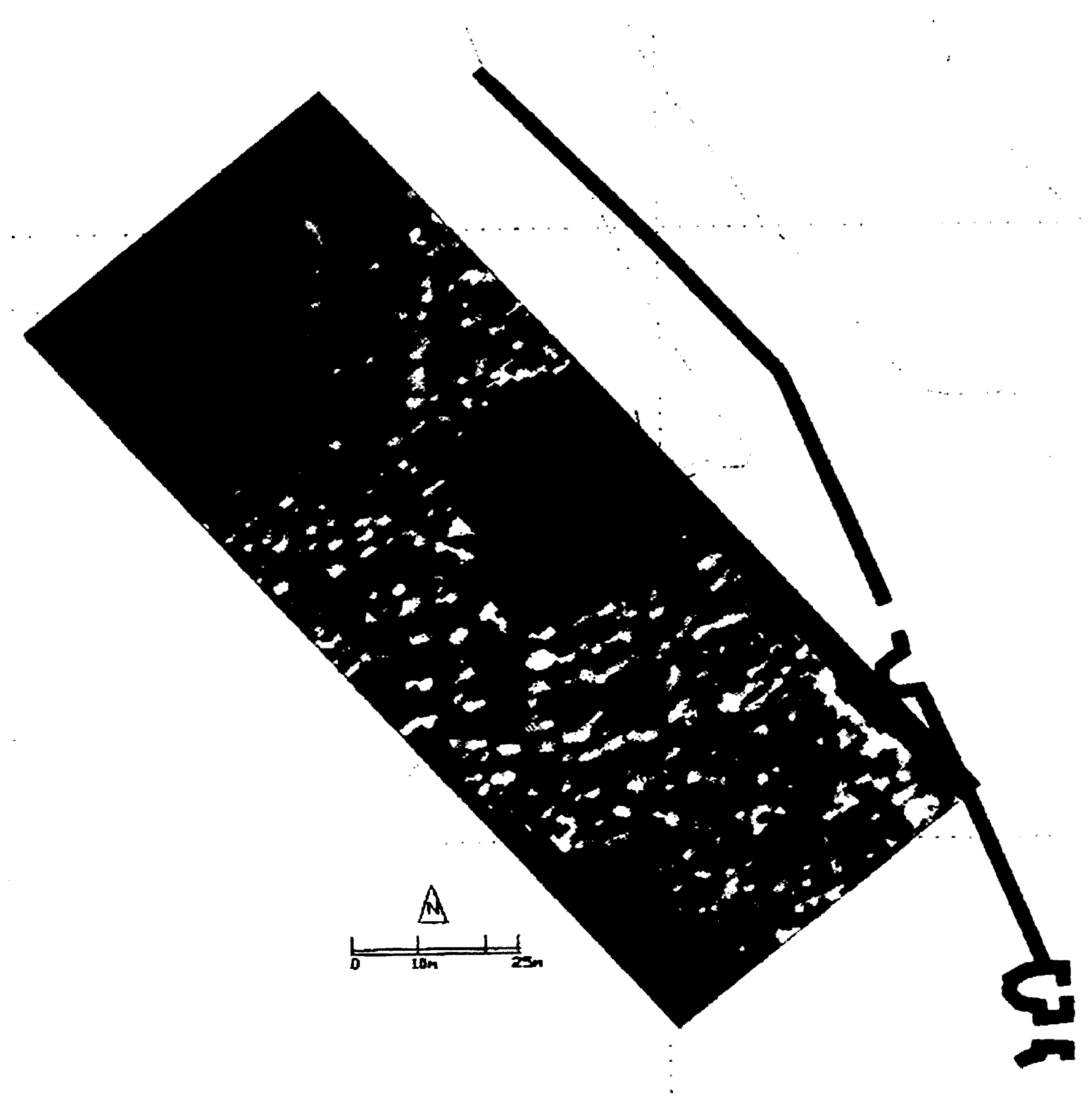


Fig. 7: Prospections géophysiques dans la zone B.

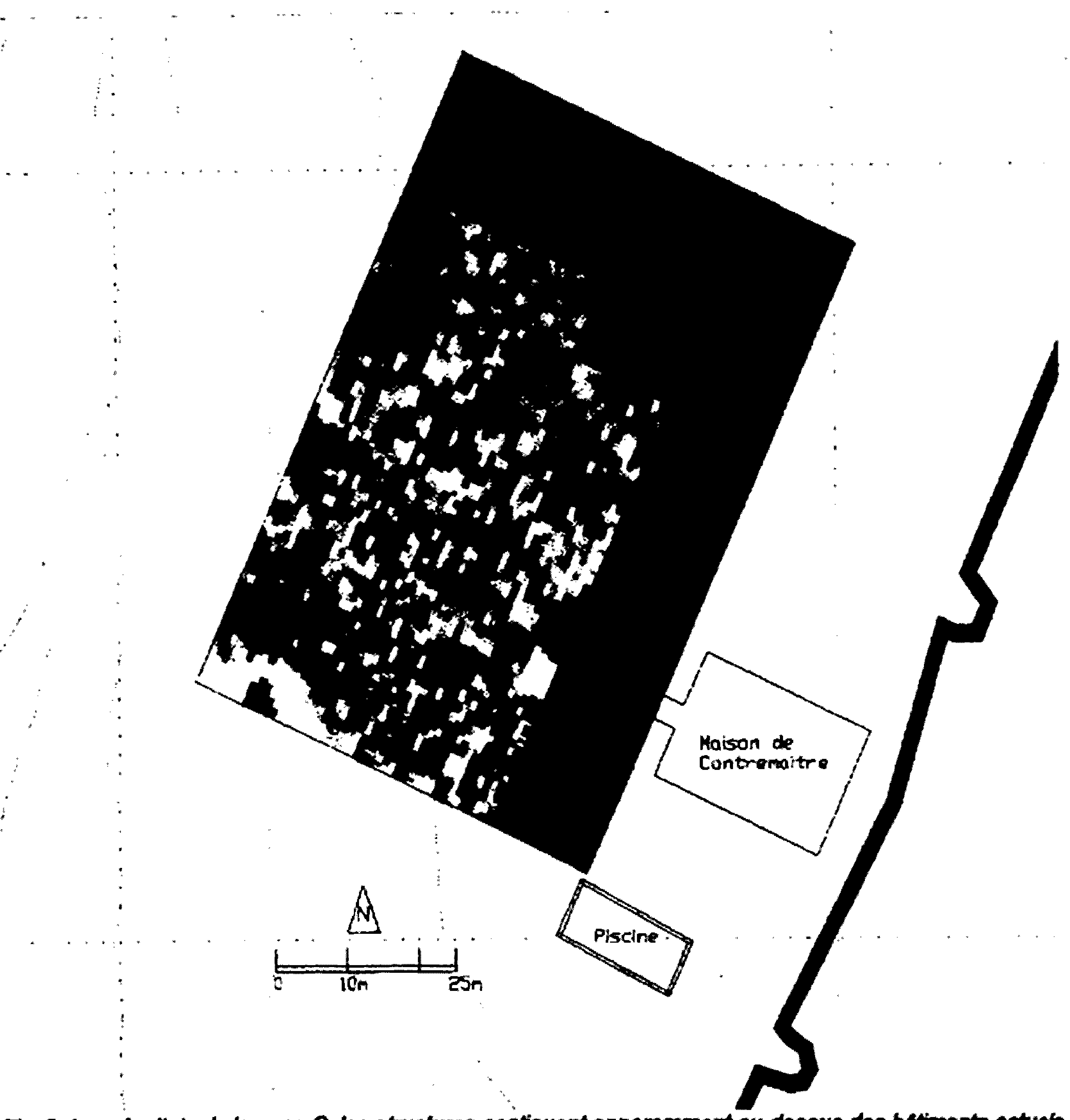


Fig. 9. Les résultats de la zone C: les structures continuent apparemment au-dessus des bâtiments actuels prospections ont été empêchées par la grande quantité de fer sur le terrain.

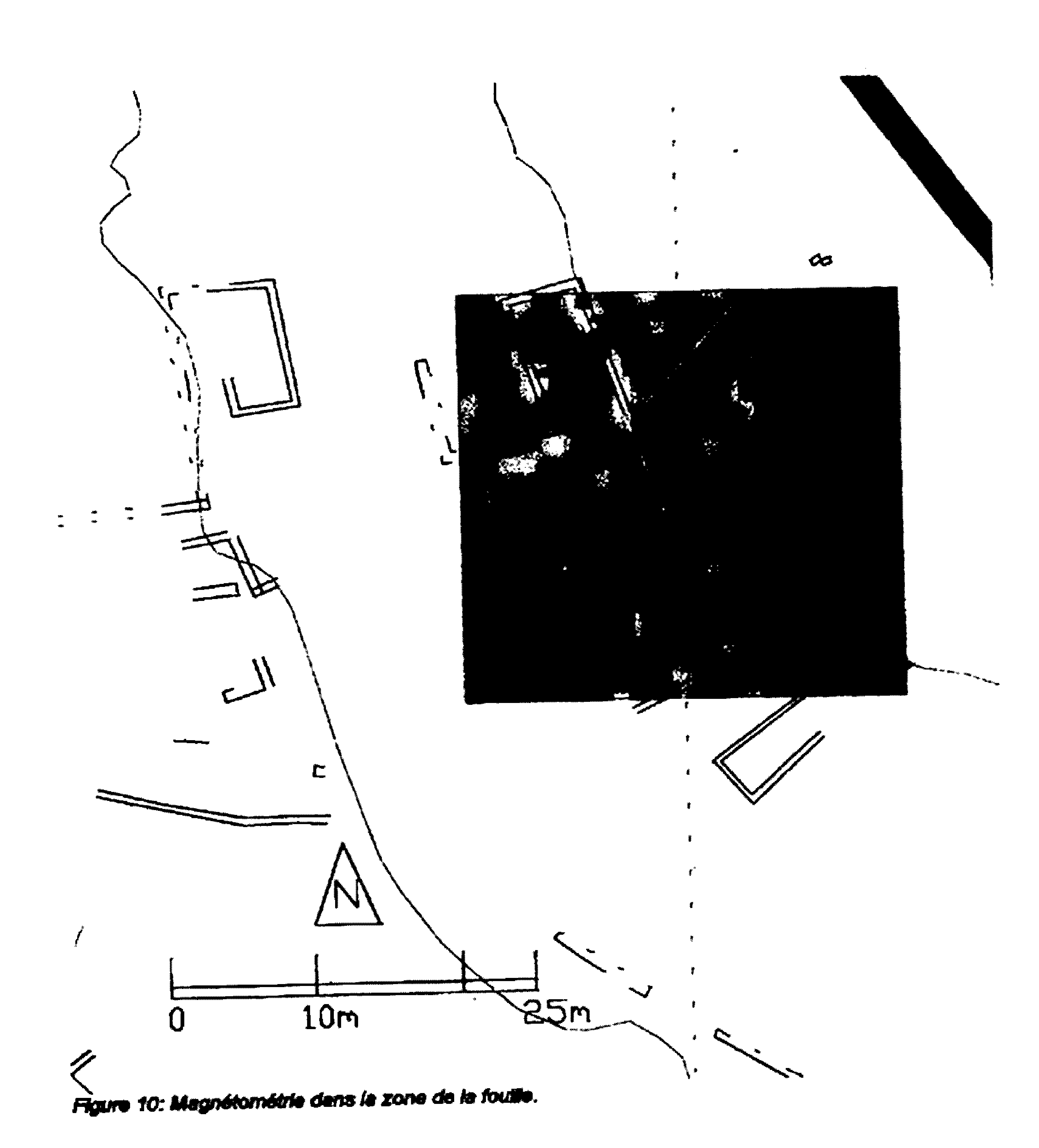


Figure 10: Magnétométrie dans la zone de la fouille.

حصيلة البحث الأثري في موقع بناصا

سيدي محمد العيوض*

يعتبر موقع بناصا الأثري من أهم مواقع سهل الغرب ، تمت مطابقته مـــع ضريح سيدي علي بوجنون ، وهو موقع يبعد عن مدينة مشـــرع بلقصـــيري ب 17 كلم ،وعن المحيط الأطلسي بحوالي 30 كلم كان مجالا لعدة مواسم حفر والتي أزالت التراب عن البنايات التي تقف شاهدة على هذه الفترة القديمة.

يمكن تقسيم هذا التاريخ إلى مراحل تتميز كل واحدة بخصـــــائص معينـــة، فالمرحلة الأولى تهم استكشاف الموقع من طرف لابي، وش.تيســـــو ،ولامــــارتينير وفيني، تليها مرحلة ثانية وهي مرحلة الحفريات المنظمة، رائدها هو الباحث توفنـــو، والمرحلة الثالثة ترأس الحفريات خلالها م أوزينا وأرموند لوكي، وقد أخذ البحـــــث في هذه المرحلة توجها مخالفا لما هومعهود، وأخيرا المرحلة الرابعة يمثلها نشـــــاط البعثة المغربية الفرنسية تحت إشراف حسن ليمان وإليان لونوار.

المرحلة الأولى

أورد شارل تيسو بأن لابي هو أول من اقترح مطابقة موقع بناصـــا مـــع ضريـــح سيدي علي بوجنون سنة 1844 (1) حيث قدم هذا الباحث وصفا مفصلا عن بقايا

* – أستاذ باحث بالمدرسة العليا للأساتذة الرباط

موقع بناصا الواقعة على الضفة الشرقية لسبو حيث يوطن في المكان الذي يشغله سيدي علي بوجنون، وقد أصبحت منذ منتصف القرن الأول مستوطنة تحت اسم بناصا فلانتينا(2).

تناثرت على أرضية الموقع بقايا من قرميد وأجر وكتل كبيرة من الأحجار أو الرخام من بينها قاعدة عمود تاجي عمود من النوع الكورنتي(3) ، وفي14 دجنبر 1871 عثر شارل تيسو على نقيشة أكدت هذه المطابقة، وفي سنة 1889 زار لامرتينير الذي كان متوجها إلى وليلي موقع بناصا وقد عثر على الجزء العلوي من النقيشة التي سبق وأن أشار إليها تيسو، كما شاهد تاجي العمود المشار إليهما سابقا(4). وفي سنة 1911 نظمت أول حفريات في بناصا من طرف القائد العسكري فيني نتج عنها استخراج رأس الربة جنون المعروض حاليا بالمتحف الأثري بالرباط، إضافة إلى عدد من القطع البرونزية، كما تم الكشف عن حمامات في الجهة التي افترض فيها تيسو أنها باب المدينة، إضافة إلى آثار بعض البنايات.

المرحلة الثانية

لكن الحفريات المنتظمة بالموقع لم تبدأ إلا سنة 1933 م، إذ أن الحفر كان على مرحلتين : المرحلة الأولى في فصل الربيع، أما المرحلة الثانية فقد تمت في فصل الخريف. وخلال هذا الموسم تم الكشف عن سور أرخ له ر.توفنو بفترة متأخرة(5) وفي وسط المساحة التي شملها التنقيب تم الكشف عن ساحة تحتفظ في جزء منها بتبليط من رخام، اعتبرت فروم المستوطنة(6). ومن أهم اللقى عدد من النقائش وقطع من تمثال مذهب, أما حفريات السنوات اللاحقة فقد مكنت من التعرف على الحي الغربي والشمال الغربي وعن بقايا حمامات عمومية، وقد يتعلق الأمر بالحمامات التي ستسمى حمامات الغرب الكبيرة، ومنزل كبير نعتبره منزل فينوس باعتماد الفسيفساء التي وجدت فيه، وبعد ذلك تم الاهتمام بالحي الذي بني على الجزء العلوي للربوة الجنوبية، حيث أماطت الحفريات اللثام في الجهة الغربية عن حمامات مهمة ربما يقصد بها حمامات الغرب الكبيرة. وفي الجهة الشمالية عن حي

تجاري بعدد من الدكاكين(7) من المحتمل أنها المحلات الموجودة جنوب أنسولا الماكلوم. كما عثر في أقصى الجهة الشمالية الغربية على بناية ذات تصميم لا يساير الاتجاه العام، وتم الكشف كذلك عن مؤسسة حمام القبة المنهارة(8) ، ويتعلق الأمر هنا بحمامات الشمال، وستتابع الحفريات في هذه الجهة حيث أن البناية التي كانت في مرحلة أولى سكنا تحولت في مرحلة لاحقة إلى سوق(9). تم العثور على مدفن في النقطة التي ينحرف عندها الكاردو ليتخذ اتجاها جنوبيا غربيا على عمق 0,80 م تحت المستوى الروماني.

على أن الحفريات التي تمت خلال سنة 1947 م، أو في السنة السابقة، شملت الكاردو على عمق 3م، ففي الجهة التي تكونت من تراكمات ناتجة عن انهيار مواد المنازل المجاورة تم حفر مقبرة إسلامية دون الوصول إلى المستوى الروماني.

ومن الملاحظات التي أبداها ر.توفنو هي عدم الكشف عن أي شارع ثانوي في هذه الجهة مما يوحي بأن هذه الشوارع قد تم إغلاقها في مرحلة لاحقة لا قامة ما يشبه أكواخا(10). إضافة إلى ذلك شملت الحفريات الحي الموجود غرب الماسلوم، خاصة الربوة الثانية وهو أمر كان يطرح صعوبات نظرا لتراكم التربة المنزلقة أو يحتمل أن تكون من جراء انهيار تراب تراكم بفعل مياه الأمطار. وقد أسفرت النتائج على التعرف على منزل كبير سيعرف فيما بعد باسم منزل فانتيوس، وأهم اللقى تتمثل في 38 قطعة فضية(11) ، ووراء هذا المنزل عثر على مسبح معزول قد يكون هو بداية التخلي عن حمامات الغرب الصغيرة.

أما في السنة الموالية فقد تم التعرف على منزل آخر(12) هو منزل الركائز الأربعة وإلى الجهة الغربية منه تم العثور على بنايات متواضعة بدون أسس، مبنية بمواد مختلفة وذات اتجاه منحرف عن اتجاه هذا المنزل(13).

وأثناء موسم 1947 تم الكشف نهائيا عن حمامات الغرب، حيث عثر في إحدى قاعاتها على فسيفساء تمثل تريتون وعدة حيوانات بحرية(14) وهذه الحمامات هي التي سميت فيما بعد بحمامات ذات الصباغة الحائطية، وانتقل بعد ذلك الحفر إلى

الجهة الشمالية حيث سبق العثور على رأس جنون. وسيتم خلال هذه المرحلة التعرف على أربعة منازل هي كالتالي : م1 — م2 — م3 — م4. ومن بين ملاحظات ر.توفنو على هذه المنازل هو أنه استعمل فيها موادا من مباني متقدمة مما يعكس مرحلة ثانية في بناء بعضها, وعلى عمق مترين تحت المستوى الروماني أشار ر.توفنو إلى طبقة أركيولوجية ويضاف إلى ذلك الاستبار الذي قام به لوكي تحت أرضية مبلطة لإحدى غرف هذه المنازل والذي مكن من التعرف على فرن فخار.

وفي سنة 1950 تم حفر آخر منزل في هذا الحي وهو منزل م 5 (M5) والقيام بمجموعة استبارات منها استبار على طول 40 م وعمق 7 م. ومن بين أهم نتائجه العثور على قدحين من الخزف العادي[15]. أما باقي الاستبارات فقد تمت في الكابتول إذ كشف بعضها تحت الأساسات عن فرني فخار[16].

أما حفريات 1951 فقد تركزت في الحي الغربي حيث تم التعرف على منزل كبير بفسيفساء ذات مرسوم، ويتعلق الأمر هنا باعتماد اللقى بمنزل يوبا الثاني الذهبي. كما أقيمت في هذه الجهة عدة استبارات كشفت عن أفران للفخار أو الجير، إلا أن ر.توفنو لا يعطي وصفا دقيقا للمستوى الذي توجد فيه، ومن أهم اللقى كذلك نقد ذهبي ليوبا الثاني وقطعتان من شهادتين عسكريتين.

وتستمر الحفريات في السنة الموالية على الضفة الغربية للكاردو وفي اتجاه جنوبي — غربي لتكشف عن مجموعة منازل واسعة، ولقى متنوعة : تمثال من الرخام لفينوس محتشمة وشهادة عسكرية[17] ، وربما يكون ر.توفنو قد قام بإتمام الكشف في هذه الجهة عن المنازل التي لم يصفها في كتابه حول بناصا :

THOUVENOT (R)*Une colonie romaine :Iulia valentia Banasa,* Paris,1941.

وبعد هذه السنة شملت الحفريات الحي الجنوبي لتتوالى بعد ذلك طيلة ثلاث سنوات 1953 و1954 و1955. ومكنت هذه الحفريات من الوقوف على تصميم بنايات هذه الجهة واتجاهها، هذه البنايات تتوفر على دكاكين تنفتح على دوكومانوس ثانوي،

كما أن عمليات الحفر أسفرت عن وجود طبقتين اعتبرتهما ر.توفنو رومانيتين استعملت جدران الطبقة السفلى كأساسات لبنايات الطبقة العليا(18).

ومن بين أهم اللقى التي وجدت خلال هذه المواسم الثلاثة(19) نقود بعض المدن الإغريقية، ونقود ليوبا الثاني، إضافة إلى نقود لأغسطس وأوائل أباطرة الرومان، ونقيشة عبارة عن إهداء معبد لسيبل. ومن الملاحظات العامة التي يمكن إبداؤها حول هذه المرحلة هي :

- توقف عمليات الحفر سنة 1955.

- قيام ر.توفنو بحفريات وساعده لوكي في الحفر وفي إعداد الوثائق، خصوصا تصاميم البنايات.

- تركيز الاهتمام خلال حفريات هذه المرحلة من تاريخ بناصا حول الكشف عن المعالم الأثرية الرومانية والتحف الفنية.

- استحالة تقديم ولو تاريخ تقريبي لكثير من اللقي التي عثر عليها أثناء عملية الحفر لكونها أفرغت من فرشتها الأركيولوجية.

ومع ذلك فإن ما يسجل بالنسبة لهذه المرحلة من تاريخ بناصا صدور تقارير وافية ومنتظمة. تواكب موسم الحفر حول نتائج هذه الحفريات والتي صدرت على الخصوص في دوريات :

BAM : Bulletin d'Archéologie Marocaine
BCTH : Bulletin du Comité des Travaux Historiques
CRAI : Comptes Rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres.
PSAM : Publication du Service des antiquités du Maroc.

كما تم الكشف خلال هذه المرحلة على كل معالم المدينة التي نعاينها اليوم.

المرحلة الثالثة :

هذه المرحلة يمثلها لوكي تحت إشراف م .أوزينا الذي كان يومها مدير مصلحة الآثار خلفا أخر في عمليات الحفر، حيث توجهت الحفريات إلى الاهتمام بالمراحل السابقة عن الوجود الروماني، وكذلك باعتماد ما يمكن أن نسميه اليوم بالمنهج الاستراتيغرافي واعتماد الفخار كعنصر تأريخ للمستويات التي سيتم الكشف عنها.

فحفريات سنة 1955 كشفت في الحي الجنوبي عن دوكومـــانوس عرضــه 4.50 م وعن منزلين أحدهما ذو ممر تنفتح عليه مجموعة غرف، عثر فيه على تمثال مـــن البرونز لجوبتر إضافة إلى بناية أخرى شمال هذا الدوكومانوس(20).

وقد صاحب هذه الاكتشافات القيام باســـتبارين وســط المســاحة ب (B) وشـــمال الدوكومانوس(21) على سمك 10.25 م، حيث تم الوقوف على ست مســـتويات. كمـــا وجد في هذا الحي عدد من الأفران ومحلات مبنية باللبن(22) وسيتم سنة 1956 القيام باستبار في وسط الموقع في محور الكاردو الرئيسي وجنوب ضريح ســيدي أحمــد العرج(23) لتؤكد الحفريات وجود المستويات الستة التي وجدت في الحي الجنوبـــي، حيث سيعتمد على الفخار للتأريخ لها.

إن ما يميز هذه المرحلة هو نشر المهتمين بالحفريات لتقارير ومعطيات للمقاطع مـع بعض اللقى، غير أن نتائج هذه الحفريات والتأويلات المقدمة في شــــأنها والتـــاريخ الذي يخصها لم يتم عرضه إلا في فترة متأخرة مع س جيرار(24) التي حـــاولت أن تقدم عملا كليا يجمع بين اللقى الأثرية والمقاطع الاســـتراتيغرافية بمـــا فـــي ذلــك الدراسة العددية لمختلف قطع الفخار المصبوغ في كل مستوى .

المرحلة الثالثة :

ابتداء من 1982 تكونت بعثة مغربية فرنسية ركزت على التحـــري فـــي مجـــال الغرب وبناصا ، وقد أسفرت النتائج عن الكشف عن عدد من المواقـــع(25) وخـــلال هذه المرحلة اتخذت الأبحاث إتجاها آخر ، حيث أنه ابتداءا من سنة 1990 تكونـــت بعثة مغربية فرنسية تحت إشراف حسن ليمان وإليان لونوار ،إذ انصـــب الاهتمـــام على دراسة الحمامات ذات الصباغة الحائطية رغم أن هذا المبنى قد تم التنقيب فيـــه من طرف ر.توفنو إلا أن تأريخه كان يطرح مشكلا فهذه الحمامات تمـــت إقامتـــها على مبنى قديم يعود لبداية القرن الأول قبل الميلاد، وقد واكب هذه العمليـــة القيـــام باستبار مكن من التعرف على جزء من السور المعروف في المساحة التي شـــملها التنقيب ، والذي تم بناؤه خلال منتصف القرن الثاني الميلادي(26) كما عرف الموقـع

بين سنتي 1992و1993 عملية جرد جيوفيزيائي بهدف تعيين حدود الموقـــع . وقـد أسفرت هذه العمليات عن انتشار البنايات خارج المجال المنقب فيه ســابقا ،إضافـة إلى برمجة عملية جرد فيزيائية أخرى سنة 1995.

إن ما يميز هذه المرحلة في البحث هو تعدد التخصصات :

-التنقيب وتأويل المعطيات

-الهندسة

-الجانب الفني الصباغة الحائطية

-الجرد الجيوفزيائي

وقد استغرقت هذه العمليات مدة من الزمن تقارب عشر سنوات ولا زالت نتائج هـذه الحفريات لم تظهر إلى الوجود.

الهوامش:

- (1) ROGET (R1), *Le Maroc chez les auteurs anciens*, Paris, 1924, P.40
- (2) TISSOT (CH), *Recherche sur la géographie comparée de la Maurétanie ,Tingitan Pqris 1878* P.277
- (3) *ID,Ibid.* P.279
- (4) THOUVENOT (R), *Une colonie romaine : ulia valentia Banasa,* Paris, 1941, P. XV.
- (5) *ID, Ibid,* P.XV. XVI.
- (6) CHATELAIN (L.) sur les travaux poursuivies au Maroc, dans *BCTH*, 1934 –1935, P.108.
- (7) THOUVENOT (R), Rapport sur l'activité du service des antiquités du Maroc 1945, dans *BCTH,* 1948. 1949, P.85. pendant l'année
- (8) ID, Ibid, P.403
- (9) ID., Rapport sur l'activité du service des antiqutés du Maroc pendant l'année 1945, dans *BCTH,* 1949,P.85
- (10) ID, Ibid, P.259
- (11) THOUVENOT (R), Rapport sur les travaux archéologiques effectués au Maroc en 1946, dans *BCTH,* 1946 – 1949, P.430 – 435.
- (12) ID., Rapport sur les travaux archéologiques effectués au Maroc en 1947, dans *BCTH,* 1946. 1949, P.430 – 439.

- (13) ID., Ibid, P.435
- (14) THOUVENOT (R), Rapport sur les travaux archéologiques effectués au Maroc en 1948, dans *BCTH* 1946 – 1949, P.634.
- (15) ID., Rapport en 1950 – 1952, dans *BCTH* 1959 – 1960, P.147
- (16) Id. Ibid.
- (17) THOUVENOT (R), Rapport sur l'activité du Service des antiquités du Maroc en 1951 dans *BCTH,* 1951 – 1952, P.155.
- (18) Id, Rapport sur l'activité de l'inspection des antiquités du Maroc pendant l'année 1953, dans *BCTH* 1954, P.61
- (19) ID. Ibid, P.53
- (20) EUZENNAT (M), Fouilles Opérées à Banasa en 1955 –56, P.232
- (21) ID, l'Archéologie Marocaine de 1955 – 57, dans *BAM,*2, 1957 P.203
- (22) ID.,Ibid, p.204.
- (23) ID.,Ibid.
- (24) GIRARD S, Banasa preromaine,un etat de la question, dans *Ant.afr.*,t.20, Paris,1984, p.38-93.
- (25) REBUFFAT-R-,Recherches sur le bassin du sebou , dans *C.R.A.I.,* 1986, p.633-661.
- (26) LENOIR-E-, Banasa :Un exemple de prospection geophysique , dans *l Africa romana* ,15- 18dicembre,1994, p.1067-1072.

قراءة في أسباب وظروف اليقظة المورية في العهد الوندالي المتأخر.

محمد اللبـــار*

تمهيـد:

شهد العهد الوندالي المتأخر في إفريقيا الشمالية عدة ثورات مورية عمـــت كل المنطقة على طول امتدادها الجغرافي ما بين الطرابلسية شرقا إلى موريطانيـــا الطنجية غربا. ثورات جاءت مساهمتها متميزة في إضعاف المملكـــة الونداليـــة طيلة عهد خلفاء جنسريق وتهييئها للسقوط على يـــد البـيزنطيين ســنة 533م. ثورات جاءت بعد أن عاشت هذه المملكة عصر ازدهار اقتصـــادي واســتقرار سياسي في عهد مؤسسها الملك جنسريق (429–477)، عصرا كان فيـــه للموريين كذلك دور متميز.

ترمي هذه المداخلة إلى إبراز الأسباب العميقة لتحول الموقف المورى مـــن المملكة الوندالية بعد وفاة جنسريق وتتبع ظروف هذا التحول مـــن موقـــف المؤيـــد المساند إلى موقف المعارض الثائر. هذه الأسباب والظــروف التـــي رغم اختلافـــها وتعددها تبقى متداخلة يصعب التمييز بينها لولا ما تقتضيه الضرورة المنهجية.

---

* – أستاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس فاس.

طبيعة العلاقات الوندالية المورية في عهد جنسريق

عرفت المملكة الوندالية أوجها على عهد الملك جنسريق الذي كان له الدور الأكبر والفضل المتميز في نشأتها بإفريقيا، وتطورها في انسجام مع حلفائها الموريين هناك، وصمودها في وجه كل الحملات الرومانية البيزنطية.

لم يدون المؤرخون القدامى أي هجوم أو ثورة مورية ضد الوندال طيلة عهد جنسريق ما بين سنتي 429 و477 م. بل أكثر من ذلك سجل بروكوبيوس تلك الهيبة التي كان يشعر بها الموريون إزاء قوة هذا الملك(1) ، كما أورد سيدوان أبولينير إشارة مفادها أن العديد من القبائل المورية كانت تهاب جنسريق وتحترمه بسبب رغد غناه وكثرة ثرواته الذهبية(2). هذه الثروات التي جمعها جنسريق من أطراف مختلفة من حوض البحر المتوسط بمساعدة هؤلاء الموريين أنفسهم، وقد أشركهم مع جنده في مختلف الحملات البحرية السنوية التي كان ينظمها منذ سنة 455م بعد وفاة الامبراطور فالنتينيانوس الثالث في كل ربيع ضد الأراضي الأمبراطورية(3) ، حتى إذا عاد إلى قرطاجة منتصرا غانما أعطى لكل ذي حق نصيبه بسخاء(4). فكان فعله ذلك دليلا على أن الاحترام بينه وبين القبائل المورية كان احتراما متبادلا مبنيا على تبادل المصالح.

وإذا كان بعض الباحثين يرون في هذه الحملات مجرد نزعات قرصنة وندالية لا هم لها إلا العودة بالمغانم والأسرى(5) ، فالراجح أنها كانت أسلوبا من أساليب دفاع جنسريق عن المكتسبات الوندالية بصفة عامة والإفريقية منها على الأقل بصفة خاصة، وأن الهدف منها هو إضعاف الإمبراطورية وجعلها دوما في وضعية الدفاع بمعنوية منهارة وصدها عن التفكير في اتخاذ المبادرة ضد المملكة الوندالية.بل أكثر من ذلك عملت هذه الحملات على توسيع رقعة المملكة الوندالية لتشمل في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط جزر البليار وسردينيا وكورسيكا منذ سنة 455م(6)وجزيرة صقلية منذ سنة 468(7).(أنظر الخريطة رقم 1).

هذا وقد ذكرت المصادر بعض الحملات الجنسريقية مؤكدة على مساهمة الموريين فيها، وخاصة منها حملته الشهيرة على روما سنة 455م(8) ، وحملاته ضد إيطاليا وصقلية وإيليريا والبيلوبونيز وبلاد اليونان والجزر المجاورة بعد سنة 455م(9). كما تطوع عرضا سيدوان أبولينير – وهو يتحدث عن حملة وندالية على سهل كمبانيا بوسط إيطاليا سنة 458م – ليصف لنا تكتيك الحملات البحرية الوندالية من جهة، وليبين نصيب مساهمة الموريين في إنجاحها من جهة أخرى. فقال ما معناه "إن السفن المهاجمة تكون مشحونة بالوندال والموريين، فإذا بلغت قصدها، نزل منها الموريون بخيلهم، وهاجموا على حين بغتة القرى والمدن، وأضرموا النيران في المنازل والأسواق، ونهبوا وسبوا في جو من الفوضى العارمة، مستغلين ما أصاب الضحايا من الخوف والهلع والفتنة. حتى إذا أثخنوا قفلوا راجعين إلى المرفأ حيث يجدون الوندال في انتظارهم، فيشحنون غنائمهم وأسراهم قبل الإقلاع من جديد في اتجاه قصد جديد"(10).

هذا وقد احتفظ لنا التاريخ بأسماء العديد من القبائل المورية التي تبادلت مع جنسريق الاحترام والمصلحة. فهذا سيدوان أبولينير في إشارته السالفة الذكر عن القبائل المورية التي كانت تهاب جنسريق، يعطي المثال بثمان قبائل(11): الجيتوليون(12) ، والنوميديون(13) ، والكرامانتيون(14) ، والأوطولول(15) والأرزوجيون(16) ، والمرامدة(17) ، والبسيليون(18) ، والنسمونيون(19). وهي قبائل كانت مواطن جلها أنذاك تقع خارج حدود مملكة جنسريق في أقصى اتساعها بإفريقيا بعد سنة 455م.

كما ذكر فكتور الكارطينيسي ملكا موريا، على صقع كابرا Capra، تعاقد مع الوندال على تزويدهم بفيلق عسكري قوامه ثلاثة آلاف موري، أرسلهم جنسريق إلى جزر البليار في مهمة حامية عسكرية مكلفة بحماية هذه الجزر وضبط الأمن بها وضمان استغلالها(20) ، وذلك بعد احتلالها مباشرة بعد وفاة فالنتينيانوس الثالث سنة 455 م(21).

والراجح أن فكتور دي فيتا تحدث عن هذا الملك نفسه وهو "يستقبل" فوق تراب مملكته، التي ذكرها بصيغة كابرا بيكطا Capra- Picta، بعض الكاثوليك الذين أمر جنسريق بنفيهم من قرطاج، مما يفسح المجال للاعتقاد أن علاقات جد وطيدة وقوية كانت تربط بين المملكتين وبين العاهلين، علاقات لم يفت فكتور دي فيتا أن يشير إليها وإلى عمقها ومتانتها ضمنيا بذكره اسم الملك الموري كابسور Capsur دون سائر أسماء الملوك الموريين الذين أشار إليهم في مؤلفه(22).

وفي محاولة لتوطين هذه المملكة، مملكة كابسور الموري، اجتهد كورتوا لترجيح مواطنها في أحواز مدينة قفصة التونسية(23) ، اعتمادا على نظرية نراها هشة بقيامها على أساس التلاعب بالألفاظ القديمة والحديثة ورصد تطورها من صيغة إلى أخرى دون أي سند تاريخي علمي مقنع من جهة، وبكون هذه المنطقة بالذات كانت مبدئيا داخل التراب الوندالي من جهة أخرى.

والبديل الذي نراه أقرب إلى الصواب هو اعتبار مواطن هذه المملكة مطابقة لمواطن قبائل الكابراريين Caprarienses (24) التي وطن الباحثون موقعها ما بين الأطلس الصحراوي(25) ومرتفعات الحضنة(26) ، على مشارف حدود المملكة الوندالية. (انظر الخريطة رقم 2).

كما تحدث بروكوبيوس عن الحامية المورية التي كانت في سردينيا إبان حكم الوندال لها وعن صلابة وقوف هذه الحامية في وجه النفوذ البيزنطي فيما بعد(27). والراجح أن يكون جنسريق قد أقام بجزيرة كورسيكا حامية عسكرية مورية على غرار ما فعل في البليار وسردينيا(28) ، بعد احتلال هذه الجزر كلها مباشرة إثر وفاة الأمبراطور فالنتينيانوس الثالث سنة 455م.

وهكذا تكون كل هذه الإشارات قد كشفت عن مدى عمق الصلات الرابطة بين جنسريق وبين هؤلاء الموريين الذين كانوا يشكلون فرقا عسكرية مساعدة ضمن بنية الجيش الوندالي أنذاك. كما أبرزت بعض أوجه مساهمة الموريين في

الدفاع عن مملكة جنسريق وفي توسيع هيمنتها على جزر البحر المتوسط، وتدعيم ركائزها كمملكة قوية قادرة على الصمود في وجه الرومان والبيزنطيين.

ومع كامل الأسف إن المصادر المكتوبة ـ التي وصلت إلينا ـ قد أهملت تفصيل الحديث عن الموريين المساندين لجنسريق من داخل الحدود الوندالية فتجاهلت أسماء قبائلهم أو ممالكهم ولم تعرف بشخصيات زعمائهم ولم تحدد مواطنهم، ولم تشر إلى مدى صلابة صلاتهم وعمق تواصلهم مع الوندال. ولا يستثنى من ذلك إلا ما يمكن أن يذكر عن قبائل الباكواط في موريطانيا الطنجية(29) وعن الملك ماستييس Masties في مملكة الحضنة(30).

الأوضاع المورية بعد جنسريق

كانت وفاة الملك جنسريق في مطلع سنة 477م إيذانا ببداية عهد جديد في تاريخ المملكة الوندالية وتاريخ علاقاتها ـ على وجه الخصوص ـ بالموريين والبيزنطيين على حد سواء. إذ جاءت هذه الوفاة بعد ظروف كان جنسريق قد نجح خلالها في خلق جو من الثقة المتبادلة بينه وبين الموريين(31) ، وبعد ظروف كان هذا الملك قد وقع خلالها معاهدتين سلميتين: واحدة مع القسطنطينية سنة 474م(32) وثانية مع روما في خريف سنة 476م(33). معاهدتان نصت بعض بنودهما، على الصلح والسلم الدائمين بين المملكة الوندالية من جهة وبين بلاط البيزنطيين وحكام روما الجدد من جهة ثانية، وعلى الاعتراف بجنسريق ملكا مستقلا على إفريقيا الشمالية من خليج سرت شرقا إلى المضيق غربا وعلى جزيرتي كورسيكا وسردينيا وأرخبيل البليار، كما نصت على عدم اللجوء إلى استعمال الأسلحة لحل المشاكل الطارئة(34). (أنظر الخريطة رقم 3). وهما المعاهدتان اللتان بموجبهما توقفت الغارات والحملات السنوية الوندالية ضد الممتلكات البيزنطية وأراضي روما في عموم حوض البحر الأبيض المتوسط. تلك الحملات التي كانت تنشطها منذ سنة 455م المساهمة المورية الفعالة والمتميزة من جهة، والتي كانت من جهة ثانية، تدر على خزينة جنسريق موارد كانت تدعم كيان المملكة الوندالية آنذاك

اقتصاديا وعسكريا، وتجعل العديد من القبائل المورية ــ من داخل المملكة الوندالية وخارجها، والتي كانت تأخذ نصيبها من تلك الموارد ــ تهاب هذا الملك وتحترمه، كما سبقت الإشارة إلى ذلك(35).

هذا والراجح أن توقف هذه الحملات بعد وفاة جنسريق ــ وبموجب هاتين المعاهدتين ــ كان له الوقع السيء على موارد الخزينة الوندالية من جهة، وعلى موقف هذه القبائل المورية من المملكة الوندالية من جهة ثانية. وهكذا وبخصوص انخفاض موارد الخزينة الوندالية، تحدث مالكوس عرضا عن العجز الذي أصبحت تعانيه هذه الخزينة بعد وفاة جنسريق، والذي لم يعد يسمح لها بتغطية نفقات الجيش والبحرية من جهة(36)، وتغطية نفقات الهدايا والعطايا للملوك والأمراء الموريين من جهة ثانية(37): مما سينعكس سلبا على قوة الملوك الوندال وعلى سياستهم إزاء أعدائهم بصفة عامة.

كما وجدت هذه القبائل المورية نفسها بعد سنة 477م ــ وقد انقطعت عنها الحملات وغنائمها ــ في وضعية مادية مزرية لم يألفها زعماؤها وأتباعهم طيلة عهد جنسريق ولم يتحملوها بسهولة في عهد خلفائه. فكان ذلك بدون شك من أسباب تفكك صلات المصلحة والاحترام التي كانت تربط بين هؤلاء الزعماء الموريين وبين الملوك الوندال ومن أسباب تبرم الموريين بصفة عامة عن الانقياد والطاعة لهؤلاء الملوك. (أنظر شجرة الملوك الوندال).

بل أكثر من ذلك وجد الموريون أنفسهم في وضعية عسكرية تسمح لهم بمقاومة الوندال والصمود في وجههم. ذلك أن مساهمة الموريين مع جنسريق في مختلف حملاته في حوض البحر الأبيض المتوسط ألهبت فيهم من جديد الجرأة في مواجهة الأعداء، وعلمتهم الكثير من الفنون العسكرية بصفة عامة. كما أحيت فيهم تلك الروح القتالية ودربتهم من جديد أحسن تدريب على حسن استغلال فنون الفروسية وخطط الكر والفر بصفة خاصة. تلك الروح وتلك الفنون وتلك الخطط التي وصفها بإعجاب بعض المؤرخين الأقدمين(38).

كما سهلت تلك المساهمة على زعماء هذه القبائل المورية عملية تجنيد العديد من الفرق والفيالق العسكرية، مثلما كان الحال أيام جنسريق(39) ، وجعلت هؤلاء الزعماء يتنبهون من جديد لتلك الخصال المتميزة التي يتمتع بها المقاتل الموري، من بنية بدنية قوية، ومن قدرة فائقة على سرعة الحركة والمناورة، ومن صلابة على تحمل مشاق المهام الحربية، كما سبق وأن أشار إلى ذلك كذلك العديد من المؤرخين الأقدمين(40).

التقاعس الوندالي في عهد خلفاء جنسريق

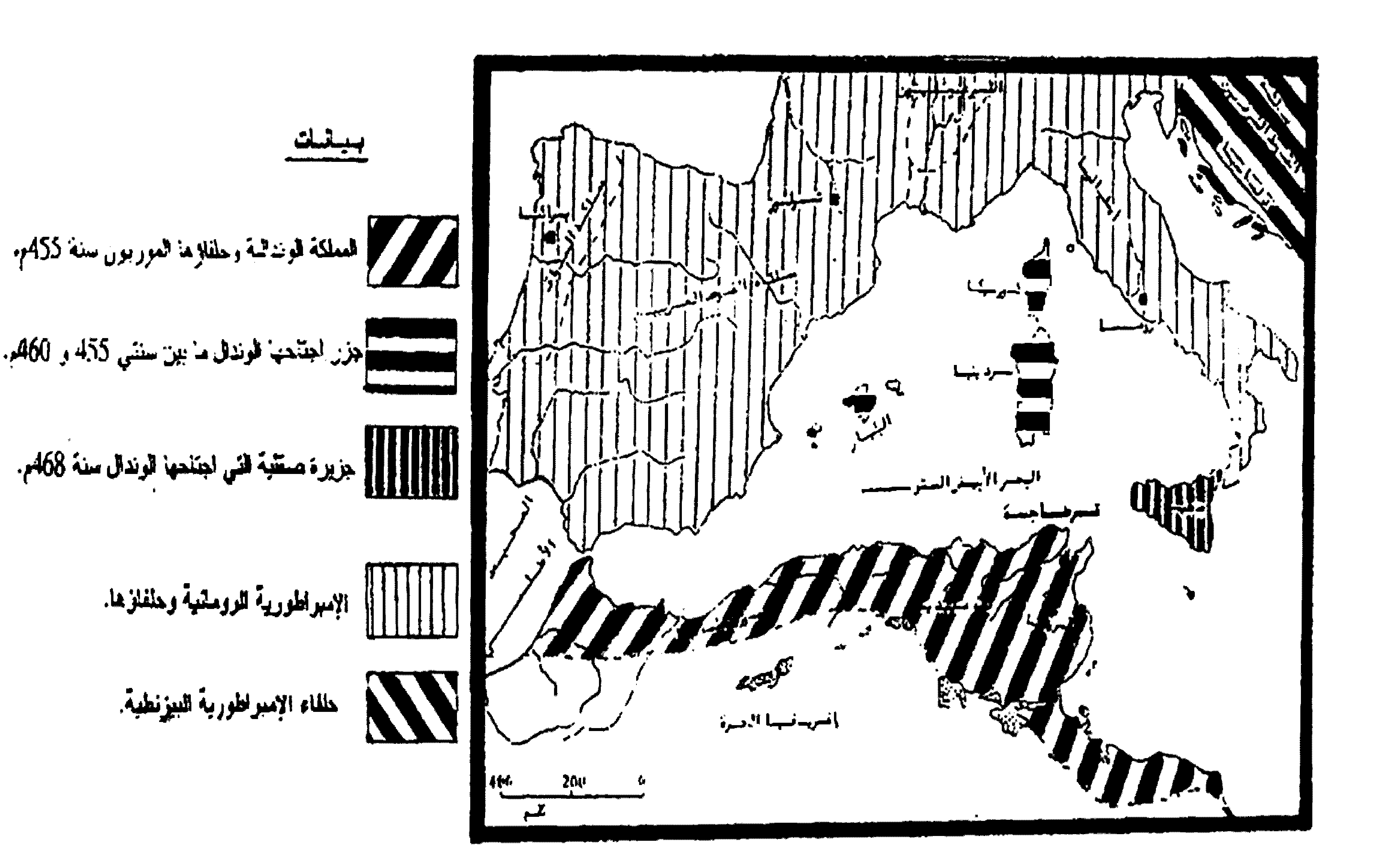
وجد الملوك الوندال – بعد جنسريق – أنفسهم أمام حركة مورية يقظة سيغتنم قادتها وزعماؤها كل فرصة سانحة لزعزعة ذلك الاستقرار الوندالي الذي ساد طيلة عهد جنسريق. علما أن هؤلاء الملوك لم يكونوا في مستوى سلفهم فضيعوا هيبة الملك بضعفهم، واستغرقوا في مترف البلاط باستهتارهم، مثبتين عجزهم عن إخماد ثورات الموريين وحركاتهم من جهة، وعن تسيير شؤون مملكتهم من جهة ثانية. فبليت بسيرتهم هذه مملكتهم، وانقرضت فيها فاعلية الاندفاع وجرأة التوسع، وأصبحت غايتهم الوحيدة هي المحافظة قدر الإمكان على ما ورثوه عن جنسريق ولا هم لهم إلا الدفاع عن هذا الميراث: فتبين بذلك أن شخص الملك عند الوندال – باعتباره أساس الحكم والسلطة بينهم – كان هو المحور الذي تقوم عليه المملكة، فقوتها من قوته، وضعفها من ضعفه.

انفرد المؤرخ بروكوبيوس بالحديث المباشر عن بعض أسباب هذا الضعف الذي أصاب الوندال وملوكهم بعد جنسريق، وأشار إلى ما كان يتمتع به هؤلاء من الحمامات اليومية والموائد الشهية، وما كانوا يتزينون به من الملابس الحريرية والحلي الذهبية. كما أشار إلى سكناهم في المغاني المخضرة، وإلى ملاهيهم التافهة في الفرجة والمسرح والسرك والصيد ومجالس الطرب والمجون(41). تلك الملاهي التافهة والمجالس الماجنة التي أخذت من الملوك – مع عناد بعضهم في اضطهاد

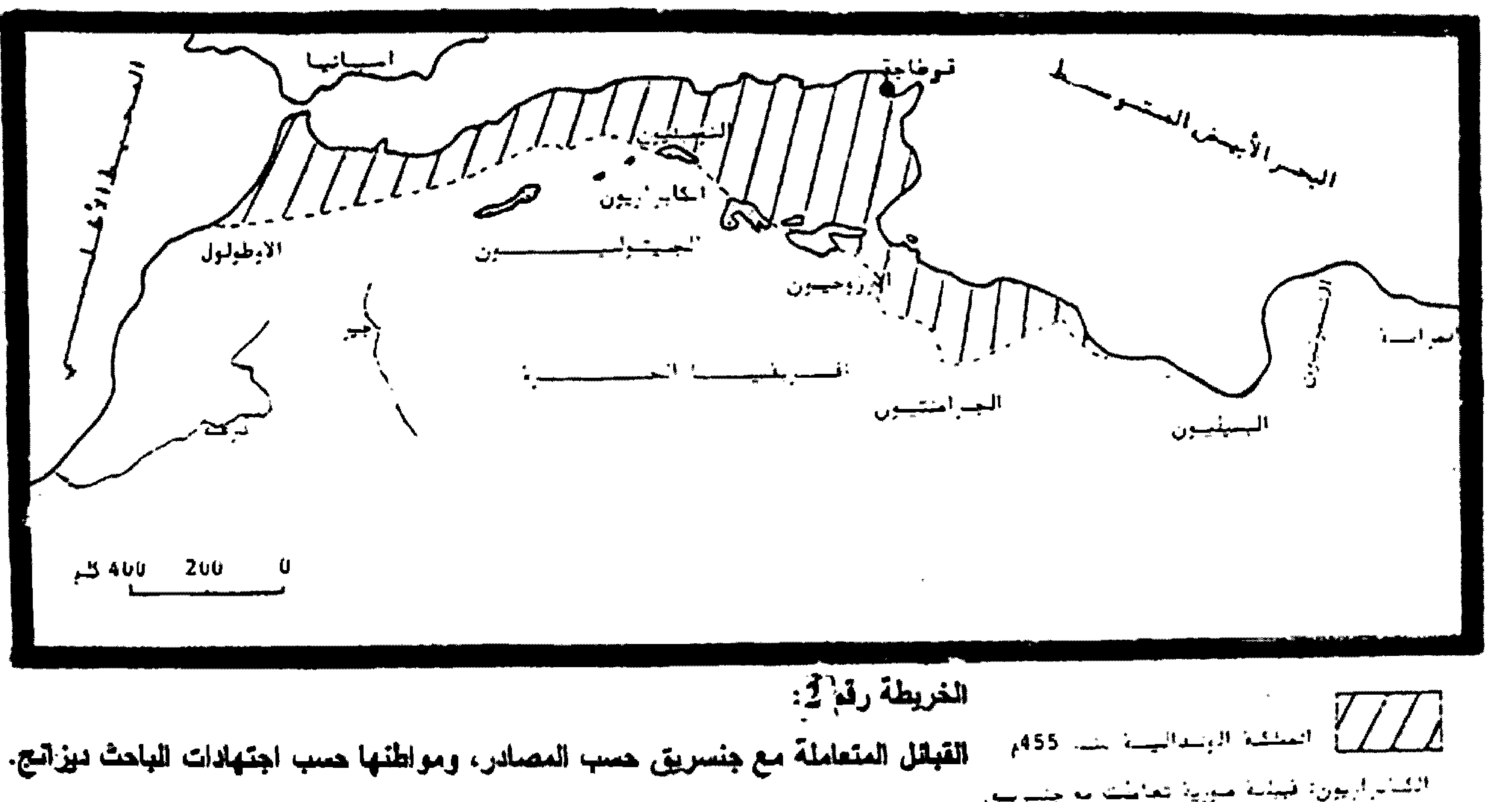
الكاثوليك(42) ــ كامل وقتهم، وشغلتهم عن جسام مهامهم، حتى أصاب مملكتهم من الانحلال والضعف ما سوف يزداد مع الأيام حدة وخطورة(43).

خاتمة:

بطبيعة الحال كانت كل هذه الأسباب والظروف حوافز شجعت الموريين على حمل السلاح طيلة العهد الوندالي المتأخر معبرين بذلك عن رفضهم لما آلت إليه أوضاعهم، من تحالف طوعي يراعي مصالح الطرفين الموري والوندالي في عهد جنسريق إلى سيطرة بالإكراه والقسر سلطها عليهم خلفاء جنسريق دون مراعاة المصالح الحيوية لهؤلاء الموريين. فنتج عن ذلك الخلل في طبيعة العلاقات بين الموريين والملوك الوندال ثورات مورية عمت منذ سنة 484م جبال الأوراس(44) ، وموريطانيا الطنجية(45) ، ومملكتي الحضنة(46) وألتابا(47) ، وولايتي الطرابلسية(48) وبيزاكيا(49) ، ثورات استمرت في مقاومتها للوندال إلى أن نزل البيزنطيون في إفريقيا سنة 533م.



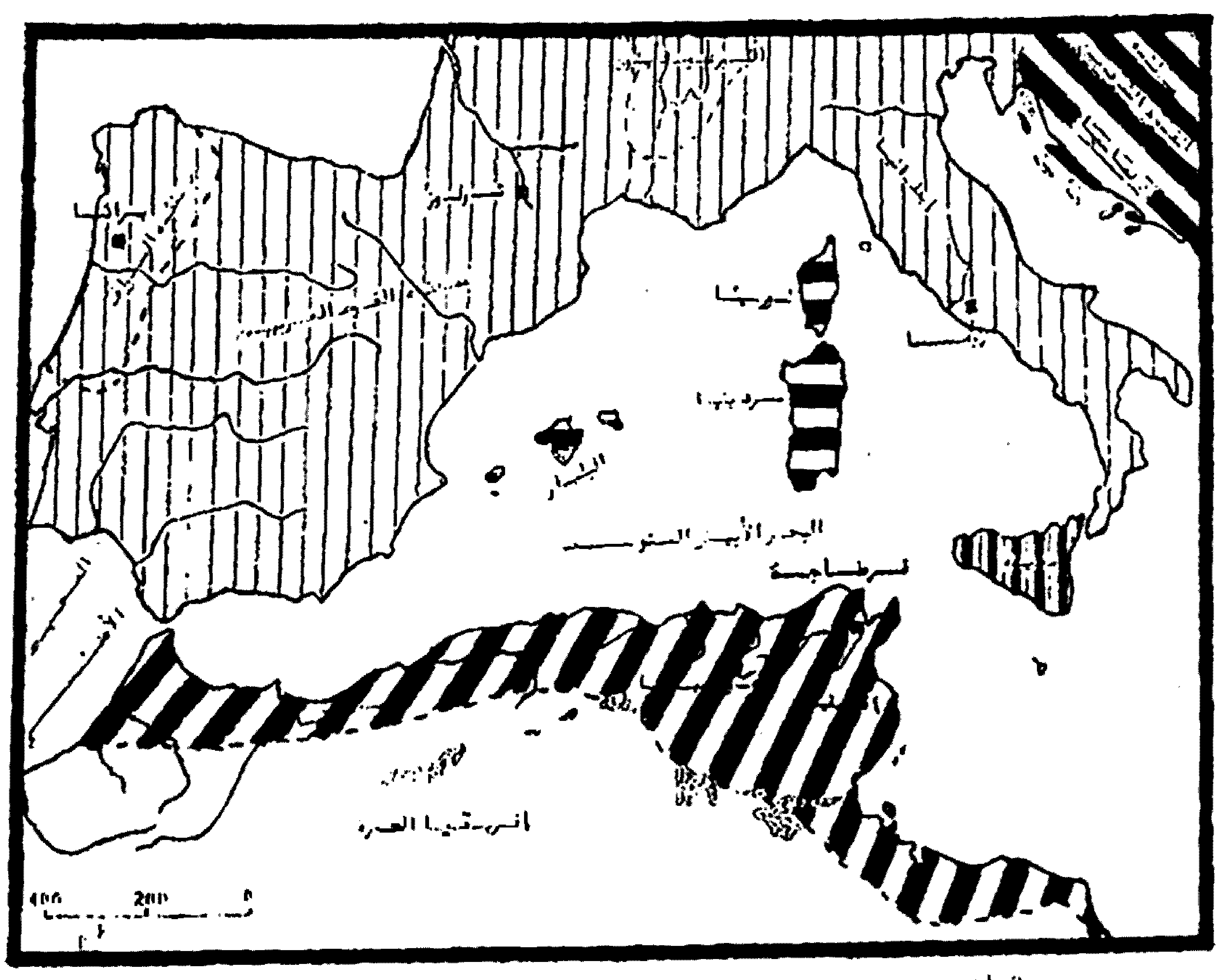
الخريطة رقم 1 : المملكة الوندالية بعد فشل حملة الأمبراطور ليون الأول الكبرى سنة 468م.



الخريطة رقم 2:

القبائل المتعاملة مع جنسريق حسب المصادر، ومواطنها حسب اجتهادات الباحث ديزانج.

الخريطة رقم 3: المملكة الوندالية عند وفاة جنسريق في مطلع سنة 477م.



بيانات

المملكة الوندالية وحلفاؤها المورين سنة 455 م.

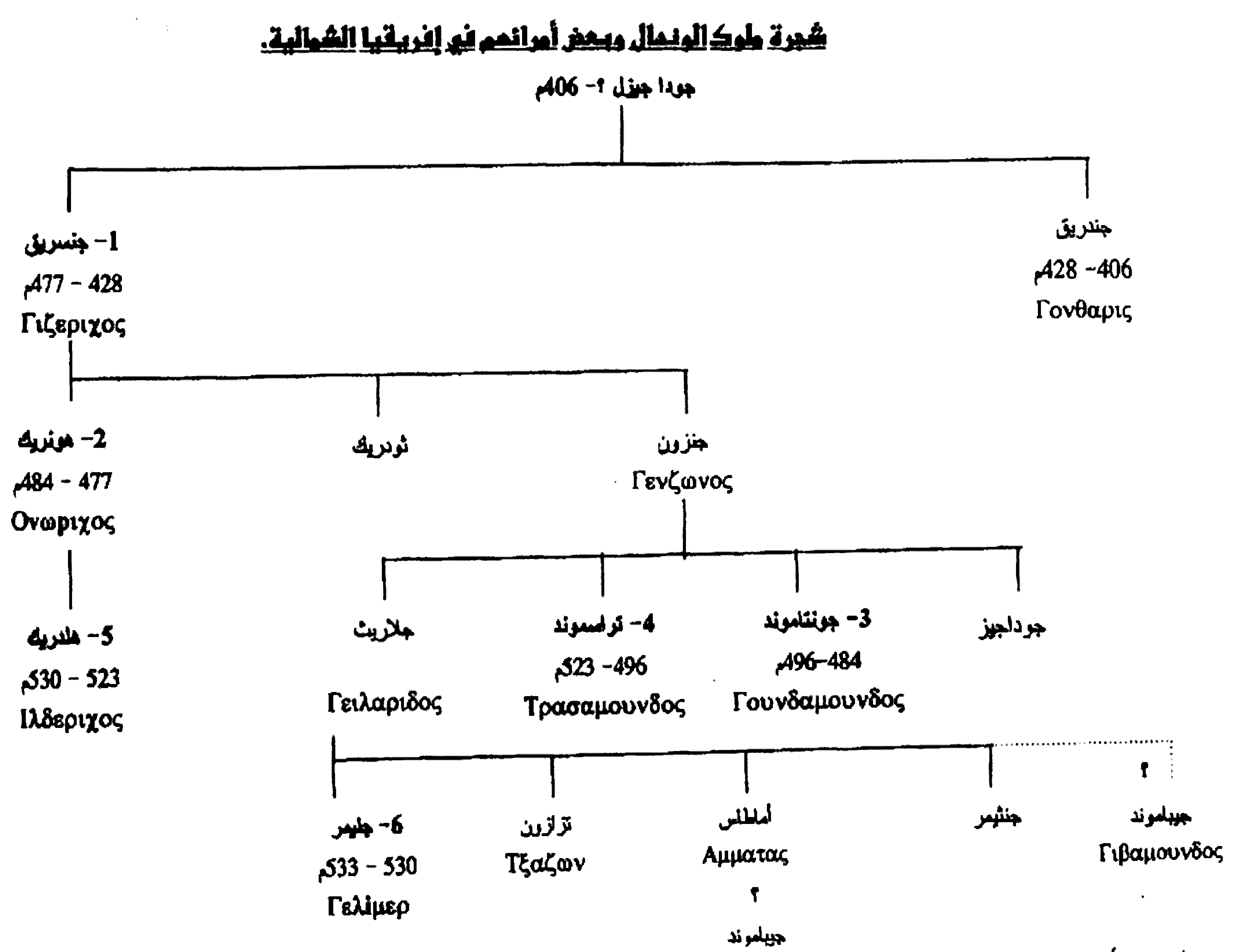
مناطق توسع فيها الوندال ما بين سنة 455 و 477م.

منطقة تنازل عنها الوندال للملك أودواكر مقابل جزية سنوية.

الإمبراطورية الرومانية وحلفاؤها.

حلفاء الإمبراطورية البيزنطية.

شجرة ملوك الوندال وبعض أمرائهم في إفريقيا الشمالية.



جيبامو ند ؟ : أخ جليمر حسب فكتورتونونا وإيزيدوروس، وابن أخ جليمر حسب بروكوبيوس.

الهوامش :

(1) - Procopius, Bellum Vandalorum, I, VIII, 1-2, éd. Dewing, London, New York, 1916, p: 72.

(2) - Sidoine Appollinaire, Carmen, V, 336-337, M.G.H.A.A., T. VIII, Berlin, 1888, pp: 195-196.

(3) - Procopius, B.V., I, V, 22-25, éd. Dewing, p: 52.

(4) - Victor de Vita, Historia Persecutionis Vandalicae, I, 25, M.G.H.A.A., T. III, 1, Berlin, 1879, p: 7.

(5) - Schmidt, Ludwig, Histoire des Vandales, Tr. Fr., Payot, Paris, 1953, p: 84.
- Courtois, Chr, Les Vandales et L'Afrique, Paris, 1955, p: 196.
- Musset, Lucien, Les invasions, T. I, Les vagues germaniques, Nouvelle Clio, P.U.F., 2ème ed., Paris, 1969, pp: 104 -105.

(6) - Victor de Vita, H.P.V., I, 13 , M.G.H.A.A., T. III, 1, p: 4.
- Stein, Histoire du Bas- empire, T. I, Paris, 1959, p: 379.

(7) - Courtois, V.A., op. cit., p: 192.

(8) - Victor de Vita, H.P.V., I, 25, M.G.H.A.A., T. III, 1, p: 7.

(9) - Procopius, B.V., I; V, 22-25, éd. Dewing, p: 52.

(10) - Sidoine Apollinaire, Carmen, V, 336-337, M.G.H.A.A., T. VIII, pp: 195-196.

(11) - IDEM, Ibid.

أنظر الخريطة رقم 2.

(12) - الجيتوليون Geatuli كانوا يعيشون في الهضاب العليا والأصقاع الصحراوية جنوب موريطانيا ونوميديا وبيزاكيا. Cagnat, R. L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs, Paris, 2é éd., 1913, p: 2.

(13) - النوميديون Numidae: من قبائل شرق موريطانيا وغرب نوميديا على الضفاف الشمالية لشط الحضنة. انظر Desanges, J., Catalogue des tribus africaines de l'antiquité classique à l'Ouest du Nil, Dakar, 1962, p: 66.

(14) - الكرامنتيون Garamantes كانوا عدة فروع أهمها الفرع الذي كان يقطن بفزان وكانت مدينة جرمة Grama عاصمته. انظر: Desanges, Catalogue, op. cit., p: 93.

(15) - الأوطولول Autololes: قبائل كانت تعيش إلى الجنوب من ليمس موريطانيا الطنجية على سواحل المحيط انظر IDEM, Ibid, pp: 208-211.

(16) - الارزوجيون Arzuges: قبائل كانت تعيش ما بين بيزاكيا والطرابلسية انظر: IDEM, Ibid, pp: 78-80

(17) - المرامدة Marmaridae: قبائل كانت تعيش ما بين مصر وبرقة على سواحل البحر المتوسط انظر IDEM, Ibid, p: 164.

(18) - البسيليون Psylli, Psullis: قبائل كانت تعيش على سواحل خليج سرت الكبرى. انظر IDEM, Ibid, pp: 155-156.

(19) - النسمونيون Nasamones: كانت مواطنهم في غرب برقة إلى الشرق من مواطن البسيليين. انظر IDEM, Ibid, pp: 152-153.

(20) - Victor Cartennensis, d'après Marcus, Histoire des Wandales., Paris, 1836, p: 221, n° 123.

(21) - Victor de Vita, H.P.V., I, 13, M.G.H.A.A., T. III, 1, p: 4.

(22) - IDEM, H.P.V., I, 35-38, Ibid, pp: 9-10.

(23) - Courtois, Victor de Vita et son Oeuvre, Etude Critique, Alger, 1954, p: 38.

(24) - Desanges, Catalogue, op. cit., pp: 49-50 et Carte p: 263.
- Capra en Latin veut dire chèvre: معزة.
- Capra-Picta en Latin veut dire chèvre peinte: صورة معزة.
- Capraru en Latin veut dire les chèvriers: أصحاب المعز.

- Caprarienses en Latin veut dire « de chèvre »: مربو المعز ، المعزيون.

(25) - Gsell. Observation sur la révolte de Firmus. R.S.A.C.. T. XXXVI. 1903. pp: 39.40

(26) - Courtois. V.A.. op. cit.. p: 120.

(27) - Procopius. B.V.. II. XIII. 41-45. éd. Dewing. pp: 324-326.

(28) - اللبار ، محمد، إفريقيا الوندالية بين الحملات البيزنطية والثورات المورية 429-534م، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ القديم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس، 1998 (مرقونة) ص: 123.

(29) - Procopius. B.V. II. X. 29. éd. Dewing. p: 290.

- Courtois. V.A. op. cit.. p: 97. اللبار ، مرجع سابق، ص: 211-213.

(30) - Victor de Vita. H.P.V.. II. 26-37. M.G.H.A.A. T. III. I. pp: 19-21.

- Victor Tunnuna. Chronica. a. 479/1. M.G.H.A.A. T. XI. p: 189. اللبار ، مرجع سابق، ص209-211.

(31) - انظر المبحث السابق: طبيعة العلاقات الوندالية المورية في عهد جنسريق.

(32) - Procopius. B.V.. I. VII. 26. éd. Dewing. p: 70.

(33) - Victor de Vita. H.P.V.. I. 14. M.G.H.A.A. T. III. I. p: 4.

(34) - اللبار ، مرجع سابق، ص166-172.

(35) - أنظر المبحث السابق: طبيعة العلاقات الوندالية المورية في عهد جنسريق.

(36) - Malchos. Fr.. 12. F.H.G.. T. IV. 1883. pp: 120-121. d'après Marcus. H.W.. op. cit.. p: 206.

- Leclercq. L'Afr. Chr. T. II. 2è éd. Paris. 1904. pp: 175-176./ Courtois. V.A.. op. cit.. p: 204.

(37) - Procopius. B.V.. I. XXV. 5-7. éd. Dewing. p: 200-202.

(38) - Strabon. XVII. 3. 7. d'après Raymond Roget. Le Maroc chez les auteurs anciens. Paris. 1924. p: 25.

- Ammianus Marcellinus. XXIX. 5. Tr. Fr. Moreau. R.H.C.M.. T. X. 1973. pp: 21-35.

(39) - انظر المبحث السابق: طبيعة العلاقات الوندالية المورية في عهد جنسريق.

(40) - سالوست، حرب يوغورطة، 17، ترجمة الدكتور محمد التازي سعود، فاس، 1981، ص: 106.

- Strabon. XVII. 3. 7. d'après Raymond Roget. le Maroc. op. cit.. p: 25.

- Procopius. B.V.. I. VIII. 15-29. éd. Dewing. pp: 76-82.

(41) -Procopius. B.V.. II. VI. 5-9. éd. Dewing. p: 256.

(42) - سلك الملوك الوندال منذ عهد جنسريق سياسة دينية متميزة إزاء الرعايا الكاثوليك في إفريقيا الوندالية، على اعتبار أن الوندال كانوا أريوسيين في مذهبهم وأن رجال الدين الكاثوليك هناك بالخصوص كانوا يشكلون رأس المعارضة السياسية محليا. أنظر : اللبار ، مرجع سابق، ص: 177-202.

(43) - Procopius. B.V.. I. XXIII. 19-21. éd. Dewing. p: 194 .

(44) - Procopius. B.V.. I. VIII. 5. éd. Dewing. p: 74. اللبار ، مرجع سابق ص: 204-208.

(45) - Procopius. B.V.. II. X. 29. éd. Dewing. p: 290.

- Courtois. V.A.. op. cit.. p: 97. المرجع السابق ص:211-213.

(46) - Victor de Vita. H.P.V.. II. 26-37. M.G.H.A.A. T. III. I. pp: 19-21.

- Victor Tunnuna. Chronica. a. 479/1. M.G.H.A.A. T. XI. p: 189. المرجع السابق، ص209-211.

(47) - المرجع السابق، ص: 213-215.

(48) - Procopius. B.V.. I. VIII. 15-29. éd. Dewing. pp: 76-82. المرجع السابق ص: 215-223.

(49) - Procopius. B.V.. I. IX. 2-3. éd. Dewing. p: 82.

- Corippus. Johannide. Chant III. Tr. Fr. de Jean Alix. Revue Tunisienne 1899. pp: 454-459. المرجع السابق، ص 223-229.

مساهمة في دراسة حالة السكان القدامى للمغرب خلال المرحلة الفينيقية

- دفناء مقابر ناحية طنجة نموذجا -

محمد رضوان العزيفي

منذ دراسة "ستيفان كسيل" (S. Gsell) للتاريخ القديم لشمال افريقيا(1) وجل الباحثين(2) يرون بأن أرض المغارب انتقلت نتيجة "عملية الاستيطان الفينيقي" من العصر النيوليتي إلى عصر الحديد، دون أن تعرف استعمال النحاس وتعدين البرونز كسائر الجيران المتوسطيين(3).

وفي هذا الاتجاه، واعتقادا منهم بانعدام وجود حضارة برونزية في شمال افريقيا على غرار ما وجد في اوروبا، بادر هؤلاء الباحثون إلى اعتبار أن الفينيقيين وجدوا عند قدومهم إلى سواحل المنطقة شعوبا متخلفة ما تزال تعيش في أحضان عصور ما قبل التاريخ(4).

فخلال المؤتمر الافريقاني الثاني لعصور ما قبل التاريخ المنعقد بالجزائر عام 1952 صرح "انطوان" (Antoine)، ومعه العديد من المتدخلين في هذا اللقاء، بأن القرطاجيين لم يجدوا في أرض المغرب سوى سكانا نيوليتيين يعيشون << في مفارقة تامة مع العالم المتوسطي القريب منهم... وبأن البونيقيين ثم الرومان أخذوا

---

* أستاذ باحث بكلية الآداب – سايس / فاس.

مكان هؤلاء النيوليتيين>>[5]. كما اعتبر "ارمان لوكي" (A. Luquet)، إثر الاستكشافات التي قام بها عن الآثار البونيقية في المغرب، << أن سكان الساحل الاطلنطي الذين لقيهم البونيقيون كانوا في مرحلة متخلفة>>[6] . بل نعت "جيروم كاركوبينو" (J. Carcopino) في كتابه "المغرب القديم" سكان العالم المحلي المجاور لليكسوس بأنهم << شبه متوحشين>>[7] . ويخلص "بيير سانتاس" (P. Cintas) إلى الاستنتاجات نفسها خلال استباراته الاركيولوجية التي قام بها في ناحية وهران بالجزائر مصرحا بأن << الاسيويين[8] لم يجدوا خلال زياراتهم الاولى لسواحل افريقيا الشمالية سوى أناسا متخلفين محافظين لمدة طويلة على عاداتهم المتوارثة بالرغم من التأثيرات المهمة التي جاء بها هؤلاء الزوار الجدد>>[9] .

فهل بهذه الصورة كانت حالة السكان القدامى للمغرب عند اتصالهم بالفينيقين باعتبارهم أول شعب متحضر يلج سواحلنا ؟ إنه التساؤل الذي سنحاول الاجابة عنه في هذه المقالة.

وقبل ذلك ينبغي الاشارة إلى أن المنطقة الوحيدة التي احتفظت لنا في المغرب كله بآثار أركيولوجية واضحة حول اتصال الشعبين الفينيقي والمحلي مثلتها ناحية طنجة، مما جعلني أعتمد عليها بالدرجة الاولى في هذه الدراسة. فقد انفرد اقليم فحص طنجة باحتوائه على مجموعة من المدافن تؤرخ بمرحلة تمتد من بداية القرن السابع قبل الميلاد، إلى أواسط القرن السادس قبل الميلاد. هذه المدافن تضم من جهة قبورا فينيقية محضة، ومن جهة ثانية تضم أعدادا كبيرة من القبور المحلية التي كانت تجاورها. بفضل مثاوي الاموات هذه، وبفضل المحتويات الكثيرة المكتشفة داخلها من حلي وأوان خزفية وغيرها من المواد الأثرية، كشفت لنا منطقة طنجة عن نموذج فريد من نوعه حول توافد الفينيقيين إلى المغرب، وحول حالة السكان الذين اتصلوا بهم، وحول نوعية العلاقات التي جمعت بينهما[10].

ماذا تمثل هذه المدافن من الناحية الاركيولوجية والتاريخية ؟ كيف مكنتنا دراستها ودراسة محتوياتها من التعرف على حالة سكان المنطقة عند اتصالهم

بالفينيقيين ؟ هل يمكن تطبيق هذه الحالة على جميع السكان القدامى للمغرب خلال نفس المرحلة التاريخية ؟ إنها الأسئلة التي تفرض نفسها لأول وهلة عند معالجة هذا الموضوع.

إن أول ملاحظة تلفت نظرنا عند معاينتنا لخريطة توزيع هذه المدافن(11)، أن منطقة طنجة عرفت ما لا يقل عن أربعة عشرة مقبرة. وكل مقبرة كانت تضم عددا كبيرا من القبور تراوح ما بين قبرين اثنين ومائة وسبعة قبور، إلى جانب بعض الاضرحة المبنية(12)؛ وبذلك بلغ المجموع العام لقبور هذه المدافن حوالي 459 قبر.

وإذا استثنينا قبر "رأس أشقار" الواضح المعالم الفينيقية، واستثنينا ضريح "المغوغة الصغيرة" ومقبرة "مرشان" اللذين يكتنفهما الغموض في شأن هويتهما الفينيقية، فإن المدافن الاحدى عشر المتبقية، التي تضم في مجموعها حوالي 343 قبر، لا علاقة لها بالقبر الفينيقي من حيث طريقة البناء. فمدافن "جبيلة" و "عين العسل" و "سيدي مصمودة" وغيرها من المدافن، لم تكن على غرار النماذج "الفينيقية المبنية" (Tombeaux bâttis) أو "المحفورة" جانبيا في التراب، أو "القبور على شكل آبار"(Tombes à puits)(13).

مدافن ناحية طنجة، التي اكتشفها عالم الآثار الفرنسي "ميشيل بونسيك" (M. Ponsich)(14) عام 1965، كانت عبارة عن حفر صغيرة على شكل صناديق شبيهة بقبور "الدولمن" التي وجدت في المنطقة خلال العصر الميكاليتي(15). وقد تميزت هذه الصناديق بصغر حجمها، إذ لم يكن يتعدى طولها في الغالب مترا وعشرين سنتيمترا، ولا يتجاوز عرضها نصف متر. هذه الاحجام فرضتها طقوس الدفن المتبعة، حيث كانت الجثث تدفن بوضعية مقرفصة أو مثنية على الطريقة الجنينية. وهي وضعية غريبة عن الطقوس الجنائزية للفينيقيين الذين كانوا يدفنون موتاهم مستلقين على ظهورهم مع وضع أيديهم فوق بطونهم(16).

من خلال تقنية هذه المدافن، ومن خلال الطقوس الجنائزية المستعملة، يبدو جليا أن هذه المنشآت لم تكن فينيقية الأصل(17)، بل منشآت شيدها محليوا المنطقة الذين

اتصلوا بالفينيقيين عن طريق التجارة،كما تؤكد ذلك الأعداد الهائلة من المواد الفينيقية المكتشفة داخلها(18). ولم تكن هذه المدافن فريدة من نوعها في شمال افريقيا(19)، إلا أنها كانت الوحيدة من نوعها في المغرب(20)، ممثلة بذلك النموذج الذي يمكن الاعتماد عليه لحد الآن لأخذ فكرة حول الحالة الحضارية للسكان القدامى للمغرب عند اتصالهم بالفينيقيين.

ومما يزكي الأصل المحلي لهذه المدافن أنها اكتشفت في نفس النقط التي عرفت تجمعات سكانية سابقة للعصر الفينيقي، التي كانت قد استقرت في المنطقة منذ عصور ما قبل التاريخ. فقد استقر الإنسان القديم في فحص طنجة منذ العصر الباليوليتي بالقرب من رأس أشقار داخل بعض المغارات(21) وخلال العصر النيوليتي نجد آثارا بشرية داخل الكهوف نفسها، مع ملاحظة ظهور لاول مرة مراكز سطحية تنتشر في كل ناحية طنجة. وهذا يدل على أن سكان المنطقة، الذين كانوا يزاولون نشاط القنص، بدأوا يتوغلون داخل الاراضي لمراقبة قنيصتهم على ضفاف البحيرات(22). إلا أنهم لم يصبحوا بعد مستقرين، لأن مساكنهم كانت عبارة عن ملاجئ تحت الصخور. لكنهم، بتنقلهم هذا، بدعوا يرسمون أولى شبكات المواصلات التي عرفتها ناحية طنجة.

وبعد عصر الحجارة المصقولة ستعرف المنطقة عصر المعادن، حيث ستظهر أولى القبور الميكاليتية التي زودتنا ببعض الخناجر البرونزية، كمقبرة المريس ومقبرة المرس، اللتين أكدتا على وجود عصر البرونز في المغرب(23)، الذي ظهر بشكل واضح في ناحية طنجة.

وتشاء الصدفة أن تتبع هذه المدافن المنتشرة هنا وهناك نفس الطرق المرسومة خلال العصر النيوليتي التي كانت مجاورة لضفاف البحيرات. وهذا يدل على أن سكان المنطقة أصبحوا يهتمون بداخل الاراضي، حيث تجمعوا فيها على شكل دواوير، وزاولوا نشاط الصيد والقنص، وربما الفلاحة وتربية الماشية.

وعند حلول العصر الفينيقي وجدنا قبورا جديدة تم تشييدها في نفس نقـــط المدافـن الميكاليتية[24]. وهذا ما لاحظه "بونسيك" في مقبرة عين دالية مثلا، التي لم تكن تبعـد عن المقبرة الميكاليتية التي عثر عليها "بوشي" (Buchet) إلا بحوالي مائتي متر[25]. وهذا يدل على أن هذه المدافن تمثل بقايا تجمعات سكانية محلية كانت موجودة فـــي المنطقة منذ أقدم العصور. هذه التجمعات يمكن أن نستشفها مــن خــلال تــأويلات بعض النصوص القديمة، حيث يمكن اعتبار أن مقبرة جبيلـــة هــي تجمــع مدينــة (Gutté) المذكورة في نص رحلة حنون[26]، ومقبرة عين دالية هي مدينة (Pontion) التي أشار إليها الرحالة الاغريقي "سكيلاكس" (Scylax)[27] ، ومقبرتي عين العســل ومصمودة وغيرهما هي المراكز التي زارها حنون عند اتجاهه شرقا بعــد اجتيــاز رأس اسبارتيل.

كيف كانت الوضعية الحضارية لسكان هذه التجمعات التي زارها الفينيقيون ؟ هــذا ما سنتعرض له فيما يلي :

وقبل توضيح ذلك لابد من التذكير أن جل المؤلفين المحدثين كــانوا يعتــبرون أن الفينيقيين وجدوا عند قدومهم إلى السواحل المغربية شعوبا متخلفة تعيش في عصــر ما قبل التاريخ. ومن هذا المنطلق، لما حاول "سانتاس" (Cintas) أن يحيط بناحيــة طنجة في "موجزه حول الاركيولوجيا البونيقية"، فإنه ركز بشكل مبالغ على قضيــة استمرارية العادات ماقبل ـــ التاريخية خلال العصر الفينيقي. فاعتبر مثــلا[28] أن جل الاواني الخزفية التي عرفتها المنطقة كانت مــن الأنــواع المقولبــة[29] ذات التأثير النيوليتي.

وبالطبع، نحن لا ننكر حفاظ سكان هذه المنطقة على تقاليدهم القديمة، لكــن ليــس بالشكل الذي يراه "سانتاس" أو غيره من المهتمين بالموضوع. ولتأكيد ذلك يكفينـا أن نذكر أن مقابر عين دالية وجبيلة ودار زهيرو وغيرها، لم تخلف ســوى نموذجــا واحدا من الاخزاف المقولبة من ستين آنية محلية كانت كلها مخروطة[30]. في حيـن كانت الاواني الاخرى إما مستوردة من البحر المتوسط الشرقي، أو مقلــدة لنمــاذج

فينيقية محضة. وهذا يدل على أن منطقة فحص طنجة كانت عند اتصالها بالفينيقيين(31) في مرحلة استغنائها عن المؤثرات النيوليتية، وبالتالي لا يمكن اعتبارها اعتمادا على أصحاب الآراء السالفة الذكر، كواحدة من جهات شمال إفريقيا ما قبل التاريخية.

ولفهم هذا التصور، ينبغي أن نومن بأن المغرب قد عرف المرحلة الانتقالية من عصر الحجارة إلى عصر المعادن بعد التأكيد على وجود عصر البرونز به. فمنذ أن أثبت "اندري جودان" (A. Jodin) في عام 1956 وجود عصر البرونز بالمغرب(32)، لا ينبغي أن نبقي على النظرية القائلة بوجود عهد نيوليتي متأخر معاصر للمرحلة الفينيقية. إن الخزف المقولب الذي وجده الفينيقيون بأعداد قليلة جدا في كل المناطق التي استقروا بها أو اتجروا معها، سواء في فحص طنجة كما رأينا أو في ليكسوس(33) أو في جزيرة الصويرة(34) أو في مركز سيدي عبد السلام(35) ، يدل على أنه كان يمثل آخر المنتوجات المحلية ذات الجذور النيوليتية، والتي كانت في طور الانقراض. هذه هي الوضعية الحقيقية التي كان عليها المغرب أو بعض جهاته قبل مجيء الفينيقيين، والتي بدون فهمها لا يمكن أن نلم بالحالة الخاصة التي عرفتها منطقة طنجة. ومما لا شك فيه أن هذه المنطقة مثلت أولى الجهات بالمغرب القديم التي خرجت من عصور ماقبل التاريخ، ودخلت مرحلة ما قبيل ــ التاريخ، ربما بدون تدخل الفينيقيين. وعندما قدم هؤلاء التجار الساميون(36) إلى المغرب بموجات كثيفة ابتداء من أوائل القرن السابع قبل الميلاد، أو ربما قبل ذلك(37) إما للاستقرار في مراكز فينيقية قديمة، أو لتأسيس محطات تجارية جديدة، أو فقط للقيام بالمقايضة مع الاهالي، فإنهم وجدوا في ناحية طنجة سكانا أقل تطورا منهم بالطبع(38) ، لكنهم كانوا قادرين على الدخول في علاقات مع الاجنبي، ومهيئين لممارسة التجارة(39). وجدوا مجموعة بشرية مسالمة ومثابرة متجمعة في نفس النقط التي كانت موجودة فيما قبل حيث كانت مرتبطة بأرضها لكنها كانت منفتحة على كل ما يأتيها من البحر.

هذه التجمعات عرفناها فقط من خلال مدافنها ؛ وطريقة بناء القبور تدل على أن السكان كانوا يتوفرون على مبادئ تقنية البناء، إذ كانوا يعرفون طريقة نحت البلاطات لتغطية ثوابتهم(40). غير أن ذلك لايعني أنهم كانوا على علم تام بتقنية البناء التي كانت معروفة في العديد من بلدان البحر الأبيض المتوسط الشرقي.

فهل نستطيع من خلال دراسة هذه المدافن ومحتوياتها أن نتعرف أكثر على الحالة الاقتصادية والاجتماعية للسكان ؟ وهي الحالة التي لفتت بدون شك نظر الفينيقيين، لدرجة جعلتهم يعتبرون سكان ناحية طنجة أهم زبون لهم على طول السواحل المغربية.

مما لا شك فيه أن أهم شيء يثير انتباهنا عندما نتمعن في خريطة توزيع هذه المدافن(41) ، هو اختيار مكان تجمع السكان، الذي أملته بدون شك الطبيعة السخية للارض الغنية بالمياه العذبة والمساعدة على الفلاحة. كما كان لاختيار تمركز هذه التجمعات في منطقة غير بعيدة عن البحيرات المجاورة وعن البحر القريب، دورا فعالا في إمداد السكان بالصيد وبالاسماك(42) . إلا أن الاهتمام الاقتصادي الجديد لهذه المجموعات الموجه أكثر نحو الحياة الفلاحية، جعلهم يبتعدون بعض الشيء عن ضفاف البحيرات التي ارتبطوا بها سابقا، لأن القنص لم يعد يمثل النشاط الرئيسي في حياتهم الاقتصادية. لذا نلاحظ أن اختيار مكان تجمعهم أصبح يهم مستويات طوبوغرافية أكثر ارتفاعا لتشييد مقابرهم، ومما لاشك فيه لتشييد مساكنهم أيضا(43). وهي الوضعية التي وجدت عليها مثلا مقبرتا عين دالية ودار زهيرو المشيدتان فوق تلال كتلة جبل ظهر زهيرو، والقريبتان من بحيرة تهدارت ومن الاراضي الفلاحية المجاورة لها. كما كانت مقبرة جبيلة ــ بالرغم من قربها من ساحل المحيط الاطلنطي ــ داخل أراض فلاحية، وفوق تل مرتفع بعض الشيء من بحيرة بوخالف القريبة من المقبرة.

والجدير بالملاحظة أيضا في هذا الموضوع أن هذه التجمعات لم تكن تعيش في عزلة تامة عن بعضها البعض، بل أصبحت الطرق التي تجمع بينها أكثر عددا مما

كانت عليه خلال المرحلة السابقة(44). ولعل أن استخدام الادوات الفلاحية واستعمال وسائل الزراعة كما سنرى،سيمكن السكان من الانتشار عبر الاقليم. فتمت تقوية طرق المواصلات التي كان أهم محور لها ينطلق من منطقة رأس أشقار ـ باعتبارها أقدم منطقة تجمع فيها السكان ـ ويمر عبر مقبرة جبيلة شرقا، ثم يحيط بكتلة ظهر زهيرو. وبذلك يمر هذا المحور الطرقي عبر القرى التي كانت موجودة في عين العسل وسيدي مصمودة وعين دالية ودار زهيرو وغيرها(45).

فما هي أهمية الفلاحة بالنسبة لسكان منطقة طنجة ؟

لا مجال للشك في كون الفينيقيين وجدوا في أقصى شمال غرب المغرب منذ بداية القرن السابع قبل الميلاد على أقل تقدير، سكانا يعرفون حياة الاستقرار ويعيشون من منتوجات أرضهم(46). وقد تأكد ذلك أركيولوجيا عند اكتشاف بعض المواد الفلاحية المكلسة داخل العديد من المقابر، وعند العثور على مجموعة من الادوات التي تستلزمها عملية الزراعة.

بفضل ذلك استطعنا أن نعلم مثلا أن سكان ناحية طنجة كانوا ينتجون القمح، الذي تم اكتشافه مكلسا في قبر رقم 30 (47) و 39 (48) بمقبرة عين دالية، وقبر رقم 64 (49) و 78 (50) بمقبرة جبيلة. كما أنتجوا الفول والزيتون، اللذين تم العثور عليهما مكلسين في قبر رقم 6 بمقبرة دار زهيرو(51) ؛ علاوة على الجلبان الذي وجد مكلسا كذلك في قبر رقم 76 بمقبرة جبيلة(52). وقد اكتشفت هذه المواد إما مشتتة داخل القبر أو مجتمعة في قعر بعض الاواني الفخارية.

إن العثور على هذه الانواع من المنتوجات الفلاحية يدل على أن السكان المحليين لم يكونوا يجهلون الفلاحة، أو أنهم كانوا يزاولون فقط نشاط الرعي وتربية الماشية، كما ورد عند المؤرخ الاغريقي "بوليبيوس" (Polybe) في وصفه لحالة سكان شمال افريقيا خلال القرن الثاني قبل الميلاد(53). بل أكدت هذه المكتشفات أن سكان المغرب القديم أوبعضهم كانوا يقومون بزراعة أرضهم إلى جانب تربية الماشية، حيث كانوا يستهلكون بعض الأطعمة الأساسية التي أنتجتها المجتمعات

الفلاحية الاولى كالخبز(54) ، علاوة على تناولهم لقطان مغنية كالجلبان والفول. كما يلمح العثور على حبات الزيتون المتكلس، إلى امكانية استخدام سكان ناحية طنجة لتقنية عصر الزيت منذ تلك العهود. ولا ينبغي أن نستغرب من ذلك، لأن المنطقة عرفت صيتا كبيرا في هذه المادة خلال العصور اللاحقة، بعد أن تم اكتشاف عدة معصرات تؤرخ أقدمها بالقرن الرابع قبل الميلاد(55).

وإذا كنا نتوفر على دلائل اركيولوجية عن وجود هذه المنتجات خلال العصر الفينيقي، فهذا لا يعني قطعا أنها مثلت المواد الفلاحية الوحيدة التي أنتجتها منطقة طنجة. فمما لا شك فيه أن السكان المحليين قد زرعوا محاصيل أخرى، يمكن أن نذكر منها على سبيل المثال العنب، انطلاقا من تأويلات طوبونيمية ترى في معنى رأس سبارتيل قديما ــ سواء على الصيغة الاغريقية (Ampelusia) أو الافريقية (Cottes) ــ ما معناه رأس الكروم(56).

وأي ما كان الحال، وسواء عرفت المنطقة محاصيل متنوعة، أو اقتصرت على إنتاج المواد الفلاحية التي تم اكتشاف آثار متكلسة عنها داخل القبور السالفة الذكر، يبدو أن زراعة الحبوب قد لعبت دورا أساسيا في تغذية أعداد لا بأس بها من السكان المتجمعين في هذا النطاق الضيق. وهذا ما تأكد أيضا من خلال محتويات قبورنا، التي زودتنا بجموعة من المناجل الحديدية، عثر عليها "بونسيك" في كل من مقبرة عين دالية وجبيلة(57) ، استخدمت لا ريب في عملية حصاد القمح. كما يتأكد ذلك أيضا اكتشاف محطب من حديد تم العثور عليه في قبر رقم 42 بمقبرة عين دالية على شكل صفيحة مسطحة يبلغ طولها عشر سنتيمترات(58). وهذا يدل على أن المغاربة القدامى كانوا على علم جيد بتقنيات زراعة الحبوب من عملية بذرها إلى حصادها. كما يدل من جهة أخرى على أن السكان أنفسهم كانوا على علم بصناعة تعدين الحديد لتحويله إلى أدوات فلاحية، مما يبرهن على أنهم لم يكونوا فحسب يعرفون عصر البرونز، بل عايشوا عصر الحديد أيضا منذ وقت مبكر(59).

ولا ريب أن اكتشاف هذه المنتجات وهذه الادوات الفلاحية في العديد من المقابر البعيدة عن بعضها البعض، يؤكد على أن النشاط الفلاحي لم يكن يقتصر خلال العصر الفينيقي على تجمع سكاني دون الآخر، بل كان يشمل المنطقة برمتها. وإذا كان العثور على هذه المواد يبدو أمرا عاديا بالنسبة لمقبرة عين دالية ودار زهيرو الموجودتين داخل الاراضي، فإننا نفاجأ بالعثور على المواد نفسها في مقبرة جبيلة القريبة من البحر. وهذا يدل على أن الفلاحة كانت تعتبر منذ القرن السابع قبل الميلاد على الأقل موردا أساسيا اعتمد عليه السكان، إلى جانب قيامهم بأنشطة اقتصادية أخرى كالصيد البحري لدى ساكنة مقبرة جبيلة(60) ، أو الصيد البحيري لدى ساكنة مقبرة عين دالية أو دار زهيرو(61).

غير أن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد، هو هل تعلم سكان فحص طنجة، وربما السكان القدامى للمغرب، الاساليب الزراعية من الفينيقيين(62- ، أم أنهم كانوا على علم بهذه الاساليب منذ العصر الميكاليتي ؟

إن الاجابة عن هذا التساؤل مرتبطة أساسا بمعرفة متى وصل الفينيقيون إلى المنطقة. فإذا كانت مرحلة القرن السابع قبل الميلاد تمثل بالنسبة للفينيقيين بداية الاتصالات مع الاهالي، فهذا يعني أن المحليين كانوا على علم بالتقنيات الفلاحية. ذلك أن هذا العهد كشف عن حالة تجمعات سكانية كانت مستقرة بالمنطقة منذ زمن بعيد. كما أبرز هذا العهد أيضا أن هذه التجمعات عرفت مرحلة متقدمة من ممارسة الحياة الفلاحية.

أما إذا كان الفينيقيون قد اتصلوا بالمنطقة قبل ذلك، أي خلال مرحلة توسعاتهم البحرية الاولى، كما تلمح إلى ذلك المصادر القديمة حيث تأسيس ليكسوس في القرن الثاني عشر قبل الميلاد(63) ، فمن المحتمل إما أن يكون الفينيقيون قد أدخلوا معهم التقنيات الفلاحية وبعض المنتوجات الزراعية لاول مرة، وإما أنهم ساعدوا السكان على تطوير استغلال أرض كانوا يعرفون خيراتها من قبل.

ومما يجعلنا نميل إلى ترجيح الطرح القائل بممارسة السكان القدامى للمغرب للحياة الفلاحية قبل مجيء الفينيقيين، هو اكتشاف "دو فايي" (De Wailly) لبعض الحبوب الصغيرة النصف المكلسة(64) في مركز كهف البارود بناحية بن سليمان في طبقة أركيولوجية سابقة للعصر الفينيقي(65). بل يرى "كامبس" (Camps)(66) بأن سكان شمال افريقيا ربما قاموا بزراعة القمح منذ العصر النيوليتي ؛ أي في نفس الوقت الذي قام بذلك أيضا معاصروهم المتوسطيون بكل من إسبانيا وفرنسا(67). وفي هذا المضمار نتوفر على بعض المستندات الاثرية حول وجود عصر نيوليتي فلاحي داخل الاراضي المغربية، بعد العثور على عدة أدوات من الحجارة المصقولة كانت تستعمل للفلاحة بسهل الحوز بناحية مراكش(68).

وكيفما كان الحال، فمما لا شك فيه أن سكان شمال غرب المغرب كانوا يقومون بنشاط فلاحي هام خلال القرن السابع قبل الميلاد والنصف الاول من القرن السادس قبل الميلاد، يمكننا تبعا لذلك أن نشبههم بالتجمعات الفلاحية التي عرفها الجنوب الإسباني خلال نفس المرحلة. وهي التجمعات السكانية التي تم التعرف عليها كذلك بفضل المدافن ذات التأثيرات الفينيقية التي اكتشفت في كل من كرمونة (Carmona)(69) و "ألمرية" (Almeria)(70).

وكان بديهيا أن ينعكس هذا النشاط الاقتصادي على الحياة الاجتماعية للسكان، حيث مكنهم ربما فائض انتاجهم الفلاحي من التكثيف من المعاملات التجارية مع الفينيقيين، ومن اقتناء أكثر ما يمكن اقتناؤه من أدوات البذخ الرفيعة التي كانت تحملها سفنهم المستديرة(71).

فهل نستطيع التعرف على الحالة الاجتماعية لسكان هذه المقابر ؟

من الصعب بمكان أن نخوض في تحليل اقتصادي ــ اجتماعي لمجموعة بشرية لا نعرف عنها سوى معلومات أثرية طفيفة، علاوة على ندرة في النصوص التاريخية التي تهم هذه المرحلة وتلك المنطقة بالذات. غير أن ذلك لا يمنعنا من

القيام ببعض الاجتهادات والافتراضات التي نتوخى من خلالها الإلمام أكثر بهذه التجمعات وبحالتهم عند اتصالهم بالفينيقيين.

فمما هو مؤكد أن سكان ناحية طنجة كانوا يعرفون حياة الاستقرار وليس حياة الترحال، الأمر الذي مكنهم طبعا من تشييد تلك المجموعة الكبيرة من المقابر. وهذا يعني أنهم كانوا متجمعين على شكل قرى أو دواوير، أو ربما على شكل مدن، إذا علمنا أن مفهوم المدينة قديما لا يعني دائما أنها كانت تشيد بمواد صلبة(72). فانعدام اكتشاف مبان حجرية بالمنطقة تعود إلى العصر الفينيقي، يجعلنا نعتقد أن مساكن الأهالي كانت ربما تشيد بالطين الممزوج بالقش أو بالتراب المدكوك كالنوالات الحالية. وفي هذا المضمار، إذا كانت المعلومات الواردة في رحلة "سكيلاكس" (Scylax) حول تجارة الفينيقيين مع أهل جزيرة "كرني" (جزيرة القرن)، يمكن تطبيقها على منطقتنا، فإن النص يبين أن الفينيقيين كانوا يتصلون بالسكان المحليين في "مدينة كبيرة"(73).

أما حول الحالة السياسية للسكان، فإننا لا نعرف عنها شيئا، بحيث لا نعلم هل كانوا منظمين تنظيما عشائريا أو قبائليا أو كانوا يعرفون نظام الدولة. كما لا نستطيع الالمام بنوعية العلاقات التي كانت تجمع أفراد القبيلة فيما بينهم. كما لا نعلم هل قيامهم بالمقايضة مع الفينيقيين كان فرديا، أم منظما وموجها من طرف شيخ القبيلة أو رئيسها أو "ملكها". ألم يذكر "سكيلاكس" في نفس المصدر السالف الذكر أن سكان "كرني" كان << ملكهم يعد أطول الناس من بينهم>> ؟(74).

ومن المظاهر الأخرى التي تعرفنا عليها بفضل العديد من المواد الاثرية المكتشفة داخل هذه المدافن، نذكر حالة التفاوتات الاجتماعية التي تم رصدها بين السكان. وذلك ليس فحسب على مستوى العناية التي حظيت بها طريقة تشييد بعض القبور وكذا شكل صيانتها، مما جعلها متميزة عن القبور الأخرى(75) ، بل أيضا على مستوى قيمة وجودة المواد الثمينة التي اكتشفت بداخلها. فعلى العموم كانت جل المدافن ذات المظهر الخارجي المثير للانتباه، تضم أنفس المواد، نذكر منها

بيض النعام(76) ، وبعض الحلي الفينيقية النادرة كالتمائم المصنوعة من عجين الزجاج ومن العاج(77) ، وأيضا قراميل الشعر.

فهل كان دفناء هذه القبور من ذوي النفوذ السياسي، أو يمثلون بعض أفراد عائلتهم ؟ أم تدل هذه المدافن الفخمة والغنية بالمواد النادرة على ظهور بعض الأثرياء الذين استطاعوا أن يغتنوا أكثر من الآخرين، وبالتالي تمكنوا من اقتناء ما لم يستطع أن يحصل عليه غيرهم من التجار الفينيقيين ؟(78)

وأي ما كان الحال، فإن هذه الحالة تدل على أن السكان القدامى لشمال غرب المغرب كانوا يعيشون حياة اجتماعية واقتصادية ليست بالمنعزلة عما يحدث في الساحة المتوسطية. بل كانوا في مستوى جيرانهم الأوروبيين الذين يستطيعون التمييز بين ما هو نفيس وغال ؛ خصوصا وأن اكتشاف بعض مواد التجارة الفينيقية النادرة في مقابر المنطقة وانعدامها من العديد من الجهات المتوسطية الأخرى يزكي هذه الحالة المتقدمة.

غير أنه يحق لنا أن نتساءل هل كان هذا الذوق فطريا لدى السكان إذ ذاك، أم أن اتصالهم بالفينيقيين هو الذي أدى إلى تهذيبه وصقله ؟ وفي هذا المضمار يمكن القول أنه إذا تأكد مثلا أن الطريقة الرائعة التي تمت بها زخرفة بيض النعام المكتشف في مقبرة عين دالية كانت من وحي محلي أصيل، فإن ذلك سيدل لامحالة على الذوق الفني الرفيع الذي كان يحضى به بعض أهل ناحية طنجة(79).

ونحن لا نستغرب من ذلك، لأن الذوق لايهذب ولا يصقل إلا بالاتصال والانفتاح على الآخر. ومن حسن الحظ أن المنطقة بحكم موقعها لم تكن منغلقة على نفسها، بل عرفت علاقة مستمرة مع الخارج وخصوصا مع أقرب جار إليها وهي شبه الجزيرة الايبيرية، مما جعل منها معبرا لكل التيارات الحضارية والثقافية التي تمر بمضيق جبل طارق الاستراتيجي.

فما هي أهمية موقع ناحية طنجة في علاقاتها بالخارج، وانعكاس ذلك على اهتمام الفينيقيين بالمنطقة وعلى حالة السكان الذين اتصلوا بهم ؟

إن العلاقات بين جنوب اسبانيا وبين ناحية طنجة قد أبرمت منذ عصور ماقبل التاريخ الغابرة(80) ، وذلك بحكم جوار المنطقتين، حيث يستطيع المرء مشاهدة أراضي الجهة المقابلة بالعين المجردة. وإذا كان سكان إيطاليا وصقلية قد استطاعوا اجتياز مضيق "مسينا" منذ العصر الباليوليتي، فمن المرجح أن يكون أهل فحص طنجة وسكان جنوب الأندلس قد حاولوا بدورهم عبور بوغاز مضيق جبل طارق منذ ذلك العهد، كما يرى "ليونيل بالوت" (L. Balout)(81).

وعندما حل العصر النيوليتي مع بداية جفاف الصحراء، وبدأت علاقات أرض المغارب تقل مع إفريقيا بدون أن تتقطع، أصبح يلاحظ أن التأثيرات المتوسطية بدأت تدب في بعض النطاقات الضيقة بالسواحل، لتحولها من منطقة افريقية إلى كيانات متوسطية(82). وتشاء الصدفة أن تمثل ناحية طنجة في أقصى شمال غرب افريقيا ـ إلى جانب شمال شرق تونس ـ إحدى هذه النطاقات المحظوظة(83) ، حيث قامت بربط علاقات مع اوروبا المتوسطية بصفة عامة ومع اسبانيا بصفة خاصة.

إن تسمية هذه الحقبة النيوليتة في ساحل شمال افريقيا وخصوصا في أقصى شمال غرب المغرب بالحقبة "الايبيرية ـ المورية"، لدليل على الوحدة الثقافية التي كانت تجمع بين المغرب والاندلس. اذاك سيتم تدعيم العلاقات البحرية بين الضفتين بشكل مهم، حيث أكد "الخزف الكارديومي" (Céramique cardiale)(84) المكتشف بأعداد هامة في ناحية رأس أشقار(85) وفي غار الاكحل قرب سبتة(86) وكهف تحت الغار قرب تطوان(87) ، على حدوث أولى المبادلات بين الجانبين. ورغم أن "كامبس" (Camps) يرى أن إفريقيا كانت هي المستفيدة من هذه المبادلات(88) ، إلا أنه لا ينبغي اعتبار اتجاهها دائما من الشمال نحو الجنوب خلال العصر النيوليتي. فالعديد من علماء الآثار الاسبان يعتقدون أن التأثيرات التي عرفتها شبه الجزيرة الايبيرية خلال هذا العصر كان مصدرها من افريقيا(89).

ومع حلول عصر البرونز، تلاحظ أيضا نفس الاستمرارية في العلاقات بين الطرفين، التي يؤكدها اكتشاف الخزف المعروف "بالاناء الجرسي الشكل" (Vase campaniforme)(90) الايبيري الاصل في أقصى شمال غرب المغرب وفي بعض المناطق من الساحل الاطلنطي(91).

وقبل وصول السفن الفينيقية للابحار في مياه رأس أشقار، يعتقد "كارسيا بييدو" (A. Garcia y Bellido)(92) أن سفن طرطسوس(93) كانت تقوم بربط ضفتي المضيق منذ مدة طويلة. فلا يعقل أن لا يكون الطرطسيون قد تعرفوا على السواحل الاطلنطية للمغرب، بعد أن أثبتت عدة دلائل أركيولوجية أنهم أقاموا علاقات تجارية مع ما كان يعرف في المصادر القديمة "بجزر القصدير"منذ عصر البرونز الاوروبي(94).

هذه هي الحالة التي كان عليها أقصى شمال غرب المغرب فيما يخص علاقاته الخارجية. فهو إذن كان مرتبطا بأرضيته الإفريقية، محافظا على طقوسه المتوارثة لكنه كان منفتحا على العالم الخارجي، متأثرا بما يحدث فيه، وفي نفس الوقت كان متطلعا إلى أقرب جار إليه.

وعندما قدم الفينيقيون إلى ناحية طنجة، لم يجدوا أناسا منعزلين ومهمشين عن التيارات الثقافية والتجارية التي عرفها العالم المتوسطي، بل وجدوا مجموعة بشرية تمثل ــ بفضل علاقاتها مع اسبانيا ــ كيانا لا يختلف كثيرا عن مجمل الكيانات المتوسطية الاخرى. هذه الوضعية ستمكن السكان من التعامل بانطلاق مع هذا العنصر الجديد الوافد عليهم، والذي مثل بالنسبة لهم تجربة متوسطية جديدة، تعتبر واحدة من التجارب التي مروا بها في علاقاتهم مع الخارج منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ.

وهكذا نلاحظ بعد استعراضنا لما سبق، أن الفكرة القائلة بأننا لا نعلم شيئا عن << العالم المحلي المعاصر للفينيقيين>> مكما ورد عند "ميكيل طراديل" (M. Tarradell) في كتابه "المغرب البونيقي"(95) ، أصبحت فكرة متجاوزة بعد قيامنا

بقراءة جديدة للمعثورات الاركيولوجية بناحية طنجة. فهي لم تسلط الاضواء فحسب على الحالة الاقتصادية والاجتماعية وعلى العلاقات الخارجية التي كان عليها سكان شمال غرب المغرب خلال العصر الفينيقي، بل زودتنا أيضا بتفاصيل دقيقة حول حياتهم اليومية التي كانت مجهولة تماما فيما سبق.

بل يعتقد "بونسيك" ـ وربما يكون مبالغا ـ أن الحضارة التي لقيها الفينيقيون في ناحية طنجة ، كانت في نفس مستوى التطور الذي كانت عليه حضارة "ترشيش ـ طرطسوس" الايبيرية الشهيرة(96) ، خصوصا وأن العلاقات بين شعبي ضفتي المضيق التي كانت نشيطة خلال العصر النيوليتي، أصبحت كثيفة خلال عصر البرونز والعهد الميكاليتي.

هذا التقارب والامتزاج بين العنصر الطرطيسي الاسباني وبين ليبيي شمال غرب المغرب، دفع بعالم الآثار الفرنسي "بيير سانتاس" (P. Cintas) إلى الاعتقاد بأن الشعبين كانا يمثلان حضارة واحدة، وأن تحديد بلاد "ترشيش" الواردة في المصادر القديمة لا يقتصر على جنوب اسبانيا، بل لعله يشمل شمال غرب المغرب أيضا(97). ومما يرجح ذلك أن الحضارة القروية المستقرة لسكان فحص طنجة ـ التي نجد عدة نماذج مماثلة لها في شمال افريقيا الى يومنا هذا ـ كانت مشابهة بشكل كبير لنمط العيش المتوسطي القديم الذي عرفته العديد من الحضارات. فهي لم تكن تختلف في شيء عن وضعية أجداد الايبيريين والهلينيين، حيث الاعتماد بالاساس على زراعة الحبوب وخصوصا الشعير الصلب، إلى جانب تربية الماشية الصغيرة(98).

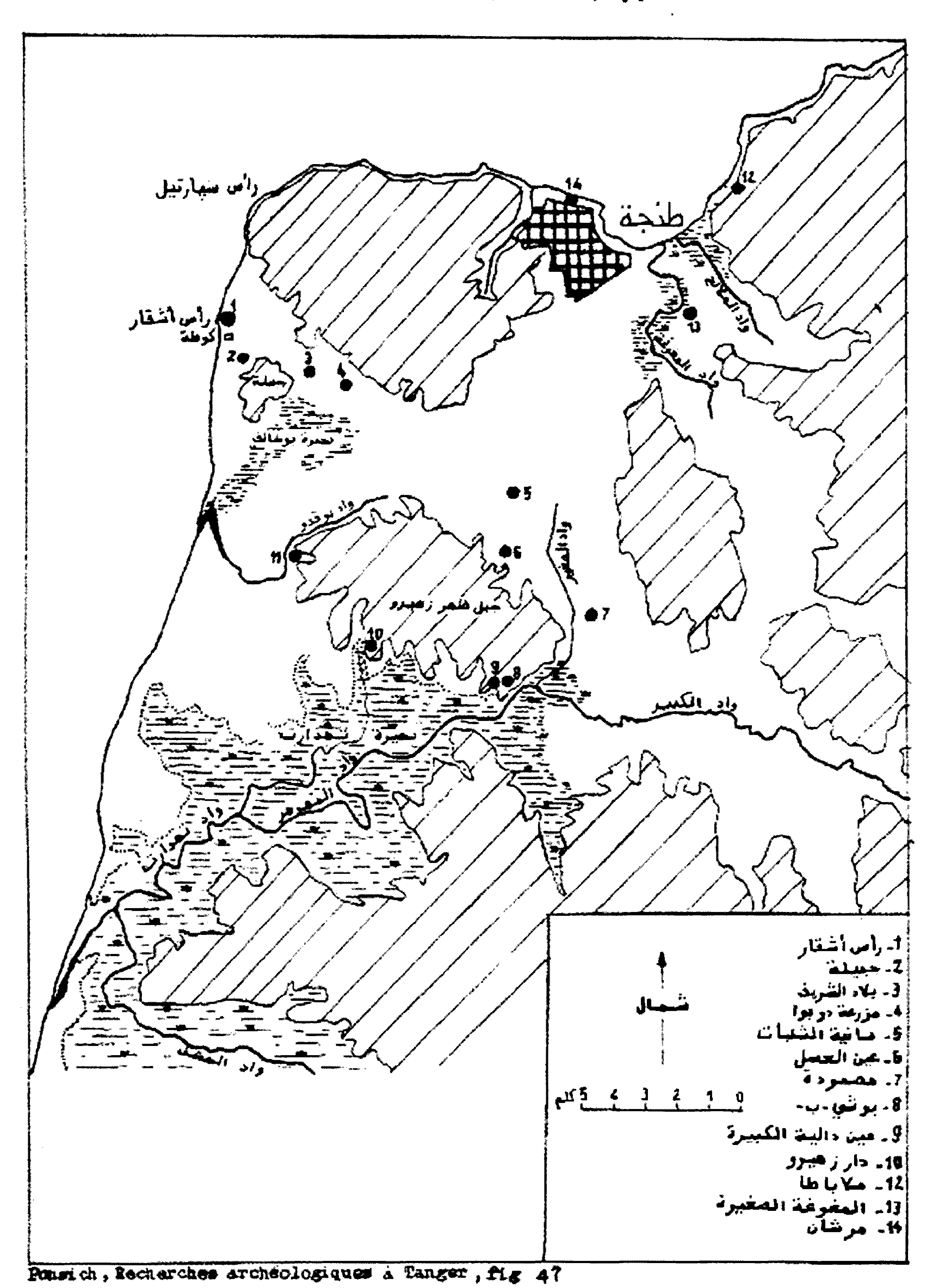
ومما لاشك فيه أن الحالة التي كان عليها السكان القدامى للمغرب ـ أو بعضهم ـ عند اتصالهم بالفينيقيين، سوف يتحدث عنها "سكيلاكس"(99) في نص رحلته. ألا يمكن أن نرى في هؤلاء السكان الذين يقول عنهم الرحالة الإغريقي بأنهم يأكلون اللحم ويشربون اللبن ويزرعون العنب لاستخراج الخمر وبيعه للفينيقيين(100)، إحدى المجموعات المستقرة التي كانت تعيش على الفلاحة في شمال غرب المغرب ؟

وكيفما كان الحال، وأي ما كان موقع هؤلاء السكان، فإن هذه المعلومات تلمح إلى أن المؤلفين الإغريق كانوا على علم بحالة سكان المغرب القديم خلال العصر الفينيقي. ولا ريب أن هذه الأخبار كانت تصلهم عن طريق الفينيقيين الذين اتصلوا بهؤلاء السكان وتعرفوا عليهم. ولعلهم أعجبوا بهم، فنشروا أخبارهم وأحوالهم التي وصلت إلى المؤرخين والشعراء الاغريق. فحيكت حولهم الاساطير ونسجت الخرافات التي جعلت منطقة أقصى شمال غرب المغرب مسرحا خصبا لها، حيث تحددت فيها أسطورة "هرقل" في صراعه مع "أنطيوس"، وأسطورة العملاق "أطلس" الذي يحمل العالم فوق عنقه، وأسطورة حدائق "الهسبيرديس" (Hésperidès)(101).

بقي أن نتساءل في الختام، هل يمكن تطبيق هذه الحالة الفريدة من نوعها على السواحل المغربية كلها،أم أنها وضعية خاصة بناحية طنجة، التي لها من المؤهلات ما يجعلها تحظى وحدها دون غيرها من المناطق الاخرى بهذه الظاهرة ؟

في الحقيقة لا نستطيع أن نجزم بكل دقة في هذا الموضوع، ما دام المغرب يحتاج مستقبلا إلى معاول المنقبين للبحث عن خباياه، خصوصا في بعض المناطق التي اتصلت بالفينيقيين كحوض اللكوس ووادي أبي رقراق وناحية الصويرة، وغيرها من المناطق. وفي انتظار ذلك، لا نكون مبالغين إذا اعتبرنا أن فحص طنجة ــ بمدافنه الفينيقية والمحلية المؤرخة بالقرن السابع قبل الميلاد والنصف الاول من القرن السادس قبل الميلاد ــ مكننا من الاطلاع على صورة تقريبية حول حالة السكان القدامى للمغرب عند اتصالهم بالفينيقيين.

لوحة رقم : 1 : توزيع مقابر العصر الفنيقي في ناحية طنجة



Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger, fig 47

لوحة رقم : 2 : انواع القبور المحلية في ناحية طنجة حسب تصنيف پونسيك

nsion, Recherches archéol. à Tanger, fig 26. 27. 28. 30. 31. 32, Idem, Nécropoles Phéniciennes, fig 34

لوحة رقم : 11 : الحلي والأدوات الجنائزية المحلية في مقابر ناحية طنجة

المقابر	الحلي التي توضع في المعصد والعرقوب والأصبع وتعلق على الصدور: الأساور والخلاخيل (برونز)	الخواتم (برونز)	القلادات (فضة)	القلادات (برونز)	مكونات العقود المحلية: الجواهر المصنوعة من قشرة بيض النعام (عدد الحلقات)	الجواهر المصنوعة من قشرة بيض النعام (عدد العقود)	الأصداف: نوع سيبريا (عدد الحبات)	نوع سيبريا (عدد العقود)	نوع كارديوم (عدد الحبات)	نوع كارديوم (عدد العقود)	نوع موركس (عدد الحبات)	نوع موركس (عدد العقود)	الأدوات الجنائزية ذات الصبغة العقائدية: بيض النعام	الأدوات الحديدية: المناجل	السكاكين	رؤوس الرماح
رأس أشقار													1		2	
جبيلة	17	19	2	2	190	5	306	7	17	2	11	1	8	4	1	
عين دالية	42	19	1	1	24	2	117	12	6	1			5	3	5	3
دار زهيرو	2				14	1	2	؟	1	؟						
بوشي – ب		1					1+	1					1			
مرشاو																
أشكال بعض الحلي والأدوات المحلية					218	6							15			

لوحة رقم : 4 : الحلي الفينيقية في مقابر ناحية خنشة

433 حلية + 240 جوهرة مصنوعة من عجين الزجاج

المقابر			المادة	عين تكار	جبيلة	عين دالية	دار زهيرو	بوحجي	مرتان	شكل الحلية	المجموع
مكونات العقود	ذات الطابع الوقائي	المخروم	برونز		2						2
		الجرسات	برونز		1						1
		التمائم	عجين زجاج ورخام		1	1			1		3
	ذات الغاية التجميلية: مكونات العقود المنضدة	الحليقات الثلاثة الملتحمة	فضة		1	1					2
		الاسطوانات	فضة		2		1				3
		المنحنيات	فضة		14	11					25
	الجواهر المصنوعة من عجين الزجاج		عدد العقود		9 +	8	1				18
			عدد الحبات		115 +	55 +	40				[illegible]
ترامبيل الشعر			برونز		4	3					7
الحلي التي تثبت في الأذن والأنف وترتدى في الأصابع وفرق الشعر	الأختام المطبوعة	ذات الفص المتحرك	فضة		2	1					3
		ذات الفص الثابت	فضة	1	2						3
	خزائم الأنف		برونز		1	1					2
			ذهب		2		1				3
			فضة		7	4					11
	حلقات الأذن	حلقات الأذن البرونزية المطلية على شكل الهلال	برونز		3						3
		الحلقات الحمية	ذهب	1					1		2
		حلقات على شكل حية ملتوية	فضة		4	2					6
		الأهلة المسدودة	فضة			7					7
		الأهلة المستديرة	فضة		15	4	1				20
	النماذج التي تثبت إما في العقود أو الأذن	وردة رودوس	فضة		1						1
		المشاهد ذات الحبيبات	ذهب		1	1					2
			فضة		3						3
		المشاهد على شكل الخاتم	ذهب	1							4
			فضة	1	15	19			1		35

الهوامش :

(1) — S. Gsell, Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, réimpression de l'édition Hachette de Paris 1920 - 1928, 8 Tomes.

(2) — L. Balout, Le Maghreb oriental avant Carthage, **Archéologie Vivante,** vol. I, n° 2, Dec. 1968 - Fevr. 1969, p. 16 ; M. Tarradell, Marruecos pùnico, Publicaciones de la Facultad de Letras (Universidad de Rabat), Instituto Mulay El Hasan, Editorial Cremades, Tetùan, 1958, p. 61.

(3) — G. Camps, Aux origines de La Bérbérie - Monuments et rites funéraires protohistoriques, Arts et metiers graphiques, Paris, 1961, p. 420.

(4) — في هذا الصدد، فإن عالم البونيقيات "بيير سانتاس" (P. Cintas)، الذي كان على علم بالمكتشفات الحديثة التي أكدت على وجود عصر البرونز في المغرب، نجده يعتبر << أن الثقافة المحلية التي بقيت لمدة طويلة ذات طابع نيوليتي في افريقيا الشمالية، قد عرفت مباشرة حضارة المعادن دون أن تعرف المراحل الانتقالية التي مرت منها الحضارات الاخرى، في الوقت الذي وصل فيه التجار الشرقيون إلى سواحلها>>
P. Cintas, Manuel d'Archéologie punique, T. II : La civilisation carthaginoise - Les réalisations matérielles, Paris, Picard, 1976), p. 37.).

وفي السياق نفسه يحاول "وارمنكتون" (Warmington) أن يبحث عن العوامل التي جعلت في رأيه إفريقيا الشمالية متخلفة عن باقي المناطق الاخرى في الحوض المتوسطي الغربي، فيقول : << عندما رسى الفينيقيون لاول مرة فوق سواحل شمال افريقيا، كان المحليون أكثر تخلفا في مجال الحضارة المادية من باقي الشعوب الموجودة بالبحر المتوسط الغربي. وتعزى هذه الوضعية لكون افريقيا الشمالية تمثل في الواقع جزيرة واسعة جدا شمال الصحراء، وبالتالي فإن سكان البلاد كانوا منذ عهود غابرة على معزل من حركات الشعوب التي وقعت في الشرق وشمال البحر الابيض المتوسط، مما حد من انتشار المعارف التي كانت تحملها هذه الشعوب... ومن جهة أخرى، ورغم أن البحر الابيض المتوسط لم يكن متعذر الملاحة، فإن شمال إفريقيا لم تكن لتقدم أي شيئ يمكن إثارة أنظار الشعوب المهاجرة... ونظرا لكون باطن الارض كان خاليا من كل معدن، فإن ذلك جعل السكان على معزل من التطورات المادية الكبرى، بحيث وجدهم الفينيقيون عند قدومهم في العصر الحجري. حقا كان بعضهم يعتمد على حياة الاستقرار ، لكن أغلبية السكان كانت تتكون من رعاة شبه رحل متجمعين على شكل عشائر صغيرة أو قبائل>> (B. H. Warmington, Histoire et civilisation de Carthage, Paris, Payot, 1961, p. 14 - 15)

(5) — M. Antoine, Les grandes lignes de la Préhistoire marocaine, Deuxième congrès panafricain de préhistoire, Alger, 1952, p. 46.

(6) — A. Luquet, Prospection punique de la côte atlantique du Maroc, **Hésperis,** T. XLLIII, 1956, 132.

(7) — J. Carcopino, Le Maroc antique, Paris, Gallimard, 12 ème édition, 1947, p. 55

(8) — يقصد بهم "بيير سانتاس" الفينيقيين الشرقيين الوافدين من لبنان موطنهم الأصلي.

(9) — P. Cintas, Manuel d'Archéologie punique, op. cit, T. II, p. 44

(10) — محمد رضوان العزيفي، الفينيقيون بفحص طنجة وعلاقاتهم بالسكان "من خلال مقابر ناحية طنجة ومحتوياتها المؤرخة ما بين القرن السابع قبل الميلاد وأواسط القرن السادس قبل الميلاد"، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية بفاس، العدد 11، 1990، ص. 195 — 210 ؛ نفسه، مجلة الدراسات الفينيقية البونية والآثار اللوبية (R.E.P.P.A.L)، العدد 6، مركز دراسة الحضارة الفينيقية البونية وآثار اللوبيين، المعهد القومي للآثار والفنون، تونس، 1991، ص. 1 — 18.

(11) — نفسه، المرجع السابق، ص. 197.

(12) — أسماء مدافن ناحية طنجة وعدد القبور بها هي كما يلي : رأس أشقار (قبو واحد) — جبيلة (107 مدفن) — بلاد الشريف ومزرعة "دوبوا" (Dubois) وسانية الشلبات وعين العسل وسيدي مصمودة (ما بين 15 و 30 مدفن في كل مقبرة) — بوشي (Buchet) حرف — ب — (30 مدفن) — عين الدالية الكبيرة (98 مدفن) — دار زهيرو (16 مدفن) — ملاباطا (مدفنان اثنان) — المغوغة الصغيرة (ضريح واحد) — مرشان (98 مدفن).

(13) — للإلمام بأنواع القبور الفينيقية وأشكالها وخصوصياتها قصد مقارنتها بمدافن ناحية طنجة المؤرخة عموما خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، انظر :
محمد رضوان العزيفي، هل مدافن ناحية طنجة فينيقية الاصل ؟ المصباحية، مجلة تصدرها كلية الآداب والعلوم الانسانية سايس — فاس، سلسلة العلوم الانسانية، العدد الثاني، 1996، ص. 11 — 28.

(14) — M. Ponsich, Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, **Etudes et travaux d'Archéologie marocaine,** T. III (Villes et sites du Maroc antique), Tanger, 1967 ; Idem, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, C.N.R.S, Paris, 1970.

(15) — محمد رضوان العزيفي، هل مدافن ناحية طنجة فينيقية الاصل ؟ المرجع السابق، رسم رقم 6.

(16) — نفسه، نفس المرجع، رسم رقم 2.

(17) — وهو الخطأ الذي وقع فيه "بونسيك" (Ponsich) لما نعت جميع مدافن منطقة طنجة "بالمقابر الفينيقية" (M. Ponsich, Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, op. cit)، مما دفعني إلى القيام بقراءة جديدة لاستنتاجاته وتقديم ذلك خلال المؤتمر الدولي الثالث للدراسات الفينيقية والبونيقية المنعقد بتونس عام 1991 (M.R. El Azifi, Les nécropoles de la région de Tanger sont - elles phéniciennes ? Actes du **IIIè congrès international des études phéniciennes et puniques** (Tunis, 11 - 16 Novembre 1991), Institut national du patrimoine, volume I, Tunis, 1995), p. 401 – 414.

(18) — أهم مادة فينيقية وصلت إلى فحص طنجة مثلتها الاعداد الكبيرة والمتنوعة من الحلي. فقد أحصيت ما يناهز 146 حلية و 210 بجوهرة مصنوعة من عجين الزجاج من أصل تسع عشرة نوع مختلف. كما أن بيض النعام المزخرف أو العادي الذي حظي بطلب كبير في الاسواق المتوسطية، كان حاضرا أيضا ضمن الواردات الفينيقية إلى المنطقة، حيث تم اكتشاف ما مجموعه خمسة عشر بيضة. لاخذ فكرة عن مواد التجارة الفينيقية المكتشفة داخل مدافن فحص طنجة انظر : محمد رضوان العزيفي، السلع المتبادلة بين

الفينيقيين والمغاربة القدماء كأقدم نموذج عن علاقات المغرب التجارية مع العالم المتوسطي، "أعمال نـدوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب (21 — 22 — 23 فبراير 1989)، منشورات كليـة الآداب والعلوم الانسانية عين الشق، الدار البيضاء، 1992، الجزء الثاني، جدول رقم 1 و 2 و 3 .

(19) — عثر "فييمو" (Vuillemot) في اقليم وهران بالجزائر على قبور تحتوي على مواد التجارة الفينيقية مشـابهة لمدافن ناحية طنجة ،كانت من نوع "الصناديق المدفونـة تحـت الجثـوات الحجريـة" (Vuillemot,) Reconnaissances aux échelles puniques d' Oranie, Autun, 1965, fig. 114 - 115-116
كما لاحظ "كسيل" (Gsell) في مقبرة العالية جنوب شرق تونس امتزاج العناصر الاركيولوجية المحليـة بالفينيقية، مما جعله يعتبر أن المقبرة لا ترجع إلى مستوطنة فينيقية، بل إلى دوار محلي متأثر بالحضارة الفينيقيـة بفضل علاقته التجارية مع قرطاجة أو مع إحدى المدن البونيقية القريبـة (S. Gsell, Histoire Ancienne de l' Afrique du Nord, op. cit, p. 131.

20 — بالرغم من إشارة "لوكي" (Luquet) إلى اكتشافه لمدافن فينيقية وبونيقية عام 1956 في إقليم دكالة ما بـين آزمور ورأس بدوزة، حاوز مجموعها 3000 ناووس وحجرة جنائزية وقبر على شكل آبار، إلا أنها كانت خالية من أي محتوى أثري. وقد تم العثور على أهم هذه القبور حسب لوكي في تيط (مولاي عبد الله قرب الجديدة) حيث خلفت مقبرتها حوالي 675 بترا. كما عثر "لوكي" على حجرات جنائزية منحوتة في الصخر قرب آزمور في سيدي لمبارك ببلاد الغابة وفي الحفيرة قرب الوليدية. كما عثر على تابوت قديم محفور في الصخر في مولاي المرس (A. Luquet, Prospection punique de la cote atlantique du Maroc, op. cit, p. 117- 132 ; Idem, Contribution à l'Atlas archéologique du Maroc : Le Maroc punique, **Bulletin d'Archéologie marocaine**, T. IX, 1973 - 1975, p. 269 - 290 ; P. Cintas, Contribution à l'étude de l'expansion carthaginoise au Maroc,Paris, Arts et metiers graphiques, 1954, p. 23 – 29). وهذا ما دفع العديد من المؤلفين نذكر منهم "أوزنا" (Euzennat) إلى نقد نظرية "لوكي"، واعتبار هذه المدافن المفترضة إمـا مقابر محلية من نوع "الحوانيت" وإما مطـامر قمـح تعـود إلى العصـر الوسـيط (M. Euzennat, Bibliographie d'Archéologie marocaine,**B.A.M**, T. II, 1957, p. 24). غير أنه من الممكن اعتبار هذه المخلفات من بقايا الآبار التي تم حفرها للبحث عن الماء، أو نطافي لخزنه، لأن منطقة دكالـة كانت حسب شهادة العديد من المؤرخين تعرف نقصا كبيرا في الماء مما استدعى مرارا وتكرارا حفر عدة آبار عميقة للتنقيب عنه (احمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1984، ص. 57 — 59).

(21) — M. Ponsich, Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, op. cit, p. 395

(22) — من المعلوم أن المستنقعات والضايات الكثيرة التي تسببها فياضانات واد تهدارت وواد المهرهر وواد الحشـف وواد بوقدو عند تهاطل الامطار الغزيرة على منطقة طنجة، تؤدي إلى تكوين بحيرة كبرى يمكن مشـاهدتها على الخريطة الطوبوغرافية للمنزلة. وقد تحدث "بلاسكيس" (Blazquez) في هذا المضمار عن مشـاهدته في خريطة حربية اسبانية، لمساحة مائية هائلة كان عرضها يبلغ 12,614 كلم وطولها 20 كلم (A. Blazquez, Las costas de Marruecos en la antiguedad, **Boletin de la Real Academia de la Historia**, T. LXXIX, Cuaderno I, Julio, 1921, p. 414.

(23) — M. Ponsich, Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, op. cit, p. 395

(24) — M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, p. 40

(25) — Idem, Ibid, p. 45

(26) — يقول حنون في الفقرة الخامسة من رحلته : << وبعدما تجاوزنا تلك البحيرة وسرنا مدة يوم كامل شيدنا مستعمرات سميناها الجدار القاري وكيطة وآكره وعرمبيس>>.

(27) — يقول سكيلاكس : << عندما نجتاز أعمدة هرقل بإبحارنا في اتجاه البحر الخارجي حيث نرى ليبيا عن يسارنا، نجد خليجا كبيرا يمتد إلى رأس هرمس، لأن هناك يوجد أيضا رأس هرمس. في وسط الخليج توجد منطقة ومدينة بونتيون. وتحيط بهذه المدينة بحيرة كبيرة توجد بها عدة جزر>> (Scylax, 112 ; ap. R. Roger, Le Maroc chez les auteurs anciens, Paris, Les Belles Lettres, 1924, p. 19.

(28) — P. Cintas, Manuel d'Archéologie punique, op. cit, T. II, p. 38

(29) — أي المصنوعة باليد (céramique modelée) وليس بالمخرطة. ومن المعلوم أن انتقال الخزف من النوع المصنوع باليد إلى النوع المخروط (céramique tournée) يعتبر ثورة صناعية هامة، ومعيارا حضاريا على تخلف الشعوب القديمة أو تقدمها.

(30) — اكتشف "بونسيك" هذا الاناء في قبر رقم 80 بمقبرة عين دالية. وهو عبارة عن قدح صغير منكسر بدون عروة ما زال يحتفظ بجزء من جهته اليسرى إضافة إلى قاعدة بأكملها (M. Ponsich, Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, op. cit, pl. XXXII, fig. 43.). وتعتبر هذه الآنية من نوع خزفي محلي تم العثور عليه باستمرار في العديد من المراكز الفينيقية المؤرخة بالقرن السابع قبل الميلاد وبداية القرن السادس قبل الميلاد، نذكر منها مثلا ليكسوس وجزيرة الصويرة بالمغرب، ومرسى مداخ وجزيرة راشكون بالجزائر. ومن مميزات هذا النوع توفره على زخرفة متشابهة في جميع العينات المكتشفة، حيث كانت الآنية تشرط قبل شوائها بالظفر أو بمخراز خاص أو تقرص بالاصبع. فتصبح الزخرفة على شكل شبكات أو أنصاف أقمار متراكبة، أو غيرها من الزخارف المشرطة أو المقرصة. إنه الخزف المدعو "بالخزف المشرط" أو "المطبوع" أو "بالخزف ذي التأثير النيوليتي" أو "بالخزف البربري القديم". انظر : محمد رضوان العزيفي، الفينيقيون في جزيرة الصويرة، أعمال الايام الدراسية حول "الصويرة الذاكرة وبصمات الحاضر" (26 — 27 — 28 اكتوبر 1990)، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية اكادير، سلسلة الندوات والايام الدراسية، رقم 3، 1994، ص. 69 ، هامش رقم 55.

(31) — إن أقدم الآثار الاركيولوجية المكتشفة في مقابر ناحية طنجة تؤرخ بالقرن السابع قبل الميلاد، وربما بالقرن الثامن قبل الميلاد. فهل تعود هذه التواريخ إلى العهد الذي قدم فيه الفينيقيون لاول مرة إلى المنطقة وإلى المغرب، أم أن الفينيقيين كانوا قد اتصلوا بالبلاد وبالمنطقة قبل ذلك ؟

إن الاجابة عن هذا التساؤل مرتبطة بمعرفة مراحل التوسع الفينيقي في الحوض المتوسطي على العموم وفي جزئه الغربي على الخصوص. كما تخضع لاختلاف وجهات نظر المهتمين بهذا الموضوع بسبب التناقض الموجود بين المعطيات الاركيولوجية التي تجعل بداية التوسعات الفينيقية لا تتعدى القرن الثامن قبل الميلاد، وبين إشارات المؤلفين القدامى التي تحدد هذه التوسعات بالقرن الثاني عشر قبل الميلاد. ومن أهم الدراسات

الحديثة حول موضوع التوسع الفينيقي ومراحله، اعتمادا على النصوص القديمة ومقارنة بالمعطيات الاركيولوجية، انظر :

G. Bunnens, L' Expansion phénicienne en Méditerranée "Essais d'interprétation fondé sur une analyse des traditions littéraires", Institut historique belge de Rome, T, XVII, 1979 ; M.E. Aubet, Tyro y las colonias fenicias de occidente, Barcelona, Editorial Bellaterra, 1987.

(32) — A. Jodin, Les civilisations du sud de l' Espagne et l'énéolitique marocain, Congrès préhistorique de France, XVè session, Angoulème, 1956.

(33) — محمد رضوان العزيفي، مستوطنة ليكسوس الفينيقية في الكتابات القديمة والحديثة — محاولة لرد الاعتبار — المصباحية، سلسلة العلوم الانسانية، العدد الاول، 1995، ص. 11، هامش رقم 3.

(34) — نفسه، الفينيقيون في جزيرة الصويرة، المرجع السابق، ص. 69 هامش رقم 55.

(35) — نفسه، التعمير القديم لوادي مرتيل، أعمال ندوة "جبال الريف : المجال والانسان" (3 — 4 — 5 أبريل 1989)، مجلة كلية الآداب بتطوان، السنة الرابعة، العدد 4، 1990، ص. 69.

(36) — الفينيقيون شعب من الشعوب السامية القديمة التي كانت تقطن الشريط الساحلي الذي يشمل حاليا كل لبنان وجزءا من سوريا وفلسطين.

(37) — عرف التوسع البحري الفينيقي خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد نشاطا تجاريا لم يكن له مثيل من قبل ولا من بعد. فنتيجة للمزاحمة الاقتصادية التي فرضت على الفينيقيين من قبل التوسع الاغريقي في الحوض المتوسطي، وبسبب الضغط الآشوري العسكري والجبائي الممارس باستمرار على المدن الفينيقية في الشرق لتحصيل سبائك المعادن الثمينة، اضطرت الآلة البحرية الفينيقية إلى التكثيف من عملياتها التجارية في الاسواق المتوسطية، بغية ترويج سلعها من جهة وتلبية الطلب الآشوري من جهة ثانية. خلال هذه المرحلة تم تشييد العديد من المحطات الفينيقية الثابتة التي أصبحت تعمر من لدن مهاجرين فينيقيين جدد. كما تميزت هذه الحقبة، التي استمرت إلى أواسط القرن السادس قبل الميلاد، بعقد علاقات تجارية فينيقية كثيفة مع بعض الجهات، كما تشهد على ذلك مثلا مدافن ناحية طنجة. كما تميزت أيضا بالبحث عن أسواق معدنية جديدة ولجها الفينيقيون لاول مرة، كما يؤكد ذلك وجودهم في جزيرة الصويرة خلال القرن السابع قبل الميلاد والنصف الاول من القرن السادس قبل الميلاد.

(38) — لا ينبغي أن نستغرب من ذلك، لأن معظم سكان الحوض المتوسطي الغربي كانوا خلال مرحلة التوسع الفينيقي كما يرى "وارمنكتون" (Warmington) في حالة متأخرة حضاريا وأكثر ضعفا عسكريا من شعوب وحضارات المتوسط الشرقي. لذلك لا ينبغي أن نبالغ في كون السكان القدامى للمغرب كانوا اذاك متطورين لدرجة تجعلهم في المستوى الحضاري للفينيقيين أو العبريين أو الآراميين أو غيرهم من الشعوب المتقدمة. انظر : B.H. Warmington, Histoire et civilisation de Carthage, op. cit, p. 13

(39) — 6M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, p. 39

(40) — محمد رضوان العزيفي، هل مدافن ناحية طنجة فينيقية الاصل ؟ المرجع السابق، رسم رقم 6.

(41) — محمد رضوان العزيفي، هل مدافن ناحية طنجة فينيقية الاصل ؟ المرجع السابق، رسم رقم 1.

(42) — M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, p. 165

(43) — Idem, Ibid, p. 166

(44) — Idem, Ibid, p. 396

(45) — M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, p. 166

(46) — Idem, Ibid, p. 165

(47) — Idem, Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, op. cit, p.79

(48) — Idem, Ibid, p.85

(49) — Idem, Ibid, p.194

(50) — Idem, Ibid, p. 207

(51) — Idem, Ibid, p. 138

(52) — Idem, Ibid, p. 204

(53) — يقول المؤرخ الاغريقي "بوليبيوس" مبرزا اهتمام سكان شمال افريقيا بتربية الماشية مايلي : >> توجد في افريقيا الجياد والثيران والخراف والماعز أيضا بكثرة وافرة تجعلني أتساءل هل يمكن أن نعثر على نفس الكمية في باقي جهات العالم المسكون، ويعزى ذلك إلى كون أغلبية شعوب افريقيا، الذين لايمارسون الفلاحة، يعيشون من قطعانهم ومع قطعانهم>> (3Polybe, Histoire, Livre XII, III,).

(54) — لذلك لانستغرب إذا كانت النقود الموريطانية لمدينة طنجة تحمل شعار سنابل القمح، الذي يلمح إلى غنى المنطقة بهذا المنتوج منذ عصور قديمة. انظر :

F. Mateu y Llopis, Monedas de Mauritania, Tetuan, 1949.

(55) — M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, p. 218

(56) — R. Roger, Index de topographie antique du Maroc, **P.S.A.M**, Fas. n° 4, 1938, p. 20 ; M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, p. 218.

(57) — اكتشف "بونسيك" ثلاثة مناجل حديدية في مقبرة عين دالية بكل من قبر رقم 20 و 25 و 74 M. Ponsich, Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, op. cit, Pl. XIV ,) XVII, XXIX). كما اكتشف أربعة نماذج مشابهة في مقبرة جبيلة بكل من قبر رقم 27 و 31 و 79 و 99 ؛ إلا أنه لم ينشر مع الاسف أية صورة عنها. وهي عبارة عن مناجل صغيرة تتميز بحرف حديدي يحتوي على سنينات حادة، وتتميز بفتحة متسعة يتراوح قطرها ما بين 30 و 35 سنتمتر. كما تتوفر على حاشية حديدية رقيقة تقبض منها. أما عرض حديدة المنجل فيتراوح مابين 15 مم و 33 مم. ويبدو أن عادة دفن الادوات الفلاحية داخل القبور تذكرنا بعادة مازالت تعرفها بعض بوادي المغرب العربي، حيث يقوم السكان بوضع أدواتهم الفلاحية على جدران أضرحة الاولياء تبركا بحمايتهم وتيمنا بنشر الخير والبركة على المحاصيل.

(58) — M. Ponsich, Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, op. cit, p. 87

(59) — من المعلوم أن عصر الحديد ظهر لأول مرة في الشرق الاوسط ؛ وكان ذلك في حدود عام 1200 قبل الميلاد. وحيث أن مكتشفات ناحية طنجة أكدت على أن السكان القدامى للمغرب عرفوا تقنية تصنيع

الحديد على الاقل منذ القرن السابع قبل الميلاد، فهذا يدل على أنهم لم ينتظروا طويلا لمسايرة التطورات الاقتصادية التي عرفتها الساحة الدولية اذاك. أما هل تعرفوا على ذلك تلقائيا أم بفضل تدخل الفينيقيين أو بتأثير منهم، فهذه مسألة أخرى يمكن مناقشتها في موضوع تثاقف المغاربة القدامى بالحضارة الفينيقية.

(60) — نظرا لقرب مقبرة جبيلة من البحر، وبعد اكتشاف فقارات من السمك داخل بعض قبورها، اعتبر "بونسيك" أنها تعود إلى تجمع بحارة أو صيادين (M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, p. 72).

(61) — M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, p. 157

(62) — كانت أرض فينيقيا أرضا خصبة ومسقية على العموم رغم طابعها الجبلي، مما ساعد السكان منذ القدم على تطوير فلاحة مزدهرة أثارت انذهاش المصريين القدماء.

(63) — انظر مسألة قدم تأسيس ليكسوس ومكانتها كأهم مستوطنة فينيقية في الساحل الاطلنطي المغربي عند : محمد رضوان العزيفي، مستوطنة ليكسوس في الكتابات القديمة والحديثة — محاولة لرد الاعتبار — ، المرجع السابق.

(64) — كانت هذه الحبوب حسب مكتشفها شبيهة بالحمص.

(65) — A. De Wailly, Le site de Kef - El - Baroud (région de Ben Slimane), **Bulletin d'Archéologie marocaine**, T. IX, 1973 - 1975, p. 59.

(66) — G. Camps, Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara, Paris, Doin, 1974, p. 276.

(67) — أي منذ الالف الخامسة قبل الميلاد.

(68) — A. Rodrigue, Un Néolitique agricole dans le Haouz, **Bulletin d'Archéologie marocaine**, T. XVI, 1985 - 1986, p. 89 – 98.

(69) — G. Bonsor, Les colonies agricoles préromaines dans la vallée du Bétis, **Revue archéologique**, T. XXXV, 1899, p. 126 – 159.

(70) — L. Siret, Villaricos y Herrerias, **Memorias de La Real Academia de la Historia**, T. XIV, 1909.

(71) — كانت التجارة الفينيقية تقوم على استيراد المعادن الثمينة التي تحتاج إليها أسواق الشرق الاوسط كالفضة والذهب والقصدير والنحاس، وعلى استيراد بعض المواد الثمينة كالعاج والاحجار الكريمة وبعض الحيوانات النادرة. ومن جهة أخرى كانت تقوم بتوزيع مواد مصنعة كالاواني المعدنية والملبوسات الرفيعة والمواد المصنوعة من العاج. هذا علاوة على توزيع مواد البذخ — التي يمكن تشبيهها حاليا بمنتوجات باريز — كالزجاج والعطر والحلي بشتى أنواعها، وأيضا الخزف الرفيع. أما أهم مادة فينيقية اتجر بها الفينيقيون مع السكان القدامى للمغرب وخصوصا مع أهل ناحية طنجة، مثلتها الحلي المعدنية أو المصنوعة من عجين الزجاج، والاواني الخزفية الرفيعة سواء الفينيقية أو الاغريقية. انظر هامش رقم 18 وانظر أيضا : محمد رضوان العزيفي، السلع المتبادلة بين الفينيقيين والمغاربة القدماء كأقدم نموذج عن علاقات المغرب التجارية مع العالم المتوسطي، المرجع السابق، ص. 208 — 211.

(72) — انظر بعض مظاهر ومميزات المدينة خلال العصر القديم عند :

M. Poëte, Introduction à l'urbanisme, Paris, Editions Anthropos, 3è édition, 1967.

(73) — يقول "سكيلاكس" : << ... التجار هم الفينيقيون ؛ وعندما يصلون إلى كرني فإنهم يربطون مراكبهم المستديرة وينصبون الخيام في الجزيرة. ... يوجد هناك الاثيوبيون مع من يقيمون المبادلات....ويأكل هؤلاء الاثيوبيين اللحم ويشربون الحليب، ويصنعون خمرا كثيرا من كرماتهم يصدره الفينيقيون. كما توجد عندهم أيضا مدينة كبيرة تلج إليها سفن التجار الفينيقيين....>> (Scylax, 112).

وفي هذا الصدد ينبغي أن نوضح أن "الاثيوبيين" المذكورين في النص لا يقصد بهم سكان اثيوبيا أو زنوج إفريقيا الغربية، بل إن كلمة "Aetiopes" التي تعني بالاغريقية "ذوي الوجوه المحروقة"، لعلها اشارة لبعض القبائل المغربية ذات البشرة السمراء التي كانت تقطن في جهة ما على ساحل المحيط الاطلنطي. انظر :

G. Camps, Aetiopes, **Encyclopédie bérbère**, T. II, Aix- En-Provence, Edisud, 1985, p. 176.

(74) — Scylax, 112

(75) — كانت المدافن التي تحمل رقم 63 و 65 و 68 و 70 بمقبرة جبيلة من أحسن النماذج بالمنطقة فيما يخص طريقة البناء وجودتها.

(76) — كان بيض النعام من المواد الجنائزية المحلية التي وضعت في القبور منذ أقدم العصور، والتي كانت تعرف طلبا في الاسواق من لدن أمهات الحضارات القديمة. غير أنها لم تعرف ذروة انتشارها إلا مع مجيء التجار الفينيقيين إلى شمال افريقيا، الذين قدروا قيمتها وعملوا على توزيعها على سائر أنحاء البلدان المتوسطية، مستفيدين من هذه التجارة بأرباح طائلة بفضل كثرة الطلب عليها. وليس من شك في كون بيض النعام سيعرف خلال العصر الفينيقي تحسنا في شكله ومنظره، حيث سيتم تحويل البيضة إلى وعاء جميل بعد قطع إحدى أطرافها، أو إلى كأس بعد شطرها إلى نصفين وتزيين شفتيها بسنينات رقيقة. وبعد ذلك تصبغ جوانب البيضة بلون أسود أو أحمر، أو تنقش عليها رسوم هندسية على شكل شبكات دائرية أو مثلثة أو مربعة أو سعيفات فينيقية أو زهور اللوطس. ولا شك أن قيمة بيض النعام كشيء ثمين ونادر وربما مقدس، جعل منها مادة جنائزية تدفن مع الاغنياء كهبة له توضع في القبر فوق إناء خاص (Présentoir)، وتستعمل ككأس روحية تصب بها الصبغة الحمراء المقدسة.

ولم تخل مدافن ناحية طنجة بدورها من هذه المادة التي وصلت إلى المنطقة من الجنوب المغربي بفضل التجارة الفنيقية، حيث تم اكتشاف ما مجموعه 15 بيضة. والغالب على الظن أنها وصلت إلى هناك على حالتها الطبيعة، وبعد ذلك قام السكان المحليون بكشف رأسها وقطع إحدى أطرافها وتحويلها إلى إناء، وزخرفتها ونقشها حسب الذوق المحلي. ومن جميل الصدف أن جل القبور التي تم العثور بها على بيض النعام، كانت تعتبر من أجمل وأضخم المدافن بالمنطقة، نذكر منها على سبيل الحصر فقط قبر رقم 5 و 6 و 42 بمقبرة عين دالية، وقبر رقم 31 و 68 و 94 بمقبرة جبيلة. كما كانت العديد من هذه القبور تضم قراميل الشعر، التي تعتبر من الحلي الفينيقية النادرة، والتي لا يقتنيها سوى الاغنياء. انظر :

محمد رضوان العزيفي، السلع المتبادلة بين الفينيقيين والمغاربة القدماء، المرجع السابق، ص. 222، جدول 2.

(77) — تعتبر التمائم الفينيقية من الحلي ذات الطابع الوقائي التي تثبت في العقود لابعاد الخطر والشر عن حاملــــها. وكانت هذه المواد المستوردة من مصر، و المكتشفة بكثرة في القبور الفينيقية، تصنع عموما من عجــين السلس الميرنق أو من عجين الزجاج. أما أشكالها فكانت عبارة عن صور مصغرة لبعض المعبودات المصريــة وبعض الحيوانات، أولبعض الرموز كالعين والخميسة والقلب والحية المقدسة، أو صورا لبعض الشــياطين والاغوال. و لم تخل مدافن ناحية طنجة من توفرها على مثل هذه المعثورات، حيث اكتشفت بها ثلاثة نمـاذج من التمائم. التميمة الاولى، التي كانت مصنوعة من عجين الزجاج على شكل صورة مصغرة للمعبــود المصري "بس" أو "بتاح"، تم العثور عليها في مقبرة مرشان. أما التميمتان الاخريتان فقد اكتشـفهما "بونسيك" في قبر رقم 77 بمقبرة جبيلة، وفي قبر رقم 30 بعين دالية. وكانت الاولى مصنوعة من عجــين الزجاج المخضر تمثل إحــدى الاجنة العراقية القديمــة ، قــد يكون "سكــن" (Sakan) أو "خمبابــا" (Khumbaba) أو "بازوزو" (Pazuzu). أما التميمة الثانية، فكانت مصنوعة من مادة العاج على شــكل صورة مصغرة لرأس خروف يرمز ربما إلى المعبود المصري "كنومون". انظر :

M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, PL. LIX,. p. 177 ; Idem, Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, op. cit, fig. De p. 10, PL. LV, fig. de p. 8, PL. XIX.

(78) — يمكن اعتبار أن ندرة التمائم في مقابر ناحية طنجة راجعة إلى كونها كانت باهضة الثمن كما يقــول "موسكاتي"، بحيث لم تكتشف سوى في قبور الاغنياء. انظر :

S. Moscati, L'épopée des Phéniciens, Paris, Fayard, 1971, p. 225.

(79) — اكتشف "بونسيك" في قبر رقم 5 بعين دالية بيضة نعام على شكل إناء في حالة جيدة من الصيانة، تم نقـش أو بالاحرى حفر جميع مساحتها بزخرفة في غاية الجمال. فقام الفنان الذي نحت البيضة، بتقسيمها إلى أربعــة أقسام زخرفية يفصلها شريطان عموديان يبلغ عرضهما سنتيمتران اثنان. كما قام بتزيين هذه الاقســام بخطوط متقاطعة وأخرى أفقية. أما الرسم الاساسي الذي يوجد داخل كل حقل من الحقول الاربعــة، فيتألف من مثلثين متقابلين تحيط بهما زهور منمنمة من نوع اللوطس تتوفر على ثلاث بتلات من كل جهــة

M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, p.) 138 - 139 , PL. XLV ; Idem, Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, op. cit, fig. 13, p. 47). وقد قام الصانع بهذه الزخرفة بتقنية دقيقة جدا، بحيث لم يترك على البيضة أية علامة تقطيع واضحة بواسطة أداة ما. وإذا كانت مثل هذه الزخارف تنحت بمنقاش خاص أو بإزميل معين، فــإن مكتشف هذه البيضة يرى بأن الفنان المغربي قد استخدم في عمله نوعا من الحوامض. وهو الامر الــذي يتطلب دقة متناهيــة في الاداء وأنــاة في متابعــة العمــل، لا يمكن أن يتقنه ســوى المتخصص المــاهر

M. Ponsich, Tanger , Un oeuf d'autruche décoré , **Bulletin d'Archéologie**) **marocaine**, T. VI, 1966, p. 461 - 464.). أما عن معاني الزخرفة المنقوشة في بيضة نعام مقبرة عين دالية التي استخدمت المواضيع النباتية، كالعديد من النماذج المشابهة المكتشفة في الحوض المتوسطي، فإنهــا ترمز لا شك إلى الخلود أو بعث الحياة من جديد. أما أصل المواضيع الزخرفية فهي بدون شك من شمــال افريقيا، حيث كانت تستعمل، ومنذ العصر النيوليتي، نفس المشاهد النباتية على شكل سعيفات ونفــس

الفتالات ونفس الخطوط المعقوفة المنفرجة. وهي العناصر نفسها المستعملة في تكوين الزخارف البربرية على العموم، المعتمدة على رسم المثلثات والسعيفات والاشرطة العمودية، والتي نجدها بكثرة في الاواني المحلية المصبوغة وفي الزربية البربرية.

(80) ـ ركز المؤتمر الاركيولوجي الاول المنعقد بمدينة تطوان عام 1953 على العلاقات الاسبانية ــ المغربية خلال عصور ما قبل التاريخ. وقد توج باصدار عدة دراسات في هذا الاتجاه نذكر منها ما يلي :

L.Pericot, Sobre el problema de las relaciones preneoliticas entre Espana y Marruecos, **1er congreso Arqueologico del Marruecos espanol**, p. 57 - 62 ; L. Balout, Remarques sur l'extention géographique de certaines civilisations préhistoriques du Maghreb, Ibid, p. 67 - 73 ; F. Jorda Cerde, Las relaciones entre el Epigravetiense de la Espana mediterranea y el Iberomauritanico nordafricano, Gimpera, La cultura de las cuevas en Africa y en Ibid, p. 79 - 83 ; P. Bosch Espana y sus relaciones, Ibid, p. 139 - 153

(81) ـ L.Balout, Remarques sur l'extention géographique de certaines civilisations préhistoriques du Maghreb, op. cit, p. 71.

(82) ـ G. Camps, Aux origines de la Berbèrie - Monuments et rites funéraires protohistoriques -, op. cit, p. 568.

(83) ـ ينبغي ألا نستغرب اذا كانت هاتان المنطقتان ــ اللتان أبرمتا علاقات قديمة مع جيرانهما الاوروبيين ــ تعتبران من بين أهم الجهات التي اهتم بها الفينيقيون منذ ابحارهم الاولى. ففيهما توجد أهم المستوطنات الفينيقية وأقدمها في شمال افريقيا، وهما ليكسوس بالنسبة لشمال غرب المغرب، وأوتيكا ثم قرطاجة بالنسبة لشمال شرق تونس. وهذا يدل على أن الفينيقيين لم يكونوا يتعاملون مع الشعوب المتخلفة، بل مع أكثر الشعوب اتصالا بالحضارات ما قبيل ــ التاريخية القديمة، ومع أكثرها انفتاحا على العالم الخارجي.

(84) ـ وهو خزف مميز لبداية العصر النيوليتي المورخ عادة في شمال افريقيا وفي اوروبا بالالف الخامسة قبل الميلاد، تم العثور عليه على شكل أوان كروية الشكل تطبع قبل شوائها بمحار الكارديوم. انظر بعض المعلومات المقتضبة حول هذا النوع من الخزف وحول توزيعه في الحوض المتوسطي عند :

M. Brésillon, Dictionnaire de la Préhistoire, Collection Larousse, Paris, Edition de 1980, n° D 34, p. 60.

(85) ـ A. Jodin, Les Grottes d'El Khil à Achakar, **Bulletin d'Archéologie marocaine**, T. III, 1958 - 1959, p. 149 – 313.

(86) ـ M. Tarradell, Noticia sobre la excavacion de Gar Cahal, **Tamuda**, T. II, Simestre II, 1954, p. 344 – 356.

(87) ـ محمد رضوان العزيفي، وادي مرتيل خلال العصور القديمة ومسألة عزل جبال الريف للمغرب عن العالم المتوسطي، أعمال الايام الوطنية الثانية المنظمة من طرف الجمعية المغربية للبحث التاريخي في موضوع "الجبل في تاريخ المغرب" (27 ــ 28 ــ 29 اكتوبر 1994)، تحت الطبع. وانظر أيضا :

M. Tarradell, Avance de la primera campana de excavaciones en Caf Taht El Gar, Simestre II, 1955, p. 307 - 322 **Tamuda**, T. III.

(88) ـ G. Camps , Aux origines de la Berbèrie, op cit, p. 397, note n° 1

(89) ـ Idem, Ibid, p. 568

(90) — تؤرخ عموما بداية استعمال الخزف الجرسي الشكل أو الناقوسي الشكل في حدود الالف الثالثة قبل الميلاد.

(91) — A. Jodin, Les problèmes de la civilisation du vase campaniforme au Maroc, **Hespèris**, T. XLIV, 1957, p. 353 – 360.

(92) — A. Garcia y Bellido, Fenicios y Carthagineses en Occidente , Madrid , 1942, p. 176 – 177.

(93) — انظر هامش رقم 96.

(94) — نعرف ذلك من خلال مصادر أدبية مقتطفة من كتاب (Ora Maritima) للمؤلف الرومـــاني (Festus Avienus) الذي عاش في القرن الرابع الميلادي. أما موقع جزر القصدير فقد حددهـــا المحدثـــون إمـــا في بريطانيا بفرنسا أو في انجلترا أو في ارلاندا أو في غاليسيا باسبانيا. انظر :

A. Garcia y Bellido, Fenicios y Carthagineses en Occidente, op. cit, p. 170.

(95) — M. Tarradell, Marruecos pùnico, op. cit p. 267

بل إن الوجود الفينيقي نفسه كان يشوبه الكثير من الغموض، كما نفهم ذلك من خلال "كاركوبينو" عندمـــا يقول : << لا نعلم عن الاستيلاء القديم للفينيقيين على المغرب مساحته ولا طبيعتـــه ولا مراحلـــه>>.

انظر : J. Carcopino, Le Maroc antique, op. cit, p. 25

(96) — M. Ponsich, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, op. cit, p. 396

وقد حددت المصادر القديمة مملكة طرطسوس (Tartessos) الاســـطورية، المطابقـــة في التـــوراة لترشـــيش (Tarshich)، في بلاد الاندلس بشبه الجزيرة الايبيرية. وهي المنطقة التي تقع حسب المؤلفين الاسبان المحدثين في ناحية "ويلفة" (Huelva) وقادش واشبيلية، أي في جنوب غرب اسبانيا. ويبدو أن المكانة التي حظيت بها الاندلس الشرقية في استخراج المعادن منذ العصر الكالكوليتي، انتقلت إلى الاندلس الغربية نظرا لغناها بمعـــادن القصدير والفضة الموجودتين بكثرة في مناجم ناحية ويلفة واشبيلية، واللتين أصبحتا مطلوبتين في الاســـواق الدولية. أما عاصمة طرطسوس التي كانت تحمل نفس الاسم، فقد تم الاجماع على تحديدها في مدينة ويلفـــة نظرا لموقعها الاستراتيجي في الخليج الذي يصب فيه كل من نهري "تينتو" (Rio Tinto) و"أوديـــل" (Rio Odiel). وهو الموقع الذي لا يمكن تفسيره إلا باعتباره أهم ميناء طبيعي على الواجهة الاطلنطية للاندلـــس قبل مجيء الفينيقيين، لتصدير معادن المنطقة في اتجاه اوروبا الغربية وربما في اتجاه البحر الابيض المتوســـط الى حدود ايطاليا. و قد عرفت حضارة طرطسوس أربع حقب ثقافية مختلفة امتدت على مر خمسة قرون :

الحقبة الاولى، التي ظهرت خلال نهاية عصر البرونز المؤرخ مابين القرنـــين العاشـــر والتاســـع قبـــل الميلاد،كانت حقبة محلية محضة. وقد تميزت بمنتوج خزفي خاص (الخزف الملمع ذو الزخرفـــة الشـــبكية ـــ الخزف المصبوغ)، وبممارسة الفلاحة وتربية الماشية، واستخراج المعادن (الفضة) وتصنيعها، وتشييد القبـــور على شكل الصناديق (cistes) كما كان الشأن في ناحية طنجة. ومن أهم مراكز هـــذه المرحلـــة نذكـــر (Huelva - Rio Tinto - chinflon Almonte).

الحقبة الثانية بدأت مع مطلع القرن الثامن قبل الميلاد، ومثلت بداية الاتصالات مع الفينيقيـــين، الذيـــن أسسوا إذاك عددا ضخما من المستوطنات الثابتة على الواجهة المتوسطية والاطلنطية لاسبانيا. في هذه الحقبـــة ستعرف حضارة طرطسوس استعمال الحديد والخزف المخروط الذي أدخله الفينيقيون. كما سوف تتغـــير

مرفلوجية مباني الطرطسيين من تشييد الاكواخ المستديرة إلى تشييد المباني المستطيلة على النمط الشرقي، كما تأكد ذلك أركيولوجيا في مدينة ويلفة.

أما الحقبة الثالثة، التي امتدت خلال القرن السابع قبل الميلاد، فـهي تمثل أوج ازدهار حضارة طرطسوس، والتي يسميها المتخصصون بالمرحلة الاستشراقية. وهي الحقبة التي تميزت بتثاقف المحليين بالحضارة الفينيقية، بفضل توطيد العلاقات التجارية مع المستوطنات الفينيقية، سواء مع الموجودة منها في شرق الاندلس أو في غربه. وقد تجلى ذلك في تعميم استعمال الاواني المخروطة، وتقليد مواد التجارة الفينيقية كالخزف والعاجيات والاواني المعدنية والحلي. كما أصبحت قبور أعيان الطرطسيين تتأثر بالنماذج الفينيقية الضخمة الشبيهة بالمدافن المكتشفة في اتروريا، وتستعمل عادة الدفن إلى جانب عادة حرق الاموات (Setefilla - Acebuchal - Mesas de Asta - Torre de Cruz del Negro - Carmona - Dona Blanca - El Carambolo). كما كانت هذه القبور، كما هو الامر في ناحية طنجة، غنية بالمستوردات الفينيقية مثل الاواني المعدنية الرفيعة والمواد العاجية والحلي. وهذا يدل على ظهور طبقة ارستقراطية غنية بطرطسوس خلفت صداها لدى الاستوريوغرافية الاغريقية ـــ الرومانية (قصة الملك الاسطوري "أركانطونيوس" (Argantonios)). أما على المستويين العقائدي والثقافي، فقد انتشرت في هذه الحقبة عبادة رشيف ـــ ملقارت، وظهرت كتابة خاصة بطرطسوس كانت بمثابة اقتباس للابجدية الفينيقية.

غير أنه ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد سنلاحظ فقرا في محتويات قبور طرطسوس مع العودة إلى ممارسة الطقوس الجنائزية المحلية، وانخفاض في التأثيرات الفينيقية. إنها بداية الحقبة الرابعة والاخيرة من حضارة طرطسوس التي تميزت ببداية دخول المؤثرات الاغريقية. إلا أن اضمحلال التجارة الفينيقية خلال النصف الاول من القرن السادس قبل الميلاد، وعدم تعويضها بالشكل المطلوب من طرف قرطاجة ولا من لدن تجارة اغريقية قارة ومستمرة، سيؤدي مع حلول أواسط القرن السادس قبل الميلاد، إلى تدهور حضارة طرطسوس، لان مكانتها كمنطقة للاستقطاب التجاري بفضل الفينيقيين لم تعد كما كانت من قبل. بذلك تنتهي الهوية الثقافية لطرطسوس، ليتم تعويضها رويدا رويدا بالثقافة الايبرية.

توجد بيبليوغرافية غنية حول طرطسوس لا مجال لذكرها الآن. ولاجل الاختصار انظر ما يلي :

يولي بركوفيتش تسيركين، الحضارة الفينيقية في اسبانية، ترجمة يوسف أبي فاضل، بيروت، دار النشر جروس برس، 1988. وانظر من المراجع باللغات الاجنبية :

J.Ma. Blàzquez, Tartessos y los origines de la colonizacion fenicia en Occidente, Universidad de Salamanca,1968 ; A. Schulten, Tartessos, Hambourg , 2è édition, 1950 ; M. Fernandez-Miranda, Huelva, ciudad de los Tartessios, in. **Los Fenicios en la peninsula iberica**, Barcelona, Editorial Ausa, 1986, T. II, p. 227 - 261 ; Ju.B. Tsirkin, The Hebrew Bible and the origin of Tartessian Power, in. **Los fenicios en la peninsula iberica**, op. cit, T. II, p. 179 - 185

(97) ـــ يقول "سانتاس" في هذا الصدد معتمدا على دراسة "للونرمان" (F. Lenormant, Tarshich, Etude d'éthnographie et de géographie biblique, **Revue des questions historiques**, T. XXXII, 1882, p. 5 - 40) :

<< تحمل كلمة ترشيش معنى غامضا ... فهي تمثل مجموعة الاراضي التي اعتبرت الحد الغـــربي للبحـــر الابيض المتوسط، بنفس المعنى الذي مثله اسم "الهند الغربية" بالنسبة للمحدثين، حيث كان يقصد به بصفـــة عامة ـــ ولمدة ثلاثة قرون ـــ كل القارة الامريكية اضافة الى الجزر التابعة لها>> . انظر :

P. Cintas, Manuel d'Archéologie punique, T. I : Histoire et Archéologie comparées - temps archaïques de Carthage et des villes phéniciennes de Chronologie des l'Ouest - , Paris, Picard, 1970, p. 276 note 121

ونحن لا نستغرب من هذا المدلول لأن التوراة تذكر بعض المواد المستوردة من ترشيش (ســـفر الملـــوك الاول، الاصحاح العاشر : 22) لايمكن أن يكون مصدرها حسب "بلاسكيس" إلا من المغـــرب كـــالقردة والعاج. انظر:

J.Ma. Blàzquez, Tartessos y los comienzos de la colonizacion fenicia en Occidente, op. cit, p. 18

(98) — G. Camps, Aux origines de la Berbèrie, op. cit, p. 34

(99) — هناك من المؤلفين من يعتبر أن رحلة "سكيلاكس" تعود الى القرن الرابع قبـــل الميـــلاد (R. Roget, Le Maroc chez les auteurs anciens, op. cit, p. 11). غير ان المعلومات الواردة في الرحلة، المتحدثة عن علاقة الساحل الاطلنطي المغربي مع الفينيقيين وليس مع القرطاجيين، جعلت بعض المؤلفين يعتـــبرون أن نـــص الرحلة انما يحكي عن احداث تورخ على الاقل بالقرن السادس قبل الميلاد. انظر :

J. Desanges, Recherches sur l'activité des Méditérranéens aux confins de l'Afrique, Ecole française de Rome, Palais Farnèse, 1978, Chapitre VII : La Libye dans le périple du Pseudo-Scylax, p. 87 - 120 ; A. Blazquez, Las Costas de Marruecos en La Antiguedad, op. cit, p. 407

(100) — انظر هامش رقم 73.

(101) — حول الأساطير الإغريقية المتعلقة "بموريطانيا" أي المغرب القديم، والتي تجعل ناحية مضيق جبل طارق مســـرحا خصبا لها، انظر بالخصوص :

E. Arques, Huellas de la Historia fabulosa en la Libia Mauritana, Alta comisaria de Espana en Marruecos, Tetùan, 1950

REGARD SUR QUELQUES CHAPITEAUX DE BANASA

Abdellatif KHARBACH*

I - QUESTIONS DE STRUCTURES ET DE MODELE DES CHAPITEAUX DE BANASA

La suite des opérations de traçage et des détail qui aboutissent à la forme définitive des chapiteaux de Banasa a attiré notre attention. Les réponses aux questions que posent ces opérations devraient apporter des renseignement utiles pour la compréhension du processus de création et, en général, pour une meilleure connaissance de cet élément caractéristique de la structure et des modèles.

La recherche portant sur la phase de réalisation du chapiteau de Banasa depuis l'établissement du projet jusqu'à la pièce finie se heurte à des difficultés objectives. Ces difficultés dérivent en premier lieu du nombre relativement réduit d'exemplaire dont l'état de conservation permet la prise de mesures suffisamment assurées pour pouvoir en déduire l'enchaînement des relations numériques ou géométriques qui définissent la symétrie de l'ensemble.

La variété typologique recensée pour les chapiteaux de Banasa conduit, elle-même, à des résultats décevants du moment qu'on essaie l'application stricte du même type d'analyse qui se propose essentiellement de découvrir des rapports exprimés par

---

Professeur chercheur à la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines Marrakech.

des nombres entiers entre les dimensions caractéristiques. Faut-il en déduire que le chapiteau de Banasa est un bloc sans rapports définis tel qu'il a été opposé au système de proportions qui régissent l'agencement des chapiteaux classiques selon les lois canoniques de Vitruve? Nous ne le pensons pas, ne fût-ce qu'en - raison des opérations de traçage qui demandaient une mise au point préalable des relations entre les parties qui devraient être rapportées sur le bloc à sculpter. Il est donc, légitime de supposer que les artisans de Banasa ont abordé ce problème en partant d'une autre base conceptiellement différente. il nous semble raisonnable dans certains cas d'imaginer comme hypothèse de travail la prévalence d'une conception qui aurait accordé plus d'importance au tracé géométrique pour l'établissement des proportions et la mise en place des différentes parties du chapiteau.

Un autre facteur déterminant pour le résultat de ce genre d'analyse est la fonction même de l'objet. On peut supposer que si le chapiteaux des monuments de premier ordre étaient l'aboutissement d'une recherche stylistique menée par un artisan d'assez bonne qualification. des produits de moindre importance n'étaient pas nécessairement investis des mêmes qualités, en tant qu'oeuvres par un artisan plus au moins habile, qui pourrait se contenter de quelques recettes simples pour la mise en place des éléments constitutifs de la pièce qu'il se propose de sculpter. Et même pour les chapiteaux corinthiens les mieux conçus à Banasa, on a constaté que dans la majorité des cas les proportions de ces éléments sont loins d'être conformes aux théories de Vituve.

Nous pouvons en détruire ainsi qu'à l'étape du projet, l'intérêt de l'architecte de Banasa, comme c'est probablement le cas aussi des autres centres de la Maurétanie Tingitane notamment Volubilis, est dirigé en premier lieu vers le choix de la forme, dont l'ensemble est déterminé aussi par le goût personnel et les capacités créatrices de l'artiste, que par des

traditions d'ateliers ou par le désir de se rapprocher de quelques modèles célèbre préférés ou simplement mieux connus.

Ainsi, les éléments que nous avons considérés en premier étaient donc les composantes fondamentales du chapiteau et précisément ceux qui définissent le modèle en général.

En fait, tous les chapiteaux trouvés à Banasa, si on les considère sous l'angle des modèles, peuvent êtres divisés en deux groupes.

Le premier comprend des reproductions de styles consacrés aux oeuvres greco-romaines, connues par des répliques nombreuses d'époque romaine. A cette catégorie appartiennent tous les chapiteaux corinthiens trouvés dans la ville.

Le second groupe comprend les variantes de modèles connues aussi dans le répertoire romain mais modifiées d'une manière plus au moins importante et même parfois en combinant des motifs issus d'oeuvres différentes, notamment puniques comme c'est le cas des chapiteaux maurétaniens.

Ainsi, à Banasa pendant la durée de la période maurétanienne avant l'annexion de la Maurétanie Tingitane une influence considérable fut exercée par les formes locales ou d'inspiration punique sur le sens et le goût des artistes. Après, quand les villes de la Maurétanie Tingitane furent étendues à l'époque romaine et se furent constituées aux points de vue politique et urbain, lorsque la richesse publique provoqua le développement architectural, l'habitude chez les artisans Banasitains d'observer ces anciennes oeuvres les porta à vouloir les revêtir de quelque grâce ou de quelque grandeur, ils ne peuvent se soustraire à l'influence des formes nouvelles, les styles nouveaux envahissant l'architecture s'y plantent et restent reconnaissables malgré les modifications qu'ils subissent comme c'est le cas des chapiteaux corinthiens.

L'emploi plus au moins intense de ces formes nouvelles greco-romaines sur l'architecture de Banasa comme c'est aussi le cas de l'ensemble des villes de la Maurétanie Tingitane s'est propagé suivant différentes façon :

- Par divergence : il est dans la nature des créations architecturales de rayonner autour des centres ou elles reçoivent des développements considérables. De proche en proche; de province en province, l'influence des monuments romains d'Afrique et d'Espagne s'est répandue dans la Maurétanie Tingitane.
- Par transport, les villes de la Maurétanie Tingitane importaient directement de l'Occident (d'Italie et d'Espagne) de nombreux objets de céramique et de bronze, elles peuvent aussi probablement importer des formes architecturales répandant ainsi dans toutes les villes des modèles greco -romaine qui peuvent être imités.
- Et après, sur certains points, l'installation de vétérans en Mauritanie Tingitane après la création des colonies romaines, et le mélange des peuples furent tel que toutes les formes à peu près du monde romain familières aux artisans locaux, à l'exception du chapiteau composite qui; à notre connaissance, ne paraît avoir tenté le ciseau d'aucun tailleur de pierre à Banasa.

Ainsi, Banasa, port fluvial, a bénéficié, comme les autres villes de la Maurétanie Tingitane de la diffusion des modèles et des oeuvres architecturaux liés à la koiné gréco-romaine comme elle n'a pu se soustraire à l'influence des formes antérieures.

La conclusion que l'on peu tirer de ce chapitre est qu'entre la fin du premier siècle avant J.C. et le troisième siècle après les chapiteaux de Banasa paraissent indiquer une interprétation constante entre le courant de romanisation répandant le style lié à l'art greco-romain et la résurgence des formes traditionnelles liées à un « art » local imprégné d'inspirations puniques, égyptiennes et hellénistiques, ce qui à montrer non seulement le danger, mais l'impossibilité, parfois, d'expliquer les formes d'architecture à l'aide d'un seul système, d'un seul principe, la comparaison quelqu'en soit le point de départ, et ce qui est vrai pour l'architecture en Mauritanie Tingitane pourrait l'être également pour toutes les oeuvres d'arts; elles sont le produit de causes multiples toujours vivantes, qui sont employées, ou

restent inutilisées suivant la faculté que possèdent les artisans, de comprendre et de saisir la technique et la beauté d'exécution. Et même les circonstances, les conditions résultant des matériaux et des climats s'imposaient avec telle énergie qu'elles annihilaient tous les instincts artistiques. Tout n'est pas explicable, d'ailleurs, dans les formes d'architecture et c'est pour cela que Socrate disait : « L'architecture et la théorie des autres sciences analogues sont toutes connaissances accessibles à l'intelligence humaine, mais ce qu'il y a de plus grand en elles, les dieux se le réservent, sans en rien laisser voir à l'homme »(1).

II - L'ETUDE DE L'EVOLUTION DES CHAPITEAUX DE BANASA

L'étude de l'évolution des chapiteaux de Banasa présente un intérêt théorique et pratique sur le quel il n'est pas nécessaire d'insister. Terme et référence fondamentale, l'écoulement univoque du temps devrait fournir l'appui le plus sûr à toute étude de ce genre et surtout une base ferme pour la définition hiérarchisée de séries des chapiteaux. Or le décor architectural à Banasa, et même dans d'autres sites de la Mauritanie Tingitane, ne nous semble pas assez bien connu dans son évolution et si par fois l'architecture de certains centres est mieux étudiées, rares sont les cas ou sa datation peut-être bien précise. Le cas de Banasa est encore pire que les conditions de la découverte dans ce site, emploi, absence de substructions ou incertitude de l'attribution des chapiteaux ne nous permettent pas de disposer de données sûres pour l'établissement d'un cadre chronologique suffisamment précis, de plus, ces chapiteaux sont le plus souvent l'objet de découvertes isolées, donc difficilement datables. De ce fait le problème de la chronologie et de l'évolution des formes reste dans plusieurs cas posé. D'autre part on a coutume de dire que les profils les plus complexes sont les plus tardifs. Or, nous nous apercevons que sur un même site, à Banasa comme c'est aussi le cas à Volubilis coexistent profils simples et profils complexes. Ces derniers étant probablement déterminés, beaucoup plus, par l'habilité des équipes et les schémas en circulation qu une évolution chronologique qu'il reste difficile

d'apprécier en l'état actuel de la documentation. Ainsi, les différences entre les chapiteaux de Banasa, qui se rencontrent aussi bien dans l'espace que dans le temps, sont peut-être, comme nous l'avons signalé épisodiquement dues à des inégalités dans la main d'oeuvre que dans le degré de finition; cependant de façon générale, il semble aussi possible de recevoir une certaine évolution chronologique de ces chapiteaux quoi qu'elle ne peut être avancée qu'avec un maximum de prudence en l'absence de toute autre indication stratigraphique et les observations qui peuvent être faites sur l'ensemble de la structure monumentale à qui appartient tel ou tel groupe de chapiteaux.

Aussi, si les proportions des ordres des chapiteaux de Banasa, plus tassées que dans d'autres villes plus romanisées ont rarement changé au cours de cette longue période (du premier siècle avant J. C. jusqu'au troisième d'après J. C) , pour la décoration, l'évolution est plus marquée. Ainsi durant la seconde moitié du premier siècle avant J. C elle est assez réduite ,souvent composés de moulures lisses ou bien alors de motifs décoratifs sobres ou d'un décor floral ou géométrique incisé plutôt que sculpté qui unissent de vieux thèmes orientaux notamment puniques ou égyptiens, à des formes hellénistiques, sont caractéristiques de cette époque, les chapiteaux maurétaniens, les chapiteaux lisses en grès, les chapiteaux corinthisants rudimentaires. Ces types de chapiteaux vont céder la place à une gamme de chapiteaux corinthisants simples répondant aux exigences accrues après l'annexion totale de la Maurétanie Tingitane, ce qui nécessite une exécution plus facile et plus simple comme c'est le cas aussi des chapiteaux lisses tronconiques en grès trouvés à Volubilis. Le progrès accompli par rapport à la phase précédente se manifeste surtout dans le sens d'une conception plus unitaire, mieux agencée. Il est vrai que la forme architecturale est encore mal équilibrée que l'ensemble, allongé, est marqué par la prédominance d'une de ces faces, ce sont des carences dues soit au début d'une expérience soit au partie fondamentale.

L'époque impériale des Antonins voit apparaître un style plus riche et raffiné, le rôle du modèle corinthien devient très sollicité, le décor est plus prononcé et plus subtil ce qui permet de déceler une certaine conception esthétique qui essaye de tourner le dos aux anciens modèles. Nous trouvons sur ces chapiteaux les mêmes motifs ornementaux que l'art greco-romain répandu dans l'ensemble de l'empire. Les chapiteaux dits chapiteaux corinthiens impériaux figurent parmi les plus belles réussites de Banasa à cette époque. La feuille d'acanthe est plus prononcée les volutes sont plus au moins bien tracées.

A la fin du deuxième siècle et au début du troisième le développement des modes paraît plus confus, plus au moins localisé ou rattaché aux tendances générales du décor dans l'empire romain. Le règne des sévères (Sévère Alexandre et Caracalla) semble pour sa part, caractérisé par un retour à un style classique comme c'est le cas des chapiteaux appartenant à une colonnette et à une demi colonne trouvés à Banasa et qui témoignent d'une meilleure connaissance de l'art impérial romain, les techniques sont alors bonnes et le travail soigné. Cette mode, correspondrait donc à la renaissance des années 220, maintenant décelée dans diverses régions de l'Europe, aussi bien dans le décor des sarcophages que dans les portraits(2). Ces mutations ne sont pas un phénomène tranchant, elles se réalisent à travers des variantes dans lesquelles se retrouvent des procédés de composition ou de formules décoratives témoins de la survivance de certaines traditions locales détectées à Banasa et à Volubilis d'autre part.

A côté de cette gamme d'exemples bien individualisés des chapiteaux évolués, on constate la continuation d'une production de chapiteaux grosso-modo de type simple dont on ne peut pas préciser la datation.

Par la suite les thèmes s'appauvrissent et quant il ne s'agit pas de remploi, un retour semble se faire au décor simple comme c'est le cas des chapiteaux corinthiens à feuilles lissent. D'autres chapiteaux, dont l'exécution paraît souvent maladroite ou

sommaire paraissent dater aussi de cette époque sans que l'on puisse préciser davantage cette datation.

La première impression qui se dégage des constructions appartenant probablement à la deuxième moitié du troisième siècle après J.C. est une certaine confusion due en raison même des premières fouilles entamées dans le site de Banasa qui sont restées sans suite exposant ainsi l'ensemble du site à l'abandon et au pillage, et en particulier, certainement, des remaniements successifs et du remploi de matériaux hétérogènes qu'à connu le site peu avant son abandon total.

En effet, les fouilles de R.Thouvenot ont démontré que nombres de changements ont commencé dans ce site dès la deuxième partie du troisième siècle. Ainsi, si on se réfère à ces données archéologiques, on constate qu'à cette époque le paysage monumental de la ville ne cesse alors de ce transformer. C'est ainsi qu'en bordure du forum dans le macellun, des murs de refonds en moellons et mortier de terre subdivisent des salles ouvertes sur le portique, qui sont détournées manifestement de leur destination première et deviennent très probablement des locaux d'habitation(3). Des déformations ont été aussi constatées dans le plan du capitole, qui présente des axes brisés et la structure des murs et des supports frappe par son hétérogénéité; cela est dû probablement au remploi des murs antérieurs à la profusion des matériaux disponibles, des blocs de grand appareil déjà taillé, de colonnes, de bases, de chapiteaux, récupérés dans les bâtiments des époques antérieures. Il ne s'agit plus de restaurer ou de décorer de nouveau, de vieux édifices délabrés tout en leur conservant leur ancienne affectation mais de déformer délibérément la destination originale de ces édifices.

R.Thouvenot nous dit à ce propos :

« A une date tardive, en effet, a vécu sur l'emplacement de la maison romaine une population qui avait perdu le souvenir sinon de son existence, au moins de la disposition des aitres, elle a dû abattre certains vestiges de murs en reconstruire d'autres en aveuglant les portes, car il ne lui fallait que de petites demeures,

et à l'angle Nord de l'atrium, elle a bâti de petites latrines bien au dessus du sol romain... près sur le côté Nord, près des termes à la mosaïque dionysiaque, les deux pièces 1 et 2 sont des boutiques semble t-il. Le palier de cette pièce jugé trop grand a été rétréci par un mur adventice qui a permis d'aménager un grand vestibule, traversé par une canalisation en briques. De chaque côté, en bas en haut de l'escalier, devraient en dresser deux piliers connelés dont les baguettes entre les camalures ont été aplanies à la boucharde (dont ne se sont retrouvés que les morceaux), couronnés par des chapiteaux quadrangulaires qui rappellent en petit ceux du capitole; Certaines marches sont entaillées dans des pierres de gros appareil, on dirait qu'à ce moment on ne savait plus tailler ni ajuster de marches rectangulaires sur un bâti de terre ou de maçonnerie, ou qu'on n'avait plus les moyens de faire venir d'ailleurs les pierre nécessaires, on s'est servi alors des blocs provenant de quelque autre édifice démoli. »(4).

Les mêmes constatations sont aussi détectées dans le quartier Sud-Est de la ville : « Les bâtiments voisins, qui continuent vers le midi de la même rive du cardo, sont en trop mauvais état pour qu'on puisse même deviner leur destination. *Mais leur grand intérêt est de nous présenter, en raccourci* saisissant l'état de Banasa lorsqu'il est définitivement abandonné. Ce sont des murs *la plupart du temps construits avec* des blocs taillés enlevés à des monuments publics détruits, pierres à bossage, tambours de colonnes, chapiteaux, dont les intervalles sont aveuglés avec la terre et de la pierraille. Plus le bloc était volumineux mieux il faisait l'affaire, car s'il était plus difficile à transporter plus vite s'élevait le nouveau mur. »(5).

Nous ne pouvons que multiplier les exemples et les témoignages archéologiques attestant ces différents remaniements et plus encore le bouleversement architectural qui se reflète des fouilles de Banasa juste avant son abandon et nous ne pouvons que souscrire à la constatation de R.Thouvenot lorsqu'il dit : « La dernière période de Banasa que nous ne

savons encore exactement dater, vit une population moins nombreux et plus pauvre. Quelque catastrophe, comme l'arrivée des premières bandes germaniques, celles qui détruisirent Tarragone en Espagne et vinrent se faire écraser près de Tamuda sous Gallien ou quelque Invasion des Maures insoumis sous Murélin ou Probus, dut contraindre les riches a enterrer leur argent et à s'enfuir précipitamment. Beaucoup ne revinrent pas. Les survivants, pour aménager les anciennes demeures, purent piller impunément les monuments publics avec l'aveu des autorités municipales si elles existaient encore. Plus de commerce, donc plus de monnaies, la vie se retira peu à peu de ce petit centre agricole qui dut mourir obscurement.»(6).

Ainsi, ce n'est pas exagéré de dire que l'architecture de Banasa en cette époque du troisième siècle, est, en grande partie, une architecture de remploi. Les données archéologiques que nous avons évoquées ci-dessus suffisent à prouver que les remaniements sont tardifs et aussi que les artisans ne manifestèrent aucun souci de soins dans l'aménagement des lieux, ce qui correspond parfaitement aux critères de cette période. Et ici, le fait significatif est que, dans beaucoup de constructions en cette époque, les artisans ont renoncé à créer librement et à produire des formes nouvelles pour l'ornementation de leurs édifices, ils se sont contentés d'emprunter les éléments d'architecture: frises, chapiteaux, bases des édifices avant déjà existé et si parfois on a inventé pour des édifices nouveaux ou remaniés des formes et des détails contemporains, ce n'est pas, dans la plupart des cas, vraisemblablement, dans l'intention de créer un style nouveau, mais pour parer à l'absence de matériel ancien, car ces formes nouvelles répondent rarement à un désir de création artistique, ce sont des imitations plus ou moins lourdes de chapiteaux déjà conçue comme c'est le cas de certains chapiteaux corinthiens tardifs trouvés à Banasa.

Nous parvenons ainsi à saisir, de manière claire, à Banasa, toute une série de remaniements attribuables, selon des critères

plus ou moins sûrs mais cependant convaincants à cette époque (le dernier tiers du troisième siècle).

C'est vrai que les dégagements anciens ont malheureusement fait disparaître beaucoup de ces vestiges, sans qu'ils soient signalés dans les maigres rapports de fouilles, ou du moins détruit leur contexte archéologique Or, actuellement, la problématique concernent l'histoire de l'abandon romain de la Maurétanie Tingtane se pose en termes qui remettre radicalement en question la vision traditionnelle d'une décadence irrémédiable s'amorçant dés le dernier tiers du troisième siècle après J.C. surtout pour les centres situés à l'intérieur du pays. L'attention prêtée aux données archéologiques avait, depuis quelques temps, soulevé des questions posées avec précision en particulier par O. AKERRAZ en ce qui concerne Volubilis. Malheureusement ces travaux archéologiques n'ont guère dépassé cette dernière ville et il reste encore beaucoup de renseignement à tirer des autres centres notamment de Banasa où le problème reste encore posé.

Nous sommes encore incapables de décrire cet abandon d'autant plus, que les circonstances de cet acte nous sont totalement inconnues. La ville ne semble pas voir été prise ou détruite, mais brusquement désertée. Des dépôts monétaires témoignent de la panique qui a pu précéder immédiatement ce drame sans plus. En effet, à l'heure actuelle une bonne partie de la fin de l'histoire de la ville nous échappe encore, car à part une inscription et quelques monnaies nous ne disposons d'aucun autre élément émanant des sources directs, susceptibles d'éclairer la question. De plus, des études exhaustives analysant tous les aspects de cette question en tenant compte de tous les éléments dont on dispose sont très rares même si l'essentiel des travaux réalisés par R. Thouvenot est entièrement publié, faute de fouilles stratigraphiques précises. R. Thouvenot, affirme à propos de l'abandon de Banasa qu'entre la fin du règne de probus et les premières années de Dioclétien les maures de l'Atlas rompirent les communications entre la Césarienne et le Tingitane. Dans le

même temps les maures du Rif, Baquates ou autres, descendaient dans le Rharb et détruisaient Banasa de fond en comble » (7).

Or, comme l'ont relevé les fouilles de Banasa et comme l'a constaté aussi O. Akerraz, aucune destruction violente n'a été constatée, et cette « affirmation ne repose sur aucune observation archéologique mais sur une interprétation de l'absence de monnaies et d'inscriptions à partir du règne de probus qui est difficile à suivre » (8).

En effet, les plus récentes inscriptions découvertes à Banasa sont celles en l'honneur d'Aurélien et sa femme Ulpia Severina datées en 272-275 et comme le remarquait J. Mario : « S'il n'y avait pas à Banasa de dédicaces à Aurelien et à Ulpia Severina, son épouse, peut être même à Carus, on pourrait croire que toute vie s'y était éteinte dans les derniers jours de 270 »(9).

Quant aux monnaies les plus récentes découvertes, elles sont trois pièces d'Aurélien et deux de Probus. Aucune monnaie correspondant aux règnes de Carus et Numerien ne fut découverte à Banasa. Ces cinq pièces caractérisent bien l'économie pauvre de la ville à cette époque et témoignent aussi d'une mauvaise circulation monétaire.

Nous ne comptons guère s'étaler sur ce problème de l'abandon de Banasa qui nécessite une documentation assez argumentée, mais signalons tout de même que dans la période qui nous occupe c'est à dire le dernier tiers du troisième siècle, le pays possède déjà au point de vue historique certains traits communs avec les autres provinces de l'empire romain ; nous ne trouvons presque nulle part dans cet empire un état de chose tranquille, consolidé, il s'agit plutôt, d'une époque troublée, caractérisée par les guerres qui s'étendent dans tout l'empire. La Maurétanie Tingitance comme on l'a déjà démontré, s'ouvre davantage sur la Bétique que sur le reste du continent africain. Il paraît donc logique de supposer que cet abandon ait été associé, ne serait ce que d'une manière indirecte aux bouleversements qui ont secoué l'Occident romain. Mais nous ne pensons pas que cet acte a été instantané car la nature même et la maladresse des

différents remaniements effectués à Banasa à cette époque, et que nous avons nuancés, attestent d'une certaine survivance dans cette ville, probablement jusqu'à une époque plus récente que celle déjà proposée pour l'abondon de la ville de Banasa. Nous rejoignons ainsi la constatation d'AKERRAZ sur ce site lorsqu'il dit :

« La continuité de l'habitat à Banasa et à Thamusida, au IV siècle, peut-être même après, n'est pas démontrée les fouilles de ces deux cites ont relevé plusieurs remaniements tardifs et des vestiges installés au-dessus de maisons devant appartenir aux mêmes étapes de l'habitat que nous avons décelé à Volubilis»(10).

Conclusion

La répartition chronologique des chapiteaux de Banasa, si elle ne permet pas de saisir une évolution nettement distinguée de ces éléments d'architecture il est possible néanmoins de discerner à certaines époques des groupes de productions relativement homogènes. Mais là encore il faut rappeler les difficultés que l'on rencontre dès qu'on cherche plus de précision faute de documentations bien datées.

Ainsi, Banasa apparaît comme une ville qui avant l'annexion totale de la Maurétanie Tingitane nous offre une gamme de chapiteaux dont l'exécution paraît souvent maladroite sommaire, reflétant l'influence punique.

L'époque impériale brille, quant à elle, par une certaine évolution dans le goût comme dans l'exécution des chapiteaux. Nous trouvons les mêmes motifs ornementaux qui caractérisent l'art greco-romain.

L'époque allant de la fin du deuxième siècle après J. C. jusqu'à la première moitié du troisième siècle est celle de l'apogée de l'architecture à Banasa, les chapiteaux sont plus évolués, le travail est plus soigné et plus du prototype du chapiteau corinthien classique que l'architecture romaine a diffusé.

Ainsi les chapiteaux de Banasa donnent une image d'une architecture qui d'une part est commencement et renouveau et

qui d'autre part reprend des traditions antérieures multiples, parmi lesquelles il faudrait faire une part de celles qui sont d'origine locale, car nombre de particularités trahissent une certaine prédilection pour l'emploi de certains éléments, particularités qui, probablement, ne tiendraient pas seulement à la fantaisie du décor, mais à une préférence délibérée d'un certain style provincial local.

(1) - XENOPHN, **Mémoire sur Socrate, L**

(2) - G. PICARD, **Le septizonium de Cincari, Monuments, Piot**, 1962, p. 89.

(3) - R. TOUVENOT, **P.S.A.M.**, 1951, p. 82.

(4) - R. TOUVENOT, ALLUQUET, **« Le Macellum et les bâtiments » P.A.A.M. 9**, 1951, p. 82.

(5) - Ibid, **« Le quartier Sud-Est de Banasa » P.S.A.M 9**, 1951, p. 74.

(6) - R. THOUVENOT, A. LUQUET, **P.S.A.M.**, XI, 1954, p. 57.

(7) - R. THOUVENOT, Une colonie romaine Banasa p. 67.

(8) - Aomar AKARRAZ, Le Maroc du Sud de Diocletien aux Idrissides, thèse de doctorat, Paris, IV, 1985, p. 36.

(9) - J. MARION, Antiquités Africaines, T, 12, 1978, p. 209-210.

(10) - AO. AKERRAZ, Op. cit., p. 209.

متابعات

- نص قرار بلدية سالا سنة 144 م
- وثائق عرفية : منطقة دادس
- أهل فاس بعيون أندلسية
- البلديون الفاسيون

نص قرار بلدية سالا سنة 144 م
والظروف المحيطة به

مصطفى أعشي*

بعد مرور حوالي مائة سنة على احتلال الرومان للجزء الشمالي الغربي من موريطانيا التي أطلقوا عليها موريطانيا الطنجية نسبة إلى مدينة طنجة ورغم محاولاتهم الساعية إلى إقناع الموريين، بشتى الوسائل والإغراءات، بقبول هذا الاحتلال والتعامل معه، إلا أنه يبدو أن الرومان فشلوا في سياسة استمالة الموريين إلى جانبهم، مما أدى إلى وجود حالات انعدام الأمن والاستقرار، واستمرار انتفاضات وثورات المجموعات البشرية المورية. وعلى الرغم من أن النصوص التاريخية الرومانية والنقائش الأثرية لا تمدنا بمعلومات كافية حول هذه الانتفاضات والثورات فإنه ، بين الفينة والأخرى، يستخرج رجال الآثار والباحثون شهادة من تلك الشهادات التي تشير إلى انتفاضات الموريين ورفضهم للمحتل الروماني.

كما أننا نستعين، لقياس حالات الثورات أو الهدوء، على مجموعة من المؤشرات نحاول أن نستخلص منها الحد الأقصى من المعلومات.

فبالنسبة لحالات الثورات والاصطدامات مع الرومان نتساءل مثلا: هل أنشئت أسوار للمدن؟.

– أستاذ باحث في التاريخ القديم والآثار جامعة محمد الخامس

وهل تم بناء قلعة عسكرية أو معسكر ؟ - وهل عين حاكم للولاية يتمتع بصلاحيات استثنائية ؟ - وهل شمل هذا التعيين ولاية مجاورة ؟ -وهل استقدمت تعزيزات عسكرية من خارج الولاية ؟. وفيما يتعلق بحالات السلم وعودة الهدوء، نتساءل : هل سرح الجنود الذين أنهوا خدمتهم؟ لأن عملية التسريح لا يمكن أن تتم قبل عودة الهدوء. وهل رفع مذبح للسلام؟ وهل وقعت معاهدة سلام؟. وهل أقيم موكب للنصر؟ وهل خلد النصر على نصب تذكاري ؟ لأن مذبح السلام ونصب النصر يستلزمان القيام بحرب قبل ذلك.

وتصبح هنا مذابح السلام ونصب النصر شواهد على انعدام الاستقرار.

والجدير بالإشارة هنا، أن حالات المواجهة والاصطدام بين الموريين والرومان ينظر إليها من زوايا مختلفة: فمن جهة الموري، فهي مقاومة ودفاع وثورة ضد الأجنبي ودفاع عن أرض الآباء والأجداد وملحمة المعارضة الشرسة والاستعادة البطيئة لأرض ضائعة.

ومن وجهة نظر الروماني، فترى على أساس أنها قصة أمجاده وينظر إلى الثوار كلصوص وعصابات تهدد أمن واستقرار مناطق النفوذ الروماني.

وبما أن اللغة الأمازيغية لم تترك لنا، لحد الآن نصوصا مكتوبة تتعلق بهذا الموضوع فإن النصوص والنقائش المتوفرة هي نصوص عسكرية رومانية بالدرجة الأولى، تتعلق بحملات القادة العسكريين الذين يقدمونها محاطه برؤية عقلانية في الوقت الذين يعرضون فيه أعمال الثوار المور على شكل فوضوي ، ولا يتعرضون فيه لأهداف وبواعث الثوار ومطالبهم لذلك يجب أن نتحرى وأن نضع على المحك كل ما يذكره العسكريون الرومان، والنتائج التي يعتقدون أنهم حققوها والتي يركزون فيها على الصراع بين الخير المتمثل في الرومان، والشر المتمثل في المور، طوال سنين احتلالهم لموريطانيا الطنجية.

ومن تلك النصوص التي تشير بطريقة غير مباشرة إلى حالات عدم الاستقرار في المنطقة المحيطة ببلدية سالا، نص قرارها الذي يعود، على ما يبدو،

إلى حوالي 144م والذي سنحاول تقديمه ودراسة جميع جوانبه والظروف المحيطة به.

منذ بداية القرن الثاني الميلادي – وخاصة في عهد الإمبراطور الروماني هادريانوس (117 – 138)(1) – عرفت موريطانيا الطنجية انتفاضات وثورات قامت بها العديد من المجموعات البشرية المورية التي تعرضت مجالاتها لعمليات تحديد من طرف السلطة الرومانية. وتعتبر عمليات تحديد مسار تحركات المجموعات البشرية ومجالاتها نقط إثارة ومواجهة اصطدام بينها وبين القوات الرومانية، بل وإشعال الثورات، وهذا لا يشار إليه في المصادر الرومانية إلا بطرق غير مباشرة. وعلى الرغم من أن هذه المصادر لا تخبرنا بذلك بطريقة صريحة، فإن مقاومة المور تمكنت من إيقاف وتثبيط عزم المبادرات الرومانية مرات عديدة عندما تفرض على القوات الرومانية الاكتفاء بالدفاع. وكمثل على ذلك، حالة الهجوم على كارطينا (تينس الحالية بالجزائر) التي يمكن اعتبارها هجوما موريطانيا مضادا لمواجهة استيلاء روما على جزء من مجال المجموعات البشرية. لأن رد الباكوات كان يتمثل في الهجوم على مدينة بعيدة عن مواطنهم بحوالي 400 كم.

وأن هجوما مضادا من هذا النوع وإن لم ينجح، لايمكن أن يحدث دون أن تكون له نتيجة. وهذه النتيجة، التي يمكن اعتبارها نوعا من الردع، تتأكد إذا تقبلنا رأي فريزول القائل:"ليس ممنوعا أن نعتقد في هجوم كبير لا يستهدف في الأساس كارطينا، إلا أنه وصلها بعد عدد من المدن التي لم تذكر"(2). ومهما كانت الأسباب، من الملاحظ أن الانتفاضات الخطيرة يمكن أن تحدث لأسباب لا تمس مباشرة أو ظاهريا حياة الإقليم، مثل سد الطرق التقليدية، المؤدية لمجالات الانتجاع في وجه المجموعات البشرية في الشرق، مما جعلها تتجه غربا للبحث عن مجالات أخرى. وهذا ما أدى إلى تكاثر الضغط على المجموعات الموجودة في موريطانيا الطنجية. وتشهد الشهادات العسكرية المكتشفة في كل من وليلي وبناسا(3) بوجود القلاقل والانتفاضات اعتمارا للزيادة في عدد أفراد الجيش المرابط في موريطانيا الطنجية.

كما تشهد على حالة انعدام الأمن نقائش عثر عليها في موقع سالا (شالة الحالية) مكتوبة على قاعدة تمثال، وتتضمن ثلاث نقائش(4))أنظر الصورة رقم 1): على الواجهة الأمامية وعند قدم التمثال نقيشة التقدمة المرفوعة لقائد الحامية العسكرية ماركوس سولبيكيوس فيليكس. وعلى الواجهة اليمنى للقاعدة نص قرار مجلس بلدية سالا.

أما الواجهة اليسرى فتحمل لائحة تتكون من ثمانية وثلاثين (38) اسما هم عبارة عن أصدقاء قائد الحامية.

نص التقدمة الموجودة على الواجهة الأمامية: (إلى ماركوس سولبيكيوس ابن ماركوس (الملقب) فيليكس القاطن بروما والمسجل (كمواطن روماني) في قبيلة كويرينا.محررهم وحاميهم (الذي شغل المناصب التالية) قائد الفصيلة الجرمانية الأولى، وتربيزون عسكري للفرقة الفلافية السادسة عشرة، الحازمة والأمينة وتربيون عسكري للفصيلة الأولبية الثالثة والبالغ تعدادها ألف رجل. ثم عين بعد ذلك واحتفظ (بمنصبه) للقيام بإحصاء (المواطنين وما يملكون) في قسم من ولاية أرمينيا، وفي كبادوشيا. وأصبح قائدا للجناح الثاني السوري المكون من المواطنين، فنظرا لمحبته لبلدية سالا ولإحسانه لها، رفع له أصدقاؤه هذا التمثال ووضعوا بجانبه قرار مجلس العشرة(5).

أما النص المتعلق بأصدقاء قائد الحامية فيتضمن ثمانية وثلاثين اسما مكتوبة على عمودين، والأسماء هي :

العمود الأول	العمود الثاني
م. فاليريوس فابولوس	ك. فابيوس فابريسيانوس
ك. فابيوس فيفاتيانوس	ك. فاليريوس مارتياليس
م. أنطونيس باسيانوس	م. فابيوس فيبيليوس
ك. فاليريوس ساترونينوس	ك. انيوس كابيطو
5 ك. فابيوس فيدوس	ك. ايونيوس كاسيلنوس

ل. فابيوس فابيانوس	ل.فال. كورلبنيوس ساتورنينوس
ك. كاسيوس ساتورنينوس	م.فالبريوس بوليو
ل.فالبريوس كالوس	ك. ايونيوس او فنيانوس
ك. فاليريوس روكاطوس	سيكس. انطونيوس باسيننوس
10 ب. بوستمبوس هير ميساندير	م. كاسيوس كاسيانوس
ك. انطونيس بريسكوس	ت. كاسيوس باسيانوس
ك. فابيوس موديستوس	ت. ايلبوس افريكانوس
ك. فالليبريوس افيتوس	ك. اتيليوس زوباس
م. فالبريس كابيتو	ل. كونيلينوس فيكتور
15 ك. بونتيوس كابتولينوس	كم. كورنيليوس كورنيلبانوس
ل. هورتينسوس موروس	كن. فاليريوس بريموس
ك. فابيوس بودنس	ل. فابيوس املندوس
م. ايونيوس كاسيانوس	
ك. هبرينوس توسكوس	

20 ك. فاليريوس ساتونينوس وت. ايبليوس زوسيموس(6)

وفيما يتعلق بنص قرار مجلس العشرة الذي يتضمن ثلاثة وثمانين سطرا، فهو:

"في عهد لوليوس افيتوس وستاتليوس ماكسيموس [144م] وبخمسة أيام قبل فاتح نوفمبر [28 أكتوبر] اجتمع مجلس شيوخ سالا في الكورية الأولبية.

وبعد أن استمع الأعضاء إلى كايوس فاليريوس روكاطوس، وببليوس هيرمساندير – اللذان يكونان مجلس الاثنين [بالبلدية] – إلى الخبر المتعلق بتعيين خلف لسولبيكيوس فيلكس، ونظرا لنماذج أعماله الفريدة التي خلفها، فمن الأليق الآن، خاصة وبعد أن اعترف له العموم بالجميل فيما سبق، أن تكافئه بالمرة [هذه المكافئة] المستوحاة ليس من الود فقط ولكن من حكم ذي تعليل واضح.

فنظرا لأنه كان من اللازم الإنعام عليه بالأمجاد الجديدة في كل مرة [مقابل] الخدمات الجديدة التي أداها للجماعة، وأعمال الخير المقدمة للأشخاص، ولأنه من جهة أخرى [كان من الواجب] العمل على إبراز الأمل المماثل أمام أنظار أولئك الذين سيتصرفون بالمثل. وعن سؤال حول معرفة نوع الخلاصة التي ستعطى لهذا المحضر، فقد وافق رجال العشرة بالإجماع على الرأي الذي صاغه كوينتوس كورنيليوس كابيلا واتخذ القرار التالي:

(نحن السلويون)

"اعتبار لكل أعمال الجيد جدا والنادر جدا القائد سولبيكيوس فيليكس الذي جعلنا لا نتمنى له أحسن من القدر الذي جعله يولد مواطنا [رومانيا]، ويرتقي فيما بعد إلى هذه الوضعية البارزة، وهو الجدير بالقرارات السماوية التي أسندت إليه ثلاث قيادات من مستوى الفرسان، قبل أن يتجاوز مرحلة الشباب، والجدير بدروس اورتيديوس هونوراتوس، الشخصية المتنورة ومعلمه الأكيد في نشاطه المدني والعسكري. وبما أنه كان بإمكانه أن يلمس من بعيد نموذجا رفيع المستوى، ظن أنه لا يمكن إيجاد شيء أكثر شرفا لكرامته، عن رضى وال عظيم، ولا شيء يستسيغه في ذكراه إلا حبنا وذلك بتحريرنا، - ومع ذلك بالتي هي أحسن - عملا برصانته، من العنف والسلب الذي كنا قد اعتدنا عليه(7). أو أننا نكتشف في شؤون ماليتنا كونه حكيما متسامحا دون ضعف، وعادلا دون تشدد. وفيما يتعلق بالمشاكل الصعبة التي تواجهه في الأوقات المظلمة، وبالخسائر المتساوية للعموم والخواص، فيوضحها ببصيرة ويقضي فيها بالعدل، وذلك إما بإحاطة بلديتنا في نقطها الخطيرة، بجدران جد قوية وبأثمنة جد منخفضة ، وأما أن يعالج [الأمور ويقضي فيها بسرعة وبحكمة].

فأمام ضغط صعوبات التموين اقتطع من زاد فرقته، وغالبا لفائدة [سكان البلدية]، ودائما على حساب جنوده، واعتبارا أيضا للخصال التي تشهد له بروح الوفاء، وبأنه معتدل أكثر من الحدود التي بلغها أسلافه، ومتواضع، ووديع وعفيف،

ويحترم مجلس الشيوخ: و[كان] صديق الشعب وشغوفا بواجبه، دبر لنا المرور الحر إلى غاباتنا وضيعاتنا، لدرجة أنه ضعف من الحرس لحماية العمال. وفضلا عن ذلك فحياته مليئة باللطف، وفي جميع الظروف، وقد أظهر انشغالا كبيرا بالعدل والمساواة، فإذا [تعلق الأمر] باستعمال الأملاك الجماعية بين أعضاء الجماعة، كان يتقدم الآخرين ليس اعتمادا على سلطته، ولكن لالتزامه. ونحن نعتبر سهره دائما كجميل مستساغ في الحاضر وكنموذج صحي للمستقبل.

واعتبارا لكل هذه الأعمال وهذه السيرة، فقد اتفقنا في السابق على جعل سولبيكيوس فيليكس عضوا في مجلس العشرة مع منصب عضو سابق في مجلس الاثنين، وهو القرار الذي وافق عليه والينا الممتاز بالترحاب. والآن ، وبالإضافة إلى ذلك، وبعد أن عين له الآن خلفا، فإننا نفكر في ذهابه بكثير من الإدراك المشوب بالخوف لدرجة أننا بالكاد، لو نستطيع تخفيف الأفق المحزن لحسرتنا، بالأمل الكبير في ترقيته في المستقبل، [ولأجل ذلك] فقد ارتأينا أن نكافئ بأعلى مناصب الشرف، الرجل الذي ظل يقدم لنا الخدمات الاستثنائية، كما نلتمس في المقابل من الوالي، الكثير التسامح والسعيد باستمرار، من ثناء قواده عليه، لدرجة أنه الوحيد الذي يعرف أنه يعود إليه الفضل في أن يتقبل منا هذه الحظوة: كما أننا بالتالي نريد أن نبرئ ذمتنا [تجاه سولبيكيوس]، وذلك بأن يرخص لنا بإقامة تمثال لفائدة قائده وزميلنا في مجلس شيوخ سالا، حتى لا نضيع الشخص الذي نتذكر حسناته. كما وأنه في نفس المكان الذي كرمه رجال البلدية الشرفاء بالتمثال، الذي أقيم له اعترافا بالخدمات التي قدمها للجماعة، لا يعيب شيئا – الغياب الذي يعني الجمود – هذه الجماعة التي كافأته بنفسها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، السماح لنا بإرسال بعثة إلى شخصية الأمير المقدسة تمجد سولبيكيوس فيليكس الذي كان بالنسبة لنا القائد الذي يجب أن يكون في هذا القرن الأغسطسي، وتحت امرة التوجيه السليم لأوتيديوس هونوراطوس [وفي انتظار ذلك نقترح] تكليف فابيوس فيدوس وفاليريوس بولوبان بأن يقدموا للوالي الجليل دلائل هذه المحبة العمومية

التي يعبر عنها مجلس الشيوخ والشعب [يسالا]، وأن يشرحوا له [أولا وقبل كل شيء] بأننا لم نصوت لتكريم سولبيكيوس وكل ما له في رقبتنا، لكن فقط ما خلف لنا تواضعه لمكافأته(8).

المعلومات التي يقدمها لنا النص

يحدثنا هذا النص عن قائد الحامية العسكرية المرابطة ببلدية سالا – من الجناح السوري الثاني المكون من المواطنين الرومان – واسمه ماركوس سولبيكيوس فيليكس. قدم هذا القائد حسب نص العشرة لسالا وسكانها خدمات منها:

1 ــ أنه دافع عنهم وحماهم من العنف والسلب الذي تعودوا عليه مدة طويلة. وأصبح بإمكانهم المرور إلى غاباتهم وضيعاتهم لاستغلالها، هذا بالإضافة إلى أنه كان يضاعف من الحراسة لحماية العمال أثناء مزاولتهم لأعمالهم.

2 ــ أحاط مدينة سالا في نقطها المهددة بجدران قوية.

3 ــ أمام الصعوبات التي كانت تعترض سالا في تموين سكانها اضطر إلى أن يقتطع من زاد الحامية لصالح السكان.

ولأجل هذه الأعمال وغيرها أقام له أصدقاؤه تمثالا بالمدينة تكريما له وتخليدا لذكراه.

من خلال هذا النص تتضح حالة انعدام الأمن والاستقرار في سالا وضواحيها في العبارة (ad solitis niurus pe corumqcue iactura) التي تشير بوضوح إلى وجود سرقات دورية معتادة، يعني أنها كانت منذ مدة. فكلمة سوليتيس (solitis) التي تعني بصفة اعتيادية، تؤكد أن السلب والنهب لم يكن وليد الساعة، بل كانت المنطقة تعرفه منذ مدة. لذا يحق لنا أن نتساءل: متى بدأت هذه الحالة؟ ومن يقوم بها وما هو الدافع لذلك ؟

بالنسبة لتاريخ بداية السلب والنهب في نظر الرومان، والذي يمكن أن نسميه تاريخ الانتفاضات، أو هجومات المور على سالا. من الصعب الإجابة على هذا السؤال بالضبط نظرا لعدم توفرنا على وثائق تشير إلى ذلك.

وكل ما يمكن أن نقوم به هو اقتراح بعض التواريخ انطلاقا من تاريخ تكريم سوليبيكيوس فيليكس ورجوعا إلى الوراء إلى تاريخ تعيينه على رأس الحامية العسكرية بسالا.

فبالنسبة لتاريخ التكريم حدد في 28 أكتوبر 144م، وهو التاريخ الذي أصدر فيه مجلس شيوخ سالا القرار الخاص بتكريمه، بعد ان اتضح لهم أنه سيعوض وسيغادر سالا بعد انتهاء مهمته فيها. ولكن هل تاريخ التكريم وتعويضه يشيران بالفعل أيضا إلى أن حالة الاضطرابات قد انتهت – ولو مؤقتا – أم أنها لا تزال مسترسلة ؟ وهل مجيئه صادف وجود هذه الهجومات أم أنه جاء للقضاء عليها ؟ يعني هل كانت هذه الأحداث هي السبب في مقدمه إلى سالا مع الجناح السوري الثاني ؟

من الصعب القطع في هذا أو ذاك الآن، إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن الزمن الذي تتطلبه مختلف الإجراءات التي تسبق إقامة تمثال التكريم، تجعلنا نعتقد أن الأحداث التي تعرضت لها سالا وضواحيها وقعت قبل سنة 142م، يعني في نفس الوقت الذي كانت فيه السلطة الرومانية تفاوض زعيم الباكوات وتنعم عليه بالمواطنة الرومانية(9).

فهل الحالة في شمال وجنوب مدينة سالا هي التي دفعت بحاكم ولاية موريطانيا الطنجية إلى التفاوض مع الباكوات سنة 140م وعقد الصلح معهم حتى يتفرغ لمواجهة الحالة؟ فإذا كان الأمر كذلك، فإذن ستكون الأحداث التي عرفتها سالا تعود إلى ما قبل سنة 140م أي إلى بداية عهد حكم الامبراطور أنطونين (138 – 161م). وهذا يعني أن مدينة سالا كانت تعرف الاضطرابات والهجومات منذ سنة 140م، وربما قبل ذلك، لدرجة أن السلويين يعترفون في قرارهم بأن الهجومات كانت عملية اعتيادية (Solitis iniuris). فما دامت اعتيادية، فقد استمرت إذن حالة الاضطرابات مدة طويلة. كما أنه لا يبدو أن هذه الأحداث توقفت أو قضي عليها لأن حاكم الحامية بسالا غير، وربما تغييره يدل على فشله أكثر مما

يدل على نجاحه. وأن الوفود التي أرسلت إلى الوالي والامبراطور كان الهدف منها الدفاع عنه وعدم معاقبته أكثر منها تكريمه.

والمرجح أن طابع الانشغال بأحداث موريطانيا الطنجية، التي بدت مؤشراتها الأولى في سالا ثم تكررت وترددت بين باقي المجموعات البشرية الموريطانية إلى أن انتشرت في الموريطانيين عند نهاية 144م، تسبب في تغيير المسؤولين الكبار كذلك، وكانت الاستعدادات في روما قائمة في محاولة لوضع حد لها. ويخبرنا قرار سالا أنه كان على رأس الولاية وال ينتمي إلى مجلس الشيوخ وهذا دليل على العناية الخاصة التي تولدت نتيجة للحالة القلقة في ولاية موريطانيا الطنجية، التي كان ولاتها عادة ينتمون إلى فئة الفرسان. ويبدو أن الوالي الجديد أوتيديوس هونوراطوس كان يحكم الموريطانيتين الموحدتين تحت إمرته (القيصرية والطنجية) بصفته وكيلا للامبراطور ويتحكم في الفرق العسكرية الرومانية. وأن تعيين شخصية من هذا المستوى دليل على وجود تحركات خطيرة بالطنجية سنة 144م. ولأن العمليات العسكرية ستشمل الطنجية والقيصرية في السنة التالية حسب رأي كاركوبينو(10) وباراديز(11)، إذ أن إسناد مهمة فوق العادة لهذا الوالي تتضمن سلطات وإمكانات استثنائية مما يعني أنها كانت تتجاوز من بعيد إطار أحداث سالا وأن موضوع هذه المهمة عسكري بالدرجة الأولى. وهذا يؤكد أنه في سنة 144م حينما صوت مجلس شيوخ سالا على قرار التكريم فإن العمليات العسكرية المهمة قد بدأت، رغم أننا لا نجد لها صدى في نقيشة سالا. هذه النقيشة التي اهتمت بمختلف التفاصيل الدقيقة للتكريم بينما لم تتعرض ولم تشر من قريب أو بعيد للانتصارات التي أحرزها القائد سولبيكيوس فيليكس لو كان هناك انتصار. ولذلك فإن تعيين أوتيديوس هونوراطوس ليس له علاقة بتدبير مستعجل اتخذ بسرعة تحت ضغط الأحداث، بل يبدو وكأن الأمر يتعلق بإجراء يدخل في إطار مخطط عملي أكثر اتساعا يستهدف تهييء هجوم عام ضد المور(12) لحماية بعض المستعمرات الرومانية الواقعة على الشاطئ في الموريطانيتين القيصرية والطنجية، وتشتيت

قوات المور[13]. وهذا ما يرجح أن أحداث سالا كانت بداية فقط لأحداث أخرى ستنتشر وتعم الموريطانيتين، وبالتالي فإن تغيير قائد الحامية سولبيكيوس فيليكس لا يعني بالضرورة انتهاء الأحداث، بل ربما قد يعني عدم نجاحه في القضاء عليها.

وإذا راجعنا حياة الإمبراطور انطونين الورع (132 – 161م) في تاريخ اغسطس نجد أنه قام، بواسطة وكلائه، بعدد من الحروب[14] منها حروب بموريطانيا، وذلك على الرغم من أن المؤلف لم يميز بين موريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية، فهل هم مور القيصرية أم مور الطنجية أم هما معا ؟ ربما كانت الحالة في الموريطانيتين جد قلقة مما استدعى المبادرة الإمبراطورية، فبدأت العمليات سنة 145 بالقيصرية واستمرت إلى سنة 147، حينما أبحر تيتوس فاريوس كليما نص من اسبانيا مع تعزيزات في اتجاه موريطانيا الطنجية[15].

واعتمادا على بوزانياس فإن آخر الثوار طرد في اتجاه الأطلس على أطراف ليبيا[16]. كما يبدو أن الهجومات المورية انتهت سنة 150م، لأنه في هذه السنة أصبح لموريطانيا القيصرية واليها الخاص. وهذا يعني أن جمع الولايتين بيد أوتيديوس هنوراطوس انتهى سنة 149م أو بداية سنة 150م[17]. وبذلك أصبح لكل ولاية حاكمها الخاص بها من الفرسان كما يحدث في حالات السلم.

إعفاء سولبيكيوس فيليكس راجع لفشله ؟

وبما أن الحالة ظلت قلقة عند ذهاب سولبيكيوس فيليكس، فهذا يعني أنه لم يقض على الهجومات المورية، وبالتالي فإنه فشل في مهمته. ويشير كاركوبينو إلى ما يشبه هذا حينما يقول: " لقد كان يدخل في حوار مع العصابات، وكان يناقش معها المبلغ، ولكن دون مناقشة المبدأ وهو الفدية"[18]. إلا أن روبوفا يرفض هذا الرأي ويعتقد بأن سولبيكيوس فيليكس لم يشتر هدوء السكان لأن كلمة ليميتر (Limiter) التي تعني العذوبة أو الابتسامة تعني الشيء الكثير مما فعله، إذ كان ينظم دوريات ليلية. وهذا إجراء رادع، فالقائد لم يلق بفرسانه على السكان المجاورين ولم يستعمل الهجوم أو الهجوم المضاد، بل عمل ببساطة على أن يفهم كل ثائر أو

منتفض أو كل مجموعة ثائرة أنه بإمكان دوريات الجناح السوري التي تقضي الليل في الخارج أن تفاجئه(19). وكلام كاركوبينو أو روبوفا يؤكد أن سولبيكيوس لم يواجه الثوار مواجهة فاصلة، بل حاول شراء هدوئهم بالمال وتنظيم دوريات لتخويفهم. وسواء قام بهذه العملية أو بتلك أو هما معا، فإنه على ما يبدو لم ينجح فيهما معا. وعدم نجاحه في القضاء على الثوار وإعادة الهدوء إلى منطقة سالا هو الذي دفع الوالي إلى تغييره وتعويضه، وربما أخذ زمام الأمور بيده، وإلا ما معنى جمع الولايتين في يد وال واحد وإعلان الحرب على المور لمدة خمس سنوات حسب بوزانياس(20) بين 145 – 149 ؟

فإذا رجحنا أن سولبيكيوس فشل في مهمته، فلما أذن أكرمه مجلس شيوخ بلدية سالا ؟

ربما كان وجوده – في حد ذاته بفرقته بينهم، كافيا لإعادة نوع من الطمأنينة بين سكان سالا وبالتالي الأمل في القضاء على الثوار. إلا أن استمرار الهجومات المورية تغلبت على جهود قائد الحامية الذي لم يعد قادرا على تقويم الحالة لصالحه، ولذلك فيمكن اعتبار ذهابه نوعا من التوبيخ له. ونظرا لأن له علاقات خاصة مع أعضاء مجلس شيوخ سالا، ولأنه ساعد السكان في عدد من الأمور كتقويم مالية المدينة وتوفير المؤونة. فاعترافا له بهذه الخدمات قرر مجلس شيوخ سالا إرسال وفدين: أحدهما إلى روما للدفاع عنه أمام الإمبراطور والآخر إلى والي الطنجية – الرئيس المباشر له – للدفاع عنه أيضا. وعلى الرغم من أن سولبيكيوس فيليكس لم ينجح في القضاء عسكريا على الثوار إلا أنه نجح في تحصين سالا وإحاطتها في نقطها المهددة بأسوار قوية وبأثمنة جد منخفضة. وبناء السور في حد ذاته دليل آخر على حالة انعدام الأمن في سالا وضواحيها. لأن السور عبارة عن جهاز دفاعي بالدرجة الأولى واستجابة لحالة انعدام الأمن الحقيقية أو الممكنة. وببناء السور عم الهدوء نسبيا بين سكان سالا، وهنا يكمن نجاح سولبيكيوس النسبي وذلك على الرغم من أن روبوفا يرى أن بناء السور ليس من

الضرورة أن تكون له علاقة بانعدام الأمن لأنه من الممكن أن يكون عبارة عن مرحلة في تطور المدينة(21) وارتقائها إلى مرتبة أعلى. كما أن السور يعطي للمدينة إجلالا جديدا بالإضافة إلى أنه مفيد لها في الحاضر والمستقبل(22).

لماذا كل هذا ؟ لأن بناء السور يتطلب أموالا، وهذه الأموال يدفعها سكان المدينة. ولذلك فبناؤه لا يكون إلا عند الضرورة. وبالطبع الضرورة في سالا هي حالات انعدام الأمن، فإذن السور بني لحماية سكانها من هجومات الثوار المور.

من هم الثوار وما هي الدوافع التي جعلتهم يثورون ؟

ولكن من هم هؤلاء الثوار أو "اللصوص"، والعصابات حسب المفهوم الروماني الذين يسلبون وينهبون كما يسميهم نص سولبيكيوس فيليكس ؟

وهل هم في الحقيقة لصوص وعصابات وقطاع الطرق أم أنهم مجموعات ثائرة رافضة للاحتلال الروماني ؟ أعتقد أنه من الأفضل إزالة فكرة قطاع الطرق واللصوص لأنه على ما يبدو هم السكان الأصليون الذين اضطروا للدفاع عن وجودهم ونمط عيشهم وذلك بالقيام بعمليات هجومية ضد الرومان الذين اقتطعوا من مجالاتهم.

فمن هم هؤلاء الثوار ؟

هل هم الباكوات أم الكاوني أو السالينسي أو الأوطولول أم مجموعات بشرية أخرى لا نعرف عنها شيئا ؟ لأن أعداء روما الحقيقيين هم أولئك الذين لا يتفاوضون معها والذين لا تظهر أسماؤهم إلا نادرا في الكتابات كما يقول فريزول(23). ويبدو أنه ومنذ البداية يجب أن نحذف الباكوات من اللائحة لأنها وقعت مع الرومان معاهدة سلام عام 140م. أما الكاوني، فلم تذكرهم أي كتابة أو نقيشة إما كثوار، وإما كأصدقاء لروما. ولذلك فمن الصعب أن ننسب إليهم هجومات على سالا وضواحيها، وذلك على الرغم من أن مواطنهم كانت قريبة منها. وفيما يتعلق بالسالينسي أو السلويين فهي المجموعة البشرية التي تتعرض أرضها للهجومات

فهل هم يدخلون تحت النفوذ الروماني أو أنهم طردوا من أراضيهم التي استولى عليها الرومان ؟

ويبدو أن جزءا كبيرا من مجالات مواطنهم كانت تقع خارج النفوذ الروماني. ولذلك فليس من المستبعد أن يقوموا بالهجومات على سالا أو على الأقل أن يساهموا فيها، إلا أن الوثائق الإيبيغرافية لا تساعدنا في هذا المجال لأنها لا تتحدث مطلقا عن جماعات بشرية سلاوية أو عن هجوماتها مما يرجح سكونها وهدوءها وربما موالاتها للرومان. وتبقى مجموعة الأوطولول التي تعيش حياة الترحال أو نصف الترحال والتي تنزل في فصل الشتاء إلى السهول الساحلية المحصورة بين أكادير ونهر تانسيفت، وفي الصيف تصعد إلى الشمال إلى ضفاف الأودية المحصورة بين وادي أبي رقراق ووادى الملاح بحثا عن الكلأ والمرعى(24) فهل هذه المجموعات هي التي كانت تهاجم سالا وضواحيها ؟

ليس من المستبعد أن تكون هي ، خاصة وأن بلينوس الشيخ أشار إلى حالة انعدام الأمن حوالي المدينة في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي قائلا :"إن مدينة سالا الواقعة على نهر يحمل نفس الاسم، تقع قرب الصحارى المملوءة بقطعان الفيلة، بل والأخطر من هذا شعب الأوطولول"(25).

يذكر بلينوس الشيخ في هذا النص، أن الأوطولول كانوا يهاجمون المنطقة القريبة من سالا منذ النصف الثاني للقرن الأول الميلادي، فهل ظلوا يهاجمون المنطقة إلى غاية القرن الثاني الميلادي؟ وهل هم الذين هاجموا سالا وكرروا هجماتهم عليها والذين أشار إليهم نص سالا ؟ وهل هم الثوار الذين أقلقوا سكان سالا، وبالتالي الامبراطورية الرومانية مما دفع الامبراطور إلى تعيين وكيل له من فئة الشيوخ للقضاء على الثورات المورية التي انتشرت في الموريطانيتين، ربما انطلاقا من ضواحي سالا ؟

من المرجح أن الأوطولول هم الثوار والمهاجمون، ويؤكد هذا الرأي الباحثة المعاصرة ماركريت راشي التي تقول:"هاجم الأوطولول مدينة سالا من

الشمال والجنوب مما حال دون تموين المدينة"(26). أما كاركوبينو فيكتفي بتأكيد ما ذكره بلينوس الشيخ(27) مما يوحي بانه يعتقد أن الأوطولول هم أصحاب الهجومات على سالا، ومما يعني استبعاد الآراء الأخرى التي تفترض السلالينسي والكاوني. فإذا رجحنا أن الأوطولول هم المهاجمون فيجب أن نتساءل لماذا يهاجمون المنطقة المحيطة بسالا من الشمال والجنوب مما أدى إلى قطع طرق التموين ؟

لقد أشرنا إلى أن الأوطولول رحل وأنصاف رحل (الخريطة رقم 1) يتوجهون في فصل الصيف إلى المنطقة المحصورة بين وادي الملاح وبورقراق بحثا عن الكلأ والمرعى. ووجود الرومان بسالا منعهم من استعمال جزء من مراعيهم فضاقت بهم المراعي المتبقية بالإضافة إلى أن عددا من المجموعات البشرية الأخرى اضطرت تحت ضغط الرومان للتخلي عن مراعيها التقليدية ومجالاتها، والبحث عن المراعي البعيدة عن النفوذ الروماني. ونظرا لأن هذه المراعي قلت وبالمقابل تكاثر تعدد المجموعات البشرية الباحثة عن المراعي، فقد كثر الضغط على المراعي المتبقية. وهذا الضغط سيدفع عددا منها إلى محاولة لاستعمال المجالات القديمة. ومن هذه الأوطولول التي اضطرت لمهاجمة جزء من مراعيها التقليدية التي أصبحت تحت النفوذ الروماني، رغبة منها في إعادة استعمالها عند صعودها إلى الشمال في فصل الصيف. وهذا يعني أن الهجومات كانت ربما موسمية، ولم تكن مسترسلة، وهذا ما سهل على سولبيكيوس فيليكس مهمة القيام بتقوية أسوار سالا.

ومحاولة الأوطولول هذه ستدفع عددا من المجموعات البشرية الأخرى إلى تقليدها للعودة إلى مجالاتها القديمة التقليدية، وهذا ما سيؤدي إلى حالة يمكن أن نعتبرها ثورة محلية عامة. هذه "الثورة" المحلية التي لا نعرف عنها الشيء الكثير، إذا استثنينا إشارة تاريخ اغسطس السابقة الذكر. على كل، يبدو أن سولبيكيوس فيليكس لم يستطع القضاء على هجومات الأوطولول مما دفع الوالي الجديد إلى تغييره، بل والأدهى من هذا، أن حالة الثورة انتقلت عدواها إلى باقي المناطق في

موريطانيا الطنجية بل وربما إلى مجموعات بشرية بموريتانيا القيصرية. وهذه الحالة الجديدة هي التي دفعت الامبراطور إلى إرسال تعزيزات عسكرية جديدة من إسبانيا، إلى موريطانيا الطنجية، مما زاد في عدد القوات الاحتياطية، التي وضعت تحت إمرة قائد من فئة الفرسان(28). وأن وصول الإمدادات العسكرية إلى موريطانيا الطنجية كانت نتيجة إلزام المور بطلب السلام(29). هذا السلام الذي جاء بعد مقاومة دامت بين أربع وخمس سنوات، إذا اعتمدنا على الوثائق الإبيغرافية، لأنه في فاتح غشت 150م فقط قام البروكوراطور بورسيوس فيستوستينوس بتسريح القوات الاحتياطية(30) في القيصرية. كما تخلد النقود التي سكت سنة 152م، السلام المفروض على الموريطانيتين الثائرتين، مما يؤكد أن السلام لم يعد إلا سنة 151 أو بداية 152م.

ومن جهة أخرى، فنجد أن تسريح القوات الاحتياطية في موريطانيا الطنجية لم يقع إلا سنة 156 – 157 (31)، مما يرجح أن الثورة، أو حالة انعدام الأمن، ظلت في الطنجية إلى ما يقرب من سنة 157م وذلك على الرغم من أن الامبراطور خلد انتصاره سنة 152م. ورغم هذا التسريح فإن عدد قوات الاحتلال التي احتفظ بها في موريطانيا الطنجية، كان مهما جدا، إذ تتكون من إحدى عشرة فصيلة وخمسة أجنحة. وهذا العدد أهم بكثير من العدد الذي كان موجودا وقت ثورات (118 – 122)(32).

ومع ذلك، فحالة انعدام الأمن ظلت كما هي عليه في الطنجية، لأن المور ظلوا يواصلون هجوماتهم. إلا أن النصوص الإيبيغرافية لا تمدنا بأية معلومات عنها. ولا ندري هل هم الأوطولول ؟ أم الباكوات ؟ أم جبليو الأطلس المتوسط أم الأطلس الكبير الشرقي ؟ أم الماكينيت ؟ أم الرحل الصحراويون الذين اتجهوا غربا بعد أن سدت في وجوهم منتجعات نوميديا وموريطانيا القيصرية بواسطة الليمس النوميدي، فاتجهوا إلى جنوب شرق الطنجية وإلى جنوبها حيث وجدوا ممرا نحو مراعي فصل الصيف ؟

أم أن الثوار هم كل هؤلاء؟ وقد اضطروا للقيام بالثورة نظرا للضغوط الكثيرة التي تعرض لها سكان الطنجية بواسطة المجموعات البشرية القيصرية والنوميدية الذين سدت في وجوههم مجالاتها التقليدية، فاتجهوا غربا وزاحموا سكان الطنجية الذين بدورهم كانوا مزاحمين. وهذا الضغط والازدحام على المجالات المتوفرة والتي اقتطع منها الرومان جزءا كبيرا – دفع المجموعات البشرية المجاورة للنفوذ الروماني تحت الضغط – إلى الهجوم على الأراضي التابعة للرومان، وكل مجموعة بشرية تضغط على الأخرى، إلى ان تحركوا كلهم ضد الرومان، الذين يعتبرون السبب الحقيقي في خلق هذا المشكل الأساسي. لأن الرومان هم الذين اقتطعوا من مجالاتهم ومنتجعاتهم وحولوها إلى مغارس ومزارع سلموها لمستوطنين غرباء عن المنطقة. ولذلك فالمرجح أن أسباب أحداث 140 – 157م بالطنجية لها علاقة بالأرض التي تمثل رأسمال الموري، هذه الأرض التي كان فيما سبق، يستعملها بكامل الحرية، إلا أنه حرم منها الآن، وسلمت لغريب دخيل تحميه قوات عسكرية دخيلة بدورها.

وبالإضافة إلى هذه الاقتطاعات السابقة فقد حدثت، بدون شك، محاولات جديدة أثارت المور ودفعتهم للثورة وترتبط المحاولة الجديدة أساسا بالسفر الثاني الذي قام به الإمبراطورهادريانوس (117 – 138) سنة 128 ، إلى إفريقيا، رفقة أنطونين الورع. وقد أنعم الامبراطور خلال هذا السفر بالحق اللاتيني وحق المدينة على عدد من المدن(33). فليس هناك أي شك في أن هذا التوسع في الحقوق لابد أن يترجم – أو على الأقل يصاحبه – توسع موازي في الاستيلاء على الأراضي الجديدة التي تقتطع من مجالات السكان الأصليين. ومن هنا تولدت حالة انعدام الأمن في عدد من المناطق، لأن التقدم الروماني بالاستيلاء على الأراضي واجهه المور بالثورة. وهذا ما دفع أنطونين المعروف بميله للهدنة والسلام إلى القيام بهجوم واسع للقضاء على الثورات الموريطانية. إلا أن الرومان رغم جهودهم ورغم التعزيزات الكبيرة فإنهم لم ينتصروا على المور ، بل يبدو أنه كان هناك

تكافؤ بين القوتين، لأن الرومان لم يتمكنوا من توسيع مناطق نفوذهم، وفي نفس الوقت لم يستطيعوا دفع المور إلى مناطق بعيدة. بحيث لم يتمكن أي منهما من تحقيق انتصار ساحق على الآخر، وذلك على الرغم من تخليد الانتصار الروماني بإقامة نصب تنكاري، إلا أن هذا النصب في حد ذاته يمكن اعتباره نصب الهزيمة الرومانية وانعدام الاستقرار في الطنجية، وهو في نفس الوقت يعتبر بالنسبة للمور نصب المقاومة والدفاع عن الأرض. والأهم من كل هذا هو الاعتراف الضمني بوجود المقاومة، والدليل على هذه المقاومة، أن المور فرضوا على ولاة أنطونين حالة الطوارئ لمدة ثمانية عشر عاما بالطنجية ما بين 140 و157م، ومع ذلك ، فإن الهدوء لم يعد إلى ما كان عليه، وأن حالة الطوارئ التي سجلت بدايتها ثورات الأوطولول على سالا ونواحيها حوالي 140م، وسجلت نهايتها الموقتة تسريح الجيش الاحتياطي سنة 157م، يثبت أن حالة انعدام الأمن كانت مسترسلة بالطنجية، من 140م إلى 157م تقريبا. ورغم التوقف المؤقت للصراع على أرض موريطانيا الطنجية فهذا لا يعني استكانة المور وخضوعهم للرومان بل يبدو أنهم كانوا يهيئون أنفسهم ليتحركوا مرة أخرى ويوجهوا ضربتهم إلى مكان غير منتظر إلى ولاية البتيك في إسبانيا.

وبصورة عامة، فإن نص قرار مجلس بلدية سالا أمدنا بمعلومات قيمة حول الوضعية الأمنية لمدينة سالا وضواحيها والمواجهة بين الرومان والمجموعات البشرية التي كانت تستعمل هذه الضواحي والتي حرمت منها نتيجة توسع النفوذ الروماني واستيلائه على مجالات ومنتجعات السكان الأصليين.

الهوامش:

1) — إذا تركنا جانبا حياة هاد ريانوس فالملاحظ أن عدد المشاكل المطروحة حول ترجمات الأباطرة، في تاريخ اغسطس كبيرة، وذلك لأن القيمة التاريخية لهذه الترجمات مشكوك فيها، اعتمادا على أن الهدف من الكتابة كان موجها من طرف الأباطرة وهذا ما يفرض علينا المراجعة الحذرة والتروي عند التعامل مع هذه الترجمات.

2) — Frezouls, Les Baquates et la province romaine de Tingitaine, BAM, II, 1957 (= Frezoulz, les Baquates).

3) — Banasa, CRAI, 1942, p. 171 (= AE, 1942, 43, 84), CRAI, 1942, P. 11 (=-3 CIL, XVI, 73) Volubilis, CRAI, 1942, p. 141(= AE, 1942,1943, 83, Fragment N 8).

4) — Chatelain, pp.8-9 , Le Forum de Sala CRAI, 1930, p.198,Carcopino, Sala (Chellah Rabat) au temps des Antonims d'apres les textes sur la base de Marcus Suplcius Felex, MEFR, 1931, pp.1-32, Carcopino, le Maroc antique, Paris 1943, pp. 200-230 (= Carcopino, Le Maros).

5) — نص التقدمة باللاتينية كما نشرها كاركوبينو

6) — نص اللائحة كما ذكرها شلاتلان وكاركوبينو

7) — LHarmand observation sur l'inscription de Sala , melanges Piganiol

يقول حسب ترجمته: (حمانا ضد الخسائر العادية وضياع قطعان الماشية).

8) — نص قرار مجلس شيوخ سالا كما نشره كاركوبينو وشاتلان :

9) — علاقات الباكوات مع الرومان سنتناوله في مقال آخر إن شاء الله.

10) — Carcopino, Le Maroc antique ..., p. 224.

11) — Baradez,les fouilles de Tipaza et les operations d'Antonin le pieux en Maurétanie,Lybeca,II 1954 P 128

12) — نظرا لميول أنطونين الورع للهدنة والسلام سيصعب أن ننسب إليه المبادرة المطلقة لهذا الهجوم. وعلى العكس، فيمكن أن نفكر في أنه ورث حالة فرضت عليه التدخل: ففي السفر الثاني لهادريانوس إلى إفريقيا سنة 128م والذي رافقه فيه انطونين، منح الحق اللاتيني أو حق المدينة لعدد من المدن Histoire Auguste, Vita Had, XIII, 4 فليس هناك شك في أن هذا التوسع في الحقوق المدنية يترجم – أو على الأقل – يصاحبه توسع موازي في احتلال الأراضي. ومن هنا تولدت حالة قلقة في عدد من المناطق، لأن التقدم الروماني واجهه الموريطانيون بالمقاومة والثورة، وهذا بدون شك ما دفع انطونين إلى القيام بهجوم واسع.

13) — MBenabou,1976 Laresistance Africaine à la romanisation ,Maspero Paris, P 137 – 138 (Benabou , la Resistance)

14) – Histoire Auguste , Vita Pii , Julius Capitolius, V 4 per legatos suos plurima bella gessit, nam te Britannos vicit et Mauros ad pacem postulan dam coegit

15)- هذا التاريخ التقريبي ناتج عن أن فاريوس كليمانص أصبح واليا على موريطانيا القيصرية حـوالي سـنة 152م – وذلك بعد أن قام بثلاث مهام متتالية عندما أرسل إلى الطنجية. بينما يرى روبوفا أنـه كـان بموريطانيـا بالقيصرية بين 148 ، 149.

(16 — Pausanias,1903 ed,Spira Teubner , lecpziq , VIII , 43 , 3

(17 — Carcopino , le Maroc P 228

(18 — Ibid P 219

(19 — Rebuffat , Enceintes Urbaines P 502

(20 — Pausanias , op cit , P 515 note 2

(21 — Rebuffat P 521

(22 — Seston, Les murs , les portes et les tours des enceintes urbaines et le probleme des ressanctae en droit romain , melanges Piganiol , pp 1489 –149_

(23 — frezouls, les Baquates P 116

(24 — فيما يتعلق بالتحركات البشرية وتغيير مجالاتها والبحث عن مراعي جديدة سنعود إليه في مقال آخر إن شـاء الله.

(25 — Pline l'ancien , H,N,V,5 Oppium Sala eiusdem nominis fluvio impositum iam solitudinibus , Vic inum , elephantorumque gregibus infestum , multo multo tamen magis Autoloum gente

26) — Mrachet , 1970 Rome et les berbères , Latomus n° 110 , Bruxelles

27) - Carcopino , le Maroc P 221

(28 — تحدث عن تدخله كل من Cagnat, L'armée romaine, p. 42 الذي اقترح سنة 146 و148م بينمـا كاركوبينو يقترح سنة 145م / 146م – 149م.

(29 — Romanelli , op cit p 359

(30 — في هذا التاريخ كان لموريطانيا الطنجية واليها وللقيصرية واليها، مما يؤكد تحسن الحالة الأمنية.
Rachet, Rome et les berbères, p. 200, CIL, III, 2213.

(31 — Romanelli , op ; cit ; p 359

(32 — Thouvenot , CRAI , 1948 p 45 , CRAI 1949 p 332
حدد تاريخهما في عهد انطونين، يعني بين 10 / 2 / 156م و 9 / 12 / 157م.

(33 — Histoire Auguste , Vit a Hariani , XIII, 4

وثائق عرفية
منطقة "دادس"
خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

صفية العمراني•

دادس: دادس لفظة " هي من ضمن أسماء الأماكن التي لم يقف أحـــد عـــن معناها. لكن اللفظة الغالبة عند المؤرخين والإخباريين هي كلمة "القبيلة" فــــ "دادس" أو "دتاس" في النطق الصنهاجي الذي ينتمي إليه أهل "دادس تعني "أمامه" أي أمـــام جبل "درن" من الجهة الشرقية أي قبلته التي عممها مؤلفو المصادر التاريخية.

لكن لفظة أو مصطلح "القبيلة" هو ذو معنى عام وأوسع، ويحدد عادة بيــــن الفيجة (الجنوب) وتافيلالت. وأصبحت هذه المنطقة وحدها التي تعرف بالاسم العـــام الدال على الجهة. وقد تقلص هذا المجال حتى أصبح يطلق على حـــوض واد دادس حاليا. وهذا المجال يمتد من جبل أمكون شمالا إلى جبل صاغرو جنوبا، بين قبـــائل أمكونة وإمغران، وأيت عطا وأيت احددو وامسمرير. كما أن هذا المجال كان دائمـــا مجالا مفتوحا ومعروفا، إذ كانت تمر عبره الطرق التجارية الرابطة بيـــن مراكـــش وتافيلالت وبلاد درعة.

• – أستاذة باحثة بكلية الآداب – جامعة القاضي عياض – مراكش.

وخلال الفترة التي سنتطرق لها في هذه المداخلة، كانت منطقة "دادس" تابعة للسلطة المخزنية. وكانت شؤونها تسير من طرف ممثل المخزن با "لكومت" في أعالي واد دادس ، أو في منطقة "أيت أحمودن" بأسفل الواد، حيث لا تزال في هذه المنطقة بقايا دار القيادة المخزنية منذ العهد السعدي، هذا من جهة، أما من حيث التأطير الديني، فإن المنطقة عرفت ظهور عدد من الزوايا الطرقية الصوفية مما يعني وجود مساجد وأئمة قادرين على شرح وتقريب جوانب ومبادئ كثيرة من الشرع والعقيدة من سكان المنطقة. ومن أقدم هذه الزوايا "سيدي بوعمران" وسط دادس، وزاوية أيت عبد الله البومسهليين بإماسين قرب "إيمغران" ثم بأيت يحيى منذ أواخر القرن الماضي .

أما من الناحية الجغرافية، فإن وادي دادس يشكل أعالي واد درعة فهو امتداد بشري لهذه المنطقة، حيث توجد الزاويتين "الناصرية" بتامكروت و"القادرية" بتلمسك"(1).

ويمكن القول إجمالا، بأن منطقة "دادس" بقيت إلى حدود أواسط القرن الثامن عشر الميلادي واحة فروع وأفخاذ قبيلة أيت سدرات. لكن زحف مقدمة اتحادية أيت عطا نحو مواطن المياه الدائمة والأسواق القارة، وإلى سهول ما وراء الأطلس الكبير، أدخل الشطط على الحياة العامة لهذه المنطقة، ذلك أنها ستصبح مجالا لحروب بين الرحل الوافدين (أيت عطا) وبين المستقرين (أيت سدرات). وقد تزامن هذا الوضع مع الظرفية التي تحولت فيها قوة المخزن كلها للدفاع على الشواطئ المتوسطية والأطلنطية. وحتى وإن كان الشرع سائدا ومنتشرا كمرجع قانوني، فإن الظروف الجديدة التي تجتازها المنطقة بصفة خاصة والمغرب بصفة عامة حتمت الرجوع إلى الاتفاقيات العرفية التي كانت تعتبر أساليب حمائية وتقنينية للملكية العامة القبلية والعائلية والفرعية، وكذا أعراف الانتفاع من المياه وتوزيعها حسب معطيات الوضع الجديد. وما هي في الغالب إلا تأكيد للعادة المعروفة

والجاري بها العمل. كما أن الأعراف عادة " سلسلة" لإعادة التوازنات الجديدة لمنطقة ما. "فالقانون العرفي يعطي أهمية قصوى للأرض. بحيث يستغل كل الاستراتيجيات للحفاظ عليها. ويكون العرف نفسه أهم استراتيجية للحفاظ على وحدة الملكية، ووحدة الأرض، لأن وحدتها من أهم الأسس المادية التي يقوم عليها التحام الجماعة العائلية كأدنى وحدة دفاعية داخل القبيلة"(2).

بهذا، يعتبر العرف كقانون وكاستراتيجية يتم بواسطتها الحفاظ على تلاحم النظام القبلي، فلا يمكننا إذن أن نفسره على أنه نظام متعارض مع الشريعة، كما ذهب إلى ذلك عدد من الأبحاث الاستعمارية التي قامت بتقسيم المجتمع المغربي إلى : المخزن / السيبة – العرب / البربر – الشرع / العرف ؛ بقدر ما هو نظام تقنين لحياة اجتماعية وسياسية خاصة، وللتناقضات التي تتخلل هياكلها. "لذلك يستمد العرف، على الرغم من تأثره في بعض الأحيان بالشرع، عناصره الضرورية من التعبير عن الحياة الاجتماعية والسياسية لهذه القبائل"(3).

إن ما يمكن استخلاصه من بعض العناصر المحورية التي يدور حولها العرف، هو أن هذا الأخير يكون استراتيجية للحفاظ على البنية التحتية اللازمة التي تضم الالتحام القبلي كنظام مجند، إذ يدرك الوعي القبلي أنه ليس من الممكن استمرارية الوحدة القبلية كواقع وكأيديولوجيا للمواجهة (مواجهة المخزن، ومواجهة القبائل الأخرى) إلا بضمان الأسس المادية التي تجمعها، وتؤكد وحدتها وتماسكها لمواجهة المخاطر الخارجية. لذلك نجد في عدد من هذه الوثائق العرفية الخاصة بمنطقة "دادس"، استعمال كلمة "الخاوة" – أي الأخوة– إذا التأكيد على رابطة "الدم" التي يتم بواسطتها الحفاظ على تلاحم النظام القبلي وتماسكه داخليا وخارجيا. "فلهذا الاعتبار لا يجب تعريف العرف بأنه نقيض للشرع بقدر ما هو بديل محلي له، يعبر عن بنية اجتماعية وسياسية متناقضة. عليها أن تندمج داخل المجتمع الشمولي من جهة، وعليها أن تحافظ على تلاحمها ووحدتها من جهة أخرى"(4).

إذا، فالوثيقة الأولى التي نعرض لها في إطار هذه الندوة العلمية الهامة، هي وثيقة عرفية يمكن نعتها بأنها وثيقة عرفية جنائية وجنحية يرجع تاريخها إلى أواخر شهر رمضان عام 1207هـ – 1792م.

نص الوثيقة:

الحمد لله وحده

اجتمعوا أهل القبيلة أهل الزاوية سيدي بعمران(5) نفع الله ببركته بصلاح بلدهم بمحضر أهل معيش منهم خي الكبير تزختي وخي حميد نسعد مع خي القرشي مع إبراهيم نيت احماد كلهم أهل معيش بمحضر مولاي عبد الرحمان الحاج مع مولاي يسف نيت علي مع مولاي حميد نيت حم مع خي الحسين نيت حمو إبراهيم القدر ومن خصم احاد مع أحد فإنه يعطي خمسة وعشرين أوقية(6) مع الدفع اثناين من طراين، ومن تبصر أحد فإنه يعطي ربعين مثقال(8) ، ومن كسر أحد فإنه يعطي عولته حتى يبر وزد له عشرون مثقال، ومن كسر السن أحاد لأحد فإنه يعطي عشرة مثاقيل لكل سن، ومن هجم الدار فإنه يعطي خمسين مثقال، ومن سرق فإنه يعطي خمس أواق ومن سرق الشاة فإنه يعطي ربعة اشياه، ومن ضرب لمرة فإنه يعطي مثقالين إذا أخطت لمرة على الرجل تعطى مثقال ومن سرق في النادر فيعطي خمسة مثاقيل، ومن سكن أحاد، يعطى عليه مارد القبيلة. وتكفل مولاي علي نيت حم بإخوانه، وتكفل مولاي يسف نيت علي بإخوانه وتكفل خي ببكر بإخوانه وتكفل مولاي عبد الرحمان الحاج بني أيت لحسن ابزيد

الله يصلح حالتهم وحالة المسلمين كلهم أجمعين بمحضر أهل المعيش كلهم بجميعهم ووفقوا إليهم الشرفا مع لحراطن مع أيت لحسن ابزيد. ومن نحر احاد بجنوي يعطى عشرين مثقال إذا جرح إلى مجروح يعطى عشرة مثاقيل. إذا نسينا شيء قليلا ولا كثير يعطى عدا وما جرا. هذا فشهدا علينا ونقلنا عنه بعد إننهم وتودياتهم وعرفهما وهما بحال الأكمال وبتاريخ أواخر شهر الله العظيم رمضان عام 1207 سبعة سنين ومائتين وألف، عبد ربه سبحانه:

عبد المالك بن محمد الخلوفي الدرعي إمام مسجد أهل الزاوية سيدي بعمـــران نفـــع الله ببركته.

ءامين.

فكما سبقت الإشارة إلى ذلك، يعتبر العرف أو "تعقيدين" أو "ءازرف" بمثابـة القانون المنظم للحياة داخل القصور في الجنوب المغربي(8). فالأهميـــة التاريخيـــة للعرف تكمن في تنظيمه للحياة داخل القصور، ويحتم على سكان القصـــور تنظيـم أنفسهم، وذلك بوضع قوانين "إيزرافن" تضمن لكل فرد في القصر حقوقـــه، وتحتـم عليه في نفس الوقت القيام بأعمال جماعية لصالح القصر كوحدة تنظيمية.

فإذا أخذنا الأحكام العرفية التي سنتها قبيلة "أيت بعمران" وقبيلة "امعيـــاش" سنجد أن هذه القوانين لم تكن قوانين اعتباطية، بقدر ما هي قوانين وأحكام وضعـت من أجل الحفاظ على سير الحياة داخل القبيلتين بصفة منظمة. فالعرف هنا، يمكـــن اعتباره كبديل محلي للشرع وليس نقيضا لــــه. يقــول ميشـــو بلـــير BELLAIRE (Michaux) وهو المتصفح لكتب النوازل عن العرف والشرع "إن هـــذه التصرفـات متناقضة مبدئيا مع الشريعة، لكن الفقهاء أدركوا بأنه يستحيل خوض صراع مجـــد ضد الأعراف التي أحدثت لتلبية حاجيات المجتمع الإسلامي نفسه. وبما أنهم وجـدوا أنفسهم أمام مبادئ الشريعة من جهة، والممارسات العرفية المتناقضة مع الشـــريعة من جهة أخرى، فإنهم كتبوا كتبا فقهية يحاولون فيها الحفاظ علـــى ثبـات الأســس الفقهية، وفي نفس الوقت يتنازلون لصالح الأعراف"(9).

فانطلاقا من التكتـــل الـــذي يحتمـــه إنتـــاج المـــواد الضروريـــة لســكان القصوروالاتحاد الذي يفرضه الدفاع عن المصالح المشتركة (المراعـــي – منـــابع المياه بالدرجة الأولى)، فإننا نجد أن القبيلتين المشار إليهما فـــي الوثيقـــة وضعتـــا "قوانين" ردعية ضد كل مخالفة يرتكبها فرد من أفراد القبيلتين المتحدثتيـــن – ذكـــرا كان أم أنثى – ونستشف أيضا من خلال هذه الوثيقة (والتي يرجع تاريخـــها إلـــى أواخر القرن الثامن عشر) أن الأحكام العرفية يمكن أن تطبق على سكان قبيلتيـــن

على الرغم من بعد المسافة بينهما، لكن شريطة أن يكونا في حلف مشترك "تاضا". كما أن الهدف من وضع أحكام هذه الوثيقة الهامة والتي دونت من لدن فقيه وإمام مسجد زاوية سيدي بعمران(10) كان الهدف من ورائها تحفيز سكان القبيلتين على التقليل من ارتكاب المخالفات حتى تكون الحياة ممكنة داخل مجتمع يتسم بالقلة في الإنتاج، ويعيش على الاكتفاء الذاتي في غالب الأحيان.

كما أن القبيلتين حريصتين على الحفاظ على كيانهما ضد "التدخل الأجنبي"(11) ، ويتجلى لنا هذا في "الضريبة" المفروضة على كل من قام بإسكان أحد، يعطي عليه مارد القبيلة" (الوثيقة). إذا فالحكم العرفي هنا واضح وصارم، ولا يسمح لأحد بخرقه، لأن كل فرد من القبائل المتحالفة مطالب بالامتثال للالتزامات التي يفرضها عليه التحالف. فالأفراد الذين ينتمون إلى الجماعات المتحالفة يعتبرون أكثر من أخوة (خي إبراهيم الكبير ترختي – خي حميد نسعد – خي محمد القرش – الوثيقة –).

كما يمكننا أن

نستنتج أيضا من خلال العقوبات المنصوص عليها في هذه الوثيقة كلها تعويضات مالية وهو واقع يفيدنا، بصفة غير مباشرة، عن مدى دخول النقود إلى حياة القبائل، ويفيدنا بصفة مباشرة عن طابع القانون العرفي، الذي هو عموما، قانون إرجاعي وهو في ذلك يخالف الحدود الشرعية عن السرقة والتي هي من قبيل القانون الردعي désuasif.

كما أن إعطاء أهمية قصوى لتقنين سرقة الماشية يكشف لنا عن أهمية القطيع في الحياة الاقتصادية، لا كمكمل للزراعة، فحسب، بل كموازٍ لها. (ومن سرق الشاة فإنه يعطي ربعة أشياه – الوثيقة).

وعلى الرغم من كون هذه الوثيقة اتفاقا عرفيا فقد اتبعت في كتابتها شكليات الإشهاد في الوثائق الشرعية وذلك في تصديرها بالحمدلة وبعبارة "أشهدنا على

أنفسهم". بل أكثر من ذلك فإن محررها وهو الذي وقع إشهاده ، إنما هو "إمام مسجد أهل الزاوية سيد بعمران نفع الله ببركته ءامين" الوثيقة.

ما يمكننا استخلاصه من هذه الوثيقة العرفية الهامة هو حرص القبيلتين (امعياش – وزاوية أيت بعمران) على أن تكون بنود الاتفاقية وشروطها شاملة بحيث تتطرق لمختلف القضايا اليومية " من خصم احاد مع أحد من تبصر أحد، من كسر أحد، من كسر السن أحاد لأحد، من هجم الدار، من سرق الدار، من سرق في جنان، من سرق الشاة، من ضرب المرأة، من سرق في النادر، من سكان أحد، من نحر أحاد بجنوى" الوثيقة – والمخالفات المؤكد أو المحتمل وقوعها. وهي كلها قضايا عادية وتنحصر في السلوك الفردي أو الجماعي لأفراد القبيلة وما يرتبط بهذا السلوك من نزاعات وخصومات في وسط تتسم إنتاجيته الاقتصادية بالقلة وما قد يقع من مخالفات تمس هيبة الجماعة واستقرار القبيلة، كالسرقة في المنازل والحقول والضرب والجرح كما هو منصوص عليه في هذه الوثيقة الهامة.

الوثيقة الثانية:

يرجع تاريخها إلى سنة 1266هـ – 1849م أي إلى أواسط القرن التاسع عشر وهي عبارة عن عقد جماعي بين شرفاء زاوية "ءاماسين".

نص الوثيقة:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله.

أشهدوا لدي شرفاء ءال اماسن أنهم عقدوا الرضى في محاكمة مصالحهم في سبعة رجال كل واحد منهم يتكلم عن نفسه وعن إخوانه وما صعب عنهم من عرفهم وعاداتهم يرفعها لشريعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من ذلك مولاي إبراهيم بن محمد البوري البوعمراني ومولاي أحمد بن عبد القادر بمسهل ومولاي محمد بن عبد الله نيت موسى ومولاي عبد الله بن محمد نيت سيدي علي ومولاي امحمد بن محمد نيت عبد القادر ومولاي محمد بن علي بن عبد الله ومولاي عبد

الرحمان بن محمد نيت عبد الله نسب عبد الله عقدا صحيحا شهد به عليهم من اشهدوه به وعرفهم في ثالث عشر ربيع النبوي عام 1266 ستة وستين ومائتين وألف.

عبد ربه أحمد بن عبد الله الشرقي ملازم مسجد القصر القديم لطف الله به.

وعبد ربه محمد بن علي بن عبد الله البعمراني لطف الله به ءامين.

فمن خلال قراءتنا لهذه الوثيقة العرفية الثانية التي نتناولها في هذه المداخلة، نلاحظ أنها عبارة عن عقد جماعي"l'acte collectif" بين شرفاء زاوية ءايماسين(12)؛ وهذا العقد ذو صبغة خاصة لأنه مزدوج المستوى:

المستوى الأول هو قول الذين حضروا وشهدوا برفع كل " ما صعب عنهم من عرفهم وعادتهم لشريعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم".

فالنص يؤكد انتشار "الأحكام العرفية"، واعتمادها كقاعدة قانونية أساسية بين سكان قصور شرفاء ءاماسين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كما حصر النص "العرف والعادة" في المرتبة الأولى، ولا يلتجأ إلى "الشرع" إلا في حالة انعدام الحلول لمشكلة ما. هنا تثار مسألة احتواء العرف داخل الشرع من طرف العلماء. و"التي كانت مسألة ظاهرية، تدخل في إطار مشروع متكامل للسلطة المخزنية، يستهدف احتضان الهوامش. إذ يعلن المخزن الحرب الكلامية وفي بعض الأحيان العملية ضد "السيبة"، ضد العرف ، ضد الزوايا، ولكنه في الوقت نفسه لا يمكن له أن يستمر إلا عبر هذه الهوامش"(13).

أما المستوى الثاني: فيتمثل في كون شرفاء إماسين شكلوا "لجنة" مكونة من سبعة رجال والذين ذكرت أسماؤهم في الوثيقة عوض الجماعة أو "لجماعت"، وكل واحد منهم ينتمي إلى عائلة من العائلات التي تتكون منها قصور شرفاء إيماسين – والمشار إليها في الهامش 12 –.

الوثيقة الثالثة:

وهي نموذج آخر للعقود العرفية المحلية، وتاريخها حديث 1313هـ – 1933م – النصف الأول من القرن العشرين–.

نص الوثيقة:

اتفقت قبيلة ءال الزاوية مع أيت لحسن أبزد وكلهما قبيلتين الشرفاء مع حراطينهما على الصلح وكل واحد منهم باسمه فالله يعاونهم ويصالح حاليهم على منافع السقية والفدادين. وتكفل كل واحد بأخيه ورفد مولاي عبد الرحمن أيت بعمران وتكفل مولاي حميد بن يوسف بأيت علي وتكفل حم نيت خيا ببكر بإخوانه وأيت حميد وتكفل علي بن حم بأيت الحسين مع أيت خي علي وتكفل حمد بن محمد بأيت خي الحسن وتكفل علي نيت علا بإخوانه وأيت عبد الله وتكفل مولاي المدني نيت موسى بإخوانه وتكفل يشوا بن حميد بإخوانه وأيت بنعمر وكل من كسر الساقية في يومها يعطى ثمانية أوجوه(14) وكل من جاء في جنان أحد غير مولاه يعطى ثلاثة امدود (15) وكل من حشى(16) في فدان أحد فعنده مدين(17) لشات من الغنم والحمار والبغال مدين من الشعير وكل من قعد من غير الاخلاص(18) حتى يدعوه للشيخ يتنا عليه ما ذكرنا في الاخلاص. واحد بإثنين في غرام الساقية(20) وكل من تعصب على احد يعطى ربع فضة وهذا كله شروط الساقية والغرم الفدادين وبتاريخ شهر الله جمادى الأولى 1313 هـ وكتب

حمد بن عبد الكريم التسلي(21)

أمنه الله بمنه امين

فهذه الوثيقة العرفية الثالثة التي نتناولها تعود أحداثها إلى سنة 1933م ،وهي الفترة التي كانت فيها منطقة دادس تابعة لسلطة القايد حمو بن محند المزواري الكلاوي بتلوات، ومحاصرة القوات الفرنسية لعسو أوبسلام بجبل بوكافر بصاغرو مما يدل على أن التعامل بالاتفاقيات العرفية ظل حاضرا في السلوك اليومي للقبائل، سواء على مستوى العظام المتساكنة داخل أسوار القصور، أو على مستوى التعامل مع ممثلي الاستعمار الفرنسي؛ ويتجلى ذلك في سيطرة فكرة "العادة وما جرا" لحل المشاكل اليومية والبث في قضاياها العويصة فقد كانت "هذه المخالفات والجرائم كالسرقة والزنى والغصب والقتل وما شبهها، تعالج بمقتضى أحكام القانون العرفي

الذي تتفق عليه كل جماعة، وهي الأحكام التي عطلها الوجود المخزني في إينولتان تعطيلا يكاد يكون تاما"(22) . هذا عكس ما نجده في منطقة دادس، حيث كان ضبط الشؤون الأهلية، يضطرون للعودة إلى الاتفاقيات التنظيمية لحل المشاكل اليومية التي واجهتهم بين قبائل القصور.

ومما تجدر الإشارة إليه – انطلاقا من أسلوب كتابة هذه الوثيقة الثالثة والحديثة العهد مقارنة بالوثيقتين السابقتين أن هذه الاتفاقية العرفية والتنظيمية، كتبت بأسلوب أقرب إلى العامية منه إلى العربية الفصحى، حيث نلاحظ أنها تتضمن مفردات "مدرجة" أو أمازيغية في بعض الأحيان(23) وذلك على الرغم من أن محررها قد تكون له معرفة كافية لتحرير الاتفاقية بين قبيلة ءال الشرفاء البوعمرانيين – و"حراطينهم" بلغة عربية فصيحة، خاصة وأننا نعلم – أن حمد بن عبد الكريم التسلي كان يشغل آنذاك إمام مسجد زاوية سيدي بوعمران – إلا أنه ربما كان مضطرا إلى تحرير "الوثيقة الاتفاقية" باللغة التي كانت تمليها عليه الجماعة المذكورة أسماؤهم في الوثيقة. وقد حرصنا في تعاملنا مع الوثائق العرفية التي نتناولها في هذه المداخلة، على نقلنا حرفيا للاتفاقيات بجميع أخطائها النحوية منها والإملائية، كما قمنا بنقل مصطلحاتها وأسمائها كما جاءت في الوثائق الأصلية، ذلك أن محاولة تصحيح الوثيقة الأصلية أمر سيؤدي لا محالة إلى طمس المعاني الحقيقية لبعض الألفاظ والمصطلحات والأسماء ذات الدلالات المحلية والخاصة بالمنطقة موضوع البحث والدراسة، وكما يقول الأستاذ أحمد التوفيق بهذا الصدد ومعلوم أن هذه الأعراف المسماة "بأزرف" وإن كانت لها سمات مشتركة، لم تكن موحدة لا بين القبائل ولا داخل قبيلة واحدة. وإذا وقع تحريرها على يد بعض الطلبة، فبعربية تنقل ألفاظا أمازيغية إلى ما يقابلها من الألفاظ العربية بكيفية يستعصى معها فك ألغاز تلك النصوص على من لم يرجع إلى الوسط الزراعي الذي وضعت له تلك النصوص أو يستعين بحفدة واضعي تلك الأعراف في فهمها"(24).

خلاصة

بناء على المعطيات السالفة الذكر، يتضح لنا أن الوثائق العرفية ذات الطابع "التعاقدي" سواء بين أفراد قبيلة واحدة، أو بين قبيلتين فأكثر خلال هذه الفترة تشكل حجر الزاوية في كل كتابة تاريخية، ذلك أن إعادة كتابة تاريخ المغرب انطلاقا من رؤية علمية رصينة، ومعايير موضوعية صارمة تهدف إلى سبكه وصياغته صياغة جديدة، وترويضه في تيار المنظومة الشمولية، وتطهيره من التخريجات الاستعمارية الملغومة بالافتراءات والتشويه، يستلزم كشف النقاب عن تاريخ البادية المغربية، والحفر في تراثها، وأنماط وسلوك سكانها وأسلوب عيشهم حتى لا يظل تاريخنا مبتورا وناقصا. فهذه الوثائق "العرفية – التعاقدية" الهامة التي تطرقنا لها في هذه الندوة المباركة، ستساهم بشكل أو بآخر في إنارة بعض الجوانب المطموسة من تاريخ البادية المغربية ويمكن توظيفها كوثائق يستأنس بها كل باحث لوضع اللبنات الأولى لهيكلة مدرسة تسعى إلى تصحيح قراءة مسار التاريخ المغربي وذلك برد الاعتبار إلى تاريخ البادية. فالنص العرفي هو مخزون مهم ومصدر مادي لتاريخ البادية المغربية ويجب التعامل معه من حيث هو، دون سابق لأي فكر معارض ومعادي. وبدون الاهتمام بهذا الجانب من التاريخ سيبقى البحث التاريخي مبتورا وناقصا.

الهوامش:

(1) ــ راجع كتاب : البوزيدي (أحمد)، التايريخ الاجتماعي لمنطقة درعة، دبلوم الدراسات العليا، تحت إشراف الأستاذ أحمد التوفيق، الرباط 1994.

(2) ــ بورقية (رحمة) ، الدولة والسلطة والمجتمع دراسة في الثابت والمتحرك في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب،
دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1991. ص. 81.

(3) ــ نفس المرجع السابق. ص. 81.

(4) ــ نفس المرجع ، ص. 82.

(5) ــ أنظر بحث الإجازة المشار إليه سابقا، فيما يتعلق بجميع أسماء الأعلام والأماكن الواردة في الوثيقة.

(6) ــ أوقية تساوي قيمة الدرهم الفضي. 25 أوقية = 25 درهم فضي. كما أن الأوقية تساوي 96 من الفلوس النحاسية. أي أن 25 أوقية كانت تساوي 2400 من الفلوس النحاسية.

(7) ــ مثقال واحد = 10 دراهيم فضية.

مثقال = 400 دراهيم فضية.

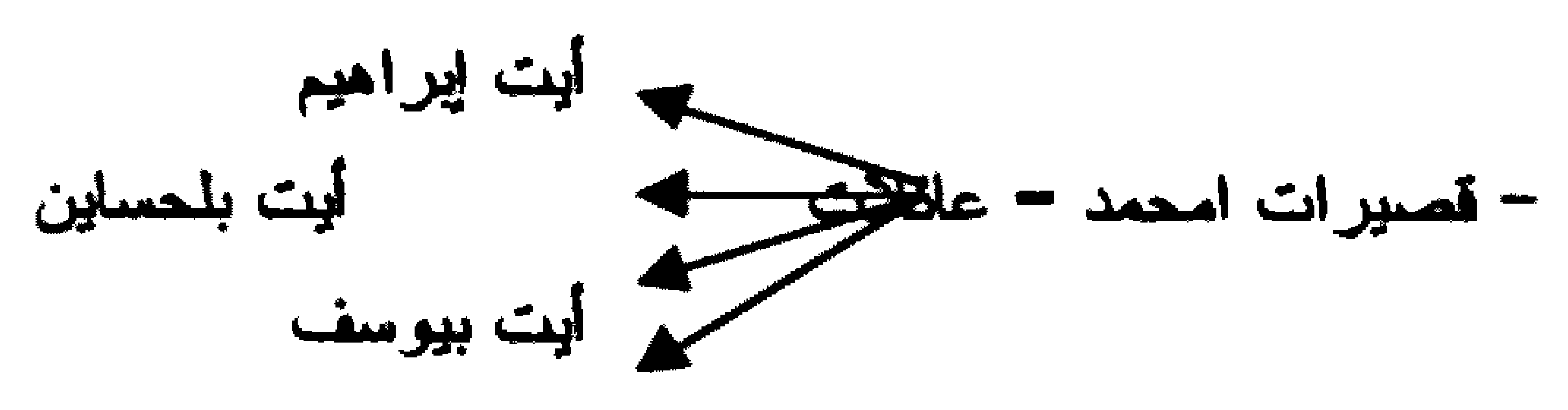
(8) ــ أنظر كتاب: Mezzine (Larbi), Le TAFILALT, Contribution à l histoire du Maroc aux XVIIe et XVIIIe siecle. Imprimerie NAJAH ELJADIDA, Casablanca, 1987.

(9) ــ Michaux – Bellaire, " La guelsa et le gza" revue du monde Musulman, n 59, 1995. p. 117 – 145.

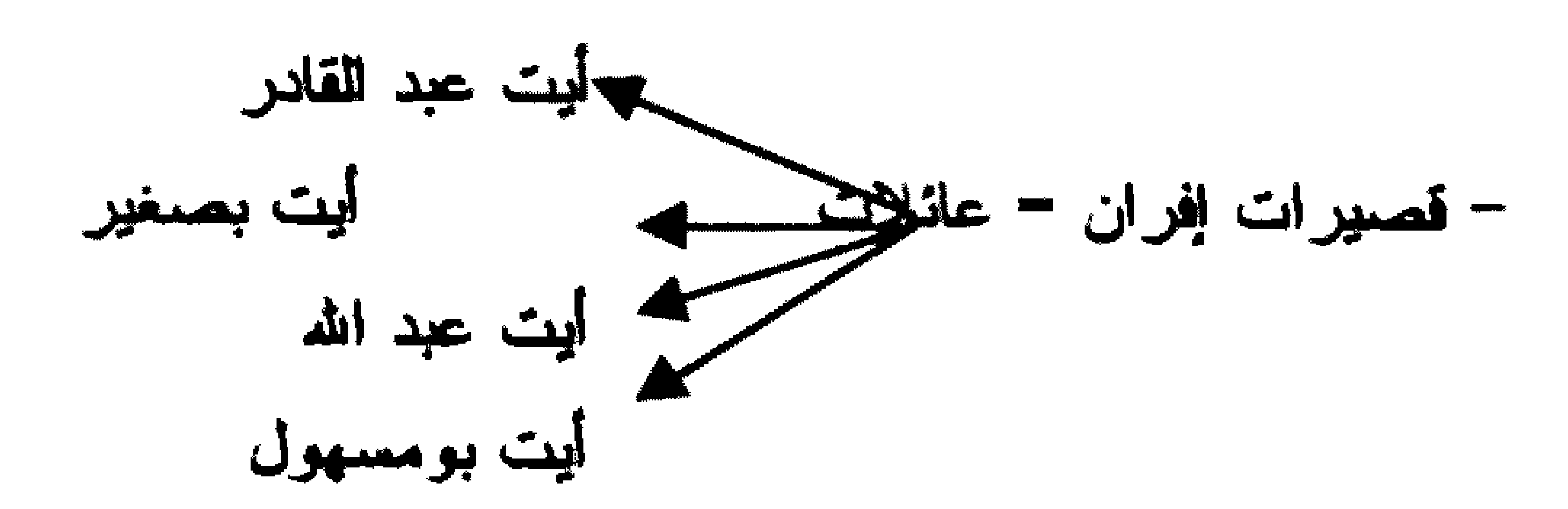
(10) ــ فالوثيقة التي نحن بصدد تحليلها إذا، وضعت من طرف إمام – وفقيه – إذا من لدن ممثل الشرع. مما يؤكد ما ذهبنا إليه سابقا من أن "الشرع والعرف" لا يمكن اعتبارهما نظامين – قانونيين متعارضين – بقدر ما هما متكاملين.

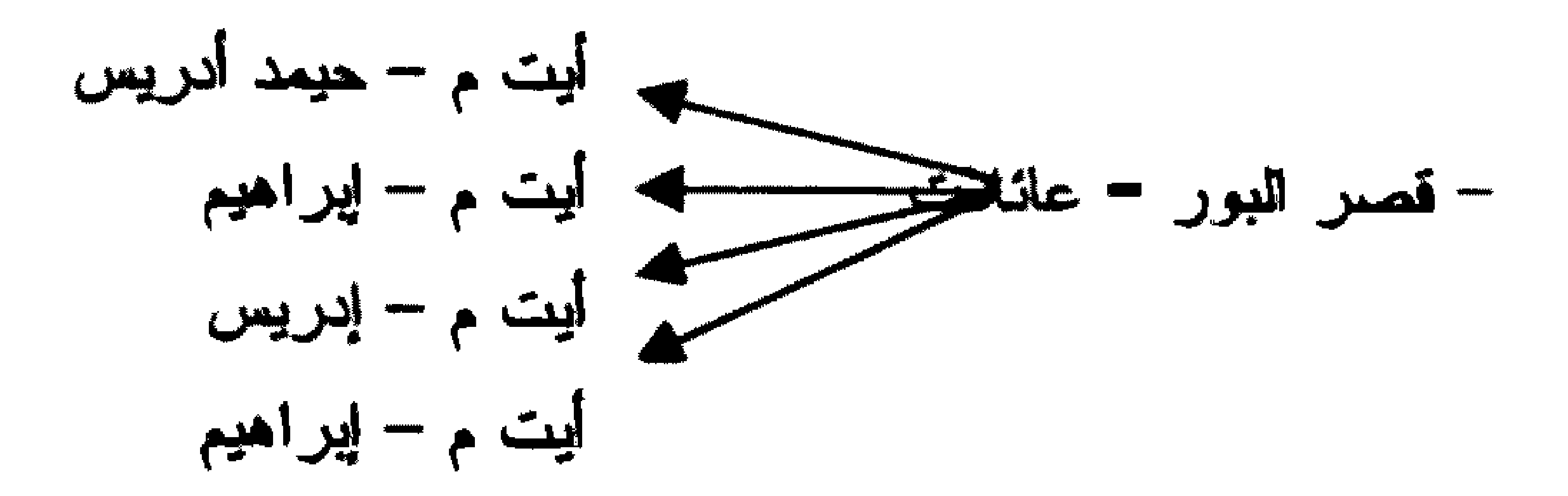
(11) ــ أي عدم استضافة أي دخيل على القبيلة قبل استشارة الجماعة"، التي كانت تتكون في الغالب، من إمام المسجد مع مسني القبيلة، خاصة وأنه خلال هذه الفترة – أي نهاية القرن الثامن عشر – انتشرت ظاهرة "إيمزواك" ومفرده "أمزواك" أي الشخص الذي تنبذه قبيلته بعد اقترافه لجريمة "القتل". ويقوم بطلب الحماية من قبيلة أخرى – خاصة التي ليست في نفس "حلف" قبيلته– وكان هذا سببا في خلق عدد من النزاعات بين القبائل (ويمكن مقابلته في نهاية القرن العشرين باللجوء السياسي – والدول التي تقوم بإيواء المعارضين – لدول أخرى مما يترتب عنه التوتر في العلاقات الدولية.

(12) ــ شرفاء ءايماسين هم :شرفاء أدارسة ينتسبون – اذرية سيدي بوعمران – المدفون بزاويته بدادس وبلاد ءايماسين تقع على واد دادس الكبير، ويحدها من الجهة الشرقية الأطلس الصغير، قبيلة ءامغارن، ومن الجنوب بلاد هسكورة، ومن الشمال قبائل أيت إحيا السدراتين (تاغيا). أنظر الخريطة. وينقسم شرفاء ءايماسين إلى سننه "عظام" أو "داغسان" مقسمين على ستة قصور:



أيت م – علي





أيت عبد القادر
أيت مولاي
أيت عبد الله
– قصر امجكوك – عائلات

أيت موسى
أيت عبد الله
– قصر اضرنين – عائلات

أيت عبد القادر
أيت إدريس
– قصر تلانت نتاحانوت

(13) ــ بورقية (رحمة) ، ن . م. س، ص. 74.

(14) ــ ثمانية أوجوه : وجهين = 12 فلسا نحاسيا.

8 وجوه = 48 فلسا نحاسيا.

(15) ــ ثلاثة امدود : مد = وحدة قياسة للحبوب والتين الموجودة بكــثرة فــي منطقــة دادس. ويساوي خمسة أكفاف من الحبوب.

(16) ــ حشى : كلمة أمازيغية ومعناها قطع الكلأ والكلأ المحصود بدوره يعرف با "لحشيش".

(17) ــ مدين : سدس الصحفة أو ما يعرف في المنطقة بـــ " عايسيعي".

(18) ـ غير الإخلاص: أي كل من تأخر في دفع ثمن المخالفة التي ارتكبها والمنصوص عليها في الوثيقة.

(19) ـ غرام الساقية: استعمل في الوثيقة فعل "كسر"، وهو لا يؤدي نفس المعنى الذين يؤديه في اللغة العربية. فكلمة كسر الساقية "مترجم حرفيا من الأمازيغية "إرزى - تركى" فعند عدم حضور الشخص للمساهمة في تنكيس السواقي، عندما يتم الإعلان عن ذلك، فإنه يؤدي غرامة مالية تقررها "لجنة السواقي" وتسمة با"أغرام نتركى".

(20) ـ من تعصب على أحد: أي من قام بالدفاع عنه، لأخذ ذلك يبقى من اختصاصات "الجماعة" الواردة أسماؤها في الوثيقة.

(21) ـ التسلي: نسبة إلى قصر "تسلي" وهو قصر من قصور "أيت حمو" بدادس.

وقد سمي بهذا الاسم، لأنه بني فوق صخور صلبة. والصخر بالأمازيغية هو "تيسلي". وينقسم إلى مجموعتين:

- تيسل الفوقانية: "تماجكلت.
- تيسل السفلانية: "تمزدارت.

(22) ـ التوفيق (أحمد) ، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر ، إينولتان ، 1850 - 1912 الجزء الثاني ، مطابع دار النشر المغربية 1400 - 1980. ص. 63.

(24) ـ من كسر الساقية، من جاء في جنان، غير مولاه، من حشى في فدان، قعد من غير الإخلاص، من تعصب على أحد.

(25) ـ التوفيق (أحمد) ، إينولتان. ن.م.س.، ص.63 - 64.

أهل فاس
بعيون أندلسية[1]

محمد استيتو*

سنحاول في هذه المداخلة أن نعرض لبعض الجوانب من الشخصية الفاسية بعيون أندلسية، مركزين بصفة خاصة على ما خلده الأندلسيون في أهل فـــاس مـــن القبائح وما نسبوه إليهم من نقائص وعيوب. صحيح إن من الأندلسيين مـــن قـــالوا أشياء جميلة في فاس وأثنوا على فضائل أهلها – إن صدقوا أم جاملوا أم نـــافقوا – إلا أنهم عرفوا كذلك بأنهم هم الذين كانوا أشد مضاضة علـــى الفاســيين خاصـــة والمغاربة عامة من الحسام المهند، كما يقال. لذا لا غرو إذا كان أهل فاس كثيرا مـا يرددون هذين البيتين[2]:

حسدوا الفتا إذ لم ينالوا سعيه   فالناس أعداء له وخصـــوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها   حسدا وبغضا إنه لذميـــم

وعلى أي حال، فأيا كانت الصورة التي جهد الأندلسيون في إخراجها لأهـــل فـــاس وإفشاء عيوبها بين خصوم الفاسيين أو بين أعدائهم، فإن تلك الصورة لا تحيد فـــي المجمل عن إطار اللوحة العامة التي رسموها للمغرب وللمغاربة كافـــة، متـــأثرين

* أستاذ باحث بكلية الآداب – وجدة.

في ذلك بانعكاسات أسباب حالات التوتر والصراع التي شابت العلاقات بين العدوتين ونتائجها، وما تولد عن ذلك من حواجز نفسية ومظاهر من الانفعال والتشنج والنفور، وما إلى ذلك مما عبر عنه الأندلسيون أنفسهم بنعوت شتى، منها: العداوة، والحسد، والكراهية، والبغضاء، والنفرة...(3) وتجسد نديهم، بصفة خاصة، في مجموعة من الأمثال وفي ما ثار بينهم وبين المغاربة من نزاعات المفاخرة والمنافرة والمفاضلة... التي برع فيها الأندلسيون بشكل كبير، ولاسيما ذوو الأصول المشرقية منهم، الذين غلب عليهم التعصب وأصابتهم آفة التبجح والاستعلاء، ونذروا أنفسهم لنزع كل مزية فضل عن المغرب ورمي أهله بكل خلة شنعاء.

وهكذا فإن ابن بقي (4) لم ير في المغرب إلا بلد شح وبخل وقلة مروءة، كما في هذه الأبيات، التي قال فيها:

أقمت فيكم على الإقتار والعدم — لو كنت حرا أبي النفس لم أقم
وظلت أبكي لكم عذرا لعلكم — تستيقظون وقد نمتم عن الكرم
فلا حديقتكم يجبى بها ثمر — ولا سماؤكم تتهل بالديم
لا رزق عندكم لكن سأطلبه — في الأرض إن كانت الأرزاق بالقسم

ولم ير ابن شخيص(5) في المغرب إلا بلدا قفرا، لا علم فيه ولا أدب، وليس فيه إلا الدهماء والغوغاء، كما في قوله:

وزادها في عماها أن أولها — ألقى العصا حيث لا علم ولا أدب
نشت مع الوحش في دهماء ليس لها — في غير حسو الحسى رأي ولا أرب

أما المرتضى المرواني(6)، فإن المغاربة لم يكونوا بالنسبة له أكثر من عنصر مخرب ومفسد للأحوال والنظم، لذا وجب استئصال شأفتهم، كما في هذه الأبيات، التي نظمها لما ملك الأدارسة قرطبة، والتي جاء فيها:

قد بلغ البربر فينا بنا — ما أفسد الأحوال والنظما

كالسهم للطائر لولا الـذي فيه من الريش لما أصمى
قوموا بنا في شأنهم قومة تزيل عنا العار والرغما
إما بها نملك أو لا نـرى ما يرجع الطرف به أعمى

إن مثل هذه النعوت والمواقف والصور لا تحصى في المؤلفات الأندلسية والمغربية والمشرقية على حد سواء، وتكاد تكون الإشارة إليها عامة سواء في كتب الوقائع والأخبار، أم في كتب الرحلات والجغرافية، أم في كتب التراجم والسير، أم في المصنفات الأدبية على اختلاف مشاربها، والتي يظهر في كثير منها أنه لم يسلم من بذاءة الأندلسيين حتى المغاربة الذين كانوا يشاركونهم الوطن أو يقيمون بين ظهرانيهم، بمن فيهم أولئك الجنود حماة الأرض الأندلسية وحراس ممتلكات أهلها، لا لشيء إلا لأن كل ما كان يمت إلى المغرب بصلة كان غير مرغوب فيه، كما تعبر عن ذلك هذه النماذج من أمثال العوام، التي كانت كثيرة التداول في المجتمع الأندلسي:

- "كل ما يجي من الغرب مليح إلا ابن آدم والريح."(7)
- "البربري والفار لا تعلم باب الدار."(8)
- "أتيس من توقرت البائت الذي اكسر ضرس بش ينطبع له التصفير."(9)
- "أتيس من عبوا البائت الذي باع الجلابية واشترى المقرع."(10)

من خلال هذه الأمثال وغيرها، يمكن القول إن المغاربة الوافدين على الأندلس كانوا يعتبرون – في نظر الأندلسيين – مصدر إزعاج وتشويش لمخالفتهم للنظم، ويحملون مسؤولية ما كان يصيب المجتمع الأندلسي من انحرافات وآفات اجتماعية، لأنهم "طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع..."(11) ، فلا غرابة إذن إذا كان المغربي البربري يمثل بالنسبة للأندلسي تلك الشخصية الغريبة الأدوار والأطوار والطباع، التي لا تستحضر سيرتها إلا في أجواء التفكه والتنكيت، أو لرميها بما يستعاذ به من مكاره الأفعال والأمور.

ومهما يكن من أمر، فإن مواقف بعض الأندلسيين من المغاربة عموما - بالأندلس كانوا أم بالعدوة الجنوبية - لم تقف عند مجرد الفتور والتحفظ والنفور، وإنما تعدته إلى النبش في أسرارهم والكشف عن نقائصهم وفضح عيوبهم ومساوئهم. صحيح إن كثيرا منها ليست أكثر من إسقاطات، أو حوادث وحكايات مختلقة، أو ردود أفعال انفعالية، يشهد على ذلك شحنها، في الغالب الأعم، بلهجات العداء والمبالغة والتهويل، لكن هذا لا يمكن أن يعتمد مبررا لنفي بعض تلك الآفات والعيوب الاجتماعية التي عيّر بها الأندلسيون جيرانهم المغاربة، وأهل حاضرة فاس منهم خاصة، حيث يظهر أن من الأندلسيين من كانوا يجدون لذة ومتعة في إثارة نقائصهم، ولاسيما من قبل أولئك الذين أقاموا بينهم وعاشروهم وتمكنوا من الاطلاع على خباياهم وأسرارهم.

ويبدو أن الأندلسيين اعتمدوا، في كثير من الأحيان، أساليب لا تخلو من ذكاء ومهارة في التشهير بتلك الأسرار والعيوب، كاعتمادهم على إثبات ما أفشاه المغاربة أنفسهم، وذلك حتى يقال: "لقد شهد شاهد من أهلها"، فتكون الحجة والبينة أقوى ويصدق السند.

وعندما تحدث الأندلسيون عن فاس، فإنه بالرغم من الازدواجية التي ميزت التركيبة السكانية والعمرانية لهذه المدينة، بحكم أنها قامت منذ تأسيسها - إلى العصر المريني - على شطرين، هما: عدوة الأندلسيين (أو عدوة الأندلس)، التي غلب فيها العنصر الأندلسي، وعدوة القرويين، التي ساد فيها العنصر المغربي البربري، وبالرغم من غلبة روح التساكن بين العدوتين، إلا أن ذلك كله لم يمنعهم من التعصب لبني جلدتهم بعدوة الأندلسيين، وذلك بإثارة عوامل الاختلاف والتمييز بين عدوتي المدينة، والمفاضلة بينهما أحيانا لمجرد المفاضلة أو تقديم مقارنات لا تخلو في كثير من الأحيان من تصنع وتكلف، بل وسخف كذلك.

فهذا أبو عبيد عبد الله البكري الأندلسي(12) مثلا، بالرغم من أنه يقر بأن "مدينة فاس مدينتان مقترنتان"، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن ينتقي من النصوص ما

يمكن من تمرير بعض أحكام القيمة والاستنتاجات والخلاصات، كتأكيده إن بعدوة الأندلسيين "تفاح حلو يعرف بالأطرابلسي، جليل حسن الطعم، يصلح بها، وله غلة، ولا يصلح بعدوة القرويين..."، التي إنما "يجود [بها] الأترج ويعظم ولا يجود بعدوة الأندلسيين..."، ومثل ذكره إن "سميد عدوة الأندلسيين أطيب من سميد عدوة القرويين لحذقهم بصنعته..."، أو إن نساءهم أجمل من نساء القرويين، وأن رجال القرويين أجمل من رجال الأندلسيين...!

وعلى العموم فإنه يمكن القول إن الأندلسيين بهذا النوع من أساليب المفاضلة والمقارنة وبمثل هذه الآراء والأفكار، نجحوا في استدراجنا إلى استخلاص بعض الاستنتاجات، التي أبدوا، في كثير من الأحيان، هم أنفسهم نوعا من التحفظ والحيطة في التعبير عنها صراحة، ولاسيما ما تعلق منها بمجموعة من الظواهر الاجتماعية السلبية، التي نسبوها إلى الفاسيين وضخموا صورها ووقائعها ونفخوا في أحداثها، كما لو كانت مقتصرة عليهم دون سواهم، ومنها:

اللـــؤم :

الواقع أننا لم نقف على إشارات كثيرة ترمي أهل فاس بهذه المنقصة، وما هو متوفر منها انتقى الأندلسيون معظمه – عن قصد غالبا – من أقوال وشهادات محلية، كتلك التي نقلها البكري عن قاضي تاهرت أحمد بن فتح، والتي هاجم فيها أهل عدوتي فاس معا دون تمييز، وذلك من خلال هذين البيتين:

أسلح على كل فاسي مررت به ... في العدوتين معا ولا تبقين أحدا

قوم غذوا اللؤم حتى قال قايلهم ... من لا يكون لئيما لم يعش رغدا(13)

الأنفة والشح ومقت الغرباء

كثيرا ما عير الأندلسيون أهل فاس بهذه الصفات الذميمة المرتبطة ببعضها. وفي هذا الصدد كذلك، نقل البكري عن المغاربة –مرة أخرى – أن من أمثالهم: "فاس بلد بلا ناس"(14). فهل كانت مدينة فاس كذلك فعلا!؟

لقد أورد الأسير الإيبري دييكو دي طوريس Diego DE TORRES في القرن 16م – أي بعد حوالي خمسة قرون على عصر البكري – إشارة طريفة في الموضوع ، فقد ذكر أنه كانت على السور، قرب الباب المؤدي إلى فاس البالي، لوحة حجرية نقش عليها هذا المثل القائل: "فاس بلاد الناس"، (يعني: مقام الناس) و"من يخرج من فاس أين يذهب."(15) ؟

فهل يمكن القول إن هذه اللوحة كتبت لتقوم ما "اعوج" على لسان العامة وترد الاعتبار لأهل المدينة، أم إن ما جاء فيها على لسان العامة إنما كان تحريفا لمضمونها؟

مهما يكن من أمر، فإن عددا من الأندلسيين – لاسيما الذين نزلوا بفاس وافتتنوا بجمالها – لم يخفوا، في المقابل، الإفصاح عن تذمرهم من بعض نقائص أهلها وعيوبهم كتبرمهم من الغرباء. وفي هذا الصدد قال يحيى بن سهل اليكي(16) أحد أشهر خصوم الفاسيين:

فراق الهم عند خروج فاس   لكل مسلمة تخشى وباس
فأما أرضها فأجل أرض   وأما أهلها فأخس ناس
بلاد لم تكن وطنا لحر   ولا اشتملت على رجل مواسي

وقال لسان الدين ابن الخطيب(17) في السياق ذاته دائما:

فاس لعمري هي الدنيا بأجمعها   لو لم يك القلب فيها ضيقا حرجا
من حل ساحتها لم ينج من كدر   كأنما همها بمائها مزجا

وقال أيضا(18):

يا حبذا فاس الغراء من بلد   كجنة الخلد أشجارا وأنهارا
الله يعلم أني مذ حللت بها   وجدت دارا ولكن لم أجد جارا

وأضاف ابن الخطيب، في مناسبات أخرى، إن من صفات أهل فاس "تجهم الوجوه للغريب..." حتى إن الرجل منهم "يلقى (...) أبا مثواه فلا يدعوه إلى بيته، ولا يسمح

ببقله وزيته، [لذا] لا يطرق الضيف حماهم، ولا يعرف اسمهم ولا سماهم..."، ومع هذا فإنهم "يرون لأنفسهم مزية الفضل..."(19)

وأكد الوزان من جهته بعض هذه النقائص المذمومة في أهل فاس من خلال قوله: "إن أكثرهم بغيضون لا يحبون الغرباء، مع أن عدد الغرباء قليل بفاس... و... أن الأعيان متكبرون جدا لدرجة أن عددا قليلا من الناس يستطيعون معاشرتهم، ويصدق نفس الشيء على العلماء والقضاة الذين يأبون، حفاظا على سمعتهم، أن يتعاملوا إلا مع بعض الأشخاص فقط..."(20)

الجبن وقلة الشجاعة :

كان من الطبيعي أن يتحدث الأندلسيون عن مدى شجاعة الفاسيين وقدرتهم على القتال، لاسيما في زمن سيطرت فيه هواجس المواجهة والتصدي والصمود والبطولة والفروسية والذود عن العرض. ولم يكن بالشيء الغريب أن يطعن بعض الأندلسيين في شجاعة أهل فاس ورجولتهم ويلمحوا، بل ويصرحوا أحيانا باتصافهم بالجبن وقلة الإرادة والعزيمة، كما قصد البكري، من خلال إثباته هذين البيتين المنسوبين لإبراهيم بن محمد الأصيلي والد الفقيه أبي محمد المفضل ابن عمر المذحجي، جاء فيهما(21) :

دخلت فاسا ولي شوق إلى فاس والجبن يأخذ بالعينين والراس

فلست أدخل فاسا لو حييت ولو أعطيت فاسا بما فيها من الناس

واللافت للانتباه أن الحديث عن مدى شجاعة أهل فاس لم يكن يثار، في الغالب، إلا في إطار من المقارنة أو المفاضلة أو التمييز أو قياسا بشجاعة أهل الأندلس، لاسيما منهم أندلسيو مدينة فاس وبالوافدين الجدد عليها على وجه التحديد، كما فعل البكري حين تحدث عن أن رجال عدوة الأندلسيين أشجع وأنجد من القرويين!(22)

وقد اعتمد الإيبريون – ورثة الأندلس، بعد طرد المسلمين منها – بدورهم أسلوب المقارنة نفسه، عند حديثهم عن مدى شجاعة الفاسيين. فقد أكد الأسير الإسباني كربخال مرمول(23) في القرن 16م أن أنجد المجندين بفاس هم "موريسكيو

إسبانيا الذين نزحوا من غرناطة والأندلس." أما أهل فاس "الآخرين إنما هم أناس تسلية مترفهون، لا يذهبون إلى الحرب إلا مكرهين." ويعتبر مرمول هذه الخصلة مزية شهيرة يتمتع بها الفاسيون، منحها إياهم الملوك الأوائل (الأدارسة) الذين جعلوهم في حل من الدفاع عن أنفسهم إن لم يستطيعوا ذلك، بحيث إنهم يستسلمون للمنتصر إذا اقترب من المدينة بنصف فرسخ دون أن يتهموا بالجبن ولا بالخيانة، ذلك ما جعل عاصمة كهذه تتلافى التخريب لو كانت تتظاهر بوفاء باطل وخطير لأمير لا يستطيع الدفاع عنها."

وأيد مرمول في ما ذهب إليه مواطنه دي طوريس(24) ، بل إن هذا الأخير ذهب إلى حد التلميح بأن الفاسيين مهيأون نفسيا وعلى استعداد للقبول باستيلاء ملك مسيحي على مدينتهم، لأنهم – حسب زعمه – يعتقدون ذلك، كما يفهم من هذا الوصف الذي أعطاه للمدينة، والذي جاء فيه: إنه "تمتد بين مدينتي فاس [فاس البالي وفاس المرينية] ساحة كبيرة يقول المغاربة إن المجموع كله صورة سيف، نصله فاس البالي، وقبضته الساحة، ورمانته فاس الجديد، ويعتقدون أن ملكا مسيحيا سينال هذا السيف."(25)

انحلال الأخلاق وتفشي الفساد:

يبدو أن هذه الظواهر من فساد الأخلاق كانت أكثر ما ركز عليه الأندلسيون للطعن في أهل فاس، نسائهم ورجالهم وصبيانهم. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما كان يردده الأندلسيون من أمثال العوام بخصوص المرأة الفاسية بالذات، كهذا المثل القائل:

"عزبة باب السلسل(ة)، دخلت الزلال وطلقت الولول(ة)"(26)

فهل نذهب في الاستنتاج إلى أن نقول إن المجتمع الفاسي كان – في نظر الأندلسيين – مجتمعا منحلا ومتفسخا، والمرأة فيه غارقة في الرذيلة والفساد، إلى حد إنها لم تعد تخشى فضيحة أو عارا!؟

مهما يكن من أمر، فإن هناك ما يؤكد أن الأندلسيين كان لهم – بلا شك – شيء من هذا التصور على الأقل، وإلا لما شاعت بينهم صور من هذا القبيل. بل

إن بعض الأندلسيين، الذين نزلوا بفاس أو أقاموا فيها، عاينوا – إن صدقوا – من مظاهر الخلاعة والتهتك ما هو أفظع، مثل تفشي ظاهرة اللواط والشذوذ الجنسي، وما شابه ذلك من مناكر حتى بين بعض الأسر من خاصة المجتمع. والأنكى من ذلك أن من بين أولئك الأندلسيين من خصوا أنفسهم بفضح تلك الآفات والتشهير بها، لكن ليس من باب الورع والتقوى أو حتى من باب الاستنكار، وإنما بغرض التشفي والشماتة والطعن في أهل فاس. بل إن منهم من حرضوا على الانغماس في تلك الرذائل – كما كان عليه الحال في الأندلس – وشجعوا عليها قولا وعملا، وأشاعوا ذلك بين الناس ووصفوه بأوصاف لا تخلو من إباحية وبأقوال سافرة خليعة مفعمة بأحاسيس من الزهو والانتشاء.

ويعتبر يحيى اليكي – مقلب مواجع الفاسيين – أشهر مثال لهذا النموذج من الأندلسيين الذين عاشوا في فاس وقلبوا لأهلها ظهر المجن. فقد طعن في فحولتهم ورجولتهم، وعبث بصبيانهم، وسفه ببعض أفعالهم الشنيعة، وشتمهم علانية، وبسط كل ذلك أمام خاصتهم وعامتهم من خلال ما نسب إليه وما روج من أقوال منظومة فيهم، كقوله(27) :

إذا الطفل منهم مس دائرة استه   درى أنها مخلوقة للفياشل

وكقوله(28) :

قصدت جلة فاس   أسترزق الله فيهم

فما تيسر منهم   دفعته لبنيهم

وقوله في صبي عبث به(29) :

عصابة سوء قبح الله فعلهم   أتوا في علي بالدناءة والقبح

فزوه من وقت الصبح إلى المسا   وناكوه من وقت المسا إلى الصبح

إذا جاء منهم واحد قام تسعة   كما اختلفت نحل الربيع على الجبح

وقال كذلك(30) :

اطعن بنعلك من تلقى من النـــاس من أرض حمص إلى أقصى قرى فاس
قوم يمصون ما بالبعل من نطــف مص الخليـــع زمـــان الـــورد للكـــاس

وعلى أي، فقد كان لهذه الآفات الاجتماعية مواسم مد وجزر، تبعا للظـــروف التاريخية العامة التي مر منها المجتمع الفاسي، ويبدو أن بدايات العصـــر الحديـث كانت من بين "أزهى" تلك العصور، كما تؤكد ذلك العديد من الإشارات والشـهادات. فقد تحدث الوزان عن شيوع ظاهرة الفساد بصفة عامة فـــي معظـــم أحيـــاء فـــاس وحوماتها. ففي عدوة الأندلس بالذات، كانت هناك دور عمومية تمارس فيها مهنـــة البغاء وتباع فيها الخمور بحرية وطمأنينة تامة، بل تحت رعاية السلطة(31) ، تمامـــا كما كان عليه الحال في الأرباض الهامشية الفقيرة المحيطة بالمدينة(32).

أما في الفنادق، لاسيما في عدوة القرويين، فقد كانت – حسب مرمـــول(33) – "ملاجيء للشياطين، ترتكب فيها آلاف المعاصي بكامل الإباحـــة وبـــدون عقـــاب، لدرجة أنه يسمح لأصحاب الفنادق بالخروج بزي النساء، محلقين اللحي، متمنطقيـــن كالنساء، مرققين صوتهم عند الكلام ومقلدين النساء لتحريض الرجال علـــى فســـق بشع، ويباح لهم اتخاذ وسطاء عموميين وبيع الخمر وإيواء النساء والصبيان..."

ويبدو أن هذه الأنواع من الموبقات كانت مألوفة وعادية في المجتمع الفاســـي، أو على الأقل كانت متفشية في شريحة عريضة منه وفي فئات من مختلف الأعمـــار، يشهد على ذلك ما كان يتغنى به علانية من قصائد منظومة في تلـــك الممارســـات والأفعال، كان ينظمها شعراء الملحون "في الحب، يصف فيها بعضهم حبه للنســـاء، وبعضهم حبه للغلمان، فيذكر دون حياء ولا خجل اسم الغلام الذي يهواه..."(34).

والأكثر من ذلك أن هذه المنكرات كانت مستشرية حتـــى بيـــن مـــن كـــان يفترض فيهم أن يكونوا قدوة للمجتمع الشعبي على الأقل، ونخـــص بذلـــك بعـــض الفرق الصوفية، التي دبت بين جماعاتها ظاهرة اللواط، حتى لقد سرى فـــي حقـــهم "المثل السائر على جميع الألسنة بفاس: (مثل مأدبة النساك التي حولتنا من عشـــرين

إلى عشرة)، ومعنى ذلك أن كل مريد حدث يعرف ما ينتظره ليلا..."، على حد تعبير الوزان(35).

ويظهر أن هذه المفاسد والعيوب التي كانت منتشرة بين أهل فاس، ولاسيما منها ظاهرة اللواط، كان شائعا أمرها حتى في بعض المجتمعات المسيحية الأوربية، بل إن هذه المجتمعات اعتبرتها قدرا محتوما بالنسبة لمدينة فاس، فإذا صدق دييكو دي طوريس، فإنه كان معروفا "أن لدى المسيحيين خبرا (أوحي) إلى سانت إيزيدور، أسقف إشبيلية، بأن ملوك فاس سيستأصلون بخطيئة اللواط."(36)علما أن هذا الأسقف عاش تقريبا في الفترة ما بين عامي 570 و636م، أي قبل تأسيس مدينة فاس بما يزيد عن قرن ونصف القرن(37) . ويغلب على الظن أن خبر هذا (الوحي) المزعوم هو نفسه الذي قصده مرمول، وإن بصيغة أخرى، حين حديثه عن تنكيل محمد الشيخ السعدي بالفاسيين وبعلمائهم خاصة، لما تغلب على أبي حسون الوطاسي - عام 1549م - معتبرا ذلك عقابا لهذا الأخير على المنكرات البشعة التي كان يبيح ارتكابها علانية محاربة لله ورسوله(38) .

وعلى أي فإن هناك مجموعة أخرى من المساوئ والعيوب التي رصدها الأندلسيون في المجتمع الفاسي، من بينها ما جمعه اليكي(39) في الأبيات التالية:

يا أهل فاس لقد ساءت ضمائركم فأصبحت فيكم الآراء متفقة

كل امرء قد حاز منقصة بها أحاط كدور العين بالحدقة

وربما اجتمعت في بعض سادتكم نقائص أصبحت في الناس مفترقة

كالقرن والقود المشهور والكذب الـ معروف والخلة الشنعاء والسرقة

فلا تهابن فاسيا مررت به وإن تقل فيه خيرا حول الورقة

والعنه شيخا وكهلا واجفه حدثا ونكه طفلا ولو ألقيته علقه

فلا سقى الله فاسا صوب غادية نعم ولا اخضر في أرجائها ورقة

كانت هذه إذن جملة من مواقف وآراء أندلسية في أهل فاس، والتي ارتكزت، بصفة خاصة، على استعراض بعض من مساوئهم وقبائح أفعالهم التي كان

الأندلسيون يستحضرونها، في الغالب، في مجالسهم الخاصة أو في معرض أحاديثهم للترويح على النفس من خلال تجريح الآخر، وذلك بما عرف عنهم من غلبة الطباع المرحة وحلاوة في المحاورة، وأجوبة مسكتة وسرعة بديهة، لاسيما لدى المولعين منهم بالدعابة والتندر والتفكه، أو لدى المشتهرين بينهم بالظرف وخفة الدم، وهي على أية حال خصال اجتمعت كلها في الأندلسيين "كالغريزة، في صبيانهم ويهودهم، فضلا عن علمائهم وأكابرهم..."، على حد قول المقري التلمساني(40)، وهي خصال يبدو أنه لم يكن يضاهيهم فيها في العدوة الجنوبية إلا أهل مراكش.

ومع أن معظم تلك المواقف والآراء تبقى في معظمها – من غير شك – مجرد حشو في هجو وكلام لا يعتد به ولا يعتبر، لأن غايته الطعن والإساءة ليس إلا، إلا أنه يمثل لا محالة شكلا من أشكال النقد الاجتماعي، وإن كان الفاسيون لم يستسيغوه، لشدة وطأته عليهم، فحاولوا الحد ما أمكن من تجني الغير عليهم، كما فعل الشيخ الصالح علي ابن حرزهم، الذي سعى إلى يحيى اليكي معاتبا إياه لإثنائه عن التمادي في التهجم على أهل فاس وما خلد فيهم من القبائح، غير أن خبيث الهجاء اليكي ما قدر فضل الرجل ولا اعتبر مكانته وشأنه، بل أطرق وأنشده ما يكره، قائلا(41):

رأيت جنان عدن في منامي وحور العين في أسنا لباس
فقلت : بما أحصل على هذا؟ فقيل: إذا هجوت لأهل فاس
فدع عنك الصلاح وكل بر فهجوهم يؤمن كل باس

وهكذا وأمام تمادي اليكي في هجو أهل فاس وإفراطه الشديد فيه، لم يجد الفاسيون بدا من الكيد له والنيل منه والتعسف عليه، "وساعدهم [على ذلك] واليهم مظفرا الخصي... والقائد عبد الله بن خيار الجياني... فقدموا رجلا ادعى عليه بدين، وشهد عليه به رجل فقيه يعرف بالزناتي ورجل آخر يكنى بأبي الحسين، من مشايخ البلد، فأثبت الحق عليه وأمر به إلى السجن فرفع إليه وسيق عنيفا، فلما وصل إلى بابه

طلب ورقة من كاتبه، وكتب فيها وأنفذها إلى مظفر مع العون الذي أوصله إلى السجن، فكان ما كتب:

ارشوا الزناتي الفقيه ببيضة يشهد بأن مظفرا ذو بيضتين
واهدوا إليه دجاجة يحلف لكم ما ناك عبد الله عرس أبي الحسين"(42)

كيفما كان الحال فإن هذا الأسلوب الذي اعتمده الفاسيون لتأديب اليكي يبقى، من غير شك، أرحم وأهون كثيرا من أسلوب التواطؤ الذي اعتمدوه للإجهاز على لسان الدين ابن الخطيب حرقا. نعم، قد يكون اليكي لقي هو الآخر حتفه قتلا، لكن على يد أهله من الأندلسيين وفي بلاده الأندلس وليس على يد أهل فاس.

مهما يكن من أمر فإن هذه الأساليب في الرد على المغرضين والجاحدين والحاسدين والخصوم إنما هي استثناء في أفعال الفاسيين وإلا فإن لهم هم كذلك باع طويل في المنظوم والمنثور، وهو معلوم ومشهور. وبالإضافة إلى ذلك فقد ذهب أهل فاس إلى حد تحصين مدينتهم بإحاطتها بهالة دينية وإضفاء صفة القدسية عليها لتعزيز مكانتها في النفوس وتأكيد دورها في حياة الناس، وهذا من خلال إشاعتهم لحديث منسوب إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – جاء فيه: "تكون بالمغرب مدينة تسمى بفاس، أقوم أهل المغرب قبلة، وأكثرهم صلاة، أهلها على السنة والجماعة ومنهاج الحق، لا يزالون متمسكين به، لا يضرهم من خالفهم، يدفع الله عنهم ما يكرهون إلى يوم القيامة."(43) فهل يدخل الكشف عن قبر المولى إدريس الأصغر – مؤسس المدينة، إن كان هو فعلا – في العصر المريني هو أيضا ضمن هذا السياق؟

كيفما كان الجواب فقد كان من حق الفاسيين أن يدافعوا عن أنفسهم ويتعصبوا لمدينتهم بالشكل الذي يليق بهم ويرضونه لأنفسهم ما دام أن حب الأوطان من الإيمان.

إنما وبعد كل هذا، إلى ما ذا كان يرمي الأندلسيون من تحاملهم على أهل فاس ومعاداتهم، والتسفيه بأفعالهم، والتشنيع بأعمالهم بتلك الحدة التي تثير

أحيانا نوعا من التقزز والاشمئزاز، وتخلف شعورا وإحساسا بضرورة النفور منهم وتحقيرهم؟

الواقع أن الأندلسيين تجنوا - كما سبق الذكر - على المغاربة كافة، إلا أنه في حالات كهذه كان من الطبيعي أن ينصب تحاملهم - بصفة خاصة - على أهم الرموز وعلى العواصم وأشهر الحواضر والأوطان فأدت بذلك فاس - مثل مراكش وسلا... - ثمن تحضرها ومباهاتها لمثيلاتها في الأندلس، وإلا فيم تكون المفاضلة والمنافرة والمفاخرة والسجال، أليس بالرجال والأمجاد والبلد...؟ إن هذا هو ما يلمس في مختلف أطوار الصراع وأشكاله وألوانه التي طغت على العلاقات بين العدوتين - كما هو الشأن عادة بين بلدين جارين - سواء في طابعها السياسي أم في صبغتها الاجتماعية أم الثقافية أم في غير ذلك.

ويمكن القول إن الأندلسيين وجدوا هم كذلك أنفسهم مدفوعين إلى سلوك ذلك المسلك، بالرغم مما غلب عليه من تعصب وغلو أحيانا، وذلك رد فعل منهم على الحضور المغربي في الأندلس ودور العنصر البربري في مختلف أطوار تاريخها، الذي اعتبر منافسا قويا غير مرغوب فيه، لاسيما من العنصر العربي المشرقي، نظرا لكثرة ما حدث من احتكاك وصدام بين هذين العنصرين، سواء أثناء الفتح الإسلامي للأندلس أو بعد ذلك في فترات استقلال الغرب الإسلامي أو خلال عمليات الاسترداد المسيحي لهذه الرقعة من العالم الإسلامي.

لقد ظهر الأندلسيون من أصل عربي أكثر العناصر الأندلسية "قومية" وتشددا وتعصبا لانتمائهم العربي ولبلادهم الأندلس، وأكثر بغضا ومقتا لمن ينازعهم فيها، لذلك حرصوا كل الحرص على التميز بهويتهم عن هويات غيرهم، وذلك واضح في تراجم أعلامهم، إذ تجد: الأزدي القرطبي، والأنصاري الخزرجي الغرناطي، والغساني المالقي، والقيسي الإشبيلي، والقضاعي المرسي، والطائي البلنسي... أضف إلى ذلك فضلهم في حمل الدين وتحضرهم وكونهم أصحاب اللسن والبيان...

كل ذلك غرس في نفوسهم طبائع الأنفة والاستعلاء التي جعلتهم يشمخون بأنوفهم على غيرهم، لاسيما إذا كان هذا الغير من طينة البربر.

تبعا لكل هذا إذن، فإنه يمكن القول إن النفور الذي سرى بين أهل العدوتين، نتيجة لظروف تاريخية معينة - وكان أهل فاس من أكبر "ضحاياه" - إنما هو في الأصل امتداد لانعكاسات ما كان يحمله مشرق العرب عن مغرب البربر منذ ما قبل الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا من أفكار غير واضحة وأحكام قيمة مسبقة وقلة معرفة بهذا العالم، مما ولد لدى عرب المشرق نوعا من الحيطة والحذر وعدم المجازفة في التعامل مع البربر أو الاحتكاك بهم، وهو ما يمكن أن يستنتج بجلاء من سياسة التريث ثم الرفض للخليفة عمر بن الخطاب لرغبة قائده عمرو بن العاص في فتح بلاد إفريقيا البربرية، لأنها، كما قال: "ليست إفريقيا، ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت"، أو "لا أوجه إليها أحدا ما مقلت عيني الماء"(44) ، كما في رواية أخرى.

والراجح أن ما لقيه العرب الفاتحون لبلاد البربر من مقاومة شديدة وعنيفة على امتداد عقود طويلة، وما ترتب عنها من فواجع وآلام وضغائن وتشنجات نفسية ووجدانية، كل ذلك خلف بعض الأحقاد ومواقف عدائية مستكينة وهواجس وانفعالات متذمرة خفية وكامنة لدى العرب، ظلت حية في نفوسهم يحملونها في صدورهم أينما حلوا وارتحلوا، لكنها طغت في كتاباتهم التي عكست تلك الهواجس بتلقائية وعفوية أحيانا، فجاء ما خصوا به البربر بالتالي مشحونا بذاتية منفعلة ومفرطة، لما وصفوهم به من أوصاف غير موضوعية، ولما قدموا عنهم من معلومات وأفكار ليست كلها مستندة إلى أسس صحيحة، بل ومشوهة في الغالب عن قصد، فجاءت تبعا لذلك إلى الهجو أقرب.

وعلى سبيل المثال، فإن البربر، بالنسبة لياقوت الحموي(45) هم "أجفى خلق الله، وأكثرهم طيشا، وأسرعهم إلى الفتنة، وأطوعهم لداعية الضلال، وأصغاهم لنمق الجهالة..." ولما تعرض لأصل نسبهم، ركز الحموي على اختلاف المؤرخين

فيه، لكنه لم يستسغ أن يكون "أكثر البربر تزعم أن أصلهم من العرب." فرد على ذلك بأنه "بهتان منهم وكذب..."

وللإشارة فإن الحموي جمع مادة لا بأس بها عن البربر، لكنها كلها في ما نسب إليهم من قبائح الأفعال والخلل الشنيعة، ولم ينسب إليهم ولا مزية فضل واحدة إلا مزية إكرام الضيف، التي لم يسمح بها إلا ليقرنها بأخس المناكر وأحطها: اللواط والشذوذ. لكل هذا لم يكن غريبا أن ينهي كلامه عنهم بهذين البيتين للسميسر الأندلسي، أنشدهما إياه أبو القاسم النحوي الأندلسي الملقب بالمعلم، جاء فيهما:

رأيت آدم في نومي، فقلت له: أبا البرية ! إن الناس قد حكموا
أن البرابر نسل منك، قال: أنا! حواء طالقة إن كان ما زعموا

وقصارى القول، إن حواجز نفسية كانت تقف بين العرب الأندلسيين والمشرقيين من جهة والبربر المغاربة من جهة أخرى، تراوحت بين مد وجزر، طفت أحيانا وتأججت، وخفت أحيانا وخمدت، ولكنها ما تولت أبدا، لأنها نتاج تاريخ وذهنية، وإلا ما معنى أن نجد إلى هذا العهد مفكرا كأحمد أمين يعزف نغمة الأمس نفسها على الوتر نفسه وبالعقلية ذاتها، تماما كما فعل غيره في التعامل مع تاريخ المغرب ورجاله. فأثناء تناوله لتاريخ الأندلس، لم يجد أدنى حرج في نعت جيش يوسف ابن تاشفين بالبربر الأجلاف(46) ، لا لشيء إلا لأنه خلص الأندلس من عبث ملوك الطوائف. ولما تعرض لحادث أسر أحد هؤلاء الملوك، وهو المعتمد ابن عباد، على يد ابن تاشفين، لم يتردد هذا المفكر في أن يبدي وبحماس زائد وبنزعة مشرقية تعاطفه الشديد مع الملك الأسير ونقمته على الآسر، لأن هذا الأخير "كان يستطيع أن يحبس ابن عباد في قصر فخم يليق به من غير قيود وأغلال، ويجري عليه من الرزق ما يكفيه عن سعة، وبذلك يضمن تحصيل رغبته ويخفف من وقع الألم على ابن عباد، ولكنه [ابن تاشفين] بدوي جلف لا يفهم معنى الإنسانية."(47).

كانت هذه إذن جملة مشاهد وصور ملتقطة بعيون أندلسية عن فاس أو بالأحرى عن أهلها، والتي تعكس نموذجا لأسلوب من صراع لم يمت بعد، جر على

فاس وأهلها ما كان وسار مما تعرضنا لبعضه على سبيل الاستئناس، إنما فاس بقيت، لكن أين هو الأندلسي فيها!؟.

الهوامش :

(1) - ألقي هذا العرض في الندوة الدولية حول "فاس والأندلس" التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسايس – فاس يومي 29 و30 نونبر 1995، ونشرت ضمن "أعمال ندوة: فاس والأندلس"، منشورات ك.آ.ع.إ. سايس–فاس 2001، ونعيد نشره نظرا لما شابه من أخطاء مطبعية كثيرة ونتمنى أن يساعد نشر النص كاملا على استيعاب أعمق لمضمون الموضوع وتبديد تأويلات بعض السادة المعقبين وردود أفعالهم.

(2) - أورد هذين البيتين أحمد ابن القاضي في: جذوة الاقتباس، في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس. جزآن، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، دار المنصور، الرباط، 1973 و1974، 1 : 80.

(3) - هذه النعوت كثيرة في المصادر أندلسية ومغربية على حد سواء، وعلى سبيل المثال فقد تحدث الأمير عبد الله الزيري في مذكراته عن بغض الأندلسيين لجنس البربر "وبغضهم لجنسهم"، وتكلم عن تألبهم وبغضهم للزيريين...، انظر: كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة زيري في غرناطة. القاهرة، 1955، صص. 20 و24. وتحدث لسان الدين ابن الخطيب من جهته عن "النفرة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة..." راجع: إعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام. القسم الثاني، تحقيق: ليفي بروفنسال، الرباط، 1934، ص. 227.
ويمكن رصد هذه النعوت كذلك في كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب...، لأحمد المقري التلمساني، 8 أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، هنا وهناك.
كما يمكن الرجوع كذلك إلى: طرفة الظريف في أهل الجزيرة وطريف، المنسوب لعبد العزيز بن عبد الواحد الملزوزي، تقديم: محمد ابن شريفة، مجلة كلية الآداب بالرباط، العدد 1، 1977.

(4) - وجاء في التتمة:

أنا امرؤ إذ نبت بي أرض أندلس ... جئت العراق فقامت لي على قدم

أبن الرجا والعلى من حازم يقظ ... يغزو أعاديه في الأشهر الحرم

إن كان سهما فلا تنمي رميته ... أو كان سيفا فمسلول على البهم

لا يكسر الله من الرمح إن به ... نيل العلى وأتاح الكسر للمقام

ولا أراق دما من باسل بطل ... ومات كل أديب عبطة بدم

أوغلت في المغرب الأقصى وأعجزني ... نيل الرغائب حتى أبت بالندم

الفتح ابن خاقان: قلائد العقيان في محاسن الأعيان. طبعة تونس (مصورة عن طبعة باريس)، 1965، ص. 325.

(5) - قيل هذا بمناسبة تغلب الحكم المستنصر على الأدارسة بالمغرب. راجع: ابن حيان القرطبي: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، مطبعة سيما، بيروت، 1965، ص. 160.

(6) - نفح الطيب، م. س.، 1 : 403.

(7) - عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي: أمثال العوام في الأندلس (مستخرجة من كتابه: ري الأوام، ومرعى السوام، في نكت الخواص والعوام). جزآن، تحقيق: محمد ابن شريفة، فاس، 1971، 2 : 253، مثل رقم 1082. والمقصود بالغرب هنا: المغرب الأقصى.

(8) - المصدر نفسه (م. ن.)، 2 : 45، مثل رقم 175.

(9) - م. ن.، 2 : 111 ، مثل رقم 492. "أتيس" بمعنى: أغبى وأجهل.

(10) - م. ن.، 2 : 110، مثل رقم 491. و"البائت" هو الحارس أو الجندي، و"المقرع" هو العصا. وهناك أمثال أندلسية أخرى كثيرة تتعلق بالبربري، منها:

- "أتيس من عبو الفحام الذي كان ينحم الفحم بالورد." ينحم، بمعنى يزين.
- "حموا، وبني عمو." بمعنى: جاء القوم قضهم وقضيضهم.
- "في كدية عبو." عبو: تصغير لاسم عبد الله، ويكنى به في المغرب عن الكذب."
- "شاهد دكالة من قاع المطمورة." ولعل المقصود هنا اتهام الدكاليين بالكذب والزور. راجع: م. ن.، ق.2،على التوالي: ص. 111، م. رقم 493، ص. 194، م. رقم 854، ص. 402، م. رقم 1751، ص.433، م. رقم 1889...

(11) - ورد في نفح الطيب (م. س.، 6 : 228؟) مايلي: "لما كان البربر بالقرب منهم [الأندلسيون] وليس سوى تعدية البحر، ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع ازدادوا منهم نفورا وأكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة..." نقلا عن: ذ. محمد ابن شريفة: طرفة الظريف. م. س.، ص. 44، و لم نتمكن من الوقوف على هذا النص في الطبعة التي اعتمدناها من نفح الطيب.

(12) - المسالك والممالك. قسم: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. مطبعة الحكومة، الجزائر، 1957، صص. 115-116. ومما يدل على التكلف والتصنع الغالب على هذا النوع من المقارنات أن ياقوت الحموي، الذي استقى معظم مادته عن فاس من كتاب البكري، اكتفى بالإشارة فقط إلى تفاح عدوة الأندلسيين، في حين استنكف عن ذكر أترج عدوة القرويين. انظر: معجم البلدان. دار صادر، بيروت، د.ت.، 4: 230. ومن جهة أخرى، ففيما يتعلق بخاصية الجمال، خالف ابن القاضي البكري في مقارنته تلك، حين اعتبر "رجال عدوة القرويين أجمل من رجال عدوة الأندلس، وكذلك نساؤهم." م. س.، 1: 37.

(13) - البكري: م. س.، ص. 117.

(14) - م. ن.، ص. 115.

(15) - تاريخ الشرفاء. ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1988، ص. 142.

(16) - الحموي: م. س.، 4 : 231.

(17) – ابن إبراهيم عباس بن محمد التعارجي: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام. 10 أجزاء، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1974-1983، 1: 13.

(18) – علي الجزنائي: جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس. ط. 2، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، الرباط، 1991، ص. 33، هامش رقم 78 (نسخة الخزانة الحسنية بالرباط، عدد 5166).

(19) – معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار. تحقيق: محمد كمال شبانة، المحمدية، المغرب، د. ت.، ص. 179. انظر هذا النص كذلك ضمن مجموعة "مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس"، مطبعة الأسكندرية، 1958، صص. 69-115.

(20) – الحسن بن محمد الوزان: وصف إفريقيا. جزآن، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1980 و1982، 1: 214.

(21) – البكري: م. س.، ص. 117.

(22) – م. ن.، ص. 116. وبالمناسبة فإن ياقوت الحموي، اليوناني الأصل البغدادي الدار، بالرغم من أنه نقل هذا النص بحذافيره عن البكري وأثبته، إلا أنه سمح مع ذلك لنفسه بالإضافة إليه وشحنه أكثر، فجاء كالآتي: "... وكذلك رجال عدوة الأندلسيين أشجع وأنجب وأنجد من رجال القرويين..." م. س.، 4: 230.

(23) – إفريقيا. 3 أجزاء، ترجمة: محمد حجي وآخرين، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1984-1989/88، 2: 145.

(24) – ذكر دي طوريس "أن أهم قوة في هذه المدينة [فاس القديم] هم سكانها الذين ليسوا شجعانا بطبيعتهم." (م. س.، ص. 114.) وأنهم "أكثر غنى وتشبثا بملذاتهم، لذلك يكرهون الحرب وينفرون منها... ويعللون قلة شجاعتهم بأمر وجهه إليهم أول ملك أسس مدينتهم، مؤكدين أنه قال لهم: إذا جاء بعض الأمراء ليقيم الحصار أمام فاس و لم يكن أميرها إذ ذاك قادرا على مواجهته بالقتال، فلهم أن يسلموها للعدو، دون أن يمكن اتهامهم حقا بالجبن أو الخيانة، يقولون إن الملك الأول اتخذ ذلك القرار لتحتفظ المدينة ببهائها..." (م. ن.، ص. 145.) وبطبيعة الحال فإن هذا الكلام إنما هو دعوة صريحة للملوك المسيحيين لتوجيه حملات لاحتلال المغرب عامة وفاس خاصة، وهو ما عبر عنه دي طوريس في مكان آخر، بقوله: "... بحيث إن ملكا مسيحيا يمكن أن يعمل على أن يجبي منهم [أهل فاس] الخراج، لأنهم على أي حال لا يريدون تحمل متاعب الحصار." (م. س.، ص. 147.) وكيفما كان الحال، فسواء صدقت هذه الروايات أم جانبت الصواب بإلصاقها الجبن وقلة الشجاعة بالفاسيين، إلا أنه ينبغي أن نتفهم أن حرص أهل فاس على الأمن ينبعث من طبيعة أعمالهم التجارية والحرفية، التي لا تستقيم إلا في ظل انتشار الطمأنينة.

(25) – المكان نفسه. بل إن دي طوريس يذهب إلى القول كذلك إن أفرادا وأميرات من البلاط السعدي بمراكش يعتقدون بأن الأمير البرتغالي دم لويس سيصبح ملكا على المغرب. م. ن.، ص. 161.

(26) – أمثال العوام، م. س.، 2: 389، م. رقم 1707.

(27) – صفوان بن إدريس التجيبي المرسي: زاد المسافر، وغرة محيا الأدب السافر. تحقيق: عبد القادر محداد، دار الرائد العربي، بيروت، ط . 1980، ص. 121.

(28) - م. ن.، ص. 122. ودون الحموي (م. س.، 4: 231.) هذين البيتين كالآتي:

دخلت بلدة فاس   أسترزق الله فيهم

فما تيسر منهـــم   أنفقته في بنيهـــم

ومثل هذه النقول محرفة لأبيات من شعر اليكي كثيرة في مصادر مختلفة، وهو ما يدل، في الغالب، على أنها كانت كثيرة الانتشار وتحفظ بسهولة ويجتهد متلقيها في القرض على منوالها ومحاكاتها أو إدخال تغييرات عليها...

(29) - زاد المسافر، م. س. ، ص. 122.

(30) - المكان نفسه. ودون الحموي هذين البيتين (م. س.، 4: 231.)، كما يلي:

اطعن بأيرك من تلقى من النـــــــاس   من أرض حمص إلى أقصى قرى فاس

قوم يمصون ما في الأرض من نطف   مص الخليج زمـــان الـــورد للكـــــاس

وتظهر هنا الحمية المشرقية واضحة لدى الحموي، حيث إنه استبدل بلدة حمص الشامية بمصر، القريبة من بلاد البربر.

(31) - الوزان: م. س.، 1: 193.

(32) - م. ن.، 1 :215-216.

(33) - م. س.، 2: 147. وهذا النص شبيه بذلك الذي أثبته الوزان، بل نقل عنه، وجاء فيه إن من أسوإ ما في هذه الفنادق "مساكنة رهط يقال لهم ((الهيوى))، وهم رجال يرتدون ثياب النساء ويتحلون بحليهن، يحلقون لحاهم ويقلدون النساء حتى في طريقة كلامهن... إنهم يتغنجون أيضا. ولكل واحد من هؤلاء الأنذال صاحب يتسراه ويعاشره كما تعاشر المرأة زوجها. ولهؤلاء الناس أيضا في الفنادق زوجات أخلاقهن كأخلاق المومسات في مواخير أوربا. ولهم كذلك ترخيص بشراء الخمر وبيعه دون أن يزعجهم موظفو الحاشية." م. س.، 1: 183.

(34) - م. ن.، 1: 202.

(35) - م. ن.، 1: 209.

(36) - دي طوريس: م. س.، ص. 138.

(37) - ولد هذا الأسقف بمدينة قرطاجنة وتوفي بإشبيلية. وقد كان عالم لاهوت، وإليه يعزى تنظيم الكنيسة الإسبانية، ويعتبر من المدافعين عن الديانة المسيحية ضد المذاهب الفلسفية والثقافات المادية الملحدة، وله مجموعة من المؤلفات الدينية وأخرى في الأخلاق والفنون المختلفة...

(38) - ذكر مرمول أن محمدا الشيخ السعدي لما استولى على فاس و"عاتبه الفقهاء على محاربته لملك يدين مثله بدين الإسلام، أجابهم بأنه يفعل ذلك عقابا له على المناكر البشعة التي يبيح ارتكابها علانية محاربة لله ورسوله، بحيث إنه مثل بهؤلاء الفقهاء بمجرد ما أصبح سيدا، وكان معه قاض (سيدي موسى) أخذ في ذبح كل من استطاع إمساكه، ومنع أن يدفنوا حتى أكلتهم الكلاب، الأمر الذي لم يطل، إذ ما كاد يرجع عنهم حتى استأنفوا عاداتهم الكريهة، وإن كان ذلك بجرأة أقل من السابق." م. س.، 2: 148.

(39) - زاد المسافر، م. س.، ص. 121.

(40) - م. س.، 3: 381.

(41) - جذوة الاقتباس، م. س.، ص. 1: 80.

(42) - نفح الطيب، م. س.، 3: 324.

(43) - ذكر الجزنائي أن الفاسيين كانوا يتناقلون هذا الحديث خلفا عن سلف، وأنه موجود في كتاب لدراس بن إسماعيل المكنى بأبي ميمونة بخط يده مسندا إلى علي بن أبي مطر بالأسكندرية عن محمد بن إبراهيم ابن المواز عن عبد الرحمن بن القاسم عن مالك بن أنس عن محمد بن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم. م. س.، ص. 20. وبالنسبة لترجمة دراس بن إسماعيل، راجع: جذوة الاقتباس، م. س.، 1: 194 وما بعدها.

(44) - عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم: فتوح إفريقيا والأندلس. تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، بيروت، 1964، صص. 33-34.

(45) - راجع: معجم البلدان، مادة "بربر"، م. س.، 1: 368-369.

(46) - ظهر الإسلام. ط. 5، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969، 3: 174.

(47) - م. ن.، 3: 180.

البلديون الفاسيون
مجموعة من المسلمين الجدد من أصل يهـودي

مرسديس كارسيا أرنال*
ترجمة عبد العزيز بل الفايدة*

مقدمـــة

يتمحور موضوع هذه الدراسة حول مدينة فاس خلال فترة تمتد من نهايـــة الحكم المريني إلى بداية العهد العلوي، أما موضوعها فيتعلق بفئة اجتماعية مهمـــة لعبت دورا في حياة هذه المدينة، وهي شريحة اليهود الذين أسلموا (أو المســـلمون من أصول يهودية).

إن شساعة وامتداد الفترة المدروسة وانعدام منوغرافيـــات لا تجعـــل مـــن الموضوع سوى مقاربة وعرضا للإشكاليات أكثر مما هي دراسة شـــاملة. وكيفمـــا كانت الفترة المدروسة من تاريخ المغرب، فقد لعبت فاس خلالها، منذ نشـــأتها دورا متميزا على مدى سنوات عديدة، غير أن الفترة التي تهمنا هي المجهولة من تـــاريخ هذه المدينة(1).

ظلت هذه الأخيرة تلعب دورا كبيرا على الساحة المغربيـــة فـــي النصـــف الأول من القرن السادس عشر لأنها كانت وريثة تقاليد ثقافية وحضارية لأجيال

* – أستاذ باحث بكلية الآداب – القنيطرة

خلت ولم تخضع أبدا كغيرها من جهات المغرب.

إن الصراع بين السلطة المركزية ومدينة فاس (وهو صراع بوشر منذ نهاية العهد المريني) يشكل أحد السمات الكبرى من تاريخ المغرب تحت حكم الأسرتين الشريفتين. لكن إذا كانت فاس دائما تظهر موحدة في مواجهة العالم الخارجي، فإنها على العكس من ذلك كانت مجزأة داخليا إلى شرائح وفئات متنلحرة فيما بينها خلال هذه الفترة [...]. وقد ظهرت هذه الفئات بهذه الصورة خلال القرن XVم يغديها الحكام المرينيون الذين حكموا المدينة ذات الحواجز المتماسكة بسهولة(2)، وسوف تتبلور مع بداية الفترة التي تعنينا وستصبح هذه الفئات أهم الفرقاء بالنسبة لهذه الدراسة وهي كالتالي:

* الشرفاء: وهي الفئة القوية، فئة نبيلة عن طريق الدم، تتمتع بسلطة دينية وتتكون من أسر تنحدر من الرسول(ص) ، وغالبا ما تحضى بحماية الأسرة الحاكمة.
* الأندلسيون: الذين هاجروا إلى فاس بكثافة في نهاية القرن XVم وعلى دفعات مستمرة خلال القرن XVI (3).

– البلديون أو (البلديين): المنحدرين من اليهود الذين أسلموا، بعضهم أسلم خلال القرن الثالث عشر ومعظمهم في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي. وإلى نهاية السادس عشر، ويعرفون تحت اسم المهاجرين(4).

– فهؤلاء وآخرون أقل أهمية لم تشملهم هذه الدراسة (مثل اللمطيون الذين يشكلون الساكنة البربرية المحلية) هم الممثلون السياسيون لتلك الصراعات الحضرية المستمرة، في حين أن الموالاة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الأساسية تترجم في إطار تنظيم أفقي وليس في إطار مجتمع تراتبي بشكل عمودي(5).

– حافظت النخبة على تلك العداوة الاقتصادية والسياسية بشكل مستمر وانبنت على هيبتها الدينية، قدرتها على التأثير في السلطة المركزية. وقد أدت الصراعات التي كان وراءها المهاجرون والبلديون إلى جدال بصبغة قانونية – دينية خلال القرن XVIIم والذي تحدثت عنه أغلب المصادر التي اعتمدتها هذه الدراسة إذ وضحت

بجلاء استمرارية هذا الصراع ووجود فئة اجتماعية ذات عزيمة، ومختلفة عن باقي الشرائح المكونة للمجتمع.

المصادر

اعتمدت هذه الدراسة على ثلاثة مؤلفات مخطوطة وغير معروفة، بالإضافة إلى الإخباريات العربية (والغربية) المعاصرة والمعاجم البيوغرافية التي ستسمح لنا الفرصة بذكرها.

1 ـ " ذكر قصة المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين" (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط K. 270 ، ونسخة ثانية D. 1115). إنه كتيب من ثلاث وعشرين صفحة، مجهول المؤلف وغير مؤرخ، ربما أنه كتب في النصف الأول من القرن XVIII وهو مؤلف خصص مبدئيا للحديث عن تاريخ بعض الحنطات الحرفية والتجار في فاس ، ولكنه في الواقع استهدف تجارا من أصول يهودية. وقد سبق للباحث لويس ماسنيون أن نشر ترجمة ملخصة أو تركيبة لقسم من محتواه كملحق لمقاله « Enquête sur les corporations musulmanes d'artisans et de Commerçants au Maroc » ، الذي نشر في مجلة العالم الإسلامي (R.M.M.) لسنة 1924، ص. 221 – 224.، وقد قدم جاك بيرك ملاحظات بشأنه في مقال بعنوان :

« Des Marranos musulmans à Fés" Mélanges en l'honneur de F. Braudel, Histoire économique du monde méditerranéen, 1450, 1650, Paris , 1973, p. 123 – 135.

وقد سبق لي أن اعتمدت على هذا المؤلف في مقالي حول ثورة فاس سنة 1465:

The Revolution of fas in 869 / 1485 and The death of Sultan Abdelhaq el Marini, BSDAS, XLI, 1978, p. 42 – 66.

2 ـ محمد ميارة (المتوفى سنة 1072هـ / 1662م)،" نصيحة المغترين وكفاية المضطرين في التفريق بين المسلمين" (الخزانة العامة بالرباط : K. 508)، وقد استعملت نسخة غير معروفة (K. 923).

إنه مؤلف لعالم مشهور، ينتمي هو الآخر لأسرة "بلدية"، وهو عبارة عن جامع لفتاوى ولوثائق شرعية ومراسلات عن "البلديين" في فاس وقد ألف للدفاع عن هؤلاء(7).

3 ـ أبو العباس أحمد بن عبد السلام بناني (المتوفى 1234هـ / 1818م) صاحب "تحلية الأذهان والمسامع" (الخزانة العامة K. 650)، وهو عالم آخر من العلماء البلديين"، يضم هذا المؤلف عددا من الإشارات عن الوضعية السوسيو-اقتصادية للبلديين(8).

وعلى هذا فإن المصادر الأساسية التي اعتمدت عليها هذه الدراسة تعود للقرنين 17 و18م وبالتالي فإن قيمتها كوثائق لهذه المرحلة والمعاصرة لها تختلف عن قيمة تلك التي تتعلق بتاريخ مرحلة سابقة. وبالإضافة إلى هذا فإنها مؤلفات تتعلق بالجدل وكما هو معروف، "إذا كان التاريخ جدلا فإن الجدل ليس تاريخا" وهذا ما يضطرنا مسبقا للتمييز بين مرحلتين:

1 ـ القرنان XV – XVI واللذان يتزامنان مع الحكم المريني – الوطاسي ثم السعدي.

2 ـ القرنان XVII – XVIII واللذان يتزامنان مع حكم الأسرة العلوية على مدى قرنين.

لكن الذي يبدو ولأول وهلة تمييزا حسب المصادر المتوفرة ، يطابق أيضا تمييزا حقيقيا بالنسبة للقضية المطروحة، فخلال الفترة الأولى، كان البلديون في صراع دائم مع "الشرفاء" وهو صراع لم يكن في صالح الفئة الأولى. فمن بين المشاكل المطروحة خلال هذه الفترة، مسألة أصول هؤلاء البلديين ومدى مصداقية الأحداث المتعلقة بهم، وخلال المرحلة الثانية سوف يحصلون على نفوذ متصاعد إلى حد سيصبحون معه فئة اجتماعية مهمة داخل المدينة.

إن موضوع هذه الدراسة ورغم ما قد يبدو من خلال المقدمة، ليس وصفا للصراعات الداخلية في مدينة فاس خلال أربعة قرون، فالقضايا الجوهرية التي تهمنا هنا تتمحور حول أصل "البلديين" وحول الطريقة التي توصلوا بها للتميز على المستوى الاجتماعي والثقافي وهي قضايا لن تجد جوابا إلا في إطار صعود وبروز فئة الشرفاء".

إن البلديين هم جزء من القالب الذي تشكل فيـــه الشــرفاء، وانتـــهوا بـــأن أصبحوا بصمة مقعرة لهذا القالب، فسواء كانت أصولهم اليهودية حقيقية أم أسـطورة في بعض الحالات، فهذا ليس له دلالة بالنسبة لموضوعنا: وهذا أصبــــح صحيحـــا أيضا بالنسبة لفئة الشرفاء.

إن ما يهمنا هو أن المجتمع الذي عاشوا فيه هو الذي قام بهذا التمييز، وأنـــه يجب أن نتساءل عن العلاقة بين تطور هذا الزوج المتناقض داخل الجهاز السياســي وبين تطور الساكنة برمتها وهي أسئلة يجب طرحها وإن لم نستطع حلها إلا جزئيـــا في الصفحات الموالية.

السوابـــق

إن قضية دخول اليهود إلى الإسلام في بلاد المغارب وفي شــــبه الجزيـــرة الإيبيرية تستحق دراسة شاملة وهذا لم يتأت بعد، فالموضوع ليس سهلا لأن الوثائق قليلة ومتفرقة والمنوغرافيات منعدمة.

يبدو بديهيا، أن هذا المشكل من حجم كبير وكان له أثـــر حقيقـــي علـــى المســـتقبل الاقتصادي والاجتماعي للمجتمعات المغاربية في لحظات متعددة من تاريخها.

نسلم عموما بأنه خلال العقود الأولى من الهجرة وفي كل الأقاليم المغـــزوة، كـــانت هناك موجة من الانتقالات وبكثافة إلى دين الإسلام(9)، إلا أنه يجب الإشـــارة إلـــى بعض الحالات الشخصية والمتفرقة لبعض هؤلاء (والذين حملوا نسب "إســـلامي") والتي تكررت في العالم العربي الإسلامي طوال العصر الوســـيط(10). إلا أن عـــدد اليهود الذين دخلوا إلى دين الإسلام أهم بكثير في بلاد المغارب كمـــا بيـــن ذلـــك Hirschberg على ضوء دراسة "الأحكام" « Responsà » المغاربية الوسيطية(11).

إن هذا النوع من المصادر يعكس بوضوح ما آلت إليه القضية خلال فترات مختلفة نظرا للمشاكل التي طرحها هؤلاء الإسلاميون بالنسبة للأقليـــات اليهوديـــة خصوصا فيما يتعلق بقضايا الإرث والخالصـــة (Halisa) (أي تجنـــب الـــزواج المبدئي بين الأرملة و(أخ الزوج) وغيرها) وهناك حالات أخرى ظهرت من خـــلال

الفتاوى(12) كما ان الأدبيات الأوروبية حول بلاد المغارب خلال القرنين XV وXVI ضمت معطيات متناثرة وعديدة عن حالات فردية أو جماعية لهؤلاء الذين أسلموا من اليهود(13).

ومن جهة أخرى فإن الانتقالات التعسفية كانت تترك آثارا عميقة بين الأقليات اليهودية المغاربية (بما في ذلك الأندلس) وكما تبين ذلك كتابات شخصيات مهمة مثل "مايمونيد" الذي دخل الإسلام بشكل تعسفي ويتحدث عن هذه القضية في رسالة تعزية أو مواساة « Epître de Consolation » وهو موضوع تناوله أبوه قبله في "رسالة انتقال تعسفي من اليهودية إلى الإسلام Epître de Conversion » forcée » ، وبعده أحد مريديه وهو راهب سبتة الذي دخل الإسلام، واسمه يوسف بن يهودا بن عقنين، في كتابه "طب النفوس"(14).

ومعلوم كذلك أن هناك انتقالات مكثفة حدثت خلال القرن XIIم لما فرض الموحدون (ولو نظريا) على اليهود القاطنين فوق ترابهم، الاختيار بين الموت وبين الإسلام(15). هكذا ظهرت الأقليات التي دخلت الإسلام واهمها تلك التي ظهرت في فاس التي كانت تضم أكبر جالية يهودية(16) وقد تعرضت لإجراءات تمييزية كانت تحركها الشكوك حول مصداقية هؤلاء "المسلمين الجدد". وفي هذا الإطار يجب الأخذ بعين الاعتبار ما كتبه المؤرخ عبد الواحد المراكشي في "المعجب" أثناء حديثه عن هذا التمييز على مستوى اللباس والذي كان مفروضا على اليهود وبالتالي على "الإسلاميين" فهو يقول:"إن الذي دفع أبا يوسف ليميزهم بهذا اللباس هي شكوكه في إسلامهم لأنه اعتاد القول "لو كنت متيقنا من إيمانهم لتركتهم يختلطون مع المسلمين ويتزوجون منهم ولو كنت متأكدا من عدم إخلاصهم لقتلت رجالهم وأسرت أطفالهم ووهبت أملاكهم غنائم للمسلمين لكني لدي شكوك بشأنهم"(17)، ويضيف قائلا :"لم يوقع أي عقد حماية عندنا مع اليهود ولا مع المسيحيين منذ وصول مصمودة للسلطة وليست هناك معابد لليهود ولا كنيسة في كل بلاد

المغارب، فاليهود يتظاهرون بإسلامهم فيصلون في المساجد ويقرأ أبناؤهم القرآن ويتبعون ديانتنا وسنتنا ولكن الله يعلم ما في صدورهم"(18).

ويتوسع بن عقنين في كتابه "طب النفوس" في الحديث عن الآلام والتمييز الذي تعرض له "الإسلاميون" وهنا يتجلى في منعهم من امتلاك العبيد أو تنفيذ الوصايا أو كأولياء والزواج من مسلمات "أصيلات" وغيرها من الأمور. ومع صعود الأسرة المرينية للحكم تغير مصير اليهود بشكل جذري إلى حد أنه تحت حكم أبي يوسف يعقوب عاد الإسلاميون بكثافة إلى اليهودية دون أن يتحملوا النتائج الناجمة عن هذه الردة(19). غير ان هناك عددا غير محدود فضل المحافظة على عقيدته الجديدة، وهذه الظاهرة انتقلت إلى شبه الجزيرة الإيبيرية حيث احتمى بها يهود مغاربة فارين من اضطهاد الموحدين وخاصة في الأراضي المسيحية التابعة لمملكة أراكون. وهكذا وفي إطار سياسته العامة ومن اجل جلب اليهود إلى بلاده، اعطى جاك الأول الأراكوني أوامره من أجل تسهيل عملية تهجير أولئك القادمين من شمال إفريقيا(20). ومع ذلك توجد إشارات عديدة تبين بدون شك بأن الدخول الطوعي لليهود إلى دين الإسلام خلال القرنين XIII و XVI أصبح مشكلة حقيقية في أراضي أراكون وكاطالونيا(21). وهذا دليل على أن عددا من اليهود اندمجوا بشكل سريع في الإسلام وأن الهجرة لم تكن من علامات زيف إيمانهم بل هي من علامات قساوة الظروف المعيشية للإسلاميين".

مدينة فاس

إذا كان موقف السلاطين المرينيين الأوائل إيجابيا إزاء اليهود، فإن العداوة القديمة لمدينة فاس إزاء جاليتها حافظت على حدتها كما كان عليه الحال على عهد الموحدين وزاد من حدتها وجود موظفين سامين يهود في حاشية السلطان(22) في سنة 674هـ / 1276م، اندلعت في فاس اضطرابات بلغت أوجها بتقتيل في صفوف اليهود وتخريب حيهم، وقد تدخل السلطان أبو يوسف يعقوب شخصيا على رأس

حرسه لإعادة السلم وتهدئة المتظاهرين ويبدو أن عددا من اليهود سبق أن دخلوا الإسلام للتخلص من حد السيف(23).

وحسب صاحب "ذكر قصة المهاجرين" فإن اليهود الذين ظلوا متشبثين بإيمانهم رغم الأخطار، كانوا يتهكمون أو يسخرون من هؤلاء وأعطوهم اسما مشينا هو اسم "المهاجرين".

وبعد سنوات قليلة، بدأ أبو يوسف يعقوب في بناء فاس الجديد، وبما أن التواريخ متقاربة، فقد اعتقد بعض الباحثين أن السلطان استغل الفرصة لتهجير اليهود إلى عاصمته الجديدة حماية لهم (24) إلا أن بناء الحي اليهودي في فاس الجديد والمسمى الملاح، يعود لفترة لاحقة.

ورغم أن المعطيات الواردة في المصادر غير واضحة ومليئة بالتناقضات، فيمكن أن نعتبر اعتمادا على Corcos و Hirschberg ومن خلال المصادر اليهودية، أن تهجير اليهود من "حي فندق اليهود" بفاس البالي نحو ملاح فاس الجديد حدث حوالي 1438م(25).

إن بدايات الحركة السياسية للدولة والتي تبلورت عند اكتشاف ضريح المولى إدريس سنة 1438م، أثرت على تهجير اليهود خارج مدينة فاس التي اعتبرت حرما منذ ذلك اليوم. وقد زادت حدة آلام اليهود هنا فضلا عن الغموض الذي كان يسود مدينة فاس خلال النصف الأول من القرن XV م. هكذا سوف تختار العديد من الأسر الثرية الدخول لدين الإسلام عوض التخلي عن أحيائها وممارستها التجارية، وهذا التحول الذي عاشه اليهود بمثابة آفة حقيقية سوف يحدث موجة ثالثة من الانتقالات إلى دين الإسلام التي ستعرفها فاس، وستقوي الجالية اليهودية المستقرة في فندق اليهود وقد شهدت العديد من الأسر المغربية هذه الظاهرة وخاصة في مدينتي الرباط وسلا(26).

لكن يمكن القول وبشفافية إن هذه التدابير قوت وزادت من الجالية الموجودة والتي سبق لها أن رسمت خطوط المنافسة الاقتصادية مع "الشرفاء". ويتحدث ابن

السكاك عن هذه الفئة في كتابه "تصح ملوك الإسلام" والذي يعود إلى السنوات الأولى من القرن XV والمهدى للشرفاء، إذ يشير إلى أنها فئة متجانسة وتوجد ضمنها أصناف متعددة، من بينها من يستحق الاحترام الشعبي وخاصة "تلك التي تتمتع بنوع من النفوذ والثراء أو اليسر" وهو احترام يحظى به أيضا كل "رجل سلطة" وكل "ثري إسلامي"(27)، الشيء الذي قد يفيد وجود "إسلاميين" بفاس مع بداية القرن يتمتعون بنفوذ وغنى شأنهم في ذلك شأن "الشرفاء"، وليس غريبا أن نقيم مقارنة بين أفراد الفئتين(28).

مسار الصراع

يظهر المسار العام لهذا الصراع او المنافسة بوضوح في كتاب "ذكر قصة المهاجرين" ويجب أن لا ننسى بأنه مؤلف صغير ذو طابع جدالي، ألف ضد المسلمين الجدد غير أن المعلومات او الإشارات والتحاليل التي يقدمها فهي ذات أهمية كبيرة. فالمؤلف المجهول بعد أن تحدث عن قيام المولى إدريس منذ تأسيس فاس، بالتمييز بين حنطات التجار والصناع، أشار إلى الفئة التي تهمنا، فحسب هذا المؤلف "مارس المهاجرون وبكثافة مهن المسلمين وغير المسلمين بعد نهاية الفتن التي تعود لسنة (674هـ / 1276م) واستقر البعض منهم في أسواق القيسارية حيث تفشت بينهم أعمال الغش والخداع وسوء النية والمعاملات الربوية"(29).

ومنذئذ بدأ الصراع حول الهيمنة على القيسارية وبدأت الاتهامات تحاك إزاء الممارسات الغير مشروعة وأعمال الغش التي يتحدث عنها كتاب "ذكر قصة المهاجرين" مثل عرض بضاعة جيدة ثم تعويضها ببضاعة أخرى أقل جودة بالنسبة للزبون وغيرها(30) وحسب نفس المصدر فقد كثرت تظلمات سكان المدن، وسكان القرى وتعددت المحاكمات أمام القضاة وإنذارات العلماء والتي كان المهاجرون يجهلونها وقد هدد قاضي فاس بتقديم استقالته للسلطان أبي يوسف إذا لم يتخذ هذا الأخير تدابير معينة. وهكذا وتحت الضغط قام السلطان بالإعلان عن عدد من الإجراءات ضد "الإسلاميين" أو "المسلمين الجدد" وخاصة منعهم من ممارسة كل

الحرف" باستثناء تلك التي تضفي على ممارسيها الاعتداد بالصدق وحسن النية وتلك التي لا تتضمن إلا نسبة قليلة من الغش"(31).

وقد كانت لائحة الحرف التي يمكن امتهانها غريبة نوعا ما(32) ولا تجمع بينها نقط مشتركة أخرى (باستثناء إدماج بعضها والمراقبة من طرف المحتسب وبالتالي من الصعوبة اقتراف الغش مبدئيا في ظلها)، وانطلاقا من هذا يتحدث الكتاب عن هذه الأحداث بشكل يسمح بالقول بأن الهيمنة على القيسارية كانت هي أصل الصراع.

وعند طرد المهاجرين من القيسارية – حيث منعوا من ممارسة المهن الشريفة والمربحة – عادت الأمور لحالتها الطبيعية وذلك إلى حدود فترة حكم عبد الحق آخر السلاطين المرينيين، وقد عين هذا الأخير وزيرا يهوديا هو هارون اليهودي،، وحاجبا اسمه "صمويل" وقائدا للشرطة هو "حسين".

وتحت ضغط هؤلاء اليهود، أصدر السلطان عبد الحق مرسوما قرر بموجبه أن يؤدي الخراج كل المواطنين بفاس بما فيهم الشرفاء الذين كانوا معفون من أداء الضرائب.

إن عدم احترام السلطان للشرفاء وفقدانه للموارد دفع المهاجرين للمطالبة بإدماجهم في القيسارية، وبمناسبة العيد قدم المهاجرون هدية للسلطان ووعدوا بتقديمها كل سنة إذا ما سمح لهم السلطان بولوج القيسارية ، وهكذا وبعد استقرارهم بها طالبوا بأن يقدم الهدية في السنة الموالية كل تجار القيسارية إذا رغبوا في متابعة أنشطتهم التجارية – وقد كانت هذه المبادرة تفترض معاملة سيئة إزاء الشرفاء الذين تمتعوا دائما بالإعفاء من الضرائب. وبعد أن نجحوا في تطبيق تقديم الهدية على الكل، طالبوا ناظر الأحباس ببيعهم "حق جلوس المحلات" مقصين في آن واحد كل فرد او مجموعة أخرى وقد رفض الناظر طلبهم لكن المهاجرين حصلوا على مساندة من حسين اليهودي وخاطبوه قائلين "لست ملزما ببيع الأصل بل الجلوس فقط ... وهذا من شأنه أن يوفر موارد مالية للسلطان هو في حاجة

إليها"(33) وهكذا وبعد شرائهم لحق الجلوس" أصبح كل من يشغل محـــلا يــؤدي لهم واجب الكراء.

احتفظ المهاجرون بملكية المحلات والدكاكين إلى حدود ثورة المسلمين فـــي فاس و"مزوار الشرفاء"، محمد الحافظ بن علي بن عمران الجوطي، ومقتـــل عبـد الحق المريني(34). وقد قام الشريف بطرد المهاجرين من القيسارية ومن المحـــلات التجارية سنة 886هـــ / 1481م. وقد دام هذا الإبعاد طوال حكومة الجوطي وسـيعود المهاجرون إلى القيسارية من جديد تحت حكم أحمد بن محمد الوطاسي (932هـــ / 1526م – 956هــ / 1549م)، ونتوفر حول هذه الفترة علـــى روايـــات متعارضـــة، فحسب "الذكر" فإن احمد الوطاسي عين جابيا عامـــا للضرائـــب الغـــير المباشـــرة (المكوس)، المنجور الإسلامي، أحد المسلمين الجدد، ومقابل أداء 2000 قطعة ذهبية سنويا، اشتروا حق الاستقرار بالقيسارية.

ثم ستعود الصراعات بين التجار المتواجدين بها وبين المهاجرين من جديـد وقد دفعت ضرورة الحرب الأهلية بين الوطاسيين والسعديين، بالأول إلى الاعتمـــاد على الإعانات المالية للمهاجرين (35).

وحسب " النصيحة" لميارة(36) فإن مرحلة هذا الصراع بدأت سنة 934هـــ / 1528م لما حاول أحد المهاجرين المدعو أحمد بن إبراهيم بن يحيى المكناسي، فتـــح دكان لبيع الأثواب الثمينة في القيسارية وقد عارض التجار ذلك وقدمـــوا عريضـــة للسلطان أحمد الوطاسي يبينون فيها بأن المهاجرين – وحسب أقوال آبائهم – ليســوا أشخاصا يمكن أن نثق فيهم بل يلجأون إلى الغش في حين أن القيسارية مكان حيــث يمارس التجارة، الأشخاص المتدينون وذوي الفضل ولهذا فإنهم يطالبون الســـلطان بمنعهم من الدخول إلى القيسارية.

وهكذا كلف أحمد الوطاسي وزيره محمد المسعود بمعاينـــة هـــذه القضيـــة وبالأخذ برأي فقهاء مكناس وفاس وباقي المدن في هـــذه المســـألة. وقـــد توصـــل السلطان بسبعة عشر جوابا: اثنا عشر جوابا من علماء فاس وثلاثة أجوبة من فقـهاء

مكناس وجواب واحد من مدينة من شمال المغرب وواحدة أخرى من الجزائر(37). ويخبرنا صاحب "الذكر" كذلك بأنه تمت استشارة الفقهاء إذ يؤكد بأنه بعد انتصار السعديين، قام السلطان الجديد محمد الشيخ بإيداع المنجور في السجن نتيجة شكوى تقدم بها أهل فاس وحاول التدخل شخصيا في هذا النزاع. وأظهر المهاجرون للسلطان بالمناسبة، الفتاوى التي تحث على عدم التمييز بين المسلمين وعلى إمكانية ولوجهم القيسارية، لكن السلطان الجديد اعتبر أن الفتاوى المضادة (إذ يشير كتاب الذكر لواحدة منها وهي غير مكتملة لعبد الواحد الونشريسي) لها قيمة أكبر، وبالتالي قام بطردهم(38). أما ميارة من جهته (والذي لا يتحدث عن وجود المنجور الإسلامي) فقد استطرد كثيرا في الحديث عن الفتاوي التي قدمت للسلطان أحمد الوطاسي، وتتفق كل الفتاوى – والتي توجد ضمنها أسماء أهم المفتين – على عدم التمييز الشرعي بين المسلمين كيفما كانت أصولهم وطبيعتهم، وتوجد كذلك فتاوي الونشريسي التي تتضمن شكاوى مقدمة من طرف التجار إلى السلطان(39).

"إن كل المسلمين بما فيهم المهاجرون يجب أن يكونوا نزيهين في معاملاتهم، وكل من أبان عن نوع من عدم الاستقامة، أو الرشوة داخل السوق سوف يعاقب أو يطرد دون تمييز بين مهاجر وشخص آخر ..."(40). وهذا هو رأي "القصار" كذلك (المتوفى عام 1514م). إن هذا سوف يمكن من إعادة الاعتبار أو التقدير ليس للأصل فحسب بل للشهرة أو (التواتر) (Tawàture) الشيء الذي لا يستثني قدرة السلطان على القرار أو ضغوط العامة ويقدم في الحقيقة المبررات الأساسية للجدل(41).

ويمكن القول إنه بالإضافة للحوافز الاقتصادية، فإن جوهر المشكل هو معرفة كون احترام الشخص رهين بأصوله أم رهين بمؤهلاته الشخصية. ويجب كذلك ألا نغفل أهمية فتاوى أبي علي الحرزوز المكناسي حول طرد المهتدين لدين الإسلام، فهو يقيم نوعا من الموازاة بين القاطنين بفاس وبين أهل مكناس وحسب رأيه فإنهم يعتبرون من المسلمين الثقاة والمتصفين بالثقة وصدق الإيمان(42). وعلى

ضوء هذه المشاورات الشرعية، رخص أحمد الوطاسي للمهاجرين دخول أسواق المدينة والقيسارية(43) أما بالنسبة للمنجور، فيشير ابن عسكر (دوحة الناشر) حول بيوغرافية عبد الواحد الونشريسي ما يلي: "حكى لي حاجب السلطان أحمد الوطاسي الحكاية التالية: اتهم أحد موظفي الدولة المعروف بالمنجور بإخلاله بالواجب وقد أكد أربعون عدلا صحة هذا الحادث. وهكذا أصدر السلطان أمرا بإعدامه ومصادرة أملاكه لفائدة بيت مال المسلمين، لكن أبناء المنجور حاولوا إخفاء الدلائل التي تدينه لاسترداد أملاك أبيهم وقدموا للسلطان مبلغا قدر بعشرين ألف دينار. وهكذا طلب السلطان من الحاجب الاتصال بالشيخ عبد الواحد ومساءلته في هذه القضية "قل له بأني بحاجة لهذا المال في حملاتي الحالية" ويتحدث الحاجب بعد اتصاله بالشيخ قائلا "نقلت للشيخ أقوال سيدي، وتحدثت معه ورجوته أن يوقع لفائدة السلطان بقبول الأموال" وتساءل الشيخ واستحلفه بالله". كيف يمكن أن أقبل – تحت رغبة السلطان – بإبطال شهادة أربعين عدلا ! اذهب وقل للسلطان بأنني لا أوافق على رغبته، وهكذا نقلت أقوال الشيخ لسيدي حيث استمع لرأي الشيخ وعدل عن مشروعه"(44).

وتظهر هذه الأسباب – حرفيا – حتى في النصوص من أصول مختلفة، من جهة اتهامهم بالغش والخداع وعدم النزاهة ومن جهة أخرى، حصولهم على امتيازات وحقوقهم لم تكن من حقهم. وأخيرا تمكنهم من الاتصال مباشرة بالسلاطين الضعفاء أو عن طريق موظفين مرتشين غالبا من أصل يهودي أو "مهاجر". وسيعيد"المهاجرون" الكرة في عهد ابن السلطان أحمد المنصور الذهبي، الشيخ المامون عندما كان أميرا على فاس، فقد حاول المهاجرون شراء ذمة "الإسلامي" أبي العباس أحمد المنجور (995هـ / 1587م) (ونلخص من جديد رواية "الذكر"(45)) وفي سنة (991هت / 1538م) حرر الأمير عقدا قانونيا رخص لهم بالإقامة في المدينة.

فحسب ميارة أصدر ظهيرا مؤرخا بسنة 1010هـ / 1601م حيث صرح بأن هذا يتنافى مع الشريعة وحضهم "على الابتعاد عن التفاخر بالألقاب وبالنسب وعدم

التمييز بين المسلم القديم أو الجديد لأن الدين واحد والمسلمون سواسية، إنكم تنحدرون من آدم وآدم من تراب وأن الإسلام يبطل ما سبقه ... وكل من لم يطبق هذا وكل من آخذ شخصا على كونه ليس عربيا أو أنه مرتد، أو كل من عمل على التمييز أو الانشقاق، سيقع في الخطأ وسيزيغ عن الطريق المستقيم. إن أسواق المسلمين لا تنتمي لأحد دون الآخر ... فعلى الكل الأخذ بعين الاعتبار بهذا القرار وتنفيذه ..."(46). وسيعود خلفه مولاي عبد الله (1613 – 1623) لتهميشهم حيث سيتم في هذه المرحلة البحث عن وثائق إثبات في المبدإ المالكي المعروف "بسد الذريعة"(47)، والذي يرخص من باب الوقاية لبعض الاحتياطات الأمنية لما يتعلق الأمر بأملاك الدولة الإسلامية وكذلك لكون المهاجرين" متهمين بالرشوة على خلاف باقي المسلمين".

إن المهاجر السابق الذكر، نعرفه بدقة لأن الأمر يتعلق بفقيه شهير أصبح أستاذا للعلوم العقلية في فاس وكان له تأثير كبير في الدوائر الحكومية زمن أحمد المنصور. ويذكر صاحب "النزهة" بأنه عين يوما ما من طرف السلطان ليقيم الصلاة بالناس، فمنع القاضي الحميدي (المتوفى 1003هـ / 1594 – 1595م) المنجور من دخول المحراب، لكن السلطان طلب منه أن يسمح له بالدخول قائلا:"اتركه يدخل لأنه أكبر منك علما" وأجاب القاضي قائلا " إذا كان علمه قد دفع به نحو الأمام فإن أصوله تضعه في أسفل الدرجات"(48).

وهكذا نصادف مرة أخرى إشكالية التعارض بين الاستحقاق على مستوى النسب أو الاستحقاق الناجم عن النجاح الشخصي. وهذا ليس مشكلا جديدا على مدينة فاس ومن الصعب مصادفته بهذه المدينة التي شهدت ميلاد نخبة سياسية واقتصادية قوية هي نخبة "الشرفاء" التي خلفت وراءها منافسات قوية.

إن مثل هذه الحكايات أو النوادر (أنظر واقعة الحميدي مع المنجور) التي دارت حول نفس القضايا ولكن بممثلين جدد ، حدثت في فاس قرنين من قبل فيحكى أن عبد الله المقري جد مؤلف نفح الطيب كان يوما ما موجودا في مجالس السلطان

المريني أبي عنان لما دخل مزوار "الشرفاء". ومن باب الاحترام وقف له كل الحاضرين بما فيهم السلطان، باستثناء المقري، وقد عاتبه المزوار على هذا التصرف وعلى عدم احترامه له ولأصوله الشريفة، وأجاب المقري قائلا :"إنني أحمل الشرف في ذاتي، وأنشر العلم وهذا لا يشك فيه أحد، إن شرفك فيه شك، فمن يستطيع ضمان شرعيته بعد أكثر من 700 سنة ؟ وإذا كنا متيقنين من ذلك فإننا سنخلع هذا (مشيرا للسلطان) لنضعه مكانه". ويبدو أن جواب المقري جعل كل الحاضرين مشدوهين(49).

لكن إذا كان الصراع حول القيسارية أمرا قائما بين المهاجرين والشرفاء، فإن الأندلسيين دخلوا طرفا فيه كذلك ، فميارة يهاجمهم بشدة في نصيحته، ويشتكي من خيلاءهم – وهو ناتج عن افتخارهم بأصولهم – والذي يدفعهم إلى الإحساس بتفوقهم على باقي المجموعات وسنعود لهذا الموضوع فيما بعد.

وبزوال الدولة السعدية، استولى الدلائيون على فاس (1051هـ / 1641م)، فحسب صاحب "الذكر" فإن اليهود الوسطاء، توسطوا لصالح المهاجرين وكسبوا عطف السلاطين، فقاضي فاس علي عبد الله التلمساني استقبل وفدا من المهاجرين إذ يقول "إن الشرفاء السعديين الذين منعونا من الاستقرار في فاس وممارسة المهن النبيلة، فقدوا سلطتهم والتي هي الآن بيد العوام. أقبلوا إذن هذه الهدية وتوسطوا لنا لدى الأمير مستندين على بعض الاستشارات القانونية(50).

ويبدو أن عطف السلطات الحقيقي قد أحدث اضطرابات وقلاقل داخل المدينة، تحولت أحيانا إلى تدمير ونهب دكاكين المهاجرين. وهكذا قرر الحاكم أبو بكر التملي استشارة الفقهاء من جديد لكن هؤلاء التزموا الصمت بل لم يقدموا إلا أجوبة وجيزة أو غامضة إذ أرعبهم عنف خصوم التجار اليهود – الجدد، فالوحيد الذي كتب جوابا مستفيضا يؤكد على المساواة بين كل المؤمنين، هو محمد بن أحمد الأبار.

مشكلة الأصول

في هذه الآونة تدخل ميارة وهو معاصر للأحداث، حيث أصبح من أهم المدافعين عن قضية المهاجرين بتأليفه كتاب "النصيحة"، وهو ينتمي إلى هذه الفئة وأحد رجال القانون أو اللاهوتيين المهمين في زمانه ولم يشغل مناصب عمومية نظرا لأصوله(51). وبتاليفه لهذا الكتاب أصبح محط انتقاد من طرف جزء كبير من الأرستقراطية الفاسية إلى حد أنه أصبح مضطرا لمكاتبة السلطان محمد الحاج الدلائي يطلب حمايته. وقد دون كل هذا الجدل في "تقريظ" (Taqriz) محمد ابن عبد الواحد العوفي الذي كتب لفائدة ميارة من طرف أحد رفقائه في العلم وضدا على منافسيه(52). وكتب في نفس الوقت لفائدة ميارة ومساندا له في هذا الجدل، أحد العلماء من أصول يهودية، هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان ابن زكري.

وحسب صاحب "نشر المثاني" (القادري)(53) فإنه مثل ميارة، فقد دافع عن مسألة تفوق "العجم" على العرب بل أكثر من ذلك فقد كان يتبجح بأنه ينحدر من بني إسرائيل ومن الرسل اليهود.

وفي الحقيقة، إن ميارة استعمل جزءا كبيرا من القرائن للرفع من قيمة "العجم" ومن جهة أخرى شكك في مسألة الأصول العربية لبعض الفئات وخاصة "الشرفاء" والأندلسيون بل أكثر من ذلك فهو يكن عداوة لهذه الفئة الأخيرة، فهو يتهمهم في أكثر من مناسبة بأنهم يعتبرون أنفسهم – علاوة على أصولهم – أكثر شأنا حتى من الشرفاء أنفسهم، بل لا يعترف بالأصول العربية لأغلبهم ويعطي قيمة للعناصر البربرية والإسبانية – الرومانية والعبيد في المجتمع الأندلسي(54). إنه يتهمهم بالجهل ويؤكد على أن أغلب الأندلسيين هم في الحقيقة عناصر غيرت دينها، إذن فقد انضاف إلى عجرفتهم جهلهم وعدم معرفتهم بالعلوم(55).

ويعلن في الأخير بأن الأصل الفاسي أعلى شأنا من الأصل الأندلسي ويؤكد صراحة بأن فاس أعلى شأنا من الأندلس(56). إن العائلات اليهودية التي دخلت الإسلام منذ وقت بعيد، تعتبر متجذرة في المدينة: إن "المهاجرين" يعلنون عن

"مواطنتهم" الفاسية ويفتخرون بأصولهم الحضرية، فهم لا يفتخرون بأصولهم مشيرين إلى بني إسرائيل ورسلهم إلا في الفترات العصيبة من الجدل وذلك بتصرف لا إرادي أو لتقليد الشرفاء، الفئة المميزة في المدينة رغم الصراعات. ومن جهة أخرى هناك حالات معروفة لبعض المهاجرين والأندلسيين "المتشرفة" أي أنهم ينحدرون من أصول شريفة أو يظهرون أصولا زائفة (Pedigrée) (57).

وحسب القادري، فإن مؤلف ميارة وبالأخص مؤلف بن زكري انتقدا بشكل كبير من طرف "الشيوخ" المعاصرين وأثارا زوبعة كبيرة (58). ويؤكد الأستاذ محمد حجي بأن الأعداء كانوا يدفعون الدهماء للتجول في الأسواق وهم حاملين كتاب "النصيحة" ومستهزئين من مؤلفه ومن أصوله(59).

ويصرح القادري – وكتاباته غير معاصرة للأحداث – بأن ميارة وبن زكري كانا يغاليان عندما كانا ينتقدان العرب وليس بأي حال من الأحوال التفريق بين العرب والعجم حسب القانون وبالتالي فتعصب أعداءهم ليس فيه شك، وإن التمييز بين المسلمين غير مقبول كيفما كان مصدره.

وسيعود أحمد بناني أحد الإسلاميين الفاسيين (المتوفى عام 1818) لتناول هذه الدلائل من جديد ومناقشة هذه الكتابات الجدلية السابقة وذلك في كتابه "التحلية"(60). وكسابقيه (ميارة وبن زكري) فقد حاول بناني البحث عن نوع من الطباق يسوده التعظيم بالأصول وبدوره سيعمل على الرفع من قيمة "نسب بني إسرائيل"، فبرأيه فهم ينحدرون من إبراهيم شأنهم في ذلك شأن بني إسماعيل الذين يضمون أنبياء ضمن سلالتهم(61). ويقر بسمو "العرب" على "العجم" على الأقل بالنسبة لبعض المجموعات العرقية نظرا لقربهم من سلالة الرسول وبالتالي فبنو اسرائيل هم أعلى شأنا من العرب القحطانيين لأنهم أقرب من نسب محمد".

ويضيف أحمد بناني بأن الكرم والشرف لا يرتبطان فقط بالنسب أو بالمجموعة التي ينتمي إليها الفرد ولكن بقيمته الشخصية وبعلمه واحترامه لتعاليم

الإسلام ويؤكد بأن الكرم يتجذر في طبيعته الخاصة "بـالعمل الصـالح، وبالنسـب الصالح، وبصلاة الفرائض"*.

أما على مستوى الأنساب فإن الأبناء يمكن أن يشرفوا أو يعظموا آباءهم في نفس الوقت الذي يمكن فيه للآباء أن يعظموا أبناءهم(62). ثم يستعيد ثانية نفس دلائل ميارة ضد الأندلسيين. إن تضخم "أعلاميات" هؤلاء والتي كان الهدف منها استذكار الأصول والهجرة العائلية، هو مشين بالنسبة للبلديين، أهل فـاس الذيـن يعوزهم النسب. ويصرح أحمد بناني بأن أنساب إشبيلية وطليطلة ومالقا ورنـدا وغرناطة وبلنسية ليست محط احترام لأنها ليست متجذرة في الإسلام(63).

لكن الشيء المثير في كتاب "التحلية" هو أنه في نهاية القرن 18م ظلت هـذه الدلائل سارية المفعول، وإن هذه القضية ظلت مهمة وحيوية، وهو دليل قاطع علـى أن التمييز الاجتماعي إزاء "البلديين" ما زال قائما.

على أي فإن نصوص ميارة وبناني تدفعنا إلى استنتاج أنه إذا كان الصـراع الاقتصادي قد استعمل ضد الشرفاء وضد مصالحهم وهيمنتهم على بعض القطاعات الاقتصادية، على العكس من ذلك فإن النزاع حول الأصول قد استعمل خاصة ضـد الأندلسيين (لم يكن هناك سوى عدد قليل من التجار الأندلسيين).

لقد كانت للسلالة وللنسب الشريف أكثر من مكانة، جعلـهما مـن الأمـور المحبوبة والمرغوب فيها. يندرج الجـدل الـذي أثـاره "البلديـون" فيمـا تسـميه الأسطغرافية الاستعمارية الفرنسية بـ"أزمة الزوايا" واكتسب معنى خاصـا علـى ضوء التأويل التي قدمها Cliford Geerz لهذه الأزمة في كتابه: « islam abserved, religious development in Marocco and Indonesia », Chicago – Londres, 1968. فقد شهد القرن XVII حسب Geertz ، نوعا من الاسـتقرار الاجتمـاعي والثقـافي لحركة الزوايا بالمغرب والتي نتجت عن اندماج التصور السلالي للولاية مع ذلـك الذي ترخص به المعجزات. فبالنسبة لهذا الباحث فـإن وصـول الأسـر الشـريفة

للسلطة وخاصة أسرة العلويين، يمثل هيمنة "المنظور السلالي المرتكز على البركة، القائمة هي الأخرى على المعجزة، ورغم كون الزوايا غالبا ما ترافقها المعجزات، فهي تنتقل بشكل ملائم عن طريق الوراثة"(Geertz , op. cit. , p.45.) .

وأمام بزوغ المبدإ التناوبي للولاية والصلاح أو المبدأ التناوبي لشرعية الحكم، فإن "البلديين" سيعملون على إعطاء قيمة لمبدإ القيم عن طريق ممارسة شعائر الدين والقيام بأعمال البر. ومع ذلك فإن مفهوم "السلالة" حظي بمكانة مهمة إلى حد أنهم لم يتمكنوا من فرض قرائنهم وبالتالي اضطروا إلى الأخذ بعين الاعتبار بالمبادئ النظرية لخصومهم ليتوصلوا إلى حجج دامغة يدافعون بها عن أصولهم الشريفة (الانحدار من سلالة الرسول أو التقليل من أصول خصومهم الأندلسيون).

إن جاك بيرك في المقال الذي سبق أن أشرنا له في بداية هذا العمل، أشار إلى التزامن بين اللحظة التي حدث فيها هذا الجدل (بداية XVII) وبين وصول الموريسكيين المطرودين من إسبانيا إلى بلاد المغارب. ويقترح بأن الشعور بفكرة "صفاء الدم" هي من سمات المجتمع المتعدد الإثنيات، والتي عاشها الموريسكيون وعانوا منها، إذ نقلوها إلى مجتمعات الاستقبال.

إن الفكرة مثيرة في حد ذاتها ولكنها قليلة الاحتمال، فالموريسكيون عند وصولهم إلى المغرب سنة 1610 ، كانوا في الغالب من الفئات الدنيا من المجتمع وعلى مستوى أدنى من الثقافة بل يجهلون حتى اللغة العربية، ولم يحسن المغاربة استقبالهم حيث استقروا خاصة على الساحل، ويبدو من الصعب قبول فكرة تأثيرهم الآني على الثقافة والإيديولوجية المصطنعة للمجتمع الفاسي. وكما رأينا فإن مسألة الأصول كانت مهمة في فاس منذ القرن XV وظلت قائمة إن كانت بشكل غير حاد.

إن الذي ميز الأندلسيين المهاجرين إلى المغرب طيلة القرنين XV - XVI هي أنفتهم وفخرهم بنبل شرفهم وهو انشغال يقتسمونه مع باقي سكان شبه الجزيرة الإيبرية الذين كانوا مهووسين طيلة هذين القرنين بمفاهيم الأصل والسلالة وصفاء الدم، ولم

تكن هذه هي الخاصية الثقافية الوحيدة المشتركة بين المسلمين والمسيحيين في شبه الجزيرة. وقد وجدت هذه الوساوس مجالا خصبا في فاس مع صعود نخبة اقتصادية وسياسية من الشرفاء وهذا لا يعني ان الأندلسيين لم تطلهم خصومة وعداوة باقي الفرقاء الاجتماعيين وهذا إلى حد أن الافتخار بوطنهم آلام وصف بالحاد و الزندقة.(64).

إن أسس النفوذ في فاس لها جذور في أسطورة الأصول (أصل عربي، أصل شريف) وهي أسطورة استعملت هنا كعنصر للدعاية في سياق سوسيو-سياسي من الصراعات العرقية، من طرف الفئة المهيمنة.وكان النظام الاجتماعي في الأندلس يتحكم فيه تقسيم اثني (عرب ، إيبريون، رومان، بربر ويهود) وكل عرق كانت له مكانة في مجتمع مهيكل ولا يسمح إلا بقليل من الحركية. وكنتيجة لهذا فإن أسطورة الأصول أو أساس النفوذ حول الأصول كان له دور كبير كما يجب أن يكون في مجتمع مكون من مجموعات إثنية مختلفة ومتراتبة، مجتمع مقسم أفقيا أكثر مما هو عمودي(65). وهذا هو حال إسبانيا المسيحية في القرون الحديثة الأولى حيث أول هيكلها في إطار منظومة من "الطبقات" ذات الأصول العرقية - الدينية(66).

ويمكن أن نفسر الاهتمام بنفس القضايا في كل من فاس وشبه الجزيرة الإيبيرية بالخصائص المشتركة التي ألفت بين هيكلة هذه المجتمعات. لكن إذا كانت قضية الأصول تعلل التمييز الاجتماعي وتستعمل كأداة للدعاية للمجموعة المهنية اقتصاديا وسياسيا، فإن نفس القضية لا يمكن أن تعلل التمييز القانوني. وبالعودة إلى الجدل وخاصة في كتاب "الذكر" المليء بالأحداث ذات دلالة وبنماذج تحقيرية الهدف منها تبيان كون المسلمين ذوي الأصول اليهودية هم أناس مرتشون ومحتالون ومتآمرون على الإسلام. وحسب أقوال جاك بيرك "فإن هذه الأحداث تتطابق مع أسطورة التمييز التي ادعتها أغلبية لتفرض نوعا من الهيمنة الاقتصادية"(67) وهيمنة بعض المهن التي تعتبر من المهن النبيلة والمربحة.

وبأنه لا يمكن الادعاء بالتمييز الطبقي بصورة قانونية، فإنه يتم اللجوء لبعض القرائن المستوحاة من الماضي البعيد، "لقد سمعوا عن آبائهم وعن أجدادهم" حول الخاصية الأخلاقية لقطاع من الهيكل الحضري وذلك في وجه اتجاهات رجال القانون المدافعين عن المساواة في ممارسة الأنشطة الاقتصادية مع إبداء نوع من التحفظ إزاء هذه المسألة.

إن الصراع من أجل الاستحواذ على القيسارية الذي بدأ مع القرن XV ، وعلى قطاع حيوي، هو تجارة الأثواب النفيسة وأثواب الاستيراد، قد تأرجح كلما زاد استعمال هذه الأثواب وزاد حجم الاستيراد الأوروبي.

وابتداء من منتصف القرن XVII وبالضبط مع انتقال السلطة للأسرة العلوية، ورغم استمرار بعض الممارسات العنصرية بشكل رمزي(68)، فإن المسلمين من أصل يهودي سيلعبون دورا كبيرا في حياة المدينة(69) في الوقت الذي قل فيه دور الشرفاء. استمرت الصراعات والنزاعات ولكن بشكل خفي وحاولت السلطة المركزية – كما في باقي الفترات – تأجيجها أحيانا من أجل تكسير هذه الجبهة المعادية في المدينة. وهذا حال المولى إسماعيل الذي أرسل رسالة سنة (1130هـ / 1718م) إلى أهل فاس يطلب منهم المساعدة من أجل تجنيد فرق وبالمناسبة أشار إلى تفوق المسلمين الجدد من أصل يهودي الذين كانوا يسمون آنذاك "بالبلديين" وحاول إثارة أهل فاس ضدهم : " إن الأندلسيين واللمطيين هم بحق أهل فاس الفعليون أما الآخرون فليسوا سوى "دجاجا أبيض" هذا دون الحديث عن آخرين دون أهمية مثل "البلديين" إنكم اليوم اصبحتم صامتين وتخفون رؤوسكم، وعدتم إلى حرفكم وزراعتكم وتركتم اتخاذ المبادرات للبلديين. كم منكم يزرع حقلا مقداره 400 أو 600 مثقالا ليبيعه بعد ذلك للبلديين ! لقد قبلتم بوضعية الخنوع والجمود والإهانة ..."(70).

كان المولى إسماعيل متميزا هذا إضافة إلى أسبابه الشخصية التي دفعته لمقت "البلديين" نظرا لدورهم في الجدل القائم حول موضوع الحراطين في فاس،

هذه القضية (التي لن نتناولها الآن) ظهرت للواجهة لما حاول السلطان تجنيد كل حراطين فاس بالقوة لكنه لقي معارضة كل مكونات المدينة وعلى رأسهم العلماء الذين استندوا في ذلك إلى دلائل قانونية ودينية.

اتخذ السلطان القرار التالي: بما أن الحراطين هم عبيد، يمكن أن يتصرف فيهم كما شاء، إلا أن العلماء في فاس أكدوا على أنه بالرغم من أصولهم، فإنهم ولدوا أحرارا، ومعاملة المسلمين الأحرار كعبيد يحرمه الشرع. وقد كان على رأس العلماء المدافعين عن قضية الحراطين، أحد البلديين، المسمى ، سيدي عبد السلام جسوس الذي أصدر فتوى في هذا الموضوع وعارض السلطان شخصيا في مناسبة ظلت خالدة. وقد زج به في السجن بمكناس وحكم عليه بالإعدام بأمر من السلطان سنة 1708 (71).

إذن يتعلق الأمر من جديد بمدينة فاس بقضية الأصول وبمسألة التمييز بين المسلمين وليس غريبا أن يتزعم أحد البلديين هذا الصراع حتى وإن غامر بحياته وأن يجسد هذه الحركة الدفاعية ويعبر عن "المواطنة" الفاسية.

البلديون : شريحة اجتماعية

لقد تضمنت المصادر الأوروبية المعاصرة إشارات متعددة حول هذه الفئة الاجتماعية التي ظهرت في فاس خلال قرون خلت وخاصة في مصادر القرنين 17 و18م والتي تزامن تفوق وهيمنة هذه الفئة اقتصاديا واجتماعيا. فقليلا ما أغفل المسافر أو السفير أو الأسير في كتاباته حول المغرب، الحديث عن هذا الموضوع(72) فعلى سبيل المثال نشير هنا إلى ما كتبه القنصل شنيي "توجد بين الماوريين واليهود المشكلين للساكنة المغربية، طبقة وسطى، وأعني بها طبقة المرتدين الذين انسلخوا عن دينهم لاتباع دين محمد، ضمن هؤلاء الرعايا يوجد عدد كبير من اليهود الذين لم يعرهم الماوريون أي أهمية ونفس السلوك عبر عنه اليهود إزاء هؤلاء. فالمرتدون لا يتحالفون إلا فيما بينهم فكما في إسبانيا، فالمسيحي

الأصيل لا يزوج ابنته من مسيحي مهتد إلى الدين الجديد. كما أن الموري من أصول قديمة لا يرغب في المصاهرة مع المرتد.

كان عدد العائلات اليهودية المرتدة كبيرا حيث كانوا يسمون بالتورناديس (Tournadis) وهم غير مختلطين بالموريين ولم يدنس دمهم ...(73).

إن مصطلح "تورنادي" ليس إلا الكلمة القشتالية "Tornadizo" حسب شنيي والتي استعملت في إسبانيا خلال هذه الفترة للدلالة على الاحتقار الذي طال المرتدين وخاصة اليهود منهم.

إن استعمال هذا المصطلح الإسباني التحقيري في مدينة فاس إزاء هذه المجموعة من المسلمين له أهميته، ووجود هذا المشكل المتعلق باليهود الذين أسلموا (رغم البعد والخاصية المختلفتين) في ضفتي المضيق في نفس الفترة، كان بديهيا بالنسبة لبعض معاصريه. وكيفما كان الحال فإن الحقد الذي يكنه المسلمون الأصليون إزاء هؤلاء المسلمين الجدد – حسب المصادر الأوروبية – ليس إلا إسقاطا لمشاعرهم الشخصية، ولا يمكن أخذه بحذافره. ونفس هذا الحقد إزاء المرتدين، شعر به أفراد الجالية اليهودية ذات الأصل الإسباني بالمغرب، التي أحست بدون شك بمسألة الردة (لايوجد أي"بلدي" أو "مهاجر" من أصل إسباني) والتي ربما هي التي أدخلت هذا المصطلح (Tornadizo).

وهناك قضايا أخرى تحدث عنها شنيي وأكدتها العديد من المصادر، وخاصة زواج الأقارب، أو السكن في حي واحد في المدينة (فندق اليهود) والتي تساهم في خلق جو من الوئام بين أفراد "البلديين" وتبين استمرارية أسماء بعض العائلات في المدينة على مدى قرون والتي سنتحدث عنها بعد حين.

إن التحام الجماعة يعضده نوع من التعاون الداخلي والذي تشير إليه العديد من المصادر(74)، فعلى المستوى الاقتصادي، لا يشكل المسلمون الجدد مجموعة متجانسة، فضمن فئة الحرفيين نميز بين إسكافيين ومالكين لدكاكين(75)

في حين يتعدى عدد التجار الأغنياء النسبة العادية من بين المجموعات الحضرية الأخرى(76).

وبديهي أن لا يقبلوا هذا التمييز الاجتماعي الذي تختلف درجة حدته من فترة أخرى، ورغم محاولة البعض إخفاء أصوله أو البحث عن أصول أخرى، فيبدو أن الوسيلة التي اختارها البلديون الأغنياء للحصول على مكانة شرفية هي الدين والعلم، فهذه الفئة تضم بين أفرادها رجال قانون متميزين ومثقفين، ورجال دين، فهم حسب قول بناني "أهل الدين والعلم"(77). إن ابن سودة وكوركوس(78) وغيرهما، يقدمان لائحة مستفيضة عن أسماء العائلات الفاسية التي اشتهرت بالعلم والتجارة وهي من العائلات المسلمة – الجديدة – نذكر من بينها : عائلات: بنيس، بناني، لحلو، جسوس، كنون، بن زكري، برادة، بن شقرون، بن زاكور، بن كوهين، ميارة، بن جلون وغيرها. فهذه العائلات وأخرى أقل أهمية، نجد لها ذكرا في فاس منذ القرن XV وحتى قبل هذه الفترة، كما هو حال عائلة، علي بن الحاج بن شقرون، قائد القصبة في فاس على عهد السلطان المريني أبو الحسن المتوفى عام 772 (79). وعلى عهد محمد الشيخ عائلة ابن شقرون قائد الحرس في فاس(80).

تظهر أغلب هذه الأسماء في التقارير الاستعمارية الفرنسية التي تعود لبداية القرن، ضمن لائحة أكبر تجار رجال الأعمال في فاس(81). كما تضمنت المناقب السعدية والعلوية أسماء العديد من رجال التصوف والفقه والعلم(82)، فبيوغرافيتهم تحمل معلومات عن أنشطتهم الاقتصادية ("كان يملك دكانا في سوق العطارين")(83).

ولابد من الإشارة إلى وجود أحد "البلديين" الذي شغل منصب "أمير الركب" في موسم الحج السنوي إلى مكة وهو منصب مهم بالنسبة للعمليات التجارية المغربية الدولية(84).

إن كل هذه العائلات السابقة الذكر تضم شخصيات من رجال العلم والفقه لكن العائلة الأحسن تمثيلا هي عائلة بناني التي خلفت عددا من رجال الفقه، فالمعلمة الإسلامية (E.I) تتضمن أسماء سبعة فقهاء من هذه العائلة ما بين منتصف

القرن 18 وبداية 19م هذا دون احتساب سفير وولي فـــي نفـــس الفـــترة(85). وقـــد استطاعت هذه الفئة أن تتبوأ مكانة اقتصادية وثقافية هامة رغم التمييز الذي طالـــها وخاصة بعد وفاة المولى إسماعيل (1139هـــــ / 1727م) وقـــد وجـــد البلديـــون الظروف الملائمة للظهور كفئة لها تأثيرها في المدينة على حساب الشرفاء وبعـــض الزوايا. وقد استطاعوا في النهاية أن يؤثروا سياسيا إذ أن أحد أفراد هذه الفئة وهـــو الطاهر بن جلون سيلعب دورا متميزا في الثورة ضد السلطان المولى سليمان ســـنة 1235 – 1236هـــ / 1819 – 1820م(86).

الهوامش:

1 — ليس هناك تقريبا أي دراسة تغطي فترة تمتد من الفترة المرينية التي درسها لوتورنو « Fès in The age of The Meinides oklahoma, 1961 والفترة التي سبقت الحماية والتي درسها نفـــس المؤلـــف: Fès avant le Protectorat, étude économique et sociale d'une ville de l'occident musulman, Casablanca 1949 . لم أتمكن من الاطلاع (بالنسبة لهذا المقال) على أطروحة أ. محمـــد مزين، فاس وباديتها، مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549 – 1637 ، في مجلدين وهو من منشـــورات كلية الآداب – الرباط 1986. وسوف تتم الإشارة في الصفحات المقبلة للمقالات الجيدة للباحث : Cigar

+ une lettre inédite de my Smaïl au gens de Fès, H.T V, 1974, p. 105-118.
+ Sociètè et vie politique à Fès sous les premiers alwites (1660-1830), H.T, VIII, 1978 – 79 , p. 93 – 172.
+ Conflit and Community in an urban milieu ander the Alawis, Maghreb Review 3, 1978 , p.3 – 13.
+ Socio. Economic structures and the development of an urban Dourgoisie in pré-colonial Morocco, Maghreb Review, 6, 1981, pp. 55 – 76.

وستتاح لي الفرصة للإشارة للباحث J.S.Gerber

- Jewish society in Fés (1450 – 1700) Studies in communal and economic life, leiden 1980.

2 — M. Kably, Socoètè, pouvoir et Religion au Maroc à la fin du moyen – àge, Paris, 1986, p. 293.

3 — إنني بصدد تهييئ منوغرافية حولهم أنظر على سبيل المثال:

Les Andalusies enel ejercito sâdi : un intento de golpe de estado contre Ahmed el Monsour el-Dahbi (1578), Al qantara, V, 1984, 169 – 202.

4 — "إسلامي": هو الاسم العادي بالنسبة لليهود الذين أسلموا، أما "مهاجرون" هم الذين هاجروا وهـــو اســـم تحقيري أعطاه اليهود في فاس لرفقائهم الذين أسلموا. أما مصطلح "بلدي" الذي ظل مستعملا فهو أكـــثر

شرعية . وقد أدمج بن سودة في مقاله حول العائلات الفاسية – اسم "البلديين" تحت اسم "أهل فاس"، أنظر مجلة البحث العلمي ، عدد ، 22 ، 1973 (عدد 23 – 1974) – (عدد 25 – 1976).

5 – N. Cigar , H.T. , 1978 – 79, op. cit.

6 – أنظر بن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1960 ، المجلد I ، ص. 116.

7 – ليفي بروفنصال، مؤرخو الشرفاء باريس 1922 ، ص. 258 ؛ ابن سودة، دليل ... ، المجلد I ، ص. 111.

8 – ابن سودة، دليل، المجلد I ، ص. 84 أقدم شكري للأستاذ Cigar الذي مكنني من استعمال الميكروفيلم بالنسبة لهاتين النسختين، وهناك مصادر أخرى حول البلديين لم أتمكن من الاطلاع عليها:"نتيجة الاختصار من دسائس الانتصار" لعبد الحفيظ بن المجذوب الفاسي (المتوفى 1295 / 1878)، يوجد هذا المخطوط بالمكتبة الزيدانية بمكناس والتي اشترتها الخزانة الملكية لكنني لم أجد هذا المخطوط بهذه الخزانة. وحسب بروفنصال (مؤرخو الشرفاء) ص. 378 فقد ألف عمر بن الطاهر بن إدريس الكتاني (متوفى 1309 / 1891 – 1892) كتابا حول العائلات الفاسية التي أسلمت "تأليف في من أسلم من أهل فاس".

9 – S.W. Baron, Social and Religions History of the Jews, N.york 1975, Vol.III, p. 96,111.

10 – أنظر على سبيل المثال:

* Goldziher, Saîd ibn Hasan d'Aleandrie, R.E.J 30, 1895, p.1 – 25.

أو

* Weston (S.A) , J.A.O.S, 24, 1903, p. 213 – 383
* Perlmann (R.M), Abd-al-Haqq al-islami, a Jewish couvert, Jewish quarterly Review, 3,1940 –41, p.171 – 191.

حول الإسلاميين من مدينة سبتة

* Stilmann (N.A) the Jews of arab lands philadelphia, 1979, p. 229-232.

الذي أعاد نشر بيوغرافية أحد اليهود الذي أسلموا وهو راهب من فاس خلال القرنXII ، وهي شهادة حية.

11 – H.Z. Hirschberg, A histouy of the Jews in North Africa (Leiden 1974), VolI, p.191 . يوجد في بلاد المغارب، تقليد تاريخي يتعلق بقبائل بربرية يهودية :

- H.Z. Hirschberg, The problem of the Judaized berbers, J.Af.H , IV, 3 , 1963,p.329.
- Norris, (H.T), Sahara myth and Saga, Oxford 1972, p.48 et 99, infra n°12.

– إن المشكلة في المغرب وإسبانيا الإسلامية وانعاكاساتها على الطبقات الحرفية والتجارية، تناولتها باقتضاب:

Shatzmillar "Profession and Ethnjc origin of urban Labourers in Muslim spaïn : Evidance from a Moroccan Source", Awraq, 5-6, 1982, p.149 –160.

وحول الأندلس أنظر:

Chalmeta, Le passage à l'islam dans Al-Andalus du X°, Actas del XII Congresso de la V.E. A.I, Malaga, 1984 الذي ترجم وثيقة تخص أحد اليهود الذين أسلموا.

– حول الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع أنظر:

- Bulliet (R), Conversion to Islam in the Medieval period, Londres, 1979.
- N. Levtzion, Conversion to islam , N.york, 1979.

لكنها تتناول بشكل واضح قضية اليهود – ورغم أن الحالات المتعلقة بدخول اليهود للإسلام كثيرة في بلاد المغارب والتي توجد بشأنها وثائق متعددة، فإن هناك حالات كثيفة في الشرق.

N.A. Stilmann, the Jews of arab lands, p. 247.
N.A. Stilman, Forced conversion of the Jews of Aden, p. 249.

12 — أنظر على سبيل المثال: الونشريسي، المعيار، II ، ص. 354.

13 — يتحدث Diego de Haedo عن تجار الجزائر في ص. 93 وعن الممارسات التي كان يتعرض لها اليهود، ص. 113.

- Topografia e historia general de Argel (Valladobil) 1602, reedit, Madrid 1927.
- L. del Marmol, Description general de Africa, Granada, 1573, I, 11, 160, II, 217
- F. San Juan del Puerto, Mission historial de Marrocos, Sevilla, 1708, p.37.
- Jeronimo de Mendoça, Jornada de Africa, Lisboa, 1607, II, p. 65.
- G. Gomez de Losada, Escuela de TrabaJos en Cuatro libros dividida, Madrid, 1607, p.237-238.

14 — Hirschberg, A history of the Jews in N. Africa, I, 193 –196.

15 — في الواقع هناك ترخيص على مستوى الهجرة والتمييز على مستوى اللباس (giyàr) بالنسبة لأولئك الذين لم يهاجروا أو لم يقبلوا بالإسلام دينا.

- De Corcos, the attitude of the Almohadic rulers, Jowards the Jews, Zion XXXII, 1976, p.123-160. Inclus dans Studies in the history of the Jew of Morocco, Jerusalem 1976.
- Halkim (A), Letoldot ha-shmad be-yeme ha-almowahidun, the Joshua stan Memorial volume (N.York, 1953, p.101-110.
- N. Roth, Some aspects of Muslim-Jewish relations in Spaïn ». Estudios en Homenaje a.D. claudio Sanchez Albornoz, Anejos de cuadernos deHistoria de Espana, Vol II / Buenos-Aires 1983) p. 179 – 214.

16 — أنظر: J.S. Gerber, op. cit., note (I) p. 24.

17 — أبو محمد عبد الواحد المراكشي، كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب" نشر R.Dozy (الطبعة الثانية امستردام 1968) ص.223. الترجمة الإسبانية – A. Huici, Tetouan 1955, p. 251.

18 — Hirschberg,...op. cit. , I , p. 356.

19 — - D. Corcos , the Jews of Morrocco under the Merinids, studies in the history of the Jews of Morocco (Jerusalem 1976)p.54.

20 — أنظر على وجه الخصوص رخصة الهجرة التي منحت سنة 1247 ليهود سجلماسة:

- J. Regné "Catalogue des actes deJaïmé I, Pedro III et Alphonse III, Rois d'Aragon Concernant les juifs (1213 – 1291) R.E.J, LXIV, 1912, docts n° 36 et 847.

21 — - D. Romano, « Conversion de Judios al Islam (Corana de Aragon, 1280 – 1284), Sefarad, XXXVI, 1976, p. 333 – 337.
- W.C. Stalls » Jewish Conversion to Islam : the perspective of à Quaestio" Rivista Espanola de Tealogia, vol 43, 1983, p. 235 – 251.
- ch. Verlinden, L'esclavage dans l'Europe Médiévale, Vol. I, Bruges 1955, p.536.

22 — Hirschberg...op. cit. , vol. I, p. 370.

لم أتمكن من الاطلاع على مقال:

Shatzmiller, « An ethnic factor in a Medieval social revolution, the role of the Jewish courtiers under the Merinids" AZIZ Ahmad Fetschrift.

لقد كانت هناك دون شك ضغوط من أجل دخول اليهود في الإسلام كما يشير إلى ذلك ابن مرزاق كغيره من المؤرخين. Ibn Marzuk, « El Musnad » Hechos memorables de Abù-al Hasan de los benimerines, Etude, traduction espagnole et notes, M° Jesus Viguera (Madrid) 1977,p.315.

23 — D. Corcos, « Jews of Morocco" Studies, p.58.

24 — H. Terrasse, Histoire du Maroc, Vol II (Casablanca) 1950, p.30.

25 — Hirschberg, op. cit., p. 389 et D. Corcos, Les Juifs du Maroc et leur mellahs, Studies, p. 73 et suiv.

26 — - J.Caille, la ville de Rabat, Paris 1949, I , p. 323 – 324.
- Brunot, Topographie dialectale de Rabat, Hesperis 1930, p.10-11.
- Paquignon, « quelques documents sur la condition des Juifs au Maroc, Revue du Monde musulman, IX, 1909, p. 112 – 115.

27 — ابن السكاك، نصح ملوك الإسلام، الطبعة الحجرية، فاس، دون تاريخ، ص. 3 أنظر:
- M. Kabley, Société , pouvoir Religion au Maroc…p.321.
ويتحدث De Haeds عن نفس الشيء، الكتاب I ص. 167 ، أنظر كذلك:
- A. Sebti, sharifisme citadin, charisme et historiographie, A.E.S.C., 41, 2, 1986, p.433 – 451.

28 — إن جماعة المسلمين من أصل يهودي في مدينة فاس ستتوسع مستقبلا كلما حلت كارثة بجماعة اليهود أنظر على سبيل المثال: G. Vajda, un reweil de textes historiques judeo-marocain , Hesperis 1948 et 1949.
— خلال المجاعة التي أتت على مدينة فاس خلال سنوات 163 — 1606، بلغ عدد الضحايا من اليهود حول 3000 شخص وأكثر من 2000 ارتدوا (p.327, 1948). وخلال مجاعة 1723 ، ارتد حوالي ألف شخص من كل الأعمار (1949, p.162).

29 — "الذكر" ص. 467 — 470.

30 — "الذكر" ص. 471.

31 — " ص. 472.

32 — تحويل الفلس إلى الدرهم والعكس. مهن الحلاقة، الجزارة، بيع الحليب، النجارة، الخزارة، الدباغة، الصباغة، بيع خيوط القنب. داخل هذه الجمعيات المهنية، كان على المهاجرين الانخراط بشكل فردي.

33 — "الذكر" ص. 473.

34 — "الذكر" ص. 473 — 474 أنظر كذلك / M. Garcia – Arenal, the revolution of Fès in 869 1465… » B.S.O.A.S, XLI, 1978, p. 42 – 66.

35 — "الذكر"، ص. 475.

36 — ميارة، النصيحة، ص. 2 — 4.

37 — "النصيحة"، ص. 5 — 8.

38 — "الذكر"، ص. 476.

39 — أحمد بن محمد الحباك (ص.10)، عبد الواحد الونشريسي (ص.11)، محمد الياستني(ص.11) عبد الوهاب الزقاق (ص.12) عبد الله محمد القري (ص.12) عبيد الله بن موسى بن هارون(ص.12) عبد الله محمد بن يحى (ص.12)، عبد الرحمان بن بن أحمد الوقاق (ص.13)، عبد الله بن العافية (ص.13) أحمد التسولي (ص.13) أبو علي حرزوز (ص.17). كل هولا يرجعون للقياس ويعتمدون على القرآن والحديث ويتحدثون عن شخص صديق للرسول هو عبد الله بن سلام وزوجته اليهودية من قبيلة بني قريضة، إن الاعتماد على القياس يبين ضعف القرارات القانونية حسب أعدا المهاجرين.

40 — النصيحة، ص.11.

41 — النصيحة، ص. 17 — 19.

42 — Michaux-Bellaire, - G. Salmon, « El Ksar el kebir", A.M.II, 1905, p. 224.

43 — يشيران إلى عائلات من أصول يهودية في مكناس، تشتغل في الزراعة، وأسلمت خلال VIeهـ ، على يد سيدي بوأحمد.

44 — ابن عسكر، دوحة الناشر، الترجمة الفرنسية.A.Graulle - « A.M, XI, 1913, p.96 »

45 — "الذكر" ص. 482.

46 — النصيحة ، ص. 25 — 27، محمد حجي، الحركة الفكرية في المغرب في للعهد السعدي، الرباط، 1976 ،ج.I، ص. 332.

47 — "الذكر" ص. M. Fierro, El principo maliki « Sadd al –dhara"il », Al-qantara, 2,487 1981, p.69-88.

48 — الإفراني، نزهة الحادي، الترجمة الفرنسية، هوداس، باريس 1889، ص. 173 من النص العربي.

49 — أحمد بابا، نيل الابتهاج الذي نشر على هامش الديباج لابن فرحون (بيروت ، دون تاريخ)، ص. 263.

50 — "الذكر" ص. 489.

51 — إن السيرة الذاتية لأبي عبد الله محمد بن أحمد ميارة (999 / 1591 — 1072 / 1661 — 1662) توجد ضمن كتاب "نشر المثاني" ترجمة ميشو بلير، الأرشيفات المغربية، عدد 24 ، 1917 ، ص. 123 — 126 وفي كتاب "سلوة الأنفاس" للكتاني، فاس، 1898 ، الجزءI ، ص. 165 — 167.

52 — أنظر محمد حجي، الحركة الفكرية، ص. 210 — محمد الطيب الدلائي ابن أخ السلطان محمد الحاج الدلائي كتب هو الآخر تقريرا للإشادة بميارة ومؤلفه (مخطوط خ.ع. k.923) من خلال حجي، الحركة...، ص. 209.

53 — القادري، نشر المثاني (الخزانة الملكية بالرباط Ms. 1418) صفحات بدون ترقيم والتي لا تظهر لا في الطبعة الحجرية بفاس ولا في النص الذي نشره Cigar (لندن 1981) والذي استمدنا منه هذه الإشارة.

54 — النصيحة، ص. 48.

55 — النصيحة، ص.50.

56 — " ، ص. 51.

57 — هذه الحالة تتعلق بالأندلسي محمد الجعيدي، أنظر Cigar, Société et vie politique à Fès, p. 103 n°15 أو البلدي عبد الله محمد كنون حسب عبد الحفيظ الفاسي، الرياض المدهش، الربـاط 1932 ، ص.50، ولنفس المؤلف، رياض الجنة، فاس، 1350 ، ص. 168.

58 — أنظر إحالات هامش (53).

59 — محمد حجي، الحركة الفكرية...ص.209.

60 — حسب الكتاني، سلوة الأنفاس، ج.I ، ص.160، كتب أبو عبد الله محمد بن الحسن بنـاني (1194 / 1780 (وفاته) في "حماشة" عن أفكار ميارة وبن زكري وناقش عددا من القضايا وخاصة هيمنة العجم على العرب.

61 — بناني، التحلية، ص. 28 – 29.

62 — " " ، ص. 29 – 31.

63 — " " ، ص. 37 – 39.

64 — حسين مؤنس، أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى و لم يهاجر لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي. Rivista del instituto Egipcio de Estudios islamicos, IV, Madrid, 1957, p. 129-191.

65 — - Shat zmiller, le mythe d'origine bérbere, aspects historiographiques et sociau, R.O.M.M, 35 , 1983 / 1, p.145 – 156.
- J.T, Monrol, the shu'ubiyya in Al- Andalus, Berkeley, 1970.

66 — حسب تأويل: Americo Castro, la realidad historica de Espanà Mexico 1945 et Espanà en Su Historia. Cristianos, moros y Judios, réed. Barcalone 1983 – Voir aussi T.F. Glick, the Eshnic systemes of fremodern spain" Comparative stuparative Studies in Socialogy, I, 1978, p.157 – 171.

67 — J. Berque, Des « Mananos » musulmans à Fès, p.131.

68 — كان للتجار – المسلمين الجدد – خلال القرن السابع عشر، علاقة تميزهم وهي وضع قطعة مـن درة لتدعيـم دكاكينهم ويبدو أن هذه العلامة ظلت قائمة إلى حدود نهاية حكم المـولى إسمـاعيل، أنظـر "الذكـر" ص. 491.غير ان المولى رشيد (1664 – 1672) هو السلطان العلوي الذي أعاد إدماج المهاجرين في القيسـارية، فحسب"الذكر" ص. 482 قدم المهاجرون هدايا من ثياب الحرير وقطع ذهبية لفاطمـة بنـت أعـراس الـتي توسطت لهم لدى السلطان وبينت له نواياهم.

69 — "الذكر" ص. 491.

70 — N. Cigar, une lettre inédite … H.T. V, 1974, p. 117.

71 — - Aziz Abdallah Batran, the' ulama of fas, My Ismaïl and the issue of the Haratin of fâs » Slaves and Slavery in Muslim Africa, vol. II, the servile Estate.
J.R. willis (ed). Londres 1985, p. 1-15, voir aussi, N. Cigar, socété et vie politique- , p.153-155 » le cas des Harràtin ».

72 — صرح مويط في "وصفه لمدينة فاس البالي"، بأن المدينة أسست من قبل المولى إدريس الذي اشتهر بصلاحه فقـد أرغم عددا كبيرا من اليهود على اعتناق الإسلام (S.I.N.M, France II, p.183).

73 — - L. de chenier, Recherches historiques sur les maures et Histoire de l'empire du Maroc (Paris, 1787) vol.II, p.130.

74 — يتحدث صاحب "الذكر" ص. 487 عن حالة إسكافي "مهاجر" هو ابن طاري الذي لم يكن يشغل إلا أبناء مجموعته.

75 — N. Cigar, Société et vie politique..., p. 108 note 33.

76 — G. Mouette , Relation de la captivité du Sr. Mouette dans les Royaumes de Fès et de Maroc (Paris 1683) , p. 74. ، "يقول إن اغلب تجار فاس يهود مرتدون"

- J. Drumond Hay, Journal of an e pedition to the cour of Marrocco in the year 1846 (Cambridage 1848) p.36. "يشير إلى عدد كبير من أسماء أهم تجار فاس، أغلبهم من جنس اليهود".

77 — بناني، تحلية، ص.41.

78 — عبد السلام بن سودة، بيوتات فاس قديما وحديثا"البحث العلمي 22 — 25 ، 1973 — 1976.

- De Corcos, the Jewish of Marrocco under the Merinids, p. 62 – 63.

79 — ابن القاضي، درة الحجال، طبعة علوش، الرباط 1936 ، الجزء II ، ص. 445.

80 — ابن عسكر، دوحة الناشر، الأرشيفات المغربية، عدد 19، 1913 ، ص. 166 — 167.

81 — - Ch. René lederc, le Commerce et l'industrie à Fès, R.C. 1905, p. 229 – 252.

- N. Cigar, « Socio-Economic structures and the development of an urban bourgeoisie in pré-colonial Morocco », p.70.

82 — صلحاء متصوفة أمثال: أحمد بن عبد الغني بن شقرون — الكتاني، سلوة... فاس (1316 / 1898) ج.II، ص.173. — عبد الوهاب التازي (متوفى عام 1029)، السلوة، ج.III ، ص.42.

- محمد بن عبد الرحمان بن زكري (متوفى عام 1144) ، السلوة ، ج.I ، ص. 159.

- سيدي الصالح بناني (متوفى عام 1271) السلوة ، ج.I ، ص. 159.

وفقها ورجال أدب أمثال:

- أبو نعيم رضوان بن عبد الله الجنوي الفاسي (متوفى 991) والذي كان يعد من أكبر العلماء المغاربة في عصره أنظر: Ben cheneb , idjaza ... p.23

+ عبد القادر الكوهن.levi Provençal, les Historiens des chorfan p. 340

- أبو عبد الله محمد بن أحمد بنيس (متوفى 1213) صاحب "فهرسة" أنظر السلوة ، ج.I ص. 204.

- محمد بن الحاج المدني كنون (متوفى 1302) صاحب "الدرر المكنونة في النسبة الشريفة المصونة" ، السلوة، ج.II ، ص. 364.

- خلال القرن XIX نجد حتى بعض البلديين كانوا قضاة في فاس مثل عبد القادر بن شقرون، حميد بناني، وعبد العزيز بناني.N.Cigar, Conflit and Community in an urban milieu ...p.8 et 12

83 — كما هو الشأن بالنسبة لعبد الواحد بناني (السلوة I، ص. 273) أو الحاج عبد السلام برادة (السلوة I، ص.185) .

84 — علي حسوس سنة 1113 ، محمد بن زاكور سنة 1175 — 1176 ، محمد بن حلون سنة 1213 وغيرهم.

85 — E.I2 , art, J. Schacht.

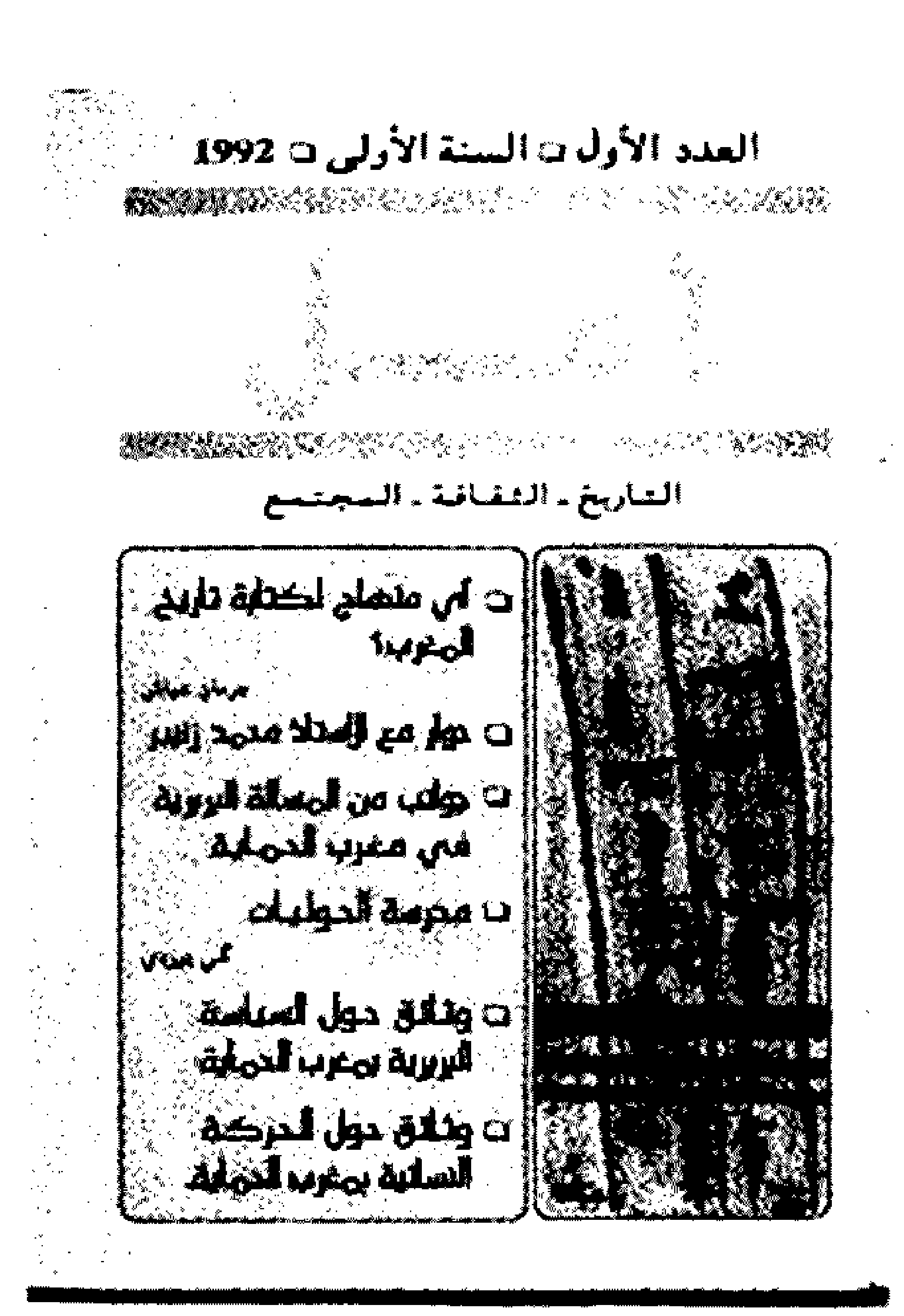
عين أحد أفراد أسرة بناني سفيرا لسيدي محمد بن عبد الله في اسطامبول.

R. Lourido, Relationes del'Alawi Sidi Med Ben Abdallah con el imperio turco, (1775 – 1790), H.T, Vol. XXIV, 1986, p. 231 – 272.

86 — N.Cigar, Conflit and Community ... p.7.

ملفات الأعداد المقبلة

- التعليم والمسألة التعليمية عبر تاريخ المغرب
- الأحزاب والتنظيمات السياسية
  الجذور والامتدادات (2)
- مظاهر الخلل في تدبير وتسيير الشأن العام
  الواقع والتاريخ
- تنظيمة المخزن وأدوارها عبر تاريخ المغرب

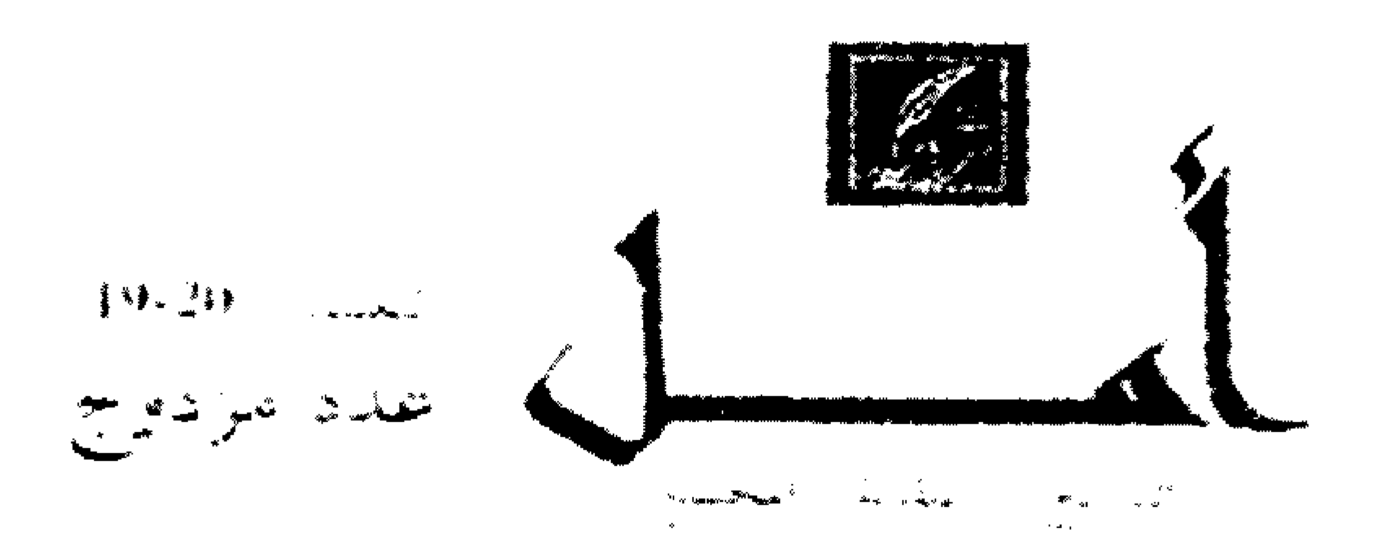

العدد الأول ▫ السنة الأولى ▫ 1992
التاريخ ـ الثقافة ـ المجتمع
▫ أي منهاج لكتابة تاريخ المغرب؟
▫ حوار مع الأستاذ محمد زنيبر
▫ جوانب من المسألة البربرية في مغرب الحماية
▫ مدرسة الحوليات
▫ وثائق حول السياسة البربرية بمغرب الحماية
▫ وثائق حول الحركة النسائية بمغرب الحماية


العدد الثاني ▫ السنة الأولى ▫ 1992
أمـــل
التاريخ ـ الثقافة ـ المجتمع


العدد الثالث ▫ السنة الأولى ▫ 1993
أمـــل
التاريخ ـ الثقافة ـ المجتمع


العدد الرابع ▫ السنة الثانية ▫ 1993
أمـــل
التاريخ
الثقافة
المجتمع
▫ من صور ومواقف بعض شرائح النخبة المغربية عبر التاريخ
(ملف)
▫ العلاقة بين السياسي و"النسائي" في تجربة الحركة النسائية في المغرب


أمل
التاريخ - الثقافة - المجتمع
عدد مزدوج 14/13
حلقات في تاريخ المرأة





نظيمـة الـزوايـا

صدر من منشورات أمل ويصدر قريبا

* محمد الفلاح العلوي : جامع القرويين والفكر السلفي

* مجموعة من الأساتذة الباحثين : بيان يناير 1944 بين مطلبيه : الاستقلال والديموقراطية

* ألبير عياش الحركة النقابية في المغرب الجزء الثاني
ترجمة : نور الدين سعودي

* الفقيه المهدي الناصري الرحلة الزاهرة في أحبار درعة العامرة
دراسة وتحقيق احمد البوزيدي

* كينيت براون موجز تاريخ سلا
ترجمة محمد حبيدة وأناس لعلو

** يصدر قريبا

* ألبير عياش التاريخ القديم لافريقيا الشمالية
ترجمة عبد العزيز بل الفايدة

* نزهة برادة الأنوثة في خطاب ابن عربي